١٠ سنوات على انهيار الاتحاد السوفيتى

روسيا إلى أين؟

د. أشرف الصباغ



إصدارات سطور الخاصة



١٠ سنوات على انهيار الاتحاد السوفيتى

روسيا إلى أين

د. أشرف الصباغ

تصميم الغلاف : الفنان/ **أنس الديب**

بدلاً من المقدمة

أرشيفات الحزب الشيوعى السوفيتى مليئة بالوثائق التى لا تخطر على قلب بشر . ورغم كثرة التحليلات والتوقعات والجهود التى بذلها المحللون والمراقبون فى تفسير انهيار الاتحاد السوفيتى ستظل هذه الفترة محل نقاش دائم لفترة طويلة وربما تستغرق القرن الحادى والعشرين بكاملة .

التاريخ أقوى بكثير مما يتصور الباحثون والثوريون والسياسيون . وهو من فرط قوته لا يحب صيغة المفعول به خاصة إذا كانت هذه الصيغة متعلقة به على نحو أو آخر . هكذا ومنذ ١٠ سنوات بالضبط وقف الاتحاد السوفيتى على مفترق الطرق حينما ولدت أول " إشاعة حقيقية " شكلت الضربة الأولى للمعول الذى أطاح به.

فى المؤتمر العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى والذى عقد فى مبنى الكرملين يوم ٢٥ أبريل ١٩٩١ أعلن السكرتير العام للحزب وأول رئيس للاتحاد السوفيتى ميخائيل جورباتشوف عن استعداده للاستقالة فى حالة إذا ما اتضح أن زملاءه فى المكتب السياسى أكثر مبدئية منه .

وقتها لم يفهم أحد ماذا يعنى جورباتشوف بـ " مبدئية " . فهو السكرتير العام الوحيد للحزب الشيوعى السوفيتى منذ تشكيله الذى كان يتحدث كثيرا من دون أن يفهم أحد أى شئ . وكثيرا ما راهن السياسيون والصحفيون قبل خطبه واقتراحاته على أنه لن يقول أى شئ مفهوم . وكان الرابح هو من يساند هذا الرأى .

فى ٢٥ أبريل ١٩٩١ بدأ المؤتمر العام للجنة المركزية فى ظروف متوترة للغاية : بدأت لتوها اعتصامات عمال المناجم بسبب عدم كفاية الفحم الذى تسبب فى إيقاف عمليات التعدين . وفى موسكو تجرى مظاهرات عارمة للديمقراطيين بقيادة بوريس يلتسين للإعلان عن استعدادهم لانتخابات الرئاسة فى روسيا يوم ١٢ يونيو ١٩٩١ . وفى بداية أبريل ارتفعت الأسعار بشكل لم يسبق له مثيل منذ أكثر من ١٠٠ سنة وعلى الرغم من ذلك ظلت أرفف المحلات خالية من البضائع . فى تلك الفترة أيضا كانت جميع وسائل الإعلام السوفيتية ما عدا التلفزيون قد خرجت من تحت سيطرة الدولة والحكومة والحزب وارتفع عدد الذين سلموا أو مزقوا أو حرقوا بطاقات عضويتهم إلى مئات الألوف . أما الذين بقوا فى الحزب فقد أعلنوا عدم رضائهم عن خطوات ميخائيل جورباتشوف حيث رأوا أن البيريسترويكا قد تحولت إلى ثورة مناهضة للشيوعية . وبدأت الأصوات ترتفع بضرورة تغيير السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى ميخائيل جورباتشوف .

وسط تلك الظروف دعا جورباتشوف اللجنة المركزية لاجتماع يهدف إلى بحث الأوضاع فى البلاد وسبل إخراج الاقتصاد السوفيتى من أزمته . ولكن بعد خطبة رئيس الوزراء بافلوف اتضح للجميع أن الأزمة ليست بالضبط فى الاقتصاد وإنما فى الحزب نفسه وبين قادته .

كانت خطبة بافلوف مقدمة لخطبة أخرى فى غاية الخطورة جرت فى اليوم التالى من المؤتمر حيث قام مندوب إقليم إرقوتسك ساباتشيف أمام اللجنة المركزية وبحضور جورباتشوف نفسه بإلقاء كلمته التى كانت بداية النهاية .

قال ساباتشيف : " قادة البلاد يدفعون بالأمور إلى الخط الأحمر . الركاب يصرخون وسائق القطار أصم مثل طائر القطا الذى يقنعهم - رغم أنه لا يسمع أى شئ - بأن القاطرة تسير فى الاتجاه الصحيح والمأمون والمخطط

له .. يا رفاق " " من وراء ظهر الشعب غيروا اتجاه عقارب الساعة والقطار يسير فى اتجاه آخر غير الذى حددناه عام ١٩٨٥ "

بعد هذه الكلمات هب جورباتشوف غاضبا وقدم اقتراحا للتصويت الفورى بشأن نزع الثقة عن السكرتير العام . وأكد بأنه سيقدم استقالته إذا صوتت اللجنة المركزية ضد نزع الثقة . وكان جورباتشوف قد أعلن قبل ذلك بأيام أنه لا يتمسك كثيرا بمقعد رئاسة الاتحاد السوفيتى .

فى تلك اللحظة أعلن نائب السكرتير العام (أى نائب جورباتشوف) فلاديمير إيفاشينكو فترة راحة يعقد خلالها اجتماع عاجل للمكتب السياسى للحزب .

هنا يتذكر السكرتير الأول للحزب فى موسكو يورى بروكوفييف ماذا جرى فى هذا الاجتماع .

يقول بروكوفييف : " لم يكن الجميع موجودين . كان هناك ٢٠ فقط من ٢٥ عضوا بالمكتب السياسى . ولم يكن لدى أحد من الأعضاء بما فيهم أنا الشجاعة اللازمة للإعلان عما يدور فى رأسه بشأن جورباتشوف . كان الجميع ينتقدوه وعلى رأسهم قادة الأحزاب الشيوعية المحلية لأوكرانيا وأذربيجان ولاتفيا . ولكن الجميع صمتوا تماما فى هذا الاجتماع لإدراكهم عدم إمكانية إقصاء جورباتشوف من خلال المؤتمر العام للجنة المركزية لأنه بدوره كان قد غيّرَ تركيبة الحزب خلال العام الماضى بحجة الديمقراطية بإصدار قرار يقضى بانتخاب السكرتير العام فى مؤتمر عام للحزب وليس عن طريق اللجنة المركزية . وبالتالى خرج جورباتشوف من تحت سيطرة اللجنة المركزية والمكتب السياسى فى آن واحد "

قام قادة الأحزاب المحلية بالالتفاف على اقتراح جورباتشوف بإقصائه عن قيادة الحزب والبلاد . فى البداية قابلوه بالصمت ثم اقترح نائبه إيفاشينكو أن يتنازل جورباتشوف عن اقتراحه . وبعد ذلك صوت الجميع على القرار الآتى : " انطلاقا من المصالح العليا للبلاد والشعب والحزب تقرر رفع الاقتراح بالتصويت على استقالة جورباتشوف من منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى" .

بمجرد انتهاء المؤتمر العام للجنة المركزية انطلقت إشاعة قوية عن مؤامرة قادة الأحزاب الشيوعية المحلية فى الاتحاد السوفيتى ضد جورباتشوف . وعلى الرغم من وجود هذه المؤامرة على أرض الواقع إلا أن الإشاعة ولدت أحداثا حقيقية بدأت فصولها بعد ٤ أشهر فى أغسطس ١٩٩١ وشكلت تحولا خطيرا ليس فقط فى مسار روسيا وإنما على وجه الكرة الأرضية والفضاء المحيط وكان أول هذه الأحداث منع وإلغاء الحزب الشيوعى السوفيتى !

والآن يمر العام العاشر على ما حدث وفى الفترة من ١٩ ـ ٢١ أغسطس الحالى يكون قد مر ١٠ سنوات بالضبط على الانقلاب إلا إن قادة الحزب الشيوعى الروسى سواء الحاليين أو الذين بدلوا مواقفهم ليس لديهم الرغبة فى الحديث عن هذه الأحداث والملابسات . ومع ذلك ومن الهام فى آن واحد أن يأتى الحديث على لسان أشخاص من أبرز الكتاب والمحللين السياسيين الروس الذين شاهدوا أو شاركوا بشكل أو بآخر فى مسيرة روسيا خلال السنوات العشر الماضية .

٥ شهادات

ألكسندر بوفين (كاتب سياسى سفير روسيا الأسبق فى إسرائيل وأحد أكبر دعاة التوجهات الغربية

والإسرائيلية في روسيا)

لعشر سنوات خلت بين ١٩ و٢١ أغسطس عام ١٩٩١ جرت في الاتحاد السوفيتي محاولة انقلاب حيث شكلت مجموعة من كبار قادة الدولة والجيش وال " كي . جي . بي " برئاسة نائب الرئيس السوفيتي جينادي ينايف ما سمي بلجنة الطوارئ التي أخذت في يديها كما تبين لثلاثة أيام فقط كل سلطة الدولة . وقد جرى عزل مؤقت للرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف الذي كان يستمتع بعطلته مع أسرته في شبه جزيرة القرم .

إن قوانين التاريخ هي في الحقيقة قوانين السيكولوجيا. وبهذا المعنى فليس هناك ما يسمى بالمستقبل أو بالماضي . لكن ثمة مواقفنا ووجهات نظرنا فيما مضى وفيما سيأتي . فالسيكولوجيا هنا تتحول إلى تاريخ. الماضي لا يريد أن يرحل ليصبح طي الماضي . فهو يقاوم ويتمسك بنا ولا يريد أن يتركنا وشأننا. ولذا يسرع المستقبل في التقدم نحونا بحيث لا يتسنى لنا التأقلم مع الأزمنة الجديدة. نحن نتحرك نحو المستقبل مع التمسك بأمور كثيرة من الماضي . تلك هي الأفكار التي تنشأ لدي وكأنها أفكار مجردة حين أتذكر انقلاب أغسطس ١٩٩١ وحين أنظر إلى السنوات العشر التي عشناها بعده. فالانقلاب ذاك كان "في حد ذاته" أشبه بتمثيلية قام بها أشخاص ليس لديهم بعد نظر ولا إرادة ولا حزم : دعوا الناس إلى العودة إلى الماضي فيما كانت لا تزال تخيم على المجتمع أوهام المستقبل الوضاء القريب . ولم يتطلب الأمر أكثر من ثلاثة أيام ليتمكن الديموقراطيون برئاسة يلتسين من الاحتفال بالنصر. لقد حل يوم العيد بالنسبة إليهم فعلاً. فراحوا يرقصون ويغنون في الشوارع . وتحت هدير الجمع الذي يعد بالألوف أسقطوا تمثال دزرجينسكي الذي كان يزين واحدة من ساحات موسكو الرئيسية عن قاعدته. وتعالت نداءات تدعو إلى اقتحام مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وتدميره لكن تم تجاوز التطرفات . إن تطور الأحداث تطورا طبيعيا كثيرا ما يتخذ شكل مفارقات. فمحاولة وقف "البيريسترويكا" الجورباتشوفية وردها على أعقابها ساعدت موضوعيا على تسريع وتكثيف تلك المسيرة التي شاء الانقلابيون وقفها وكبحها .

كان الانقلابيون يدافعون عن ثبات وصمود الاتحاد السوفيتي ويقاومون حتى الإصلاحات المحدودة التي أصر عليها جورباتشوف إلا أن دحر الانقلاب أضعف مواقع جورباتشوف بشدة ورفع بوريس يلتسين إلى قمة السياسة وبالتالي قرب نهاية الاتحاد السوفيتي . كان الانقلابيون يعولون على استرجاع احتكار الحزب الشيوعي السوفيتي للسلطة السياسية وإدخال الديموقراطية في المجرى الذي تريده السلطات والإبقاء على وسائل إعلام تحت سيطرتها. أما دحر الانقلاب فعجل في تصفية الاتحاد السوفيتي وتثبيت التعددية السياسية والقضاء على الرقابة .

لقد رفض الانقلابيون نقل الاقتصاد إلى سكة السوق الليبرالية وطرحوا مهمة الجمع بين الخطة والسوق مع هيمنة دور الأولى. دحر الانقلاب أتى إلى السلطة بأكثر أجنحة أنصار السوق راديكالية ممن قرروا تحويل الاقتصاد على طريقة "العلاج بالصدمات" .

على أية حال لم يتسن وقف الزمن واستعادة الماضي إلى الحاضر وحجز مكان له في المستقبل . بل على عكس ذلك عجل الزمن في سيره. إلا أن سلبيات واضحة اختبأت بين طيات الإيجابيات المنشودة . فاقتراب المستقبل بهذه السرعة إذا ما حولنا هذه الصورة الشعرية إلى لغة النثر السياسية كان يعني عجلة منستمرة

وحركة محمومة بحثا عن حلول إنقاذ كونية تصادم الجماعات والدوائر بروز أشخاص عابرين فى السلطة طارئين عليها. كل شىء غرق فى الفوضى. ومع ذلك لم تغرق روسيا. فخلال كل ترددات وتأرجحات "النخبة" وعبر الحركة العفوية الفوضوية للجماهير الشبيهة بالحركة البراونية تقريبا بدأ يبرز الاتجاه الليبرالى الديموقراطى فى التطور وإن كان غير واضح تمام الوضوح .

لقد اخترقنا مجال السوق حيث لا يزال القليل من الانتظام وحيث الأعراف كأعراف الغاب وشريعته . ومع ذلك يزداد ثقل القطاع الخاص المتحضر والنظام البنكى يقف على قدميه شيئا فشيئا والمناخ الاستثمارى يتحسن بشكل ملحوظ المخازن التجارية تزخر بالسلع. وهناك مع ذلك كومة من المشاكل والمصاعب حيث "المدراء الحمر" لا يزالون يحاولون "الفركشة" لكن "نقطة الرجوع" تم تجاوزها وأصبح طريق العودة مسدودا . لقد بدلنا لباسنا السياسى الشمولى باللباس الديموقراطى : انتخابات حرة صحافة حرة حركة حرة حرية فى كل اتجاه وحسب كل الأذواق. لكن موسكو لا تشهد وحسب مسيرات الشيوعيين بل أيضا مسيرات الفاشيين. وقريبا ربما ظهر المعادون للعولمة أيضا. مشكلتنا أننا لم نكن مستعدين للحرية. ذات يوم قال الكاتب توماس مان : الديموقراطية هى "استعداد الروح للسياسة" و"روح" معظم مواطنى روسيا الجديدة ليست بعد مستعدة للسياسة . ولذا نجد أن ديموقراطيتنا هى قبل أى شىء آخر ديموقراطية للعاطلين والطفيليين والبيروقراطيين الذين لا يزالوا أحياء يرزقون ولجموع البيروقراطيين الغفيرة وللمدعين بأنهم "نخبة" وللأغنياء الجدد المسمين عندنا "أوليجارش" أو طواغيت المال هى الديموقراطية الدعائية والادعائية المتطفلة على الثقافة السياسية المتدنية للسكان . ولكن حتى هذه الديموقراطية أفضل من عدمها. وأهم مأثرة للسنوات العشر من حكم يلتسين أن "القيصر بوريس" استطاع أن يحافظ على التراث الديموقراطى لجورباتشوف. وإنى واثق من أن روسيا لن تحيد عن طريق الديموقراطية .

روسيا كانت أول من سار من الرأسمالية إلى الاشتراكية . كان الطريق هذا شاقا ولم يؤدى إلى شىء . الآن تسير روسيا من الاشتراكية إلى الرأسمالية. طريقها الحاليأشق بكثير من ذاك لأنه يتطلب تحولا رهيبا فى الوعى . ويعنى انهيارا مريعا للخرافات والأوهام المعتادة وتمايزا طبقيا اجتماعيا وماديا لا سابق له وتحللا لنمط العيش المعتاد وتضررا لعشرات الملايين .

هل كان ممكنا الخروج من الماضى دون دفع مثل هذا الثمن الاجتماعى الباهظ من أجل المستقبل لا أدرى . ربما كان ممكنا إذا دخلنا فى التجريد. لكن التجريد هنا فى روسيا غالبا ما قد يتعثر. ولقد قال الفيلسوف الروسى المعروف نيكولاى بردياييف وهو يتأمل فى الثورة البلشفية إن تلك الثورة عكست خاصية الشعب الروسى وكان نمط هذه الثورة هو "النمط الروسى" . لن أخاطر بالقول إن النمط الروسى هو أيضا نمط الثورة (أى الثورة المضادة) الحالية.

ولكن بوسعى أن افترض أن حساب الخسائر الممكنة حسابا دقيقا لا علاقة له البتة بهذا النمط.

نحن بدأنا ثورة مضادة . تمكنا بخلاف يوغوسلافيا من تحاشى المعارك الدامية . تمكنا بخلاف الصين من ترك تسلط الحزب. نحاول أن نفرض النظام . وعلى الرغم من أن الكثير من الناس لا يزالون يحنون إلى الماضى وعلى الرغم من أن الماضى لا يزال فى كل منا تقريبا يصارع المستقبل فإن الماضى لا حظ له بعد اليوم فى

العودة. الانقلاب هز البلاد وأجبر المعنيين على التصرف بحزم أكبر على البتر بدلا من فك العقد (هذا أيضا هو "النمط الروسي") وساعد على رص صفوف كل من لم يود تكرار ما تم اجتيازه . ولذا لم يبق لنا إلا القول على نسق فولتير: لو لم يكن هناك انقلاب لوجب افتعاله .

فيتشيسلاف نيكونوف (محلل سياسي رئيس مؤسسة "بوليتيكا" الروسية)

لقد وصف أشهر المؤرخين الروس في القرن التاسع عشر فاسيلي كلوتشيفسكي الخاصية الأساسية للتاريخ الروسي بأنه يعيد نفسه. فشهر أغسطس هو شهر قاتل لروسيا. ففي أغسطس عام ١٩١٧ حرك الجنرال كورنيلوف الجيش لمساعدة ألكسندر كيرينسكي حماية له من البلاشفة وإنقاذا لروسيا القيصرية إلا أن البلاشفة دافعوا عن كيرينسكي وفي نوفمبر قاموا هم أنفسهم بثورة وصلوا على أثرها إلى السلطة. وفي اغسطس من عام ١٩٩١ أنزل أعضاء لجنة الطوارئ الحكومية الجيش إلى الشوارع من أجل حماية البلاد من الحركة الديمقراطية والحيلولة دون تجديد الاتحاد السوفيتي . حينذاك قام الديمقراطيون بحماية جورباتشوف وفي ديسمبر قاموا بثورة عليه وجلسوا مكانه في الكرملين مقوضين بذلك أركان الاتحاد السوفيتي .

لطالما ولدت الثورات الكثير من التوقعات والآمال إلا إنها نادرا ما بررت قيامها . وإنني أتذكر جيدا المزاج السائد في عام ١٩٩١ فالأغلبية حداها الأمل حينها بأن تنعم روسيا بالحرية والديمقراطية على الفوز وبأن تحل فيها أعجوبة اقتصادية وبأن تدخل إلى جانب الدول الغربية البيت الأوروبي الموحد . والأقلية خشيت من انهيار البلاد ومن الكوارث الاقتصادية ومن سفك الدماء وكل ما أطلقوا عليه في ما بعد "الخيار اليوغسلافي".

فمن كان على حق يا ترى إن الرد مرهون بالشكل الذي ينظر به الإنسان إلى الكوب : النصف الممتلئ أم النصف الفارغ . وأعتقد أن كلا الفريقين كانا غير محقين. فروسيا ما كان بوسعها التطور وفق الخيار الأفضل إلا إنها أيضا تجنبت الخيارات الأسوأ .

لقد حصلنا على الحرية خاصة في البلاد التي لم يكن فيها حتى تلميح إلى ثقافة ديمقراطية "وكانت الحرية فيها تفهم بأنها تبيح كل شيء . وتمكن من فعل أي شيء ! حتى الذي لا يجب فعله . على سبيل المثال السرقة والسطو. النظام الذي كان قائما في عهد يلتسين من الصعب إطلاق اسم الديمقراطي عليه. ففيه اختلط كل ما يسمى بالفوضى غير المحدودة مع الأوليجارشية والإجراءات الديمقراطية والاتجاهات التسلطية للسلطة الواحدة وحتى عناصر الجور والاستبداد الشرقي . فـ "العائلة" كانت في وقت من الأوقات هي من يحكم البلاد . لقد سادت في عهده الفوضى والأسلوب السياسي البيزنطي . أما الذي افتقدته البلاد فكان سيادة القانون ومسؤولية السلطة أمام الذين انتخبوها. ففي روسيا لم يكن هذا الأمر موجودا أبدا .

وظهر اقتصاد السوق ولم تعد البضائع نادرة في المحلات وظهرت طبقة جديدة من الناس مستعدة للاهتمام فقط بنفسها وبالاعتماد على نفسها وبدأت تتشكل منهم الطبقة الوسطى في المجتمع . لكن المأساة تتلخص في أنه لم تكن ولو حفنة ضئيلة من الأشخاص في طول البلاد وعرضها بما في ذلك في الحكومة نفسها . تعرف بدقة ما هو اقتصاد السوق. فتصوروا أن أشخاصا لا يعرفون السباحة اقتيدوا إلى نهر واسع وقيل له : "عليكم جميعا الوصول إلى الضفة المقابلة حيث تنتظركم السعادة. ومن منهم سيعاني من مشاكل ستساعده القوارب التي تبنى على الضفاف من قبل خبراء من الحكومة وصندوق النقد الدولي" . فنزع الناس ثيابهم وكان منهم من اقترب

بخشبة من المياه وراح يجسها ليعرف ما إذا كان يمكنه أن يسبح فيها والأكثر شجاعة بينهم غطسوا فى الماء إلا إنهم فى وسط النهر اكتشفوا أنه ليس هناك من قوارب. والعديد غرق والقليل القليل وصل إلى الضفة الأخرى . الا إن الغالبية العظمى بقيت تنتظر على الضفة ولكن من دون ثياب . فهم لم يتعلموا السباحة ولم يعلمهم أحد إياها وفى هذا الأمر لب المشكلة .

وحتى عام ١٩٩٦ انخفض ناتج الدخل القومى الروسى إلى النصف. وتوقف دفع الرواتب تقريبا أ ,فى أفضل الأحوال كانت تتأخر لعدة أشهر . وفى عام ١٩٩٧ بدأ النهوض المنتظر منذ زمن بعيد ولكن فى أغسطس عام ١٩٩٨ وقعت أزمة اقتصادية حادة صار على أثرها الروبل يساوى ربع قيمته السابقة فى لحظة واحدة . وحتى الان لم تعد روسيا إلى مستوى عام ١٩٩١ من حيث بعض المؤشرات الاقتصادية .

وفى هذا الوقت خلال العشر سنوات الماضية جرت أكبر لعبة فى تاريخ الإنسانية تحت اسم "اشتر روسيا" ! هذه البلاد الشاسعة حيث كل شىء من آبار النفط حتى المسامير كان ملكا للدولة . فقد جرى تخصيصها ونقلها إلى أيدى أفراد. ولكن فى غياب تشريعات السوق والقوانين المنظمة بدقة للعبة قام الموظفون الحكوميون بلعب دور الحكم بل وكانت وتواقيعهم تقرر من سيصبح مليونيرا غدا بينما الإغراءات التى قدمت لكى يضع هؤلاء تواقيعهم كانت لا تقاوم . فهل كان يمكن فى مثل هذه الحالة أن لا يظهر الفساد فأهلا وسهلا إلى بيت الرأسمالية .

انفتحت روسيا على العالم . وظهر لدى يلتسين العديد من الأصدقاء فى الغرب : الصديق بيل الصديق هلموت الصديق جاك الذين وعدوا حتى بتقديم المساعدات إلا إنه تبين أن روسيا لم تكسب حلفاء . لقد اتضح على الفور أن البيت الأوروبى المشترك والذى تشكل روسيا جزء منه ما زال قيد التخطيط وأن لا أحد ينتظرنا هناك . فنشوة الجذل الأولى التى أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتى والتى عمت روسيا وحلفاءها وولدت آمالا كبارا انتهت من دون تحقيق الآمال وأفضت إلى خيبة أمل كبيرة . فلم تصبح روسيا دولة مزدهرة ديمقراطية على الطراز الغربى كما كان منتظرا لسبب ما فى أوروبا وفى ما وراء المحيط . ولم نتلق المساعدات المالية الموعودة وبدلا عن ذلك بدأ حلف شمال الأطلنطى بالتوسع وبإعلاء ستار "شينجين" أكثر فأكثر . وأما قصف يوغسلافيا فقد دفن نهائيا ما كان قد تبقى من قوى مؤيدة للغرب فى روسيا .

فخيبة الأمل من الليبرالية فى التسعينات تذكر بشكل كبير بخيبة الأمل من ليبرالية فترة كيرينسكى . وخيبة أمل عام ١٩١٧ أوصلت الشيوعيين إلى السلطة . بيد أن الحظ لم يحالفهم فى التسعينات حيث وصل رجل محافظ ذو غريزة دبجولية . لقد انتهت الثورة وبدأت روسيا تعود إلى رشدها .

من الفوضى اللامحدودة بدأت روسيا مسيرتها نحو تنظيم السلطة . فالبعض بدأ يدفع الضرائب وأوقفت السلطات الإقليمية إصدارها القوانين المخالفة لأحكام الدستور الفيدرالى وحتى الاوليجارشيون القادرون على كل شىء لم يعودوا يشعرون فى الكرملين وكأنهم فى منزلهم الخاص .

ويشهد الاقتصاد نموا للسنة الثالثة على التوالى بمستوى ٥٪ - ٨٪ ويجرى دفع الرواتب وأجور التقاعد فى الوقت المناسب (نسبيا) وتسدد روسيا ديونها الخارجية فى الوقت المحدد ويزداد عدد الأشخاص الذين يتعلمون قوانين السوق يزداد باطراد . وبدأت إصلاحات السوق الواعية وبشكل أكثر راديكالية مما كان يفكر به

يلتسين منذ ١٠ سنوات .

والآن تجرى استعادة الدور السياسى الخارجى الروسى بشكل براجماتى وعملى . ولا يلعب الدور الأخير فى ذلك إلا واقع تمكن بوتين من عقد عدد القمم فى أسبوع واحد أكثر مما تمكن يلتسين من عقده طيلة عام كامل . وتتحرك البلاد مجددا نحو أوروبا إلا إنها لا تحدوها أية أوهام وهى مدركة أخيرا خصائصها القومية ومصالحها.

وبشكل عام فإن روسيا هى الآن للمرة الأولى فى حدودها الحالية بدأت تشعر بنفسها أمة وهى تحاول العيش فى هذا العالم مع نفسها ومع بقية العالم وهى تصبح طبيعية على طريقتها ليس فيها ما يثير أو يقض المضاجع . وبالرغم من أن ذلك أمر سيئ للمحللين السياسيين والصحافيين إلا إنه جيد لبقية المواطنين . وبالتالى كان من الضرورى دحر المتمردين منذ ١٠ سنوات مضت .

ألكسى بوشكوف (عضو رئاسة المجلس الروسى لشئون السياسة الخارجية والدفاعية)

لو قدر لميخائيل جورباتشوف منذ ١٠ سنوات تزعم الإصلاحيين الحزبيين وإبقاء الحزب الشيوعى الروسى على خطه المحافظ فى الإطار الذى اتحد حوله فى عامى ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ فإن حركة التمرد فى أغسطس ١٩٩١ لم تكن لتحدث وعلى الأرجح كان من الممكن أن تكون روسيا دولة مختلفة الآن بشكل كبير ولسارت عملية الإصلاحات فى هذه الدولة بشكل أكثر عقلانية على طريق التطور ولكان بوريس يلتسين قد وصل إلى السلطة فى وقت أكثر تأخرا أو لم يصل إليها أبدا . ولكانت ـ فى نهاية الأمر ـ البلاد تملك فرصة لتجنب الصعوبات والأعباء التى اصطدمت بها طوال ١٠ سنوات .

لقد دعا زعماء الحركة الديمقراطية وكل المطبوعات الليبرالية جورباتشوف إلى قيادة الحركة الديمقراطية بدلا من المصالحة معها . وكان جورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتى يملك حينها السلطة . ولو اتخذ جورباتشوف قرارا فى هذا الاتجاه لكان غالبية المحيطين بيلتسين من الديمقراطيين قد اندفعوا إليه : فقد كان أمر الوصول إلى السلطة يعنى بالنسبة لهم أهمية لا تقل عن إبدال قيادة الحزب الشيوعى السوفيتى .

إلا أن التاريخ لا يعرف كلمة (لو) ولا يعرف صيغة العودة إلى الوراء . وفى المحصلة كرر جورباتشوف طريق نيكولاى الثانى الذى وقف منهك القوى فى عامى ١٩١٦ ـ ١٩١٧ وهو يشاهد كيف تتسرب السلطة من بين يديه وتدخل إلى فضاء الثورة . ولقد اتجه تطور الأحداث فى روسيا نحو السبيل المتطرف عندما ابتعد جورباتشوف بشكل تلقائى عمليا فى صيف ١٩٩١ عن المسرح السياسى . وبالتالى كان التجاذب وليس التحالف المباشر بين المحافظين والديمقراطيين أمرا حتميا . فحاول الفريق الأول إيقاف يلتسين وانهيار الاتحاد السوفيتى بينما سعى الفريق الثانى إلى المحافظة على مكتسبات البيريسترويكا والسيطرة بشكل كامل على السلطة وتركيزها فى أيديهم حتى وإن كان انهيار الدولة هو الثمن .

وبالطبع فالنتائج تبعث على الأسف . فقد انهارت الإمبراطورية السوفيتية خلال عدة أشهر . ومع بداية عام ١٩٩٢ دخلت إلى الخريطة الجيوسياسية العالمية دولة جديدة ومغايرة تماما اسمها روسيا الاتحادية : مغايرة فى التوجهات والأفكار والرغبة فى الانضمام إلى المجتمع العالمى . أما بوريس يلتسين الذى هدم الاتحاد السوفيتى وأول ديمقراطى فى روسيا كان فى الحقيقة الوريث الحقيقى للبيزنطية الشيوعية وأرتال قادة الدولة الروسية . ولم يكن من قبيل الصدفة أن يلتسين كان يحب نصف المزاح ونصف الجدية وأطلق على نفسه لقب «القيصر بوريس.

فهو لم يكن قيصرا على أية حال .

ولكن ما أسسه يلتسين بصعوبة بالغة يمكن تسميته بالديمقراطية السياسية . وعلى الأرجح كانت تلك الديمقراطية مبالغ فيها جدا لأنها كانت تخفى فى واقع الأمر حقيقة عملية اتخاذ القرار من قبل مجموعة صغيرة من الأشخاص وراء جدران الكرملين . ولقد ظهر ذلك بوضوح فى نهاية الفترة الرئاسية الأولى من عهد يلتسين فى عام ١٩٩٦ . ولكن نتيجة للسيطرة غير الظاهرة للمخلصين له من " النخبة " الروسية الجديدة وبالرغم من شعبيته التى انخفضت إلى ٥٪ تمكنوا من ضمان فترة رئاسة ثانية له . وكانت النتيجة وقوع الديمقراطية غير الناضجة تحت سيطرة قدرة طواغيت المال الخارقة .

لقد رحل يلتسين . وجاء بوتين الذى قام بإبعاد طواغيت المال من أمثال بوريس بيريزوفسكى عن الوصول إلى السلطة وحرمه عمليا من الحصانة التى كان يتمتع بها . ونتيجة لذلك اضطر بيريزوفسكى إلى الفرار إلى الخارج وإعلان الحرب على الكرملين . أما طاغوت المال الثانى والأكثر قوة وشراسة فقد قام بالهجوم المباشر على الكرملين من خلال إمبراطوريته الإعلامية الضخمة . وحاول التستر وراء " حرية الكلمة " لإجبار بوتين على الخضوع لمشيئته والرقص على موسيقاه كما كان يفعل يلتسين من قبل . إلا أن هذه المحاولة باءت أيضا بالفشل . واقترح بوتين على رجال الأعمال الكبار الشراكة وفق شروط معينة : أن يمارسوا أعمالهم وألا يحاولوا إملاء سياستهم على الكرملين . وبالتالى ظل طواغيت المال الروس أقوياء وقادرين ولكن ليس على كل شئ كما كان الحال عليه فى عهد يلتسين .

الجزء الثانى من الصراع كان مع حكام الأقاليم . فقد أظهر الكرملين " العين الحمراء " لهؤلاء الحكام الذين قادوا الكيانات التى يحكمونها وفق طرق القرون الوسطى وكانوا يحلمون بالاستقلال عن المركز وهو الأمر الذى كان يهدد بتفتت الكيان الروسى . وإذا كان يلتسين قد سمح لهم بكل شئ بشرط أن يكونوا متساهلين مع المركز فقد اقترح عليهم بوتين قواعد جديدة تماما للعبة : لن يعترض المركز على صلاحياتكم إلا أن هذه الصلاحيات يجب أن تنظم وفقا للدستور الروسى الفيدرالى .

هنا يمكن القول أنه إذا كان عهد يلتسين قد تميز بالرأسمالية المتوحشة وسيطرة الفساد تلاشى الضمانات الاجتماعية التى تقلص عدد سكان روسيا على أثرها بمعدل مليون نسمة سنويا فإن بوتين لا يزال يحاول وضع تشريعات لعملية الخصخصة وإعادة المقاييس الاجتماعية إلى الاقتصاد الروسى .

ولكن هل يعنى ذلك أن بوتين قد تخلى عن إرث يلتسين الذى فرغ كلمة " ديمقراطية " من محتواها الحقيقة لا . لم يحدث ذلك حتى الآن . فنظام الدولة الذى أسسه يلتسين على العلاقة الوثيقة والاتحاد الذى لا يخضع لإشراف البيروقراطية العليا والروس الجدد من بارونات اللصوص لا يزال قويا بشكل لا يمكن تصوره .

مارينا شاكينا (محللة سياسية بوكالة نوفستى)

السنوات العشر الماضية فى تاريخ روسيا من أهم الحقب التى أثرت فى تاريخ البلاد . فالأيام الثلاثة الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٩١ والتى سميت بـ "أيام التمرد" وضعت حدا نهائيا لـ "البيريسترويكا" وفتحت الطريق أمام انهيار الاتحاد السوفيتى . إلا أن العلاقة الآن وبعد ١٠ سنوات بتلك الأحداث تبقى محل خلاف وتناقض شديدين فى المجتمع الروسى : كانت تلك الأحداث مؤسفة وأصبحت آثارها مدمرة بل واتضح أن

نتائجها لم تحقق التوقعات المرجوة .

في ١٩ أغسطس ١٩٩١ أعلن رفاق الرئيس السوفيتي حينها الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي ميخائيل جورباتشوف عن إنشاء لجنة الطوارئ الحكومية التي أخذت على عاتقها المسؤولية عن إدارة السلطة في البلاد . وأعلنوا أن السبب هي المشاكل غير الاعتيادية التي اصطدم بها الاتحاد السوفيتي والمرض المفاجئ لجورباتشوف الذي كان قد توجه مع أسرته قبل أسبوعين من ذلك للاستجمام في " فاروس " بشبه جزيرة القرم .

كان السبب الحقيقي لمثل هذا التسرع من جانب لجنة الطوارئ هو التوقيع المقرر يوم ٢٠ أغسطس ١٩٩١ على المعاهدة الائتلافية الجديدة التي أعدها جورباتشوف . وبالطبع فسياسة الـ "بيريسترويكا" التي بدأها منذ عام ١٩٨٥ والتي تعني "إعادة البناء" السياسي والديمقراطي في الحزب الشيوعي والدولة قد وجدت مقاومة شديدة من جانب الراديكاليين في الحزب الشيوعي السوفيتي والمجتمع على حد سواء . وكان مشروع المعاهدة الائتلافية الذي يهدف إلى تحويل الدولة الموحدة إلى دولة كونفدرالية يمثل النقطة الأخيرة التي فاض بعدها كأس صبر كبار رجال الحزب الشيوعي السوفيتي في علاقتهم بجورباتشوف .

لقد ضمت لجنة الطوارئ أكبر ٧ رؤوس لأهم مؤسسات الاتحاد السوفيتي على رأسهم نائب الرئيس السوفيتي جينادي ياناييف ورئيس الوزراء فالنتين بافلوف ووزير الداخلية بوريس بوجو ومدير المخابرات (كي . جي . بي) فلاديمير كريوتشكوف . بالإضافة إلى عدد آخر من المسؤولين الحزبيين الكبار ورؤوس المؤسسات الإدارية . ونزلت الدبابات إلى شوارع موسكو وأعلنت حالة الطوارئ والحظر على الصحف ووسائل الإعلام .

في هذا الوقت كانت قيادة روسيا التي لا تزال سوفيتية بزعامة بوريس يلتسين هي اللاعب الأساسي في ملعب الأحداث واستطاعت إحباط التمرد حيث أعلن يلتسين عدم شرعية لجنة الطوارئ ورفض الخضوع لقراراتها . وخلال ٣ أيام انتهت المواجهات التي كان من الممكن أن تؤدي إلى حرب أهلية شبيهة بحرب (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) بنصر كامل للسلطة الروسية والقبض على المتمردين . وتم إعادة جوراتشوف الذي عزل في بيته الصيفي في "فاروس" . وبالطبع كان يلتسين هو الذي أرسل لإحضار جورباتشوف من هناك إلى موسكو تحت حماية مشددة . بيد أن جورباتشوف عاد إلى دولة أخرى تماما .

أخذت الأحداث تتطور بشكل سريع للغاية . فأصدر يلتسين مرسوما بحظر نشاط الحزب الشيوعي السوفيتي واعترف باستقلال جمهوريات البلطيق الثلاث ودخلت المفاوضات بين زعماء الجمهوريات الاتحادية لعقد معاهدة اتحادية جديدة إلى طريق مسدود . فبعد الانقلاب خشي زعماء الجمهوريات الائتلافية الارتباط من جديد بأي مركز فيدرالي . وفي نوفمبر ١٩٩١ تم تشكيل حكومة جديدة برئاسة يجور جيدار الذي أعد مع زملائه خطة إصلاحات السوق . وفي ديسمبر اجتمع زعماء الدول الثلاث : روسيا بلاروسيا أوكرانيا في "بيلوفجسكي بوش" بلاروسيا ووقعوا على وثيقة حل الاتحاد السوفيتي التي قضت نهائيا على الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية .

في عام ١٩٩٢ أصبحت روسيا بدون حزب شيوعي سوفيتي وبدون اتحاد جمهوريات اشتراكية سوفيتية وبدون رئيس سوفيتي وأمين عام الحزب الشيوعي السوفيتي . ودخلت البلاد مرحلة جديدة تماما مع مجموعة من الاقتصاديين الجدد المناصرين لاقتصاد السوق والسياسات الاقتصادية الجديدة . وأعقب ذلك آثار ثقيلة للغاية

أفضت إليها الإصلاحات الاقتصادية التى أدت إلى انتقال حصص هائلة من أملاك الدولة إلى جيوب الطفيليين بدون ثمن تقريبا وإلى حالة ذهول للمواطن الروسى البسيط أمام ارتفاع الأسعار والظواهر الأخرى المرافقة . وبدأت عملية تفكك الدولة داخل روسيا أيضا حيث أقرت الجمهوريات الفيدرالية الروسية دساتير خاصة بها . وتأزمت العلاقات بين القوميات وأصبح الحنين إلى العصر السوفيتى يلازم الغالبية العظمى .

البروفيسور ألكسى أرباتوف (رئيس مركز الأمن الدولى لدى معهد الاقتصاد العالمى والعلاقات الدولية التابع لأكاديمية العلوم الروسية نائب رئيس اللجنة النيابية لشؤون الدفاع فى البرلمان الروسى)

فى ٨ ديسمبر قام كل من رئيس جمهورية روسيا السوفيتية الفيدرالية "بوريس يلتسين" وأوكرانيا "ليونيد كرافتشوك" وبيلوروسيا "ستانيسلاف شوشكيفيتش" فى أجمة بيلوفيجسكايا بالتوقيع على اتفاقية اتفاقية تشير إلى أن "الاتحاد السوفيتى بوصفه كيان من كيانات القانون الدولى والواقع الجيوبوليتيكى قد انتهى وجوده" . وأعلنوا فى الوقت نفسه أنهم "يشكلون رابطة الدول المستقلة" . وفى ١٢ ديسمبر ألغى المجلس الأعلى لجمهورية روسيا السوفيتية الفدرالية اتفاقية إنشاء الاتحاد السوفيتى عن عام ١٩٢٢ . وخلال شهر ديسمبر ١٩٩١ ألغت الجمهوريات السوفيتية السابقة هذه الاتفاقية أيضا . وفى ٢٦ ديسمبر عقد مجلس جمهوريات المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتى اجتماعه الأخير . وعني ذلك أن الاتحاد السوفيتى قد أنتهى وجوده .

بالنسبة لى كان ذلك حقيقة لا شك فيها : الاتحاد السوفيتى كان مقدرا له أن يفشل . وبالتالى فإن انهياره كان مأساويا ومدمرا إلى حد كبير ولكنه مع ذلك كان مسارا حتميا . لقد كان عصب الاتحاد السوفيتى هو الحزب الشيوعى والأيديولوجية الشيوعية وغياب أى نوع كان من أنواع الديمقراطية . وبفضل هذا العصب تحديدا تمكن هذا البلد المتخلف بمستوى معيشته من تحقيق نتائج عظيمة فى مجال غزو الفضاء وبناء ترسانة حربية عملاقة . وفى تلك الدولة الموحدة فقط كان بإمكان الشعوب المختلفة كالأستونيين والتركمان على سبيل المثال أن يتعايشوا .

وبدءا من منتصف الستينات أصبح من الواضح تماما أن الأيديولوجية الشيوعية أكثر طوباوية . وكان يشك العاملون الحزبيون أنفسهم يشكون فى قدرتها على الحياة . وفى الثمانينات أصيبت الأيديولوجية الشيوعية والنظام الشيوعى المستند إليها بالعفن إلى حد كبير . وهناك عدد غير قليل من الأبحاث العلمية التى تثبت حتمية انهيار الإمبراطورية . ولكن وبالرغم من قوانين التاريخ الموضوعية فإن انهيار الإمبراطوريات يثير الأسف لدى العديد من الناس القاطنين فيها . وأنا أأسف على انهيار الاتحاد السوفيتى . أنا أأسف أيضا على انهيار الإمبراطورية القيصرية مع إننى أدرك عفنها . ومع ذلك فإننى أأسف . لقد كانت هناك إمبراطورية وكانت هناك تقاليد وأنظمة وتاريخ عظيم ومجد. وليكن مع خسائر عظيمة إلا أن الإمبراطورية الروسية حققت الانتصار مثلا على نابليون .

لقد كان انهيار الاتحاد السوفيتى مسألة متوقعة إلا أن أشكال ذلك الانهيار كانت عفوية تاريخيا . فلو كان مكان ميخائيل جورباتشوف شخص آخر لأخذت تلك العملية طابعا آخر . ولو جاء ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة قبل ١٠ سنوات لربما أنهى الاتحاد السوفيتى وجوده ليس فى عام ١٩٩١ وإنما فى بداية الثمانينات وذلك مع خسائر أقل . فهل كان يمكن لانهيار الاتحاد السوفيتى أن يتم بشكل اقل إيلاما من دون إفقار غالبية

السكان ومن دون سيادة الجريمة كان ممكنا من دون شك . مع بعض الخسائر والمشاكل طبعا . فمن دون ذلك لا يمكن لأى بيريسترويكا أن تتم . إننى أنظر بشكل سلبى جدا إلى اتفاقيات بيلوفيجسك ومينسك من وجهة النظر السياسية . فهذه الاتفاقيات أدت إلى نتائج سيئة . فبموجبها تمت تصفية دولة كاملة دون إدراك للمشكلات التى يجب حلها قبل فعل ذلك . فإن تفكيك الإمبراطورية وإعادة بناء ما بقى منها كان من الممكن أن يتم بطريقة أخرى . ولا يجب أن ننسى فى الوقت نفسه أن نتائج انهيار الاتحاد السوفيتى كان من الممكن أن تكون على درجة أكبر من السوء . إن هذا الحدث التاريخى فى حياة الاتحاد السوفيتى يمكن مقارنته مع شبيه له حدث فى تشيكوسلوفاكيا ولكنه جرى هناك بطريقة سلمية وبشكل يرضى الطرفين معا . وبالنتيجة تسعى سلوفاكيا الآن بكافة الوسائل للتوحد مع تشيكيا. إلا أن تفكيك الاتحاد السوفيتى كان يمكن أن يترافق مع الحروب كما حصل ذلك لدى تقسيم يوغوسلافيا . وإذا ما أخذنا بالاعتبار مساحة البلاد وحيازتها على السلاح النووى فإن هذه الطريقة كان يمكن أن تؤدى إلى كارثة .

إن التطور العالمى ـ حركة إلى الأمام كما هو معروف حركة نحو التقدم . وفى هذا المفهوم يكتسب إنشاء الدولة الجديدة ـ روسيا الاتحادية ـ طابعا إيجابيا . وليس هناك شك بأن روسيا وبالرغم من كل المشكلات والإخفاقات تتقدم نحو تعزيز اقتصاد السوق وبناء المجتمع الديمقراطى . وتعتمد خطوات ملحوظة على طريق إقامة علاقات السوق ولكن مع خسائر كبيرة وأساس غير متين . ويلاحظ ذلك بشكل واضح عندما تتدنى أسعار النفط الذى يسبب بلا شك مشاكل فى تمويل القطاعات الرئيسية . ولكن مع كل ذلك تم إقرار العديد من القوانين المهمة الهادفة إلى تثبيت استقرار اقتصاد السوق . وكان المفروض بالطبع السير بشكل أكثر عمقا وحسما فى عدد من الاتجاهات الاقتصادية . ولكن روسيا لم تشهد فى عام ١٩٩١ ثورة دموية كما كان الحال فى عام ١٩١٧ عندما تمت بكل بساطة تصفية كل من عارض النظام الجديد . وبالتالى ففى روسيا قوى مختلفة نشيطة جدا بما فيها داخل الاقتصاد سواء متفقة أو غير متفقة مع المسيرة الحالية للبلاد . وهذا هو الواقع الفعلى الذى يحدد تطور روسيا .

هناك العديد من مكامن الضعف وبالذات فى الاقتصاد حيث لا تستطيع الحكومة التعامل مع الخيرات التى تدفقت على روسيا على شكل أسعار عالية على النفط وهى أسعار أعطت فى الأعوام ١٩٩٩ ـ ٢٠٠١ إيرادات إضافية ضخمة للدولة وكان بالإمكان استخدامها لحل المشكلات الأضخم : إجراء إصلاحات للجيش وتقليص عدده وتعويض المسرحين إلى الاحتياط وتخصيص المساكن العسكرية وتحسين مستوى معيشة المتبقين فى الجيش وإعادة تجهيزه بالتقنيات الحديثة والأمر نفسه يمكن قوله بالنسبة للإصلاح التعليمى والإصلاح القضائى .

إن ضرورة بناء المجتمع الديمقراطى فى روسيا تفرضه أيضا المسارات السلبية المتفشية حاليا مثل استغلال المناصب الإدارية لتزييف الانتخابات على كافة المستويات والتزييف السياسى والهجوم على حرية الصحافة . إن الرأى العام التقدمى فى روسيا منزعج الآن من "هجوم" السلطة ولمرة جديدة على محطة (تى.فى ـ ٦) التلفزيونية المستقلة وعدم مسامحة الطاقم الصحافى على انتقادها . ولكن منذ ١٥ سنة وفى خضم فترة بيريسترويكا جورباتشوف كان من الصعب تصور مجرد قيام محطات تلفزيونية مستقلة . إضافة إلى ذلك تسعى السلطات إلى الضغط على (تى.فى ـ ٦) بواسطة الآليات القانونية وليس بشكل فوضوى كما كان ذلك فى

السابق.

ولا يجب أن ننسى أى طريق ضخم تمكنت روسيا من عبوره فى السنوات العشر الأخيرة . فالدول الأوروبية عبرت هذا الطريق على امتداد عشرات السنين وحتى مئات السنين . ولذلك من المهم رؤية أن النمو المتسارع للجسم يمكن فى بعض الأحيان أن يصيبه بأمراض وعلل شديدة وحتى بالموت فى أحيان أخرى . ولكن ذلك هو نتيجة للتحولات الجذرية التى تجرى فى البلاد . وليس دائما مع الأسف فى الاتجاه الجيد . إلا إن روسيا على أية حال هى الآن دولة أخرى . وبالرغم من أنه يقطنها هؤلاء الناس أنفسهم الذين عاشوا فيها منذ ١٥ سنة ولكنهم يعيشون الآن فى دولة أخرى بشكل كامل .

الجزء الأول

ماذا يحدث في روسيا الجديدة؟

وسائل الإعلام وحقيقة الدور الصهيونى والحضور العربى

يكتسب الحديث عن اللوبى الصهيونى فى الإعلام الروسى أهمية خاصة فى الآونة الأخيرة بسبب توجهاته المغايرة تماما للمصالح القومية الروسية والانحياز المطلق إلى جانب الحكومة الإسرائيلية وسياساتها العدوانية ضد العرب بشكل عام وضد الشعب الفلسطينى وحقه فى إقامة دولته المستقلة على وجه الخصوص . ومع ذلك لن نفترض مبدئيا وجود مخطط صهيونى للسيطرة على الإعلام الروسى وإنما سنكتفى برصد مجموعة من الحقائق و السياسات التى قلبت الموقف رأسا على عقب فيما يخص دور روسيا العالمى والمحلى والقومى إذا جاز التعبير .

بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتولى القوى الإصلاحية مقاليد السلطة فى روسيا أطلقت هذه القوى شعارات حول حرية الرأى والتعبير ودعت لإقامة السلطة الرابعة والتى تضمن للمواطن حقه فى الحصول على المعلومات والحقيقة . أسفر ذلك عن إصدار قانون وسائل الإعلام فى عام ١٩٩١ الذى ألغى الرقابة على الإعلام و كفل حرية الصحافة وحقها فى البحث عن المعلومات وإنتاجها ونشرها مما أدى إلى انهيار احتكار الحزب الشيوعي وخلق فراغا إعلاميا هائلا فى بداية التسعينات بل ومنح كافة القادمين للعمل فى هذا المجال إمكانات كبيرة للتأثير على الرأى العام الروسى والذى كان قد تم أعداده على مدار عشرات السنين لتلقى المعلومات والمواقف لا لتحليلها ومناقشتها كما توفرت لهؤلاء الإعلاميين فرصة للسيطرة على أغلبية وسائل الإعلام وتدعيم نفوذهم المالى والسياسى فى المجتمع الروسى .

ولأن الحصول على المعلومات وإنتاجها ونشرها هو فى الأساس عملية تجارية - اقتصادية يمكن أن يحقق توظيف رؤوس الأموال فيها أرباحا طائلة استقطب هذا المجال العديد من رجال الأعمال وربما كان من باب المصادفة أن أغلبية هؤلاء من رجال الأعمال اليهود أمثال بوريس بيريزوفسكي و فلاديمير جوسينسكي وميخائيل خودوركوفسكى و رامان أبراموفيتش و ميخائيل ميريلاشفيلي وآخرين .

النشاط الاقتصادى لرجال الأعمال اليهود فى مجال الإعلام ليس المجال الوحيد إذ إنهم كانوا ولا يزالوا يعملون فى عدة مجالات اقتصادية حيوية مثل البنوك والنفط وصناعة الألومنيوم والتى كانت عائداتها تشكل تمويلا لنشاط هؤلاء الرأسماليين فى مجال الإعلام . فى نفس الوقت الذى سخر فيه رجال الأعمال اليهود وسائل الإعلام التى امتلكوها لخدمة مصالحهم بالرغم من أنها كانت ومازالت توصف بأنها " مستقلة " .

ومن خلال رصد سريع لانتشار نفوذ هذه المجموعة من رجال الأعمال سنجد أن بوريس بيريزوفسكي المليونير الروسى اليهودى والذى يحمل الجنسية الإسرائيلية يمتلك النسبة القابضة من أسهم التلفزيون الاجتماعى الروسى ORT ويمتلك أيضا القناة التلفزيونية السادسة إضافة إلى صحيفة " نيزافيسمايا جازيتا " وصحيفة "كميرسانت". يأتى هذا بالإضافة إلى شركاته فى مجال تجارة السيارات والنفط والأعمال البنكية . أما فلاديمير جوسينسكى المليونير الروسى اليهودى والذى شغل منصب رئيس المؤتمر اليهودى الروسى وهو أيضا يحمل الجنسية الإسرائيلية بل و يمتلك فى إسرائيل ٢٥ ٪ من أسهم صحيفة "معاريف" الإسرائيلية . تمكن جوسينسكي من تأسيس إمبراطورية إعلامية ضخمة المعروفة باسم " ميديا موست" والتى تضم قناة التلفزيون المستقل NTV و قناة المنوعات -NTV plus وإذاعة "صدى موسكو" إضافة إلى دار نشر صحفية تصدر عددا من المجلات الأسبوعية و الجرائد اليومية سواء كانت تصدر على المستوى الفيدرالى أو الإقليمى منها مجلة "إيتوجى" و"كرافان" . دخل أيضا إلى هذا المجال المليونير الروسى اليهودى رامان أبراموفيتش كان يعتبر أحد أعضاء الحلقة الضيقة التى كانت تهيمن على السلطة في روسيا في عهد الرئيس السابق بوريس يلتسن وأصبح يمتلك حصة كبيرة من أسهم التلفزيون الاجتماعى الروسى

ORT و يقوم بتمويل عدد من الصحف التي تصدر في أقاليم سيبريا و بعض القنوات التلفزيونية المحلية وهو أيضا حاصل على الجنسية الإسرائيلية . أما اناتولي ليسنكود رجل الأعمال الروسي اليهودي وشريكه يوسف كابزون المغني اليهودي المعروف فهما يسيطران بالتعاون مع عمدة موسكو على القناة التلفزيونية TV- CENTER وعلى عدد من الصحف الروسية الأوسع انتشارا وهي "موسكوفسكي كمسموليتس" و"ليتراتورنيا جازيتا" و" فيتشرنيا موسكفا" ويعتبر أناتولي ليسنكود من أبرز قادة المؤتمر اليهودي الروسي ولكن لا تتوفر معلومات حول حصوله على الجنسية الإسرائيلية .

اللوبي الصهيوني يبدأ الألفية الثالثة بالورقة الروسية

قامت أجهزة الأمن الروسية بتفتيش مكاتب مؤسسة " ميديا موست " إحدى أكبر الاحتكارات الإعلامية في روسيا والمملوكة للملياردير اليهودي الروسي فلاديمير جوسينسكي . أثار هذا الإجراء القانوني غضب صاحب المؤسسة الذي يرأس في نفس الوقت ما يسمى بالمؤتمر اليهودي الروسي الأمر الذي جعله يصرح لوكالات الأنباء الغربية : " إن بعض القوى التابعة لمؤسسات الدولة تستعمل التعصب العرقي والعداء للسامية خلال الصراع السياسي ولا تحاول السلطة أن تعيق ذلك " ... " إن الدولة لا تنتهج أية سياسة تجاه قضية العداء للسامية " . وفي هذا الإطار أبلغ جوسينسكي العالم كله أن حرية الكلمة في روسيا أصبحت في خطر إثر عملية التفتيش في مكاتب مؤسسته . ولعل البواعث من وراء طرح جوسينسكي لقضيته الشخصية ـ المالية بهذا الشكل المرتبط بالعداء للسامية قد يكون صراعه مع جماعة بريزوفسكي التي تسعى هي الأخرى إلى السيطرة على المؤتمر اليهودي الروسي أو شعوره بأن اللعبة قاربت على نهايتها وحان له أن يستعمل آخر ورقة رابحة . وبالتالي وجد أنه من الضروري أن يضيف إلى القضية المتعلقة بحرية الكلمة قضية أخرى شهيرة ومعروفة ـ معاداة السامية خاصة وأن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كان وقتها في زيارة لموسكو .

الجدير بالانتباه أن جوسينسكي اليهودي الروسي أحد أخلص يهود العالم لدولة إسرائيل (يملك ٢٥٪ من أسهم صحيفة " معاريف " الصهيونية ويملك أيضا صحيفة " فستيا " التي تصدر في إسرائيل . وحين تم القبض على رئيس مجلس إدارة صحيفة " معاريف " بتهمة تصفية أحد منافسيه والقيام بعمليات احتيال مالية ضخمة استدعى جوسينسكي رسميا ليدلي بشهادته أمام القضاء الإسرائيلي باعتباره مواطن إسرائيلي يملك جواز سفر هذا البلد) . منذ خمس سنوات نجح جوسينسكي في انتخابات المؤتمر اليهودي الروسي وأصبح رئيسا له في روسيا . وأرجعت وسائل الإعلام هذا النجاح لا لأن جوسينسكي متدين أو متمسك بالعادات اليهودية بقدر ما لديه رغبة في تأمين ما يبرر تصرفاته السيئة المحتملة تحت ذريعة الدفاع عن النفس أمام العداء للسامية . أما الملياردير اليهودي الروسي بوريس بريزوفسكي الذي يملك جواز سفر إسرائيلي أيضا فهو يعلن على الدوام أنه حريص على مصالح روسيا وأمنها واقتصادها حتى إذا حدث ذلك في علاقته بإسرائيل . بيد أن بريزوفسكي على علاقة جيدة باللوبي الصهيوني في أمريكا على عكس صاحبه جوسينسكي المرتبط جدا بإسرائيل .

بداية المؤامرة

فجأة وبدون مقدمات قام اتحاد الجمعيات اليهودية الروسية بإصدار بيان وقعه كل من كبير الحاخامات الروس بيرل لازار ورئيس اتحاد الجمعيات اليهودية ميخائيل جلوز يتهمون فيه ضمنا وصراحة تلاعب اللوبي الصهيوني

العالمى وفروعه فى روسيا - والتى يمثلها بالدرجة الأولى طواغيت المال اليهود الذين يسيطرون على أهم قطاعات روسيا الاقتصادية والإعلامية - بمقدرات اليهود الروس الذين ينتمون إلى الشعب الروسى ويرفضون الاستجابة إلى ضغوط اللوبى الصهيونى الذى يحاول بدوره إثارة المشاعر العدائية ضدهم فى وطنهم الأم - روسيا . وفيما يلى نص البيان الذى يعتبر واحد من الوثائق الخاصة جدا - والهامة جدا - فى إثبات ما يحاول اللوبى الصهيونى العالمى نفيه أو إبعاد الأنظار عنه .

نص البيان :

" نحن حاخامات ورؤساء الجمعيات اليهودية فى روسيا البالغ عددها ٨٤ جمعية نعبر عن قلقنا تجاه محاولات إثارة اهتمام البلدان الأجنبية بأمور تخص اليهود الروس بصورة مصطنعة .

من ضمن تلك المحاولات التى نستنكرها وندينها تأتى الزيارة التى يقوم بها الحاخام إدولف شايفيتش إلى الولايات المتحدة الأمريكية والتى ينوى خلالها على قدر علمنا توجيه نداء للتدخل فى شؤون الجالية اليهودية فى روسيا وتوجيه انتقادات إلى القيادة السياسية لبلادنا .

إننا نرى أن نشاطا سياسيا كهذا يقوم به أحد الحاخامات يسئ إلى الديانة اليهودية وينعكس على اليهود الروس بالضرر إذ أن مثل هذا التصرف قد يوحى بأنهم قد أصبحوا عنصرا غريبا ودخيلا على بلادهم . ومن الممكن أن يؤدى عمل من هذا النوع إلى انفجار للمشاعر العدائية تجاه اليهود . كما أن هذا العمل يستهدف بالدرجة الأولى وضع اليهود فى مواجهة مع السلطات الروسية وجعلهم منبوذين فى بلادهم من ناحية ومن ناحية أخرى صب ما سوف يترتب عن ذلك من نشاطات وتصرفات وأعمال تهدف كلها إلى " الدفاع " عن مصالحهم فى الرصيد السياسى لمن يزاول هذه النشاطات والأعمال والتصرفات .

هنا لابد من الإشارة إلى أن الظروف التى تهيأت لليهود فى روسيا خلال الأعوام العشرة الأخيرة قد مكنتهم من العودة إلى جذورهم وإحياء ديانتهم وهى الفرصة الكبيرة التى لم تتح لهم من قبل وخاصة للاحتكاك والتعامل مع إخوانهم فى الدين فى بلدهم وخارجها .

إننا نرى أن محاولات تسييس الجالية اليهودية فى روسيا ووضع زعمائها الروحيين فى خدمة الساسة وطواغيت المال تؤدى إلى ضرب سمعة الديانة اليهودية وزعماء اليهود المتدينين والحاخامات .

إن مثل هذه المحاولات لا تتنافى مع مبادئ الديانة اليهودية فحسب بل تساهم أيضا فى رسم صورة سلبية لليهود الروس من خلال تحويلهم إلى أداة لتحقيق أهداف لا علاقة لهم بها .

إننا نرى أن المأساة التى عاشها اليهود فى القرن العشرين تفرض الحظر على وضع شعبنا داخل لعبة سياسية سواء على الساحة السياسية الداخلية أو الخارجية .

إننا نعارض أن تتدخل القوى الخارجية أو الدولة فى شؤون الجالية اليهودية الروسية انطلاقا من اعتقادنا بأن الشئ الذى نحن فى أمس الحاجة إليه اليوم هو العيش بهدوء وتأدية فرائض ديانتنا والمحافظة على تقاليدنا وإثرائها .

البداية الحقيقية

اتضح أن الحاخام إدولف شايفيتش قد طار إلى الولايات المتحدة الأمريكية بإيعاز من المؤتمر اليهودى على أن يكون وجوده فى واشنطن متزامنا مع وجود رئيس الولايات المتحدة السابق بيل كلينتون فى موسكو . وعلى الفور

قامت وسائل الإعلام الروسية بالكشف عن علاقة الحاخام إدولف شايفيتش بالملياردير فلاديمير جوسينسكى من ناحية ومن ناحية أخرى ألقت الضوء على علاقة اتحاد الجمعيات اليهودية الذى أصدر البيان أعلاه بالمليونير بوريس بريزوفسكى . وتساءلت بعض الصحف الوطنية الروسية : هل هناك فعلا خلاف بين قطبى اليهود فى روسيا هل هناك مشاكل حقيقية بين اتحاد الجمعيات اليهودية والمؤتمر اليهودى فى موسكو هل هُناك انشقاق بين حاخامات اليهود الروس ومحاولتهم الضغط على السلطة الروسية الجديدة في وقت عصيب من تاريخ روسيا أم أن الطرفين وجدا نفسهما خارج الكرملين فبدأ اللوبى الأب فى توزيع الأدوار كعادته التاريخية من أجل الفوز ولو حتى بمكان واحد ـ فى أسوأ الأحوال ـ تحت قبة مركز الرئاسة فى روسيا !

هل هو توزيع أدوار

المعروف أن اتحاد الجمعيات اليهودية الروسية أقيم منذ ما يقرب من عامين على يد الملياردير الإسرائيلى الروسى بوريس بريزوفسكى صاحب القناة الأولى بالتلفزيون الروسى وهى إحدى أهم القنوات التلفزيونية فى روسيا . على الجانب الآخر هناك المؤتمر اليهودى الروسى الذى يرأسه الملياردير اليهودى الروسى فلاديمير جوسينسكى صاحب شركة " ميديا موست " و بنك " ميديا موست " و القناة الرابعة بالتلفزيون الروسى والمنافسة للقناة الأولى !

المعروف أيضا أن الصراع دار منذ سنوات طويلة ولا يزال يدور بين أقوى اتجاهين للتجمعات اليهودية فى روسيا من أجل إيجاد مكان لهما أو لأحدهما على الأقل فى مؤسسة السلطة الجديدة . هذان الاتجاهان لا يملكان المال فقط ولكنهما أيضا أضخم مؤسستين إعلاميتين على الإطلاق فى روسيا . وعادة ما تقوم كل من المؤسستين " بالتنغيم مع الأخرى " أو بالأحرى تتبادلان الأدوار شدا وجذبا مع الحكومة الروسية والجمهور . وكثيرا ما جرت مناوشات خطيرة بينهما أثارت المجتمع الروسى .

القبض على جوسينسكى

كان من الممكن أن ينتهى الأمر عند ذلك . ولكن فجأة قامت النيابة العامة الروسية بإلقاء القبض على فلاديمير جوسينسكى ووضعه على ذمة التحقيق حيث يسمح القانون الروسى بذلك على أن توجه النيابة العامة خلال عشرة أيام اتهاما إلى المقبوض عليه أو تفرج عنه .

هنا قامت قائمة اللوبى الصهيونى فى روسيا والعالم كله . وصرحت الأوساط اليهودية الروسية أن القبض على جوسينسكى يندرج تحت أعمال " العنف " التى تمارسها الحكومة الروسية ضد اليهود . وجاء فى بيان أصدرته منظمات يهودية بما فيها ما يسمى بـ " الاستقلال الذاتى القومى الثقافى اليهودى الفيدرالى " و " المؤتمر اليهودى الروسى " و" مؤتمر الجمعيات الدينية اليهودية فى روسيا " و" الجمعية اليهودية بمدينة موسكو " أنهم يعتبرون أن هذا الإجراء أتى بمثابة رد فعل السلطات " لخروجنا عن الطاعة " . وأشار البيان إلى أن هذه ليست المرة الأولى التى تحاول فيها السلطات الروسية أن تجعل من الجالية اليهودية " دمية " تتلاعب بها .

أما كبير الحاخامات إدولف شايفيتش فيعزو السبب فى اعتقال جوسينسكى إلى محاولة مجموعة " انفصالية " من الحاخامات يبلغ عددها ٢٥ حاخاما لانتخاب كبير حاخامات جديد يرفضه أغلبية اليهود الروس . ويرى شايفيتش أن السلطة الروسية هى التى دبرت هذا " الانقلاب " وأن " الهجوم " لا يستهدفه هو شخصيا بقدر ما يستهدف رئيس المؤتمر اليهودى الروسى جوسينسكى .

وأعلن نائب رئيس المؤتمر اليهودى الروسى ألكسندر أوسوفتسوف أنهم ينوون القيام بأعمال تندرج فى إطار " العصيان المدنى " ولكنهم لا يزمعون اقتحام السجن الذى يوجد به رئيسهم أو رشق النيابة العامة الروسية بالحجارة . أما رئيس الكنيست الإسرائيلى أفرام بورج فقد اقترح البدء بحملة عالمية إسرائيلية تدعو للإفراج عن جوسينسكى . وقام كل من وزير الداخلية الإسرائيلى ناتان شارانسكى ووزير الاستيعاب يولى تامير بالتصويت بـ " نعم " على هذا الاقتراح . أما الرأى العام الأمريكى ومجلس الشيوخ فكانت تصريحاتهما أكثر حدة وصرامة .

أما المفارقة المدهشة فهى التناقض الشديد فى موقف الروس . ففى الوقت الذى أعلن فيه الشارع الروسى عن ارتياحه لمثل هذا الإجراء (الجرئ جدا) كبداية لشن حملة على فساد طواغيت المال فى روسيا أعلن عمدة موسكو يورى لوجكوف أنه على استعداد لدخول السجن كرهينة بدلا من جوسينسكى الذى يجب إطلاق سراحه وقام ١٧ من طواغيت المال بتقديم طلب إلى الرئيس الروسى للإفراج عن جوسينسكى . إلا أن رد الرئيس كان قاطعا : " لا أحد فوق القانون " .

فى هذا الإطار جاء رد مسؤول النيابة العامة التى أمرت بالقبض على جوسينسكى بتهمة اختلاس مال الغير بأن استعداد عمدة موسكو لدخول السجن بدلا عن جوسينسكى " كلام فارغ " الغرض منه خطف الأضواء وفى حالة استجابة رئيس الدولة لطلب طواغيت المال بالإفراج عن المتهم ستكون هناك رسالة واضحة من قبله بأن طواغيت المال فوق القانون وخاصة اليهود حيث لا يوجد طواغيت مال روس . وأشار مسؤول وزارة العدل الروسية إلى أنه لا أحد يدعو الرئيس الأمريكى إلى التدخل بعدما أحيل شركاء الملياردير بيل جيتس إلى المحاكمة ولكنهم فى روسيا يطلبون من رئيس الدولة التدخل ويحاولون خلط الأوراق بحيث لا يمكن لأحد فصل قضايا اختلاس المال العام عن حرية الكلمة عن معاداة السامية !

إن التهمة الموجهة إلى جوسينسكى هى الاحتيال وسرقة مال الدولة . هذه التهمة وجهت إلى جميع من قاموا ببيع ممتلكات الاتحاد السوفيتى بداية من جيدار أول رئيس وزراء ليلتسين وانتهاء بتشيرنوميردين وأناتولى تشوبايس وألفريد كوخ مهندس الخصخصة الذى فر إلى أمريكا بعد أن ثبت بيعه لممتلكات الدولة السوفيتية بأرخص ما يمكن . تم توجيه هذه التهمة أيضا إلى كل من قاموا بالشراء ولسوء حظ الروس فأغلب أو بالأحرى كل من اشتروا كانوا من اليهود . الأكثر إثارة للدهشة أن الجميع حصلوا على الحكم بالبراءة بشكل أو بآخر : حيث أغلقت القضايا والملفات فى أسوأ الأحوال نظرا لأن جميع الصفقات كانت تتم على يد الكرملين فى عهد بوريس يلتسين بل وكانت حصة الكرملين تقدم بأشكال مختلفة بداية من الـ " كريدت كارت " بملايين الدولارات فى البنوك الأجنبية أو شراء القصور فى أوروبا ونهاية بالهدايا العينية الثمينة التى تبلغ أسعارها ملايين الدولارات .

ماذا يحدث بالضبط !

يبدو أن القيادة الروسية تريد أن تؤكد للجميع وعلى رأسهم طواغيت المال أن لا أحد فوق القانون وأن تقوم بإحكام قبضتها على روسيا بعد أن استشرى فيها الانقسام والتحلل خلال السنوات العشر الماضية . ولكن يبدو أن هذه الإجراءات لم يكن متفق عليها ضمن شروط إدخال فلاديمير بوتين إلى المسرح السياسى الروسى وخاصة بعد ظهور العديد من الفضائح المالية والفساد والاختلاسات فى كل مكان بداية من الكرملين . ناهيك عن تورط طواغيت المال بدرجات مختلفة وتورط رئيس الدولة شخصيا وذلك بناء على الاتهامات المقدمة من احتكارات " مويبتكس " السويسرية ضد ابنتى يلتسين لتقاضيهما ملايين الدولارات من أجل تسهيل بعض العمليات فى روسيا مثل ترميمات

الكرملين التى قاربت على المليار دولار . إضافة إلى تورط عمدة موسكو فى مخالفات قانونية خطيرة وإلى جانبه بريزوفسكي صديق الأسرة ـ أسرة بوريس يلتسين .

ولكن ماذا عن وضع الرئيس الروسي وعلاقته بما يحدث ! ماذا يحدث بالضبط فى روسيا وما علاقة كل ذلك بعملية ترتيب الأوراق التى يديرها اللوبى الصهيونى العالمى فى بداية القرن الجديد !

لقد أصبح الرئيس الروسى فلاديمير بوتين فى وضع لا يحسد عليه . فبمجرد أن غادر روسيا متوجها لزيارة بعض الدول الأوروبية ودول الاتحاد السوفيتي السابق حتى انطلقت فضيحة جوسينسكى . ورغم أن بوتين أعلن أن النيابة العامة هيئة مستقلة إلا أنه من الضرورى أن يوضح موقفه من هذه القضية نظرا لاعتبارات كثيرة منها تدخل الرئيس الأمريكى وطواغيت المال اليهود فى العالم كله والأهم من كل ذلك تدخل من لا تروق لهم الخطوات التى يتخذها الرئيس الجديد من أجل إصلاح الفساد المستشرى فى البلاد . بيد أن هناك أكثر من طرف يدير شؤون روسيا إلى جانب رئيس الدولة المركزية ومن الصعب أن يعرف أحد بتوصيات أولئك الذين أدخلوا بوتين إلى الحلبة السياسية . ولكن من الممكن أن نتكهن بأن بوتين قد بدأ يتجاوز الدور الذى أرادوا منه أن يلعبه فى التوسط بين أصحاب النفوذ فى العاصمة والأقاليم . ويبدو أن بوتين يسعى إلى تخفيض عدد " الحكام " الآخرين غير المذكورين فى الدستور ولكن الموجودين بحكم الثروات والسطوة والسلطة . وهناك احتمال لسيناريوهين ... الأول هو أن الكرملين إذ لا يدرك أنه يقدر على مواجهة جميع " الحكام " فى آن واحد يحاول فصلهم من السلطة تباعا لاعبا على وتر التناقضات بينهم وجاء الدور على جوسينسكى وإمبراطوريته الإعلامية المشبوهة . أى أن المسألة لا تخص ما يسمى بمعاداة السامية أو تقييد حرية اليهود فى روسيا . والسيناريو الثانى هو أن أصحاب النفوذ يستخدمون آلة الدولة (فى الخفاء والعلن) كأداة للصراع بينهم كما يفعل رجال الأعمال حين يسلمون منافسيهم إلى البوليس أو رجال المافيا حين يصفون بعضهم البعض جسديا . ولم يكن مصادفة أن يؤكد بريزوفسكى بأن كل من مارس " البيزنس " فى روسيا خلال السنوات العشر الأخيرة ارتكب العديد من المخالفات !

الواقع أن كلا السيناريوهين موجودان وكل منهما خطير إذ أن الثانى يجعل الدولة ألعوبة فى يد رجال الأعمال الذين يملك أغلبهم أو كلهم جنسيات إسرائيلية إلى جانب الروسية فيما تكمن خطورة الأول فى أن السلطة قد لا تستطيع أن تقف عند حدها فتساوى جماعات الضغط وأصحاب النفوذ بالحريات الديمقراطية التى يتشدقون بها .

فهل سيستطيع بوتين أن يصلح أخطاء الذين أتوا به من أجل دور محدد دون المساس بهم أم سيكون مصيره مثل مصير بريماكوف الذى رفض الانصياع لتهديدات وإغراءات اللوبى الصهيونى وفضل الحياة السياسية النيابية على اللعب مع " الكبار " فقبل إقالة بريماكوف من منصبه التقاه بريزوفسكى وطلب منه أن يعينه مستشارا له وكان رد بريماكوف : " لست فى حاجة إلى مستشارين من أمثالك " . ولكن بريزوفسكى آنذاك كان لايزال صديقا للأسرة ... وما حدث لبريماكوف معروف ! بيد أن بوتين رئيسا للدولة وليس رئيسا للوزراء وهنا تكمن المفارقة .

الإفراج عن جوسينسكى

تم الإفراج عن جوسينسكى بعد ثلاثة أيام فقط من القبض عليه قام الغرب وأمريكا خلالها بحملة إعلامية هائلة ضد روسيا . وحاولت العديد من وسائل الإعلام إفساد رحلة بوتين إلى الخارج . جاء الإفراج مشروطا بعدم مغادرة البلاد والسبب ـ سبب الإفراج ـ هو أن جوسينسكى حاصل على ميدالية " الصداقة بين الشعوب " عام ١٩٩٦م من بوريس يلتسين أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية ومكافأة له على موقفه " الإيجابى " من عملية إغلاق الصحف

ووسائل الإعلام عام ١٩٩٣م والتى قام بها يلتسين لتنظيف الساحة السياسية الروسية من معارضيه .

كان أول تهديد صرح به الملياردير اليهودى من خلال آلته الإعلامية الضخمة : " فى مؤسستى الإعلامية يوجد ٢١ ألف فرصة عمل " ! ... " السلطة فى روسيا تريد أن تحول اليهود الروس إلى لجنة معادية للصهيونية " ! ... السلطة فى روسيا تريد العودة إلى الوراء ، بتدمير كل الإنجازات التى تمت خلال السنوات العشر الماضية " ! غير أن جوسينسكى لم يذكر تلك الإنجازات بل وأضاف " إننى أعترف بخطأى عندما وقفت إلى جانب السلطة السابقة فهذه السلطة هى التى أتت بالسلطة الحالية وأعطتنا ضمانات بعدم المساس بنا " ! ... " على الدولة أن تحل مشاكلها بعيدا عنى فأنا لست سبب أزماتها الاقتصادية . لقد بدأت عملية الخصخصة وبيع ممتلكات الدولة السوفيتية . ولكنها لم تكن عملية خصخصة وإنما كانت عملية توزيع حصص أخذ كل منها بالقدر الذى تستطيع معدته أن تهضمه . أى إننى كغيرى من الذين أخذوا نصيبهم . أى إننى بدأت منذ عشر سنوات كغيرى من الصفر ولكننى دؤوب وذكى وعبقرى فماذا أفعل وما ذنبى فى ذلك . ولماذا تأخذنى الدولة كبش فداء ، لجميع طواغيت المال فى روسيا " ! .. وعندما وجهوا إليه استفسارا عن جنسيته الإسرائيلية رد فى تراجيدية بالغة : " علينا نحن اليهود المساكين أن نحصل على جنسيات البلاد التى نعيش فيها ولكن من الضرورى الحصول على جنسية هذا البلد الصغير الجميل مثل قلوبنا . وأشار إلى قلبه بحركة مسرحية فهو مخرج مسرحى سابق ذو مستوى فنى متواضع جدا . والموجود دوما فى قلوبنا " ! ...

هذه هى تصريحات الملياردير اليهودى الروسى . علما بأن جميع مهندسى الخصخصة كانوا من اليهود الذين ساندوا يلتسين مثل جيدار وتشوبايس وكوخ وكذلك الذين اشتروا . أو بالأحرى حصلوا على حصتهم من أملاك الاتحاد السوفيتى بـ " الملاليم " . كل ذلك يعيدنا إلى الوراء قليلا إلى العبارة الشهيرة التى وجهها الكاتب اليهودى الروسى إدوارد توبول إلى طواغيت المال اليهود وبالأخص بوريس بريزوفسكى على أثر الأزمة المالية الطاحنة التى حدثت فى ١٧ أغسطس عام ١٩٩٨م ومازالت روسيا تعانى من نتائجها إلى يومنا هذا : " أنتم تعرفون . الحديث موجه إلى طواغيت المال وبريزوفسكى بالذات . إنه عندما أصبحت جميع الأموال الألمانية فى أيدى أصحاب البنوك اليهود الذين كانوا يفكرون فقط فى مضاعفة ثرواتهم وسلطاتهم فى ألمانيا ظهر هناك هتلر وانتهى الأمر بالهولوكوست " .

القرن الحادى والعشرون يبدأ بنفس ما حدث فى روسيا وألمانيا فى بداية القرن العشرين . ليس بالضبط ولكن بنفس الآلية . بيد أن ثورة ١٩١٧م أنقذت اليهود من مجازر محتملة نتيجة لتسلطهم وتزلفهم ومساندتهم للقيصر ضد الشعب الروسى وساوتهم فى الحقوق مع الروس وباقى القوميات الأخرى (وهو الأمر الذى يرفضونه على الإطلاق على اعتبار أنهم أكثر تمايزا واختلافا ويجب أن يملكوا حقوقا وصلاحيات أكثر) بل ووضعتهم فى سدة السلطة . أما النازية فى ألمانيا فقد قامت بالاتفاق مع أقطاب الحركة الصهيونية بذبح اليهود وتهجيرهم .

جوقة " التنغيم "

على الجانب الآخر يقف عازفون يهود من نوع آخر . يقفون ضد ما يحدث مع تمسكهم بكل ما حصلوا عليه وحصل عليه طواغيتهم مصرحين بنفس العبارات التاريخية القديمة لفن التنغيم اليهودى . الصهيونى . قام البروفيسور اليهودى الروسى ياكوف إيتنجر بافتعال أزمة جديدة مع ألكسندر أوسوفتسوف نائب رئيس المؤتمر اليهودى أى نائب جوسينسكى . ولعله من المهم أن نورد ما ذكره البروفيسور اليهودى بالنص من أجل إلقاء الضوء على نوتة " التنغيم " الجديدة . القديمة مثل العالم .

نص تصريحات البروفيسور اليهودى

"ما يهمنا في قصة اعتقال رئيس شركة " ميديا موست " فلاديمير جوسينسكى هو أن قيادة المؤتمر اليهودى الروسى وبعض التنظيمات اليهودية الأخرى تسعى لتصوير اعتقال جوسينسكى الذى هو رئيس المؤتمر اليهودى الروسى أيضا وكأنه إجراء يستهدف اليهود الروس كافة . وهكذا جاء البيان المذيل بتوقيع ألكسندر أوسوفتسوف نائب رئيس المؤتمر اليهودى الروسى " أن اعتقال جوسينسكى يمثل تعديا على استقلالية الجالية اليهودية فى روسيا . وأشار البيان إلى أن هذا الإجراء جاء نتيجة " اخروجنا على طاعة السلطات التى حاولت أكثر من مرة أن تجعل الجالية اليهودية دمية تتلاعب بها " . وليس هناك من يبرر لمحاولة تصوير ما حدث لجوسينسكى وكأنه حادث يصب فى إطار معاداة السامية . ولا يمكن لأى إنسان متعقل أن يقبل ذلك خاصة وأن اعتقال رئيس شركة " ميديا موست " جاء بناء على مبادرة من أبناء جلدته بمن فيهم رومان أبراموفيتش وألكسندر ماموت . وحسب أقوال السيد أوسوفتسوف فإن هناك محاولة لتصفية قيادات الجالية اليهودية في روسيا بالطريقة التى حدثت عام ١٩٣٧م .. إنها مزاعم عارية من الصحة . وزعم السيد أوسوفتسوف أن المسألة اليهودية تحولت مرة أخرى من كونها مسألة مطروحة على المستوى الشعبى إلى مسألة مطروحة على المستوى الرسمى وأن جميع يهود روسيا أصبحوا فى وضع صعب .. "

بقية التصريح على نفس الإيقاع . بيد أن جوقة التنغيم تشير أو تطالب باستقلالية الجالية اليهودية فى روسيا . وكلمة " الاستقلالية " هنا مطاطة للغاية وليس لها حدود معروفة أو واضحة . ولكن فى المقابل من حق الجالية اليهودية أن تعترض على استقلالية الدولة أية دولة ماعدا إسرائيل ! أما موضوع محاولة تصوير المسألة اليهودية على أنها تجاوزت الطرح الشعبى إلى الطرح على مستوى السلطة الرسمية فهو أمر فى غاية التناقض لأنه يحاول تصوير الشعب الروسى معاد لما يسمى بالسامية وهو الأمر المستحيل تاريخيا . ويبدو أنها محاولة من جوقة التنغيم لإخفاء ما يسمى بـ " حدود الإقامة " . الطريف أن هذا القانون كان ساريا فى عهد القيصرية الروسية ضد اليهود بتحديد مناطق إقامتهم فى القرى والأماكن النائية . إلا إن اليهود يطبقونه اليوم على الروس الذين مازالوا يعيشون فى شقق مشتركة وغرف منفردة على أطراف موسكو أما العاصمة كلها فقد أصبحت مملوكة للمواطنين الروس من اليهود الذين يملكون جنسية " البلد الصغير مثل القلب والموجود دائما فى القلب " !

فلاديمير جوسينسكى ومؤسسته الإعلامية

بدأ جوسينسكى تجارته فى القطاع المصرفى وقام ببناء مؤسسة " ميديا موست " على أساس حملة الخصخصة التى حدثت بمجرد سقوط الاتحاد السوفيتى وبيع تركته بأثمان زهيدة وهو ما يجعله متورطا فى الاستيلاء على أملاك الدولة مثل جميع طواغيت المال الذين ظهروا فجأة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى إلا إنه ركز نشاطاته التجارية فى تأسيس إمبراطورية إعلامية تضمن عددا هائلا من وسائل الإعلام : قناة تلفزيونية مركزية (إن . تى . فى) إذاعة " صدى موسكو " صحيفة " إتوجى " الأسبوعية صحيفة "كمسمولسكايا برافدا" اليومية وعدد من المطبوعات الأخرى.

خلال بضع سنوات تلقت إمبراطورية جوسينسكى أموالا ضخمة من بعض المؤسسات الحكومية مثل " جاز بروم " و " سبير بنك " ولم تكن هناك مشاكل على الإطلاق لدى جوسينسكى طيلة حكم الرئيس بوريس يلتسين . وفى يوليو ٢٠٠٠ لم يتمكن جوسينسكى من إعادة ٢٠٠ مليون دولار مترتبة عليه لصالح مؤسسة " غاز بروم " التى سددت عنه

هذه الكفالة لشركائه الأجانب مقابل رهن نسبة من أسهم مؤسسته " ميديا موست " . وهنا بدأت تحوم الشبهات حول جوسينسكي لقيامه بتهريب أسهمه خارج روسيا .

تم القبض على جوسينسكي في يوليو ٢٠٠٠ بتهمة الاحتيال وسرقة أموال الدولة أثناء خصخصة إحدى قنوات التلفزيون الحكومية وتم إخراجه من السجن بعد توقيعه اتفاقية مع " جاز بروم " تقضي بشرائها إمبراطورية جوسينسكي الإعلامية بمبلغ ٧٠٠ مليون دولار وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة كي يفلت جوسينسكي من السجن . وبمجرد خروجه تنكر جوسينسكي للصفقة وفر إلى خارج روسيا .

يفجيني كسيليوف

مواليد ١٥ يونيو ١٩٥٦ . أنهى معهد بلدان آسيا وأفريقيا . في الفترة من ٧٩-١٩٨٦ عمل ضابطا بجهاز الاستخبارات السوفيتية (كي . جي . بي) ومدرسا للغة الفارسية بمدرسة المخابرات . في عامي ٨٦-١٩٨٧ عمل مترجما أثناء الاحتلال السوفيتي لأفغانستان إلى جانب الترويج للسياسة السوفيتية بين الجنود السوفيت والأفغان على حد سواء . بدأ العمل منذ عام ١٩٨٧ بالتلفزيون المركزي للاتحاد السوفيتي في برامج لترويج الأيديولوجيا السوفيتية . ومنذ عام ١٩٩٣ يعمل بقناة (إن . تي . في) . وبعد تجريد جوسينسكي من هذه القناة انتقل كسيليوف إلى العمل في منصب مدير " القناة ٦ " المملوكة لبوريس بريزوفسكي .

مؤسسة " جازبروم - ميديا "

تأسست " جازبروم " عام ١٩٩٧ ورأسها رئيس الوزراء الروسي الأسبق فيكتور تشيرنوميردين . وكان من المخطط له أن تقوم " جازبروم " بالعمل لصالح تشيرنوميردين في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٠ من أجل تولي رئاسة روسيا .

وفي عام ١٩٩٨ تأسست " جازبروم - ميديا " برأس مال ٢٠ مليار روبل . وتولى رئيس إدارتها ألفريد كوخ في ١٠ يونيو ٢٠٠٠ بعد عودته من الهروب إلى أمريكا فرارا من وجه القضاء الروسي . هناك أيضا مؤسسة "غاز بروم" التي تسيطر عبر شركتها الإعلامية " غاز بروم- ميد يا" على أكثر من ١٠٠ صحيفة تصدر في الأقاليم إضافة إلى عدد من الصحف الفيدرالية مثل "رابوتشايا تروبينا" و"ترود" وغيرهما واصبح احتكار "غاز- بروم" يمتلك في الفترة الأخيرة - بعد هجوم الكرملين ضد جوسينسكي - حوالي ٣٠٪ من الاحتكار الإعلامي " ميديا موست" وبالرغم من أن الحكومة الروسية هي التي تسيطر على حزمة الأسهم القابضة إلا أن ممثل الحكومة الذي يسيطر الآن على هذا الاحتكار هو ألكسي ميللر و الذي شغل منصب نائب وزير الطاقة وهو أيضا يهودي وقد خلف المدير السابق ريم فياخروف (تتاري - بلطيقي) باعتبار أنه محسوب على مجموعة بوتين (والذي كان لابد أن يضع أنصاره على رأس المؤسسات المالية الضخمة والاحتكارات الصناعية التي تسيطر عليها الحكومة) . أما " غاز بروم- ميد يا" التي أصبحت تمتلك حوالي ٣٠٪ من الاحتكار الإعلامي " ميديا موست" فبعد أن أطاحت بمجموعة جوسينسكي مكنت مجموعة أخرى من مد نفوذها في " غاز بروم- ميديا" وفي "ميديا موست" وتضم هذه المجموعة الأمريكي اليهودي - من أصول روسية - بوريس جودان و أحد منظري الخصخصة (بالتعاون مع اناتولي تشوبايس) ألفريد كوخ .

ألفريد كوخ

مواليد ٢٨ فبراير ١٩٦١ في كازخستان . أنهى معهد ليننجراد للعلوم الاقتصادية عام ١٩٨٣ . وفي عام ١٩٨٧ حصل على الدكتوراه في الاسبرانطيقا الاقتصادية . عمل في وظائف إدارية كثيرة من ٨٧- ١٩٩٠ أغلبها مرتبط بالحزب الشيوعي السوفيتي . وفي عام ١٩٩١ عين نائبا لمدير إدارة لجنة أملاك الاتحاد السوفيتي في سانت

بطرس بورج . من ٩٢-٩٦ أصبح نائبا لرئيس لجنة أملاك الاتحاد السوفيتي في روسيا الاتحادية ثم نائبه الأول . وفي عام ١٩٩٧ تم الكشف عن فضيحة الرشاوى والعمولات التي تورط فيها كوخ وأناتولي تشوبايس ومجموعة أخرى تمكنت من بيع ممتلكات الاتحاد السوفيتي بما لا يعادل عشر قيمتها الحقيقية . وتم طرده من منصبه فأنشأ بنكا تحت اسم "الجبال الذهبية" . وعندما أمرت النيابة العامة الروسية بالقبض عليه بتهمة الاستيلاء على أموال الدولة فر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ولم يعد من هناك إلا بعد العفو عنه .

أثناء تواجده في الولايات المتحدة أعلن حربا إعلامية على السلطات الروسية . وكان حديثه الإذاعي لإحدى المحطات الأمريكية الناطقة بالروسية أحد أكبر الفضائح الإعلامية - المالية في روسيا .

هناك أيضا مجموعة (أونيكسم) المالية التي يمتلكها المليونيران اليهوديان بوتانين وميخائيل كوجكين والتي اتهمت بنهب المال العام بالتواطؤ مع فيكتور تشيرنوميردين خلال فترة رئاسته للحكومة الروسية وذلك بناء على قرار أصدره تشيرنوميردين نفسه بإيداع كافة أرصدة وأموال الحكومة الروسية في بنك (أونيكسم) وكان بوريس نيمسوف الذي عمل آنذاك نائبا لرئيس - وهو حاليا نائب في البرلمان وزعيم حركة اتحاد القوى اليمينية - هو همزة الوصل والمنظم الأساسي لهذا الاتفاق . وتضم مجموعة (أونيكسم) الإعلامية وكالة "برايم تاس" للأنباء وراديو "أوروبا" وجزء من أسهم جريدة "إزفيستيا" و"كمسومولسكايا برافدا" وأكثر من ٤٠ جريدة في الأقاليم الروسية إضافة لامتلاكها حصة من قناة REN-TV .

ويجب القول أن رجال الأعمال اليهود يسيطرون على عدد من الأنشطة الاقتصادية الهامة منها على سبيل المثال صناعة الألمونيوم في أهم مواقعها بمقاطعة "كراسنويارسك" التي يسيطر عليها الأخوان ليف وميخائيل تشورني وهما يقيمان في إسرائيل . وفي مجال الأعمال البنكية يسيطر سمولينسكي على أكبر مجموعة بنكية "أجرو- بنك" . وفي قطاع استثمار النفط يمتلك بيريزوفسكي مؤسسة "سب-نفط" التي تعتبر أحد أكبر مؤسسات النفط الروسية إضافة إلى مجال استخراج وتصنيع الألماس في شرق سيبيريا الذي يعمل فيه المليونير الروسي اليهودي رامان أبراموفيتش والجدير بالذكر أن استثمارات رامان أبراموفيتش قد ارتبطت بوزير البنية التحتية الإسرائيلي (أفوجودر ليبرمان) و قد حصلت الشركة الإسرائيلية لإنتاج الألماس على عقد احتكار لإنتاج مناجم جمهورية ياقوتيا في صيف ٢٠٠١ .

من خلال هذا الرصد السريع لخريطة الإعلام الروسي يصعب القول بأن سيطرة الرأسمال الصهيوني كانت من باب المصادفة ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال دور الإعلام الروسي الذي كان - وفق تصريحات الأوساط السياسية والحكومية - يتعارض في كثير من الأحيان مع المصالح الروسية .

خلال الحرب الشيشانية الأولى كثف الإعلام الروسي من حملته المعادية للقوات الروسية مستندا في مواقفه إلى : الدفاع عن حق الشعب الشيشاني في الاستقلال وعنف العمليات العسكرية الروسية التي أودت بحياة أكثر من ٦٠ ألف شيشاني وضرورة التخلص من كافة الأقاليم التي تعيق بناء الاقتصاد الحر ورفاهية الشعب الروسي في إطار علاقات السوق الرأسمالي . إلا أن هذه الحملة ترافقت أيضا مع إظهار المواطن الشيشاني كنموذج المجرم الإرهابي واعتبر المحللون السياسيون أن هذا التوجه لوسائل الإعلام الروسية وإن كان يبدو ذو أهداف نبيلة إلا إنه مدفوع الثمن من قبل مجموعة من كبار القادة العسكريين الذين رسموا وفجروا اللعبة الشيشانية مع القائد الشيشاني المعروف "جوهار دودايف" والتي استهدف منها هؤلاء العسكريون أن تصبح منطقة الشيشان إقليم متمرد عن النفوذ الروسي حتى يتمكنوا من تسويق مخزون السلاح الهائل الذي نهب من مخازن الجيش السوفيتي لحسابهم بعيدا عن أية رقابة وسلطة يمكن أن تحاسبهم وقد اعتبر روسلان حزب اللاتوف رئيس مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية روسيا في الفترة

١٩٨٩-١٩٩٣ فى تصريحاته للصحافة العربية أن كل من شارك فى هذه اللعبة هو مجرد مغامر يسعى لجمع المال حتى لو كان ذلك على حساب مصالح شعبه وبلاده مؤكدا على أن مخزون الأسلحة والمعدات العسكرية السوفيتية فى الشيشان آنذاك كان كافيا لتسليح جيش يقدر تعداده بحوالى ١٠٠ ألف جندى وأن هذا المخزون قد أصبح مجهول المصير منذ عام ١٩٩١. من جهة أخرى يعتقد المحللون أن سيادة النزعة الموالية للغرب والولايات المتحدة فى أوساط المثقفين الروس آنذاك قد سهل للغرب التسلل لتكريس سياسة منح الاستقلال لمن يرغب من شعوب روسيا و الاتحاد السوفيتي بصرف النظر عن أية عوامل أو مصالح أخرى الأمر الذى ينسجم مع مصالح المخطط الأمريكى آنذاك والهادف إلى تقسيم روسيا إلى دويلات صغيرة تنعدم لديها القدرة على القيام بأى دور على الساحة الدولية وتفقد الأدوات والإمكانيات للحفاظ على قوتها ومكانتها كقوة عظمى . وأخيرا يعتبر المحللون الروس أن الحملات الإعلامية استهدفت تحطيم الثقة والتواصل بين الجبهة الداخلية والجيش الروسى عبر تصويره بأنه جيش ضعيف وعدوانى ..الخ لكى تصبح المؤسسة العسكرية الروسية مثارا للسخرية ومن ثم رفض المجتمع الروسى وهو ما سهل مهمة المؤسسات العسكرية الغربية فى القضاء عليها . ناهيك عن أن تنمية المشاعر المعادية للحرب فى المجتمع الروسى كان يستهدف الحصول على دعم مختلف قطاعات هذا المجتمع لانتخاب بوريس يلتسين لرئاسة روسيا الاتحادية والذى حوله الإعلام الروسى إلى بطل السلام الذى سيوقف هذه الحرب الدامية ! .

الجانب الآخر الذى حرص الإعلام الروسى على التركيز عليه هو ضرورة حرص موسكو على تحسين علاقاتها مع الغرب والانصياع لرغباته ونبذ علاقاتها مع دول العالم الثالث التى كانت دائما عبء على الشعب الروسى خاصة وأن هذه العلاقات تغضب الولايات المتحدة التى كانت تنتقد دوما أى تقارب روسى مع الدول العربية أو مع إيران أو الصين أو كوريا الشمالية ! إن التركيز على هذا التوجه جعل من روسيا دول مصدرة للمواد الخام وأدى إلى تدهور منتجاتها الصناعية التى فقدت معظم أسواقها بحكم ابتعادها عن دول العالم الثالث المكروهة من قبل الولايات المتحدة . أما الدول التى ترضى عنها الولايات المتحدة فهى بالقطع لن تتعامل مع روسيا لأنها تتعامل أساسا مع واشنطن !

وبدأ الاقتصاد الروسى يفقد عوامل قوته وينهار نظرا لسياسات الإصلاحيين الروس الذين أسقطوا (عن عمد أم من باب المصادفة !) من حساباتهم أن اختيار روسيا لطريق التطور الرأسمالى ورغبتها فى الانضمام إلى النظام الرأسمالى العالمى لا يلغى ضرورة خوضها صراعات حادة لحماية أسواقها التى ستشكل مصادر الدخل لاقتصادها . وسرعان ما لجأت الحكومة الروسية إلى صندوق النقد الدولى لسد العجز المتكرر فى ميزانياتها ومن ثم أصبحت أسيرة لشروطه وسياساته . لم تواجه هذه السياسات التى كان واضحا أنها تقود روسيا إلى كارثة أية انتقادات من وسائل الإعلام الروسية فى الوقت الذى كان الرأى العام الروسى يتحول إلى مواقع المعارضة للرئيس الروسى السابق بوريس يلتس والحكومات التى كان يضطر باستمرار إلى فرضها على البرلمان تحت وطأة التهديد والوعيد بحله . بل إن الإعلام الروسى كشف عن انحيازه الكامل وغير الموضوعى إلى جانب يلتسين المرشح من قبل كافة المراكز المالية والدوائر الصهيونية خلال انتخابات الرئاسة الروسية فى عام ١٩٩٦ والتى تم فيها تزوير النتائج لتحويل هزيمة يلتسين أمام منافسه الشيوعى جينادى زيوجانوف إلى انتصار واعتبرت وسائل الإعلام الروسية آنذاك أن انتصار يلتسين المزور هو انتصار للديمقراطية وحرية الرأى . وعندما قام يلتسين بفرض سيرجى كريينكو على البرلمان كرئيس للحكومة (والتى استهدف منه تمرير نتائج بداية الانهيار الاقتصادى الذى تسببت فيه سياسة مجموعة الإصلاحيين الموالية له). دعا الإعلام الروسى لمساندة كريينكو باعتباره يمثل مرحلة حكم الشباب والتى لم تستمر لأكثر من أربعة أشهر لتنتهى

بأزمة أغسطس الدامية !

وخلال الأعوام الأخيرة من فترة حكم يلتسين تحولت أغلبية قطاعات المجتمع الروسى إلى مواقع المعارضة الرافضة لحكم يلتسين بسبب سياساته ومع ذلك استمر الإعلام فى دعم حكم يلتسين المتداعى والترويج إلى مقولة "إن مصير روسيا قد أصبح فى يد العائلة التى أصبحت بدورها الحاكم الفعلى للبلاد بمباركة يلتسين" وهذه العائلة تألفت من "تتيانا دياتشينكو" ابنة يلتسين ومستشارته السياسية وبوريس بيريزوفسكى ورامان أبراموفيتش الذى اعتبره المراقبون يشغل وظيفة محاسب العائلة .

لم يكن تولى فلاديمير بوتين مقاليد السلطة فى روسيا ليؤدى إلى تغييرات جذرية فى إطار البرنامج الإصلاحى الروسى الساعى إلى الالتحاق بركب النظام الرأسمالى العالمى إلا فى بندين : الأول هو تحسين حصة روسيا فى السوق العالمى لإنعاش اقتصادها ودعم الرأسماليين الروس ولكن دون الأضرار بعلاقاتها مع الغرب وهو ما بلوره بوتين فى شعار استعادة هيبة الدولة الروسية . والثانى إعادة توزيع الحصص والأنصبة بين المؤسسة العسكرية والبيروقراطية والرأسماليين الروس . وهذان الآمران فجرا خلافا حادا بين الكرملين المدعوم من المؤسسة العسكرية والبيروقراطية من جهة ومجموعة الإصلاحيين التى كانت تسيطر على الحكم فى عهد يلتسين ثم أصبحت فجأة خارج هرم السلطة وباتت مطالبة بتقديم تنازلات ضد مصالحها ومصالح حلفا ءها الغربيين !

ومرة أخرى يتحرك الإعلام تحت شعار حماية حرية التعبير فى معركة للدفاع عن مجموعة الإصلاحيين الذين تبين إنهم كلهم من اليهود ويحمل أغلبهم الجنسية الإسرائيلية ولكن هذه المرة كانت المعركة ضد الكرملين الذى قرر أن يعيد ترتيب الأوضاع فى روسيا لحسابه فوجد نفسه فى مواجهة كان يعتقد أنها ستكون ضد الإصلاحيين من أنصار يلتسين ليتبين أنهم كلهم من كبار الرأسماليين اليهود وحلقات صلبة فى سلسلة اللوبى الصهيونى العالمى .

فى هذا السياق وفى ظل حكم بوتين الذى قرر أن يوطد علاقاته مع الدول العربية انطلاقا من مبدأ تبادل المنفعة والمصالح واستنادا إلى الرصيد التاريخى فى العلاقات والذى منح موسكو فى الفترة السابقة نفوذا فى الشرق الأوسط حرص الإعلام الروسى على تشويه صورة العرب وربطهم بالأزمة الشيشانية متجاهلا أن العديد من المقاتلين العرب قاموا بأعمال إرهابية فى بلادهم وأصبحوا مطلوبين من قبل الأجهزة الأمنية لهذا السبب بل تصل وقاحة أجهزة الإعلام الروسية إلى مقارنة وضع روسيا فى حربها ضد المعارضة الشيشانية بوضع إسرائيل فى صراعها ضد حزب الله فى لبنان وحركة حماس فى الأراضى المحتلة متجاهلة فى هذه المقارنة المشبوهة أن المجتمع الدولى وكافة مؤسساته تعترف بحق الشعب الفلسطينى فى بناء دولته المستقلة على ترابه الوطنى . وبدلا من تأخذ أجهزة الإعلام الروسية من الوضع فى الجزائر أو فى مصر وسوريا خلال فترة سابقة مثالا فى مواجهة التطرف الدينى اعتبرت إسرائيل خير مثال يحتذى به . وفى إطار هذه التوجهات التى تروج لها أجهزة الإعلام الروسية نكتشف أنها لا تسىء إلى العلاقات العربية الروسية فحسب وإنما تضر بالمصالح الوطنية الروسية بل و تتعارض معها فى كثير من الأحيان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الموقف من تعامل روسيا مع إيران .

مقال كبير حاخامات روسيا حول القضية الفلسطينية

نشر المقال بجريدة " نيزافيسيمايا جازيتا " تحت عنوان لم نفقد الأمل بعد ـ انتداب الأمم المتحدة المؤقت لإدارة القدس لن يكون أفضل حل للقضية " :

(فى الفترة الأخيرة صرنا شهودا على الأحداث المأساوية الجارية فى الشرق الأوسط . فالفلسطينيون يدعون حقهم

من جديد فى أراضى الدولة الإسرائيلية . ولعل كل المشاكل ناجمة عن ذلك . ومع الأسف فالدولة " التى تدر اللبن والعسل " قد ابتلت اليوم بالدموع والمصائب .

لن أعلق على طريقة تسوية الأزمة فى الشرق الأوسط . فمهمة الشخصية الروحية - الدينية القيام بالدعوة إلى السلام والوفاق بين الشعوب . وأنا كإنسان مؤمن يعيش وفقا للقوانين الإلهية لا أشك إطلاقا فى أن الرب قد منح الأراضى الإسرائيلية لليهود . فأراضى دولة إسرائيل الحالية التى حصلت على استقلالها وفقا لإعلان الأمم المتحدة فى ١٤ مايو ١٩٤٨ هى أراض مقدسة لجميع اليهود . إنها ليست فقط مجرد حدود ولكنها رمز . ومع ذلك ففى ١٥ مايو ١٩٤٨ هجمت على حدود هذه الدولة جيوش ست دول عربية هى مصر وسوريا ولبنان والأردن والسعودية والعراق

إن جميع المفاوضات خلال السنوات السبع اللاحقة لذلك وجميع التنازلات التى لم يسبق لها مثيل لم تعط أى نتائج . ففى الكتب المدرسية التى يدرسونها للأطفال الفلسطينيين لا يوجد أى وجود لإسرائيل . كما أن ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية يدعو إلى إبادة دولة إسرائيل . ويعتبرون أن الحرب ضد إسرائيل " حرب مقدسة يجب أن تستمر حتى الإبادة التامة .

إنهم يدفعون بالفلسطينيين منذ طفولتهم إلى الانتفاضة والمقاتلون يختبئون خلف ظهور الصبيان .ففى قطاع غزة وحده تم تفجير ٤٠ عبوة ناسفة .أما حوادث إطلاق النار فهى تزداد باطراد . لقد أودت الأحداث بحياة ٣١٠ أشخاص لأنهم يغرسون فى الوعى الذى لم يتفتح بعد للأجيال الناشئة ليس القيم الإسلامية التى تعتبر فخر المسلمين وإنما الشعارات الحالية التى تعمق العداء والعنف .

وكانت النتيجة أن الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون ويكدحون حتى آخر لحظة فى إسرائيل تم تضليلهم والزج بهم للوقوف ضد إسرائيل . فساءت أحوالهم الاقتصادية وحرم ٣٠٠ ألف شخص من العمل . وبالتالى من وسائل العيش .

إن عملية الفصل والانعزال تحمل العديد من المشاكل . والكثيرون من العرب يدركون هذا الموقف المتناقض ولكنهم لا يرغبون فى الاعتراف به .

على الأراضى ما بعد السوفيتية يعيش أكثر من ١٠٠ قومية فى سلام بصرف النظر عن الدين . ولكن مع الفلسطينيين الذين لا يعترفون بإسرائيل من المستحيل إجراء أى حوار حول السلام والتفاهم المتبادل . منذ فترة وجيزة - فقط - بدا كما لو كان رئيس إدارة الحكم الذاتى الفلسطينى ياسر عرفات - بدا كما لو كان قد وافق فى نهاية المطاف على وجود إسرائيل فى حدود عام ١٩٤٧ .

إننى هنا أود توضيح موقف اليهود . فالتوراة قد أهديت إلى الشعب اليهودى من الأب الأول "أفرام" ومنه وصلت إلى الابن " إتسخاك " ثم إلى " ياكوف " الذى سمى أيضا بـ " إسرائيل " . بعد ذلك وصلت إلى أبنائه الإسرائيليين . والقصة التوراتية تبدأ من بداية خلق العالم وتاريخ إسرائيل . وفقط فى منتصفها يأتى الحديث عن القوانين والوصايا . فإذا كانت التوراة هى كتاب القوانين . إذن لماذا تعرفنا فى البداية بالتاريخ ولماذا لم تعرفنا مباشرة بالقوانين

إن التوراة تجيب بأن الملك داود قال : لقد وعد الرب شعبه بإقطاعه ما كانت الشعوب الأخرى تملكه . وإذا سألوا اليهود عما يفعلونه فى إسرائيل فى الأرض التى كانت فى السابق ملكا لغيرهم من الشعوب الأخرى . يجب أن يقول اليهود أن العالم كله من صنع الرب وبإرادته كان هذا الجزء من نصيبنا عبر الأب " أفرام " و "إتسخاك" و "ياكوف ".

هذا ما هو مكتوب فى التوراة . والمؤمنون لا يشكون لحظة فى صحته . ومن ثم كان على إسرائيل أن تعانى وتحتمل وتصبر : تخرج وتعود ثم تخرج وتعود .. ولكن فكروا معى : إنهم لا يزالوا يعودون ! علما بأنه يجب أن يستقروا منذ زمن طويل على هذه الأرض لأن الرب منحهم إياها وليس لأنهم انتصروا فى حرب الأيام الستة التى يدرسونها فى جميع الأكاديميات العسكرية فى العالم أجمع .

تلك الأرض ملك لليهود منذ أكثر من ٤ آلاف سنة منذ تلك اللحظة التى منحها الرب لـ " أفرام " وأبنائه . وهناك أيضا قضية أخرى خاصة بالأمن قانون معروف لكل شخص : لا يمكن للإنسان أن يعرض نفسه يوميا للخطر . ولكن عندما يعلن الفلسطينيون كل يوم أنهم سيأخذون " يهودا " و " السامرة " و"القدس الشرقية " ندرك جيدا مدى خطر كل ذلك لأنهم على استعداد للقتل .

إن عملية السلام والحل التدريجى للأزمة أمران فى غاية الأهمية . ولكن ما هو ثمن السلام عندما لا تأتى الحلول الوسط العاقلة بنتائج ومن ثم تزداد المطالب تجد نفسك تفكر بشكل لا إرادى : لماذا كل هذه التنازلات فكل مرة تقدم فيها إسرائيل تنازلات (الخروج من جنوب لبنان على سبيل المثال) يتم فهم ذلك بشكل خاطئ من جانب الفلسطينيين : الخصم ضعيف ولا يتحمل الضغط . ومع ذلك فخروج إسرائيل من جنوب لبنان الذى تواجدوا فيه منذ عام ١٩٨٢ كان قرارا متسرعا وغير مبرر .

كل يهودى يدرك ضرورة الحفاظ على الوصايا . وخاصة وصية الوجود والحياة على الأرض الموعودة . وتاريخ إسرائيل وخصوصيتها الروحية توجد بالذات . وفقط . هنا على أرض الميعاد من أجل الحفاظ على قوانين التوراة وليس فى أى دولة أخرى (حتى ولو كانت الولايات المتحدة الأمريكية) . ولكن مع الأسف الشديد فالبعض ينسون ذلك حتى فى إسرائيل نفسها وخاصة فيما يتعلق بالخطوات الأخيرة التى اتخذتها الحكومة الإسرائيلية بقيادة رئيس الوزراء إيهود باراك .

إننا على سبيل المثال نرى روسيا المعاصرة وكيفية تعاملها بشكل صحيح مع الحدود . إننى أعلن عن احترامى لموقف الحكومة الروسية بشأن القضية الشيشانية وجزر الكوريل . فالدولة يجب أن تحافظ على المصالح والقوانين العامة ثم تبدأ بعد ذلك فى الحل التدريجى للمشاكل الحادة مع الأخذ بعين الاعتبار المصالح القومية .

هنا أود الإشارة إلى دور روسيا فى عملية تسوية النزاع الإسرائيلى ـ الفلسطينى . فإسرائيل وروسيا دولتان متقاربتان ليس فقط لأن هناك مليون يهودى من الاتحاد السوفيتى فى إسرائيل ومليون آخر فى روسيا وإنما أيضا لأن هناك تقارب بين إسرائيل وروسيا فى قضاياهما وزاوية النظر إلى الأمور وطريقة التفكير .

لقد تغيرت اليوم سياسة روسيا تجاه إسرائيل . وتحول الدعم الهائل للعرب فى زمن الاتحاد السوفيتى إلى موقف معتدل ومحايد بالنسبة للجانبين الأمر الذى يؤكد أن روسيا قد أدركت مؤخرا مخاطر الإرهاب) .

أغسطس الحزين فى روسيا

" روسيا تجرب على نفسها كل شئ " .

هذه العبارة يستخدمها السلافيون بشكل عام أثناء الحديث عن المصير التاريخي لروسيا ولكن المثقفين الروس يستخدمونها بأسى شديد مضيفين إليها " حتى الأسلحة بما فيها الذرية " .

وربما يتفق الناس على بعض المصطلحات الميتافيزيقية فى ظاهرها بخصوص إطلاق بعض التسميات على أشهر أو أيام أو ساعات محددة مثل "الساعة النحس" أو "اليوم الحزين" أو حتى "السنوات العجاف" . وفى السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين وفى بداية يوليو من كل عام يبدأ الروس حالة من التأهب والاستعداد والحذر لاستقبال شهر أغسطس . تبدأ التكهنات والتحليلات والهواجس والرعب . يجرى كل ذلك بشكل يذكرنا باستقبال الشرق العربى لكسوف الشمس والظواهر الطبيعية الأخرى التى يتعامل معها العقل العربى بميتافيزيقية ولاهوتية باعتبارها نكبات إلهية وعقاب منطقى رادع لفساد النفوس واللهو ونسيان الله .

خلال السنوات العشر الأخيرة وصل الروس إلى ذلك المستوى الذى يثير الإشفاق أكثر منه إثارة للشماتة على الرغم من أن الغرب بالذات لا يخفى أبدا - وإلى وقتنا هذا - شماتته بما يحدث لروسيا حاليا .

كادر ١

فى الساعة السادسة وأربع دقائق فى الثامن من أغسطس ٢٠٠٠م وفى وسط موسكو وتحديدا فى أحد أهم ميادينها على الإطلاق - ميدان بوشكينسكايا حيث تمثال بوشكين العظيم وحيث الميدان الأحمر وحيث مبنى المخابرات وحيث واحدة من أهم تقاطعات مترو الأنفاق التى تضم ثلاثة اتجاهات دفعة واحدة وبالضبط فى نفق تحت أقدام تمثال شاعر روسيا الأعظم حدث انفجار هائل ثم تلاه آخر . الساعة السادسة فى موسكو هى ساعة الذروة حيث يعود الناس من أعمالهم إلى زوجاتهم وأولادهم . حدث الانفجار فى نفق تحت الأرض يؤدى إلى ملتقى ثلاثة خطوط لمترو الأنفاق (بوشكينسكايا تشيخوفسكايا تفيرسكايا) . لنتصور أى عدد هائل من البشر فى تلك اللحظة فى وسط واحدة من أكبر عواصم العالم وفى ساعة الذروة !

مات ١٨ شخصا بينهم أطفال وفتيات فى عمر الورد ونساء حوامل وجرح ما يقرب من ٦٠ شخصا بينهم أجانب .

فى البداية وكعادة الإعلام الروسى العنصرى وجهت أصابع الاتهام إلى الشيشانيين . وبدأ التلفزيون الروسى تحديدا وبصراحة شديدة يتحدث فقط حول احتمال واحد ووحيد : الإرهابيون الشيشانيون هم أصحاب العملة السوداء ! وفجأة هدأت الحملة الإعلامية المكثفة بعد أن سممت مشاعر الناس وصبت الزيت على النار وبعد أن تواترت شائعات تؤكد على صراعات " بيزنس " بين طواغيت المال خاصة وأن النفق الضخم كان يستخدم أيضا كسوق تجارية . بيد أن الأمر لا يخلو من جانبه السياسى الموجه ضد القيادة الروسية الجديدة من ناحية وضد أى حل لأية قضية ساخنة أخرى تعانى منها روسيا من ناحية أخرى .

كادر ٢

فى الساعة العاشرة والنصف تماما من صباح السبت ١٢ أغسطس حدث انفجار هائل فى شمال روسيا فى أعماق بحر بارينتس ثم تلاه انفجار آخر وسقطت الغواصة الذرية الروسية " كورسك " صريعة فى أعماق البحر أثناء مناورات للأسطول الروسى " استعدادا لنشر القوات البحرية الروسية فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى

واستعادة مجد القوات البحرية السوفيتية سابقا " كما صرح بذلك رئيس الدولة فى بداية أغسطس .

كانت قوات حلف الأطلنطى تراقب المناورات عن كثب بعد أن أفزعتهم تصريحات رئيس روسيا فلاديمير بوتين خاصة وأن الغواصة " كورسك " هى أحدث غواصة ذرية فى العالم : طولها ١٥٠ مترا وقطرها ٣٠ مترا ووزنها ٢٥ ألف طن .

ظلت وسائل الإعلام تتخبط طوال اليومين الأولين والتزمت القيادة الروسية الصمت المبين فى حين تناثرت بعض الأخبار التى تطمئن الناس نسبيا . واستمرت أعمال الإنقاذ " الفاشلة " خلال أربعة أيام - من السبت إلى الثلاثاء . ثم بدأت محاولات أخرى من الثلاثاء إلى السبت ١٩ أغسطس قبل أن يصل رجال الإنقاذ الأجانب إلى موقع الحادث . وبات واضحا حينذاك بشكل نهائى أنه لا يمكن لجهاز الإنقاذ أن يلتحم بالغواصة نظرا للأضرار الهائلة التى لحقت بكوة الطوارئ . وهذا ما اكتشفه الغواصون النرويجيون الذين باشروا العمل بعد أسبوع كامل من وقوع الكارثة .

لقد عرضت النرويج والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا المساعدة على روسيا ابتداء من الاثنين ١٤ أغسطس . ولكن العسكريين الروس وافقوا على إمكانية الاستعانة بالأجانب فى مساء الثلاثاء ١٥ أغسطس فقط . وقدمت روسيا طلبا رسميا بذلك يوم الخميس فقط . بيد أن فرق الإنقاذ ذهبت إلى موقع الحادث على متن سفينة وليس على متن طائرة وبالتالى أضاعوا يومين آخرين !

فشلت جميع محاولات الإنقاذ . مات جميع من كانوا فى الغواصة : الطاقم بالكامل وعدده ١١٨ شخصا كما هو مسجل فى دفتر " التمام " . ولكن يرجح أن هناك ١٢ شخصا على الأقل قد قضوا نحبهم أيضا نظرا لأنه لا يتم تسجيل " الغرباء " من الأجهزة الأخرى . ولعل " الغرباء من الأجهزة الأخرى " تشهد على أهمية وخطورة المناورات لروسيا ولحلف الأطلنطى على حد سواء مع اختلاف زاوية الاهتمام طبعا ! وإلا فما هو سر وجود مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى موسكو أثناء غرق الغواصة وما سر إعلان بعض الأفراد من القيادة البحرية الروسية عن اصطدام الغواصة " كورسك " بغواصة أخرى أجنبية مع حرصهم على عدم الكشف عن هويتها فى حين لم تتسرب إلى وسائل الإعلام أى معلومات عن مضمون الاتصال الهاتفى بين بوتين وكلينتون والذى استمر لمدة ٢٥ دقيقة ومن الذى بادر بالاتصال وما سر الزيارات السياحية المكثفة " للسياح " الأمريكيين والبريطانيين خلال شهرى يوليو وأغسطس لمدينة مورمانسك المطلة على بحر بارينتس !

شاعت التكهنات حول الانفجارين وغرق الغواصة . ولكن أهم هذه التكهنات وبصراحة شديدة هو أن غواصات حلف الأطلنطى التى كانت تتابع المناورات عن كثب هى التى ضربت الغواصة . أما الذى سيبقى سرا هو أن القوات البحرية الروسية كانت تجرى تجاربها على سلاح " سري جديد " . وهذا هو سر التباطؤ المتعمد فى الاقتراب من الغواصة والدخول إليها . ومع العلم بأن جميع من كانوا بداخلها قد ماتوا على الفور إلا أن القيادة البحرية الروسية ظلت تعطى الأمل بأنهم على قيد الحياة . وفى النهاية عرف الجميع بما حدث وعادت زوجات وأمهات الجنود بحسرة تاريخية إلى قراهن .

كادر ٣

فى الساعة ٣ و ثمان دقائق من بعد ظهر يوم الأحد ٢٧ أغسطس انقطع الإرسال التلفزيونى الروسى . أذاعت محطات الراديو على الفور أن حريقا هائلا قد شب فى برج " أستانكنا " - مركز البث التلفزيونى واللاسلكى الروسى .

بنى برج "أستانكنا" خلال الفترة من ١٩٦٠م إلى ١٩٦٧م ويعتبر أحد أعلى المبانى فى العالم حيث يصل ارتفاعه إلى ٥٣٩ مترا وكتلته ٥١٤٠٠ طنا ومساحته الكلية ١٤٨٥٠ مترا مربعا . يحتوى البرج على محطات

للبث التلفزيونى والبث الإذاعى ومحطة للاتصالات السلكية واللاسلكية مع الأهداف المتحركة ومحطة بث خاصة بوزارة الداخلية ومحطات أخرى خاصة بالبث من موسكو إلى جميع أنحاء روسيا والدول الأجنبية ومعامل علمية ومصعدين يحملان الركاب إلى ارتفاع ٣٢٥ مترا حيث مطعم "السماء السابعة" الذى يدور حول محوره دورة كاملة كل ٤٠ دقيقة . علما بأن البرج قد صمم ضد الزلازل والفيضانات والعواصف .

توقف الإرسال التلفزيونى . وانتهى شهر أغسطس الحزين بحداد اضطرارى أعاد الروس قسرا إلى عاداتهم القديمة فى قراءة الكتب بدلا من مشاهدة إعلانات التلفزيون الروسى الرخيصة وبرامج الجنس المسائية وأغانى الشواذ . انتهى شهر أغسطس بحسرة شديدة فى ١٣٠ أسرة روسية وفى قلوب ملايين الروس والأجانب . وانتهى أيضا بغم ثقافى حضارى فى أرواح الناس الذين بدوا متوترين ومتوجسين حيث وصلت الانفجارات إلى وسط العاصمة : تحت أقدام بوشكين رمز الثقافة الروسية !

الإعلام الغربى

شنت وسائل الإعلام الغربية حملة شعواء على روسيا وشعبها وقيادتها وحملتهم مسؤولية حادث الغواصة بل ودعت إلى الإطاحة بالرئيس بوتين وشبهت غرق الغواصة " كورسك " بأنه سيلعب دورا مثل دور الطراد " أفرورا " عام ١٩١٧م . وعندما أوضح المتخصصون الروس أن ما حدث ليس مسؤولية فلاديمير بوتين الذى تولى الحكم منذ حوالى ١٠٠ يوما فقط ولكنه نتيجة للفوضى التى استمرت لعشر سنوات كاملة أشارت وسائل الإعلام الغربية وخاصة الأمريكية والألمانية والبريطانية إلى أن الرئيس بوتين قاس القلب لأنه لم يسافر فورا إلى مكان الحادث . هذا فى الوقت الذى لم يطلب فيه أى أحد فى يوم من الأيام أن يسافر أى رئيس أمريكى إلى موقع غرق غواصة أمريكية على الرغم من أن هناك ٣١ غواصة أمريكية راقدة فى أعماق البحار والمحيطات إلى وقتنا هذا .

فى الحقيقة لا يمكن إنكار أن الحالة التى وصل إليها الجيش والأسطول فى روسيا هى نتيجة مباشرة لعهد يلتسين حينما تخلوا طواعية عن تمويل القوات المسلحة . ولكن لا يجب أن تقود هذه الحقيقة إلى ضرورة التخلى عن النظام الدفاعى الحديث فى روسيا خاصة وأنها تملك منشآت نووية فى حاجة إلى صيانة دائمة ليس فقط من أجل عيون روسيا وإنما من أجل حماية العالم من الدمار .

ثلاث كوارث دفعة واحدة عرضت القيادة الروسية لهجوم لم يحدث منذ انهيار الاتحاد السوفيتى : هجوم غربى - أطلسى أسبابه معروفة وواضحة وهجوم داخلى من اللوبى الإعلامى الصهيونى واليمين الموالى للغرب والمستعد دوما لتقديم أية تنازلات حتى ولو بتسريح الجيش وبيع جميع الأراضى والمنشآت الروسية وجعل روسيا منطقة تجارية حرة أو سوقا للشركات المتعدية الجنسية .

وكعادة الغرب فى الكيل بمكيالين ليس فقط بالنسبة لدول الشرق العربى والدول الضعيفة الأخرى وإنما أيضا بالنسبة للدول الكبرى مثل الصين وروسيا فقد شبهوا ما يحدث بأنه سيلعب نفس الدور الذى لعبته " أفرورا " إبان قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧م . ومع ذلك ففى الحقيقة لا يبدو الرئيس بوتين مشابها لا للقيصر الروسى ولا لرئيس الحكومة المؤقتة بعد ثورة فبراير ١٩١٧م . وإنما الشبيه بالقيصر فعلا هو الرئيس السابق يلتسين وذلك على حد تصريحات حارسه الخاصة كورجاكوف الذى أصدر كتابا مليئا بالصور " القيصرية " والمشاهد الخطيرة ليلتسين وأسرته والتى تجاوزت سلوكيات وممارسات القياصرة والملوك . ولعل الشعوب عندما تطلق لقبا على حكامها لا يكون ذلك من فراغ وإنما استخلاصا لمشاهدات وخبرات تاريخية متراكمة فالشعب الروسى أطلق على بوريس يلتسين عبارة

شديدة التهكم والسخرية : " القيصر بوريس " . وهو اسم القيصر الروسى السابق بوريس جودونوف الذى قتل الوريث الحقيقى للعرش واستولى هو عليه والذى كتب عنه بوشكين عملا كاملا .

جورباتشوف ـ أغسطس ١٩٩١م

بوتين ـ أغسطس ٢٠٠٠م

رغم تحليلات وسائل الإعلام والسياسيين الغربيين وتلميحاتهم إلا أن أوجه الشبه بين جورباتشوف وبوتين تظهر فى واقع الأمر بشكل أوضح بكثير مما تحاول تحليلات الكيل بمكيالين أن تدسه فى رؤوسنا .

فى بداية حكم جورباتشوف وقع انفجار المفاعل الذرى " تشيرنوبيل " وحادث غرق باخسرة " ناخيموف " بينما شهدت بداية حكم بوتين حادث الانفجار فى وسط موسكو وحادث غرق الغواصة " كورسك " وحريق مبنى الإذاعة والتلفزيون والاتصالات اللاسلكية .

كان كل من جورباتشوف وبوتين بعيدين عن مكان الحادث . تواجد جورباتشوف فى منتجع " فوروس " أثناء محاولة انقلاب أغسطس ١٩٩١م وتواجد بوتين فى منتجع " سوتشى " على البحر الأسود أثناء غرق الغواصة الذرية " كورسك " فى أغسطس ٢٠٠٠م .

عاد جورباتشوف ـ أول رئيس منتخب للاتحاد السوفيتى ـ إلى موسكو دون أن يدرك تماما أنه عاد إلى بلاد طرأت عليها تغيرات كثيرة أثناء فترة غيابه القصيرة . وعاد بوتين أيضا إلى بلاد طرأت عليها تغيرات ولكن إلى أى مدى ستكون هذه التغيرات مؤثرة

لم يحاول جورباتشوف تحقيق التوافق مع الشعب ولجأ إلى المراوغة والمحاورة بين جماعات الصفوة ثم سلم " نفسه " إلى المنتصرين فقفد كل شئ . أما بوتين فيواجه الأمور بوضوح لدرجة أنه التقى مع أهالى المنكوبين فى حادث الغواصة ولم تكن هناك ولو ضمانة واحدة لعدم تعرضه ولو للسباب أمام كاميرات التلفزيون . ولكنه فعل ذلك دون خبث أو مراوغة مثلما رفض الذهاب إلى مورمانسك أثناء المحاولات " الوهمية " لإنقاذ الغواصة " حتى لا تتوجه الجهود إلى استقباله وتأمينه " على حد قوله .

إن الضغط الشديد الذى يمارسه الغرب واليمين الروسى وطواغيت المال والإعلام فى روسيا سوف يدفع القيادة الروسية إما للخضوع التام أو التعاون مع الحزب الشيوعى . ويبدو أن بوتين لن يسلم " نفسه " إلى المنتصرين (الغرب واليمين الروسى وطواغيت المال والإعلام) ولكنه فى الوقت نفسه لا ينوى التعامل بشكل واضح مع الحزب الشيوعى الذى يمثل القوة الحقيقية فى الشارع السياسى الروسى فبوتين فى النهاية من مجموعة سانت بطرسبورج التى تضم كل ألوان طيف اليمين الروسى وهو أيضا من أنصار الغرب رغم محاولاته المستميتة فى تحقيق معادلة الغرب والشرق واستعادة مجد الاتحاد السوفيتى .

القوة النووية الروسية إلى أين ؟

لا شك أن روسيا ليست إطلاقا الاتحاد السوفيتى رغم قدرتها العسكرية والنووية . ولا شك أيضا أن روسيا ليست أبدا هى تلك القوة التى تقود مجموعة هائلة من الحلفاء الذين يولونها ثقتهم ويتعاونون معها . كل ذلك فى الوقت الذى تغير فيه العالم وتغيرت معه ملامح الخريطة الجيوبوليتيكية والاجتماعية بل وحدوده أيضا وتلاشت دول وظهرت أخرى . وبالتالى فهناك جريمة ما تمارس فى حق البشرية : ليس من جانب روسيا وحدها وإنما من جانب

جميع القوى النووية النشطة فى العالم وخاصة أمريكا . هناك ٣١ غواصة أمريكية غارقة فى مختلف البحار والمحيطات على الكرة الأرضية ولا أحد يدرى كيف تم انتشالها أو تخزينها (أو هل تم انتشالها أو تخزينها أصلا) هناك غواصة سوفيتية غارقة فى المحيط الهادى منذ عام ١٩٨٣م وهناك غواصة "كومسومولتس" الذرية التى غرقت عام ١٩٨٩م فى المياه النرويجية وتم تخزينها عام ١٩٩٥م ببناء مقبرة لها أو تابوت كما يقولون لمنع الإشعاعات . فالموتى حين يدفنونهم تتحلل أجسامهم ولكن كيف يمكن دفن مفاعلات كاملة تحتوى على كميات هائلة من اليورانيوم ليس فقط المخصب وإنما الذى لا يزال قيد الاستعمال !

لقد رفضت بعض الدول الفقيرة فى فترة السبعينات والثمانينات وأعلنت اعتراضاتها على دفن المخلفات النووية فى أراضيها مقابل معونات وقروض ووافقت بعض الدول التى كانت فى حاجة إلى معونات اقتصادية لتلبية حاجات الطغم الحاكمة فيها ضاربة بمصالح شعوبها عرض الحائط . والآن تقوم الدول الكبرى بدفن وتخزين ليس فقط النفايات الذرية وإنما أيضا دفن وتخزين مفاعلات تشغيل الغواصات الذرية الغارقة فى توابيت تحت سطح الماء وتقوم بمناورات عسكرية بحرية تجرب فيها أسلحة "سرية جديدة" لتبقى الآثار والطوربيدات والمواد المشعة راقدة فى البحار والمحيطات فى انتظار اللحظة المناسبة .

الدول النووية "الكبرى" وبالذات أمريكا وروسيا لا تزال تتعامل بسياسة الكيل بمكيالين : دول تمتلك قدرة نووية ضخمة وتحرم على الآخرين حق امتلاكها فى الوقت الذى لا تستطيع فيه تأمين وحماية ليس العالم أو الدول الصغيرة المسالمة بل وأيضا نفسها . أمريكا ـ القوة الوحيدة والعظمى فى العالم كله والتى تملى شروطها على أية دولة أخرى لا تزال تعيش وهم الحرب الباردة ليس مع الاتحاد السوفيتى أو حلف وارسو وإنما مع العالم كله بتعريضه للفناء النووى . روسيا ـ الدولة المتهالكة التى لا تزال تعيش وهم الاتحاد السوفيتى تلعب دورا لا يقل عن دور أمريكا فى تعريض العالم للفناء . فعلى الرغم من مرور عشر سنوات على ما يسمى بالإصلاحات التى قام بها اليمين الروسى إلا أن استطلاعا للرأى أظهر مؤخرا أن ١٥٪ فقط من الروس استطاعوا بطرق مختلفة التكيف مع ظروف الحياة الجديدة وأن ٣٠٪ يحلمون بتحقيق نجاح ما فى هذا الإطار أما ٥٥٪ فلم يتكيفوا ولا يحلمون حتى بأن حياتهم ستتغير إلى الأفضل . الغرب لا يرى ذلك ولا يعترف به ولا يريد أن يرى أو يعترف . واليمين الروسى مثل الغرب تماما . وبعيدا عن نظرية المؤامرة ـ رغم أن الكثير من الملابسات يؤكد على تورط الغرب واليمين الروسى فى أحداث كثيرة أو على الأقل استثمارها من أجل تفتيت روسيا واستخدامها كبعبع للتخويف وإخضاع الشعوب الأخرى ـ هل سينتهى حكم بوتين قريبا وهل يضمن الغرب واليمين الروسى مجئ قيادة سياسية موالية لهما أم أن روسيا ـ المفاجآت ستحمل للعالم تجليات أخرى جديدة وستجرب على نفسها أدوية جديدة ربما تكون مفاجأة للكثيرين وبالذات للغرب واليمين الروسى والفاشية الجديدة فى روسيا وألمانيا.

إغراق محطة "مير" المدارية السوفيتية : نهاية عالم وبداية آخر

بحلول عام ٢٠٠٠ بدأت الأوساط الإعلامية والعلمية في روسيا والولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا التركيز على ملف المحطة الفضائية المدارية السوفيتية " مير " . بدأ التركيز على الملف وليس فتحه لأنه فتح قبل ذلك بعامين أو ثلاثة حين بدأت تتناثر أنباء متفرقة لجس نبض الرأى العام الروسى . وخلال هذين العامين تم التمهيد جيدا للتركيز على الملف للانتهاء منه خلال ١٥ شهرا وبالضبط في التاسعة من صباح ٢٣ مارس ٢٠٠١ لتتم أكبر عملية تضليل تاريخية هي التعبير الأدق على ما يحدث في العالم الآن من تغيرات والتعبير الأعم بالنسبة لاندثار أو تلاشي أو تدمير الحضارات القديمة لأن "مير" كانت من حيث التكوين لا تعبر فقط عن حضارة وإنما كانت في حد ذاتها حضارة كاملة بكل معاني الكلمة : على المستوى التقني والمستوى الحضاري الإنساني .

تطرقت وسائل الإعلام الروسية والغربية إلى مجموعة في غاية الأهمية والخطورة من حيث التعبيرات التي بدأت بـ "تحجيم" عمل المحطة و "تقليص" طاقتها و"إنزالها" من مدارها تدريجيا و"تدميرها" وفي النهاية "إغراقها" في المحيط . وكان التعبير العام لكل هذه العملية التاريخية التي استغرقت دقائق معدودة هو " الإغراق " . والإغراق هنا يمكن أن يكون بالماء أو الرمال أو بشيء آخر يزيح الأول عن العين ثم من الذاكرة البشرية ليجعله مجرد " تاريخ " .

على ضوء هذه العملية يمكن أن نسترجع ببساطة تاريخ الحضارات القديمة ومسيرة حياتها و"إغراقها" . وهذا بالذات ما يحدث الآن في ظل العولمة/الهيمنة حيث لن تتلاشى الحضارات والإنجازات البشرية وتندثر تماما ولكنها في أفضل الأحوال ستتحول إلى مجرد تاريخ خامل يعلوه تاريخ وإنجازات فاعلة وفعالة . ولعل العولمة/الهيمنة بهذا المفهوم تعبر عن أبشع جريمة في إبادة التاريخ البشري لأنها ستحافظ بشكل أو بآخر على الإنجازات الحضاريه السابقة عليها (بشكل خامل وبعد تفريغها تماما من مضامينها) بتحويلها إلى مادة تاريخية من أجل الاستهلاك المحلي لمجاميع " الغبار البشرى " لأنه من غير المعقول أن يعيش البشر بدون ذاكرة وبالتالي يجب "هندسة" هذه الذاكرة ليفخر العرب مثلا بحضارتهم العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ويفخر المصريون بأهراماتهم وتفخر الصين بسورها العظيم ويفخر العراق ببرج بابل واختراع الكتابة المسمارية ويتباهى الروس بمجدهم السوفيتي العظيم وحضارة " مير " .

"مير" حضارة إنسانية-علمية أم مجرد محطة !

بعد مسابقة طويلة انتهت تصفياتها بـ ٣٠ تسمية فقط استقر السوفيت على اختيار اسم "مير" (السلام) ليطلقوه على محطتهم الفضائية التي صممت خصيصا من أجل الأهداف العلمية السلمية في الفضاء . وفي ٢٠ فبراير ١٩٨٦ انطلقت " مير " إلى الفضاء الخارجي . وخلال ١٥ عاما من التحليق قامت المحطة بعمل ٨٦٢٠٠ دورة حول الأرض ووصل وزنها خلال تلك الفترة إلى ١٤٠ طنا بما فيها المعدات العلمية التي يصل وزنها إلى ١٤ طنا . وتم إجراء أكثر من ٣٠ ألف بحث علمي على متنها ووصل عدد رواد الفضاء الذين عملوا عليها حوالى ١٠٤ راندا من ٢٠ دولة .

كان أول معرفة الفرنسيين بالفضاء على متن " مير " عندما حلق أربعة من رواد الفضاء الفرنسيين بينهم أول رائدة فضاء فرنسية هي كلودى أندرى دزى . وبالمناسبة أثناء التحضير لتلك الرحلة تعرفت كلودى في ضواحي موسكو (حيث مدينة النجوم) على رائد الفضاء الفرنسى جان بيار أنيرى الذى أصبح زوجها فيما بعد . (بالمناسبة كلودى موجودة حاليا في مدينة النجوم بضواحي موسكو للقيام برحلة ليس طبعا إلى "مير" وإنما إلى المحطة الفضائية

الدولية خلال الأشهر الثلاثة القادمة !) .

كانت " مير " مصممة لتبقى فى الفضاء ٣ سنوات فقط . ولكن التقدم العلمى الفضائى السوفيتى استطاع أن يجعلها تضرب رقما قياسيا فى التحليق المدارى المتواصل لمدة ١٥ سنة . ومن الصعب وفقا لآراء الخبراء أن يتكرر هذا الرقم القياسى . وخلال هذه الفترة انضمت إلى " مير " مجموعة من النماذج الفضائية لتجعلها أحد أضخم المراكز العلمية - البحثية فى جميع المجالات العلمية بما فيها الجيولوجيا والبيولوجى والجغرافيا . ففى أبريل ١٩٨٧ التحق بها النموذج " كوانط " و"كوانط-٢" فى ديسمبر ١٩٨٩ و"كريستال" فى يونيو ١٩٩٠ و"سبكتر" فى يونيو ١٩٩٥ و"بريرودا" فى أبريل ١٩٩٦ .

خلال تلك الفترة أيضا التحمت بالمحطة حوالى ٨٠ مركبة فضاء مخصصة لشؤون النقل إضافة إلى أن مركبة الفضاء " سيوز - ت . م " التى كانت تطير كل ٥-٦ أشهر لتغيير الطاقم .

أما الأرقام القياسية التى حققها علم الفضاء السوفيتى ومحطة " مير " على وجه الخصوص فلا تخطر على عقل . فقد كان الاتحاد السوفيتى أول دولة فى العالم ترسل معدات إلى سطح القمر وأول دولة تحصل على معلومات من الفضاء . كانت فالنتينا تيريشكوفا أول امرأة ترسل إلى الفضاء وكان ألكسى ليونوف أول رائد يخرج من المركبة إلى الفضاء المفتوح وكان الاتحاد السوفيتى أول من أجرى تجارب فى حالة انعدام الوزن . وفى عام ١٩٦١ أرسلت موسكو أول محطة فضاء " سيوز ١ " إلى المدار فجاءت الأرقام القياسية التالية : أطول مدة بقاء فى الفضاء والتى أمضاها الطبيب فاليرى بولياكوف وبلغت ٤٣٧ يوما و١٧ ساعة ليثبت إمكانية تحليق الإنسان إلى المريخ . وبعد ذلك أمضى سيرجى أفدييف ٧٤٢ يوما فى ٣ رحلات أخرى .

مثال واحد فقط !

طوال السنوات السابقة كان ذكر رائد الفضاء الروسى وأول إنسان وضع قدمه فى الفضاء الخارجى يورى جاجارين يأتى عرضا فى عيد رواد الفضاء أو فى ذكرى مصمم المركبات الفضائية الروسى الشهير سيرجى كرليوف . ويبدو أن وفاة جاجارين المأساوية أثناء إحدى الطلعات الجوية التدريبية عام ١٩٦٨ هى السبب الرئيسى الذى لا يزال يلقى بظلال الشك على وفاته ورؤية البعض لها على أنها حادثة مدبرة .

ولد يورى ألكسيفيتش جاجارين لأبوين فلاحين بالوراثة فى ٩ مارس ١٩٣٤ فى قرية كلوشينو بمنطقة سمولينسك بالجزء الغربى من روسيا . انقطعت دراسته الابتدائية مثل كل طلاب الاتحاد السوفيتى عندما هجم النازيون الألمان على بلاده بعد أن اجتاحوا أكثر من نصف أوروبا ولكنه استطاع أن ينهى دراسته الثانوية عام ١٩٥١ ويتقدم إلى معهد ساراتوف للتقنيات لينهيه أيضا بامتياز عام ١٩٥٥ . وفى عام ١٩٥٧ أنهى كلية تشكالوفسك الجوية الأولى ويبدأ الخدمة بالأسطول الجوى الشمالى للاتحاد السوفيتى . وبداية من عام ١٩٦١ تم اختياره للخدمة فى مجموعة رواد الفضاء السوفيتية الأولى نتيجة لتمكنه من إنهاء برنامج الإعداد بصورة مذهلة .

فى ١٢ أبريل ١٩٦١ قدر ليورى جاجارين أن يدخل تاريخ البشرية من أوسع أبوابه حيث قام بالتحليق على متن المركبة الفضائية السوفيتية " فوستوك " (الشرق) فى الفضاء الخارجى لمدة ساعة و٤٨ دقيقة حول الأرض ثم الهبوط بنجاح فى منطقة ساراتوف على نهر الفولجا . بذلك حصل جاجارين على أعلى وسام سوفيتى - بطل الاتحاد السوفيتى.

تقول زويا أخت جاجارين : لم نكن نعرف إطلاقا أن " يورا " كان يتدرب لغزو الفضاء الخارجى والسفر هكذا

بعيدا . وعندما جاء ليزورنا في ربيع ١٩٦١ جلس معنا بهدوء كعادته . وداعب ماما بخفة ظله المعهودة . لم يبد عليه أي شئ يشير إلى ما سوف يحدث بعد عدة أشهر . وعند الوداع توجه إلى الأم قائلا : ماما سوف أسافر قريبا في مهمة رسمية . سألته الأم : بعيدا فرد يورا ضاحكا : أوه .. بعيدا .. بعيدا في غاية البعد !

سافر " يورا جاجارين " بعيدا بعيدا بمقاييس تلك الأيام . بل وإلى أبعد مسافة يمكن أن يصل إليها إنسان . ربما يكون البعض قد وصل فيما بعد إلى أبعد من تلك المسافة ولكنها كانت في زمنها أبعد نقطة من نقاط الكون المطروقة واقعيا .

بعد عودته إلى كوكبه لم يسافر " يورا " بعد ذلك " بعيدا " . فقد عينوه قائدا لفريق رواد الفضاء السوفيت وأخذ يشارك بشكل مباشر في إعداد وتدريب الأطقم الفضائية وتعليمها قيادة رحلات المركبات السوفيتية " فوستوك " و " سيوز " و " فوسخود " .

وفي الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨ عمل نائبا لرئيس مركز إعداد رواد الفضاء . وفي عام ١٩٦٨ أنهى جاجارين أكاديمية جوكوف الحربية لهندسة الطيران .

كان جاجارين في السابعة والعشرين من عمره عندما أصبح أول رائد فضاء يصل إلى الفضاء الخارجي . في هذه السن المبكرة نسبيا بدأ " يورا " نشاطه الاجتماعي - السياسي واستطاع أن يصبح عضوا بمجلس السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي وشارك بنشاط ملموس في المؤتمرين السادس والسابع . ثم أصبح بعد ذلك عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وشارك أيضا في مؤتمريه الرابع والخامس عشر .

وفي ٢٧ مارس ١٩٦٨ قام بطلعة تدريبية تحطمت على أثرها طائرته ورحل في سن الرابعة والثلاثين . حتى الآن لا يزال التحقيق مستمرا في ملابسات سقوط طائرته . وبين الحين والآخر يعلو الهمس بأن موته كان مدبرا ! ورغم بوادر التعتيم أحيانا والتفخيم في أحيان أخرى إلا أن جاجارين استطاع أن ينافس لينين من حيث عدد التماثيل وأسماء المدن والأحياء والشوارع والمؤسسات التي أطلق اسمه عليها . ولعل تمثاله في موسكو أحد أضخم وأعلى التماثيل الروسية على الإطلاق .

بعد وفاته تغير اسم قريته إلى قرية " جاجارين " . ثم أخذ كل شئ في القرية يتلون بلون الفضاء : فإذا كان البناء فندقا سمي " فوستوك " وإذا كان حانوتا سمي " ضوء القمر " ومع التغيرات الأخيرة وانتشار شركات السياحة التي لم يكن لها وجود في الاتحاد السوفيتي أطلقوا على مكتب السياحة في القرية " جاجارين تور " !

بداية سيناريو الإغراق

في بداية يناير ٢٠٠١ أعلن نائب رئيس الحكومة الروسية إيليا كاليبانوف عقب اجتماع مجلس الوزراء أن الحكومة الروسية أقرت صرف مبلغ ٧٥٠ مليون روبل لإطلاق مركبتي شحن من طراز " بروجرس " إلى المحطة الفضائية المدارية " مير " .

وأشار كاليبانوف إلى أن إطلاق هاتين المركبتين ضروري بغض النظر عن القرار الذي سيتخذ لاحقا بشأن التخلص من المحطة .

كان النشاط الشمسي العالي قد بدأ يؤثر على ارتفاع المحطة الفضائية الضخمة التي باتت تنخفض بوتائر أسرع من المعتاد (بمقدار ٣٠٠ - ٥٠٠ مترا في اليوم الواحد) . وبالتالي أصبح من الضروري رفع مدار المجمع الفضائي لاعتبارات أمنية بصرف النظر عن قرار الحكومة الروسية بإغراقها أم لا .

فى هذا الإطار انطلقت مركبة شحن من طراز " بروجريس " لترفع المحطة بمقدار ١٥ كيلومترا لضمان مواصلة تحليقها إلى نهاية فبراير ٢٠٠١ ريثما يتم اتخاذ القرار بشأنها . المثير فى الأمر أن الروس قاموا باستعارة المركبة " بروجرس " من المحطة الفضائية الدولية الأمر الذى أغضب الجانب الأمريكى .

من ناحية أخرى كان الخبراء الروس قد بدأوا فعليا فى إعداد برنامج التخلص من " مير " وإغراقها فى المحيط . ولعل العائق الوحيد الذى كان يقف أمام تحقيق هذا المشروع هو رصد المبالغ الضخمة اللازمة لذلك . وهذا ما يجعلنا نعقد المقارنة بين القدرة الاقتصادية لروسيا والتى أثرت تأثيرا سلبيا فى سرعة إنقاذ طاقم الغواصة الذرية " كورسك " التى غرقت فى أغسطس الماضى فى بحر بارينتس . الأمر الآخر هو قدرة روسيا على انتشال الغواصة نفسها والذى يمكن أن تصل تكاليفه إلى نصف مليار دولار الأمر الذى يجعل الحكومة الروسية تفكر فى دفن الغواصة " كورسك " ببناء مقبرة لها فى قاع البحر مثلما تم ذلك مع الغواصة الذرية الروسية " كمسومولیتس " التى غرقت عام ١٩٨٩ .

وبالنسبة للمحطة الفضائية المدارية " مير " فمن المعروف أن وزنها يصل إلى ١٤٠ طنا ومن المستحيل تفكيكها وإنزالها إلى الأرض وهو الأمر الذى يشكل خطورة كبيرة ليس فقط على روسيا والدول المجاورة . أما الاحتمال الآخر هو ضرب المحطة بصواريخ أو تركها فى الفضاء . ولكن فى الحالة الأولى سوف تبقى الكثير من المخلفات التى يمكنها أن تعيق سفن الفضاء الأخرى أو أية مشاريع فضائية مستقبلية . وفى الحالة الثانية سوف يتكلف ترك المحطة فى الفضاء مبالغ باهظة يمكنها إجهاد الاقتصاد الروسى المتدهور .

وتوصل الخبراء الروس إلى قرار مبدئى بإطلاق مركبتى شحن من طراز " بروجرس " من أجل خفض مدار المحطة التى ستدخل الطبقات الكثيفة من الغلاف الجوى على ارتفاع ٨٠ كيلومترا ليحترق الجزء الأكبر منها . أما البقية فسوف تسقط فى منطقة مقفرة بالمحيط الهادى . من ناحية أخرى لم يتم بعد تحديد مصير العاملين على ضمان تحليق هذه المحطة والذين يبلغ عددهم ٨٠ ألف شخص وهو الأمر الذى يشكل صعوبة اجتماعية أخرى أمام الحكومة الروسية نظرا لارتفاع كفاءة هذا العدد الضخم من الخبراء والذين يمكن أن يهاجروا إلى الخارج كما حدث فى النصف الأول من التسعينات حينما نزح عدد هائل من العلماء والخبراء الروس ذوى الكفاءات العالية من روسيا إلى أوروبا وأمريكا وإسرائيل .

اقتراحات بشراء المحطة

قامت شركة " مير كورب " الفضائية الدولية بتقديم اقتراح بتوفير الأموال اللازمة لمواصلة عمل محطة " مير " . وبالفعل دبرت مبلغ ٤١ مليون دولار لتمويل رحلة السفينة " سيوز " وسفينتى الإمداد "بروجرس ـ إم ١" إلى المحطة . وتعهدت بتدبير مبلغ ١٠ مليون دولار قبل منتصف نوفمبر ٢٠٠٠ من أجل إطلاق سفينة الإمداد "بروجرس ـ إم ٤٣" . ورأت الشركة إنه من الممكن طرح سندات بمبلغ ١٠٠ مليون دولار من أجل ضمان عمل المحطة لسنوات طويلة قادمة . ولعل شهادة أول رائد فضاء أوكرانى ليونيد كادينيوك تعتبر وثيقة تاريخية فى هذا الإطار حيث أكد أن محطة " مير " لا تزال آمنة ولا تشكل أية خطورة لا على الفضاء ولا على الأرض وبالتالى يمكنها أن تعمل ١٥ عاما أخرى . وهى ـ حسب قوله ـ ثمرة التقدم العلمى التقنى على المستوى العالمى ويجب أن يهرول العالم إلى إنقاذها . فبعد ١٥ سنة يمكن استخدامها أيضا كمركز أبحاث ثابت فى الفضاء .

وفى تصريح نقلته وكالة أنباء "ريا ـ نوفستى" لمدير الوكالة الفضائية الروسية يورى كوبتييف أكد أن ساعة الصفر لإغراق محطة "مير" الفضائية الروسية قد تحددت نهائيا فى الساعة ٩ من صباح ٢٣ مارس ٢٠٠١ .

وكان موعد التخلص من المحطة الشهيرة قد تأجل عدة مرات بداية من ٦ مارس ٢٠٠١ لأسباب غير معروفة .
وفى الوقت الذى أعلن فيه المسؤولون الروس أن أحد أهم أسباب التأجيل المتكرر لإغراق المحطة هو عدم وصولها إلى المسافة المحددة من سطح الأرض كشف جهاز رئيس مجلس الدوما الروسى جينادى سيليزنيوف عن رسالة الشركة الأمريكية " إنفوتلسيس إنك " إلى الحكومة الروسية تعرض فيها استعدادها لدفع ١٠٠ مليون دولار لشراء المحطة وتحويلها إلى شبكة اتصالات جديدة عبر الأقمار الصناعية .

وأوردت الشركة الأمريكية فى فقرة من رسالتها مناشدة سيليزنيوف لرئيس الوزراء النرويجى ينس ستولتنبرج الذى يطلب فيها تخصيص ٧٠ مليون دولار للشركة الأمريكية من أجل شراء محطة "مير" الفضائية نظرا لعدم امتلاكها المبلغ كاملا .

وفيما تعالت أصوات العديد من الأحزاب السياسية وعلى رأسها الحزب الشيوعى الروسى منادية بالإبقاء على المحطة نظرا لإمكانيتها على العمل لعشر سنوات أخرى وإمكانية رفع مدارها بكميات الوقود الموجودة فيها حاليا إلى أن يتحسن الوضع الاقتصادى لروسيا وصف مدير الوكالة الفضائية كويتبيف أصحاب هذه الآراء بالجهلة مؤكدا أن " مير " قد استنفدت جميع إمكانياتها خلال ١٥ سنة عملت فيها بشكل جيد .

ورأى كويتبيف أن على روسيا التخلص من محطة مير الفضائية بهدف التفرغ تماما لبناء القسم الروسى بالمحطة الفضائية الدولية مبررا ذلك بعدم وجود ضرورة لوجود محطات فضائية خاصة بروسيا .

لكم حرية الاعتراض ولنا حرية الإغراق !

قال المصمم العام لشركة " إنرجيا " الروسية يورى سيميونوف أن " وحدات البحث على متن المحطات " كوانط - ٢ " و " كريستال " و " بريرودا " قادرة تماما على العمل ويبقى فقط استبدال وحدة "سبكتر" بوحدة جديدة من أجل استمرار عمل المحطة بشكل طبيعى ولمدة طويلة أخرى " .

ورأى بعض المختصين أن المحطة " ليست فقط تعبيرا عن الأولوية فى مجال الفضاء بل رمز لقوة روسيا وضمان أمنها القومى لأن الولايات المتحدة لن تعطى روسيا الحرية الكاملة على متن المحطة الفضائية الدولية وبالتالى فقرار التخلص منها غير مبرر وخاطئ" .

المعروف أن المحطة الفضائية الدولية تعمل بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتشارك فيها ١٨ دولة منها روسيا .

الطريف فى الأمر أنه فى الوقت الذى رأى فيه يورى كويتبيف عدم ضرورة أو أهمية وجود رواد فضاء فى المدار وبشكل مستمر كانت الولايات المتحدة ضرورة ذلك ترى منذ عام ١٩٨٣ ضرورة إنشاء محطة مدارية تعمل باستمرار وكان من المفترض أن تقوم وكالة " ناسا " الأمريكية بالانتهاء من هذا المشروع عام ١٩٩٣ . ولكن المشروع لم ينفذ إلا بعد أن شاركت فيه روسيا بخبراتها الفضائية السوفيتية . ولكن توجهات واشنطن فى " الاستفراد " بالفضاء الكونى اتجهت بشكل أو بآخر لدفع روسيا إلى التخلص من محطتها القومية " مير " لتصبح إحدى الدول المشاركة فى المحطة الفضائية الدولية وبقيادة واشنطن . ناهيك طبعا عن الطروحات الأمريكية الأخيرة بشأن مشاريعها " القومية " فى كل شئ حتى فى مظلة نووية تحمى أمنها القومى فقط . المفارقة هنا هو قدرة الولايات المتحدة على الوصول إلى إقناع الروس وعلمائهم بضرورة التخلص من الأشياء الخاصة والإنجازات التاريخية والتخلى عما يسمى "بالقومى" خلال ١٠ سنوات فقط . فقد أصبح كل ما يسمى بـ " القومى " بما فيه طبعا الأمن القومى أمرا مزعجا ومخجلا وغير

ضرورى بالنسبة للروس بينما علت النعرة " القومية " الأمريكية إلى درجة مثيرة للتساؤل . والغريب فى الأمر أن روسيا بعثت بمجموعة خاصة من روادها إلى " مير عام ٢٠٠٠ ونجحوا فى تحديث المحطة ليطيلوا عمرها إلى عام ٢٠٠٣ مع إمكانية تمديد الفترة لاحقا . وهو ما دفع ٣ من العلماء الروس الحاصلين على جائزة نوبل فى الفيزياء هم نيكولاى باسوف وألكسندر بروخوروف وجوريس ألفيروف إلى نشر نداء موجه إلى الرئيس الروسى فلاديمير بوتين موضحين فيه مدى خطأ قرار إغراق المحطة التى تحتوى على مجموعة من الأجهزة والمعدات التى كلفت روسيا غاليا ولا تزال صالحة للعمل . وأكدوا علميا أن المحطة الفضائية الدولية ليست أقوى من "مير" بل العكس على الرغم من التضليل بشأن حالة الأخيرة .

الأغرب فى الأمر أن مجلس الدوما الروسى طرح عملية إغراق المحطة للتصويت وكانت المفاجأة أن صوت ٢٦٢ نائبا بـ (لا) بينما صوت ٣٤ بـ (نعم) . ورغم ذلك قررت الحكومة الروسية التخلص منها الأمر الذى دفع أعضاء مجلس الدوما إلى التصريح العلنى بوجود "طابور خامس" مكون من شخصيات فى مبنى الكرملين تعمل مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية مثلما حدث فى عملية الخصخصة التى تمت فى بداية التسعينات .

أما استطلاعات الرأى التى جرت فى ١٠٠ مدينة وإقليم روسى ورغم التأثير الإعلامى للوبى الصهيونى فى وسائل الإعلام الروسية والذى يعلن صراحة عن تعاونه مع واشنطن فقد أعلنت عن أن ٢٧٪ فقط من الروس مع إغراق المحطة ويعارضها بشدة ٣٩٪ بينما أجاب ٣٤٪ بعدم معرفتهم بجدوى ذلك من عدمه !

وردا على سؤال من المستفيد من إغراق " مير " أجاب معظم الخبراء الروس والأوروبيين أنه الولايات المتحدة الأمريكية نظرا لأن الاتفاقية حول التعاون فى برنامج المحطة الفضائية الدولية تؤكد على دورها البارز والرئيسى فى التوجيه المشترك والإحداثيات والاستخدام وتنص صراحة على أن الولايات المتحدة تخطط وتنسق كل شئ عمليا وأن أى تعديل قد يدخل فى برنامج أى من الدول الـ ١٨ يتطلب إبلاغ الشركاء الآخرين ولكن يجب بالضرورة موافقة واشنطن .

الجانب الآخر هو أن الأمريكيين قد ملوا فعليا من عمليات المنافسة فى ارتياد الفضاء ومن الأسهل فى ظل المنظومة العالمية الجديدة استخدام تجربة الغير خاصة إذا كانت أغنى . فالبعثة التى تعمل حاليا على متن المحطة الفضائية الدولية - على سبيل المثال - تتكون من رائد الفضاء الروسى سيرجى كريكاليف الذى يقف وراء ظهره ٤ رحلات فضائية مدتها ٤٨٣ يوما والروسى الثانى يورى جيدزينكو الذى يحمل خبرة ١٧٩ يوما فى الفضاء بينما قائد الرحلة الأمريكى بيل شيبارد فكل حصيلته ١٨ يوما فى الفضاء .

لم يعد سرا أن برنامج المحطة الفضائية الدولية هو زواج مصلحة بين واشنطن وموسكو . فالأمريكيون هنا يخفضون نفقاتهم من المال والوقت للوصول إلى أعلى المستويات العالمية تقدما بينما تأمل روسيا فى الحفاظ على مستواها السابق فى عالم ارتياد الفضاء نظرا لضيق ذات اليد . ومن الطبيعى أن يكون هذا الزواج أكثر ربحا لواشنطن حيث العمل على متن المحطة الفضائية الدولية بالنسبة للروس ليس سوى اجترار وتكرار تم اجتيازه وهم الآن يمثلون دور المدربين . وليس من المستبعد إطلاقا أن يستأثر " التلاميذ " الأغنياء بعد مضى ٣ أو ٤ سنوات بالمحطة كاملة أو فى أحسن الأحوال تهميش دور الروس وإزاحتهم إلى الصف الأخير وليس فقط فى الفضاء !

الندم الروسى على محطة مير

تحليق السياح فى الفضاء الكونى سيتوقف خلال السنتين المقبلتين . أبدى هذا الرأى السكرتير الإعلامى لرئيس

الوكالة الفضائية الروسية سيرجي جوربونوف مضيفا قوله إن الضجة المثارة في وسائل الإعلام والزاعمة أن ما يقارب العشرة أو يكاد من أصحاب الملايين قد وقفوا في الطابور إثر تحليق أول سائح فضائي هو دنيس تيتو بانتظار دورهم وأن الوكالة الفضائية الروسية تختار من بينهم المرشح التالي للتحليق ليست مطابقة للحقيقة . وليس مستبعدا ألا نرى على متن السفن الفضائية وعلى متن المحطة الدولية سياحا حتى في خلال السنوات الخمس القادمة.

وأضاف جوربونوف أن التحليقات المقبلة إلى المحطة الفضائية الدولية ستتم حسب جدول بات جاهزا ولن يكون فيها سوى فضائيين محترفين . وأكد جوربونوف قائلا " إننا قاتلنا من أجل أن يطير دنيس تيتو لأن مقعدا فارغا واحدا كان عندنا في السفينة الفضائية التي نقلت أول بعثة زائرة إلى المحطة الفضائية الدولية " .

وقال جوربونوف إن تحليقا واحدا فقط إلى المحطة بعد التحليق الأول هو مقرر لهذا العام كبعثة زيارة ثانية للمحطة وإن المقعد الثالث في السفينة " محجوز " منذ الآن وستحتله في أكتوبر ٢٠٠١ رائدة الفضاء الفرنسية العاملة بوكالة الفضاء الأوروبية كلودي أندري ديي . وفي عام ٢٠٠٢ قد يعطى المقعد الثالث في بعثة زيارة المحطة الدولية إلى رائد فضاء إيطالي . وأضاف جوربونوف أن مفاوضات في هذا الشأن تجريها الوكالة الفضائية الروسية منذ الآن .

وقال إن كل " ثالث مقعد " في سفن " سويوز - تي . إم " الروسية سيحتله في خلال التحليق إلى المحطة الدولية رجال فضاء من هذا البلد أو ذاك سيكون مدفوع الثمن ولكن ليس من قبل الشخص الفرد بل من قبل مؤسسة ترعى تحليقه مثل الوكالة الفضائية الأوروبية . وختم جوربونوف قائلا : " أما ثمن الرحلة فلن يكون أقل بل أكثر بكثير مما دفعه دنيس تيتو ومن المعروف أنه دفع لروسيا مقابل تحليقه ٢٠ مليون دولار . ومرد ذلك يعود إلى أن هؤلاء " الفضائيين الإضافيين " سوف يعطون مزيدا من الوقت للعمل في القسم الروسي من المحطة الدولية " .

أما رائد الفضاء الروسي ألكسندر ألكسندروف فيدعو إلى تطوير الرحلات الفضائية غير المأهولة والبرامج الخاصة بدراسة الفضاء البعيد . واعتبر الاهتمام غير الكافي الآن بهذا المجال " تفويتا للفرصة " .

ويقدر ألكسندروف عاليا الوضع الحالي الذي تمر به الملاحة الفضائية الروسية وخصوصا الصدارة التي تحتلها في الرحلات المدارية ويأمل بأن يعمل النمو الاقتصادي عموما على رفع قدراتها أيضا .

في هذا السياق أعلن المخرج السينمائي الروسي يوري كارا عبر وكالة "ريا - نوفستي" أن الولايات المتحدة أخذت عن روسيا فكرة تصوير فيلم سينمائي عن الرواد في الفضاء الحقيقي وكان يوري كارا هو أول من عرض فكرة القيام بتصوير مماثل في المجال السينمائي . ورأى المخرج أن العديد من وسائل الإعلام ومن ضمنها الروسية وخاصة بعد أن تمت عملية طيران السائح الفضائي الأمريكي دينيس تيتو إلى المحطة الفضائية الدولية بنجاح بدأ الحديث عن احتمال طيران المخرج السينمائي الأمريكي جيمس كاميرون إلى المحطة من أجل القيام بتصوير سينمائي . إلا أن أحدا لا يذكر أن فكرة تصوير أول فيلم في الفضاء تعود إلى روسيا - على حد قوله .

ولفت كارا النظر بقوله : "كان قد تم وضع سيناريو لفيلم "الرحلة الأخيرة" ودعوة الممثل فلاديمير ستيكلوف للعب دور رائد الفضاء عالم البيولوجيا كما وتم توقيع عقد مع شركة "إنيرجيا" الروسية حول طيرانه إلى محطة "مير" لإجراء تصوير المشاهد الضرورية هناك" .

ووفقا لكلامه فتلك المشاهد الفضائية كان من المقدر لها أن تشغل نسبة تقارب ٢٠ ٪ من الحجم الكلي للفيلم . وكان المنتج رجل الأعمال البريطاني الشهير جون دايلي .

وأشار كارا إلى أن الدليل على جدية الفكرة واتساعها أنه كان من المقرر أن تتم عمليات التصوير في ٨ دول من

مختلف القارات بالإضافة إلى دعوة كبار الفنانين المعروفين من روسيا والولايات المتحدة للمشاركة فيه . إلا إن المنتج ومن دون ذكر أية أسباب أو توضيحات امتنع عن التمويل "وانهار كل شيء في لحظة واحدة " .

أما في شركة " إنيرجيا " فلم يعترف المعنيون سوى الآن بأن المخرج الأمريكي جيمس كاميرون وعد في تلك الفترة بتقديم أموال طائلة بالنسبة لعقد مماثل حول التصوير في الفضاء على أن "يكون أكثر ربحا" ولكن ليس في محطة "مير" وإنما في المحطة الفضائية الدولية . وقد تمكن كاميرون من اجتياز لجنة الكشف الطبي الخاصة بمنح التصريح بالطيران إلى الفضاء . والآن يقوم على نشر الأخبار والوعود في الولايات المتحدة بشأن صعوده المقبل إلى الفضاء و" كمواطن أمريكي " فهو مستعد للتحليق "بمساعدة وكالة " ناسا " وليس على غرار دينيس تيتو .

كارثة ديموجرافية تهدد مستقبل روسيا

احتفل العالم بمرور عشر سنوات على انهيار " إمبراطورية الشر " كما أطلق عليها الأمريكيون . احتفل كل على طريقته . ومما لا شك فيه أيضا أن الروس احتفلوا على طريقتهم . ولعل السنوات العشر الماضية قد أظهرت بشكل أو بآخر مدى ما تعيشه روسيا من أزمات فى جميع المجالات بما فيها ميدان التسليح الشيء الوحيد الباقي من تركة الاتحاد السوفيتي جاعلا روسيا فى مصاف الدول "الكبرى" .

من الصعب تماما تناول جميع مظاهر الحياة فى روسيا ما بعد السوفيتية خلال عشر سنوات كاملة . ولكن الجانب الديموجرافي بدأ يثير قلق السلطات الروسية بشكل لم يحدث أبدا فى تاريخ روسيا إلا مرة واحدة : بعد الحرب العالمية الثانية والحكم الستاليني حيث تم فقدان ما يقرب من ٢٥ مليون سوفيتي أغلبهم روس فى حربهم الوطنية ضد ألمانيا النازية وحوالى ٢٠ مليون آخرين فى المعتقلات الستالينية .

انهار الاتحاد السوفيتي رسميا فى نهاية ١٩٩١ عندما وصل عدد سكان روسيا حوالى ١٥٠ مليون نسمة . وفى نهاية عام ٢٠٠٠ تراجع عدد السكان إلى ١٤٥ مليون . من هنا بدأت المشكلة الديموجرافية تهدد مستقبل روسيا بتركيبتها العرقية والدينية والانهيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أبعاد ديموجرافية مخيفة

أعلنت دائرة الإعلام الحكومي الروسية أن عدد سكان روسيا سوف يتناقص حتى عام ٢٠٠٥ بـ ٨ر٢ مليون نسمة (من ٢ر١٤٤ مليون إلى ٤ر١٤١ مليون) وقد تحدث تغيرات غير مرغوب فيها فى التركيبة السكانية . الخطير فى الأمر أن عدد السكان الشباب سيقل خلال هذه الفترة وفقا لحسابات اللجنة الدولية الروسية للإحصاء بـ٥ر٥ مليون نسمة (من ٨ر٢٧ مليون إلى ٣ر٢٢ مليون) . وعلى الرغم من أن عدد السكان المؤهلين للعمل سوف يزيد بـ ٦ر٢ مليون نسمة (من ١ر٨٧ مليون إلى ٧ر٨٩ مليون) إلا أن هذا العدد سوف يتقلص بعد عام ٢٠٠٥ بشكل مطلق فى الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٥ بمقدار ٤ر٧ مليون نسمة .

على ضوء ذلك أعلن رئيس الوزراء الروسي ميخائيل كاسيانوف أن تدنى عدد السكان فى روسيا يتخذ أبعادا مخيفة . ووفقا لما صرح به فتقلص عدد السكان يعود إلى تدنى نسبة الولادات والوفيات المبكرة بين الرجال والوقاية السيئة والوفيات نتيجة الإدمان على المشروبات الكحولية . وأشار كاسيانوف إلى أن تقلص عدد السكان القادرين على العمل ليس فقط مشكلة اجتماعية وإنما المفصل الذى يتوقف عليه تطور روسيا فى السنوات القادمة حيث التنمية الاقتصادية ـ الاجتماعية سوف تعتمد بالدرجة الأولى على توافر الأيدى العاملة بالذات وبشكل عام وعلى الأخص الأيدى العاملة الماهرة والمدربة . ووصف كاسيانوف عام ١٩٩٩ بأسوأ الأعوام حيث تناقص فيه عدد سكان روسيا بمقدار ٧٦٨ ألف نسمة (بنسبة ٥ر٪) .

تقلص إجمالي سكان روسيا رغم الزيادة

فى تقرير للجنة إحصاء السكان تبين أن عدد سكان روسيا قد ازداد خلال القرن العشرين بنسبة ٩٩٪ . ففى عام ١٩٠١ كان عدد السكان ٧٥ر٧٢ مليون نسمة وفى نهاية القرن العشرين وصل إلى ١٤٥ مليون . وقد وصلت نسبة زيادة السكان فى روسيا خلال النصف الأول من القرن إلى ٥ر٤١٪ (وكانت نسبة الزيادة من عام ١٩٠١ إلى ١٩١٧ حوالى ٢٥٪) . وفى النصف الثانى من القرن وصلت إلى ٤١٪ . ومن عام ١٩٥١ إلى ١٩٩٠ ازداد عدد

سكان روسيا بنسبة ٤٤٪ . ومن ١٩٩١ إلى ٢٠٠٠ قل بنسبة ٤ر٢٪ .

الجدير بالذكر أن عدد سكان روسيا القيصرية مع حلول عام ١٩١٤ (الحرب العالمية الأولى) وصل إلى ٩ر٨٩ مليون نسمة . ومع بداية عام ١٩١٧ (انتهاء الحكم القيصرى) وصل عدد السكان إلى ٩١ مليون . وخلال الحرب الأهلية التى استمرت أربع سنوات تراجع عدد السكان إلى ٨ر٨٧ مليون نسمة . وفى عام ١٩٣٧ وصل إلى ٩٣ر١٠٤ مليون . وفى عام ١٩٤١ إلى ٣٦ر١١١ مليون . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تراجع عدد سكان روسيا (حسب إحصاءات عام ١٩٥١) إلى ٩ر١٠٢ مليون نسمة ثم ازداد عام ١٩٦١ إلى ٧ر١٢٠ مليون . وفى يناير ١٩٩١ وصل إلى ٥ر١٤٨ مليون ليتراجع بعد ذلك إلى ١٤٥ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ .

الاستقطاب الداخلى

لم تنكر دائرة الإعلام الرسمى الروسية أن هناك حاليا استقطاب أو هجرة داخلية تحدث داخل روسيا نفسها . ولعل خطورة هذا الأمر تكمن فى التركيبة الإثنية لسكان روسيا من ناحية ومساحتها من ناحية أخرى . فقد حدث نمو مطلق ونسبى لتعداد السكان من ممثلى القوميات الأصلية فيما سجلت هجرة السكان الروس من عدد من جمهوريات روسيا الاتحادية نسبة عالية للغاية . هذا الأمر فى جمهورية فيدرالية يشكل خطورة على أغلبية السكان وهى فى هذه الحالة من الروس . وقد نزح من جمهورية الشيشان حوالى ٩٥٪ من الروس وغادر ٢٠٪ من الروس أيضا جمهورية داغستان .

وأعلنت دائرة الإعلام فى تقرير رسمى أن اتجاهات الهجرة الداخلية المتغيرة مقارنة بالسنوات السابقة تؤدى إلى تقلص تعداد السكان فى المناطق الشمالية والشرقية فى روسيا وهى المناطق الأغنى من حيث الموارد الطبيعية . هذا الأمر يشكل خطورة على الاقتصاد الروسى وخطط الاستثمار التى تضعها الحكومة الروسية على أولويات برامجها الاقتصادية للتنمية .

ووفقا للإحصاءات الرسمية فقد تقلص عدد سكان جمهورية تشكوتكا الشمالية خلال السنوات العشر الأخيرة بنسبة ٥٠٪ ومقاطعة ماجادان الشمالية أيضا بنسبة ٣٦٪ وفى دائرة كورياتسك بنسبة ٢٦٪ وفى دائرة أفينسكى بنسبة ٢٥٪ وفى مقاطعة كامتشاتكا بنسبة ١٨٪ وبنفس النسبة فى دائرة تايبمير وفى سخالين بنسبة ١٧٪ .

وعلى الرغم من هذا التناقص يشير الخبراء إلى أن عدد السكان يعتبر فائضا نسبيا فى ظروف النمو الاقتصادى الموجودة فى روسيا وأن نزوح الجزء النشط اجتماعيا يؤدى إلى تردى البنية السكانية ويهدم القدرة العملية المكيفة للظروف الطبيعية فى هذه المناطق . وسوف يخلق ذلك على المدى البعيد مشاكل اقتصادية واجتماعية وربما إثنية وتاريخية نظرا لأن مصالح روسيا الاستراتيجية متركزة فى هذه المناطق .

هجرة العقول الروسية

قبل عشر سنوات وتحديدا قبل انهيار الاتحاد السوفيتى لم تكن روسيا تعانى من نقص الكوادر المتخصصة أو القصور فى تأهيل العقول المدربة . والآن يعلن رئيس الوزراء الروسى ميخائيل كاسيانوف أن عدد الاختصاصيين والعلماء فى روسيا قد انخفض بنسبة مرتين فى السنوات العشر الأخيرة .

فى الحقبة السوفيتية كانت أخطر القضايا التى تواجه الروس هى السفر إلى خارج الاتحاد السوفيتى مما جعل حرية الإنسان فى تلك الإمبراطورية فى خطر دائم . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وقيام روسيا الاتحادية أصبح من

الممكن السفر والتنقل بحرية تامة . غير أن الناس العاديين فى روسيا لا يملكون إلى وقتنا هذا الإمكانيات المادية لهذا الترف نظرا لتدنى مستوى المعيشة والأزمات الاقتصادية المتلاحقة التى تضرب عصب الاقتصاد الروسى . ومع ذلك فروسيا تواجه اليوم واحدة من المشكلات التى تهدد قاعدتها العلمية بالخطر . فمع انخفاض عدد العلماء الهائل وانخفاض الطلب على العقول المدربة بدأت السن المتوسطة للعلماء الشبان فى الازدياد الأمر الذى جعل رئيس الوزراء والأوساط العلمية والاجتماعية يعلنون عن قلقهم .

فى بداية الإصلاحات الديمقراطية فى روسيا نزح عدد هائل من الاختصاصيين وفتحت جميع دول أوروبا وخاصة أمريكا وإسرائيل وألمانيا أبوابها لهؤلاء الشبان ذوى الكفاءات العالية نظرا لرخصها وارتفاع كفاءتها . واستمرت هجرة العقول الروسية فى ازدياد مع تفاقم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية إلى أن بدأت الحكومة الروسية تدق ناقوس الخطر .

رأى بعض الخبراء الروس مثل المحلل السياسى بوريس بتروف أن هجرة العقول الروسية لا تشكل خطرا كبيرا بل وتعتبر إضافة إلى ثراء روسيا باعتبارها مصنعا للكوادر العلمية والتقنية . وبالتالى فروسيا ليست فقط دولة مصدرة للنفط والغاز والمواد الخام وإنما أيضا للكوادر الثقافية والفنية والعلمية . وأشار إلى أن هذا الأمر مؤلم لعدم الاستفادة الكاملة من هذه الطاقات التى تتلقى تعليمها مجانا فى روسيا ثم تتركها بعد ذلك .

الجدير بالملاحظة أن التعليم المجانى فى روسيا قد بدأ فى الانقراض إضافة إلى سوء النظم التعليمية وانخفاض مستوى التعليم بشكل عام وهو الأمر الذى يهدد العلوم الروسية على أرض الواقع . بينما رأى مدير متحف الإرميتاج بوريس بيوتروفسكى أن هذه القضية لا تمثل أية خطورة على روسيا مشيرا إلى أن المخرج من هذه الأزمة هو وضع سياسة استراتيجية صحيحة تقضى بعدم القلق وعدم اتهام الآخرين وإنما بتحويل الأمر كله إلى مصلحة روسيا وخلق الظروف المواتية لعودة الأدمغة الروسية إلى الوطن بعد أن تكون قد حملت على التقنية الأجنبية وبأموالها .

المثير فى الأمر أنه بعد ثورة ١٩١٧ هاجر من روسيا حوالى ٢ مليون شخص بحلول عام ١٩٢١ . وخلال العشر سنوات الأخيرة من القرن العشرين هاجر من روسيا حوالى ١٠ ملايين على الرغم مما يشاع حول مسألة الحريات السياسية التى تسببت فى الهجرة التى حدثت فى بداية القرن . فالروس حصلوا على حرياتهم السياسية كاملة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى فماذا حدث ؟ الأخطر هنا هو هجرة العقول المدربة التى يصل عدد أصحابها سنويا إلى أكثر من ١٠٠٠ عالم ومتخصص . وفى الوقت الذى يعتبرهم فيه المحللون السياسيون والخبراء مصدرا من مصادر الدخل القومى لروسيا تعتبرهم القوى الوطنية الروسية الطابور الخامس الذى يشكل خطرا على روسيا نفسها وعلى علاقاتها التاريخية والسياسية بحلفائها التقليديين . ولعل أوضح مثال لذلك هو هجرة اليهود الروس (حوالى مليون شخص) يحارب معظمهم اليوم فى صفوف الجيش الإسرائيلى بعد أن حمل العديد منهم الكثير من الملفات والاختراعات التى تلهث روسيا ورائها تارة بالتعاون المشترك (العسكرى أو الأمنى) مع إسرائيل وتارة أخرى باستعادتها عن طريق أجهزة الاستخبارات أو بعقد صفقات مشبوهة .

الطموحات والتخطيط الاقتصادى

تواجه الحكومة الروسية حاليا واحدة من أخطر مشاكلها : كيفية زيادة عدد السكان وتشجيع الهجرة واجتذاب الأيدى العاملة الماهرة والمدربة .

أشار رئيس الوزراء الروسى كاسياتوف فى تصريح على شاشات التلفزيون الحكومى الروسى إلى أنه على الرغم

من وجود بطالة عالية فى روسيا إلا أن العديد من أماكن العمل تبقى شاغرة . وأرجع ذلك إلى أن الروس لا يريدون ممارسة الأعمال التى لا تحتاج إلى اختصاص .

ورأى كاسيانوف أنه يتوجب على الحكومة الروسية صياغة سياسة هجرة محددة على المستوى الداخلى يمكنها أن تأخذ فى الاعتبار الحاجة إلى الأيدى العاملة فى الصناعة وفى الأقاليم الحيوية . من ناحية أخرى أعلن أن صياغة سياسة الهجرة المحددة لا تلغى صياغة سياسة أخرى موازية لاجتذاب القوى العاملة المؤهلة إلى روسيا لأن ذلك سيساعد جزئيا على تعويض التراجع فى الولادات وزيادة هجرة العقول الروسية إلى الخارج .

ولكن التساؤلات التى تطرح نفسها على الساحة الاقتصادية والديموجرافية فى روسيا بشأن ضرورة تأمين الظروف الاقتصادية والمعيشية للمهاجرين الأجانب والأيدى العاملة الأجنبية تشير الكثير من التناقض خاصة وأن الاقتصاد الروسى لا يمكنه سد حاجة السكان الأصليين رغم تناقصهم .

تشير الإحصائيات الرسمية إلى أن عدد المهاجرين الذين غادروا روسيا فى السنوات العشر الأخيرة حوالى ٤ ملايين نسمة فيما وصل عدد المهاجرين إليها ٨ ملايين للإقامة الدائمة . بينما تشير الإحصائيات غير الرسمية إلى أكثر من ضعف هذه الأعداد حيث وصل عدد النازحين خارج روسيا إلى ١٠ ملايين نسمة أغلبهم من أصحاب العقول والخبرات . ووصل عدد المهاجرين إليها إلى أكثر من ١٥ مليون أغلبهم من الجمهوريات السوفيتية السابقة حيث القلة القليلة منهم مؤهلين للعمل فى القطاعات الاستراتيجية الروسية . وبالرغم من عدم دقة الأرقام وتناقضها بشأن عدد الروس الذين غادروا روسيا وكذلك عدد المهاجرين إليها يرى الخبراء الروس احتمالية تزايد عدد المهاجرين الأجانب إلى روسيا ليصل إلى ٤ ملايين نسمة أغلبهم من دول رابطة الدول المستقلة ولكن ذلك مرتبط جذريا بمدى قدرة روسيا على جذب المهاجرين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

آخر الإحصائيات الرسمية !

شهد عدد سكان روسيا على مدى السنوات العشر الأخيرة وبسبب زيادة الوفيات على الولادات انخفاضا يقدر بـ ٧٠٠ ـ ٨٠٠ ألف نسمة سنويا . وخلال نصف قرن سيكون عدد سكان روسيا ٨٥ مليون نسمة بدلا من ١٤٦ مليون كما هو الحال عليه الآن .

وبكلمات رئيس الوزراء الروسى نفسه فقد بدأت مسيرة الهجرة إلى روسيا فى التسعينات من القرن العشرين وجاءت عفوية تماما نتيجة لانهيار الاتحاد السوفيتى . ففى عامى ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ تدفق السيل الأساسى من النازحين إلى روسيا وخاصة من أذربيجان وجورجيا وطاجيكستان ومولدافيا . وفى عامى ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ كثرت الهجرة من كازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان وقيرجيزيا . وفى أعوام ١٩٩٦ ـ ١٩٩٨ استمرت الهجرة بمعدلات أعلى من جمهوريات كازاخستان وأوزبكستان بشكل رئيسى . إلا أن هذا السيل قد بدأ ينضب تدريجيا . فإذا كان عام ١٩٩٤ قد شهد تدفق أكثر من مليون نسمة إلى روسيا ففى عام ٢٠٠١ لم يتجاوز عدد النازحين ٣٣٨ ألف نسمة .

الفاشية الجديدة فى روسيا

روسيا للروس .. موسكو للموسكوفيين .. وماذا بعد !

لم يعد أحد يعرف ماذا يحدث مع الشعب الروسى . لا ينبغى أن تندهش عندما يحدث مثل هذا التعميم (الشعب الروسى) . وسائل الإعلام تطلق على ما يحدث فى موسكو حاليا المصطلح الروسى الشهير(بوجرومى) - المذابح - ومرتكبو المذابح يرون أن الأمر طبيعى جدا !

تم القبض على سيرجى بليكوف (١٧ سنة) أحد أعضاء المنظمات الفاشية الروسية الذى ظل يضرب المواطن الهندى بقطعة من الحديد حتى تهشم رأسه ومات . يقول سيرجى : سمعنا أن "بلادنا" استضافت شئ اسمه مؤتمر "دافوس" وعرفنا أن مناهضى العولمة سيأتون إلى "عاصمتنا" ليشيعوا الاضطرابات . فقررنا مواجهتهم . ولكن الأمر اختلط علينا فقتلنا السود والملونين .

وقال رئيس إدارة الإعلام والعلاقات العامة بوزارة الداخلية الروسية سيرجى شفيتسوف (مندهشا) : اتضح خلال التحقيقات أن "المراهقين" ذهبوا إلى وسط موسكو ليضربوا مناهضى العولمة . كان ذلك مفاجأة غريبة بالنسبة لنا لأننا كنا نفترض أن "فاشيينا" سينضمون إلى هذه "الموضة" الجديدة ولكنهم فكروا بطريقة مختلفة .

وبعد الأحداث اتصل أحد قادة الفاشيين الروس بالقناة العاشرة فى التلفزيون الروسى (تى.إن.تى) وطلب مقابلتهم (على الهواء مباشرة) بشرط أن يكون التصوير من الخلف وأن يتم تغيير الصوت .

المذيع : هل تشعرون بالرضا

الفاشى : نسبيا . كان من الممكن أن تكون النتائج أفضل من ذلك .

المذيع : ولكن ما هو المبدأ الذى تختارون على أساسه ضحاياكم

الفاشى : أن يكون من السود والملونين .. من القوقاز ..

المذيع : وما الهدف من كل ذلك

الفاشى : نريد تنظيف بلادنا . فموسكو للموسكوفيين وروسيا للروس . وفى أسوأ الأحوال يمكن أن يعيش فى بلادنا السلافيون الأصليون فقط .

عند انهيار الاتحاد السوفيتى لم يكن يتصور أحد أن تتجه روسيا إلى النقيض والنقيض الأكثر تطرفا فى كل شئ . لم يكن أحد يتصور أن نظرات العجائز الحاقدة رجالا ونساء للأجانب والملونين بشكل عام هى بداية كارثة قادمة ستظهر نتائجها الواضحة بعد ١٠ سنوات من الانهيار الكبير . لم أحد يتصور أيضا أن ابتعاد الشباب الروسى عن صداقة الأجانب فى الفترة الأخيرة وخاصة الملونين من كل جنس وملة ودين وسخريته منهم وإزاحته لهم أحيانا فى الطريق أو مزاحمتهم فيها بداية حملة ضخمة ستفرز بعد ذلك منظمات وجمعيات قومية وقومية متطرفة وفاشية لا تطالب فقط بإبعاد الأجانب من دول العالم الثالث والملونين ومعتنقى الديانات الأخرى من روسيا وإنما تقوم هى وعلى طريقتها بإبعادهم من الحياة كلها . المؤلم أن الـ ٧٠ سنة الماضية لعب دورا خطيرا بالنسبة لبشر عاشوا على سدس الكرة الأرضية فى دولة اسمها الاتحاد السوفيتى الذى ضم ١٥ جمهورية مختلفة الأعراق والديانات واللغات . وبالتالى كان لابد من اختلاط البشر . وكل مواطن فى هذه الجمهوريات الـ ١٥ يحمل فى عروقه لا يقل عن ٥ أنواع من الدماء ومن البديهى هنا ألا نتحدث عن لون البشرة أو الشعر أو العينين . ناهيك عن أنه لا يوجد أى شك فى أن أى روسى أينما يعيش يحمل فى عروقه دما تتريا بحكم التاريخ والاختلاط والاحتلال التترى لروسيا لقرون عديدة .

وعلى الرغم من معرفة الغالبية العظمى من الناس الذين تعاملوا مع الروس بالطابع المتطرف للشعب الروسى أى انتقاله من الشىء إلى نقيضه دون حساب أو مراجعة وبإيمان شديد وعميق كان البعض يلتمس الأعذار لكل تلك الظواهر معللا ما يحدث بسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وتفشى الفساد والمافيا وانهيار القيم والمثل الأخلاقية . وفجأة ظهرت الجمعيات والمنظمات الفاشية وكأنها المارد الذى خرج من القمقم . الأخطر أن هذه المنظمات بالذات تحوز على رضاء ضمنى من الشرائح المعدمة فى المجتمع الروسى والتى تصل نسبتها إلى ما يقرب من ٨٠٪ من الروس الذى يصل تعدادهم الآن إلى ١٤٠ مليون نسمة . و"الفضل" فى ذلك يعود طبعا إلى وسائل الإعلام الروسية التى ظلت تروج لأسباب تعاسة الشعب الروسى إبان الاتحاد السوفيتى وبعد انهياره : مساعدة دول العالم الثالث الملايين من ملونى الدول الفقيرة الذين أتوا إلى الاتحاد السوفيتى للدراسة السود الذين نهبوا خيرات الاتحاد السوفيتى وعرق عماله . وبعد ذلك بدأت الحملة تتجه إلى التخصيص : جمهوريات القوقاز هى السبب فى فقر روسيا الجريمة فى روسيا لا يرتكبها إلا مواطنى دول القوقاز السود من أرمينيا إلى أذربيجان إلى جورجيا وأوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان . ثم جاء دور دول القوقاز الموجودة ضمن الفيدرالية الروسية : الشيشان داجستان أنجوشيا .. إلخ وفجأة دخلت وسائل الإعلام إلى منطقة "الفتنة الطائفية" بكل ما يتضمن هذا المصطلح من انحطاط وتخلف ونذالة : الملونون مرتبطون بالديانة الإسلامية ودول القوقاز معظمها إسلامية سواء داخل الفيدرالية الروسية أو فى رابطة الدول المستقلة . ولم تجد الأبواق الإعلامية أى حرج حينما اصطدمت بحقيقة حاولت تجاهلها طويلا وهى أن أرمينيا وجورجيا جمهوريتين مسيحيتين فلجأت إلى التعميم : يجب التخلص من السود والملونين بشكل عام سواء من القوقاز أو الهند وباكستان أو الدول العربية . وبدأت الكارثة ..

الثوب الروسى الجديد

لم تختر روسيا ما بعد السوفيتية من الأثواب الأوروبية سوى أكثر الأثواب الملطخة بالجرائم الأخلاقية والروحية : العنصرية والفاشية وعبدة الشيطان والمافيا . ومع كل ذلك فهى لا تثير إلا الشفقة لدى العارفين بتاريخها وبثقافتها وشطحاتها الخلاقة التى وهبت العالم بوشكين وتولستوى ودبستويفسكي وتشيخوف وجوركى وشولوخوف ومايكوفسكي ويسنن وباسترناك وبرودسكي وسولجينيتسين ناهيك عن العلم والعلماء والفلاسفة والإضافات الضخمة لفنون الموسيقى والباليه والأوبرا . روسيا " الجديدة " مثل إيطاليا التى حكمتها المافيا بالتواطؤ مع الكنيسة واليمين المتطرف بعد الحرب العالمية الثانية . روسيا " الديمقراطية " تكره السود والملونين وتحتقرهم وتمجد نمط الحياة الأوروبى والأمريكي وتركع لرأس المال الأجنبى والقروض وتزحف على أربع متقطعة الأنفاس نحو أوروبا وأمريكا التى ترى شعوبها أن الروس هم فلاحو أوروبا ويجب أن يظلوا هكذا إلى الأبد . فعلى الرغم من مرور عشر سنوات على ما يسمى بالإصلاحات التى قام بها اليمين الروسى إلا أن استطلاعا للرأى أظهر مؤخرا أن ١٥٪ فقط من الروس استطاعوا بطرق مختلفة التكيف مع ظروف الحياة الجديدة وأن ٣٠٪ يحلمون بتحقيق نجاح ما فى هذا الإطار أما ٥٥٪ فلم يتكيفوا ولا يحلمون حتى بأن حياتهم ستتغير إلى الأفضل .

الفاشيون الروس قبل ١١ سبتمبر

ظلت وتيرة نشاطات المنظمات الفاشية فى روسيا تسير بمعدلات متوازنة منذ بداية التسعينات . فبين الحين والآخر تبث وسائل الإعلام عن اشتباكات بين أعضاء تلك المنظمات وتجمعات الملونين من المهاجرين الأرمن أو

الأذربيجانيين أو الطاجيك أو الجورجيين أو الشيشان والداجستانيين ويكون ضحيتها بعض القتلى والمشوهين والجرحى من الطرف الثانى وتقبض الشرطة على بعض الأفراد من الطرف الأول ثم تطلق سراحهم بعد ذلك وينتهى الأمر وينسى الناس . وفى أحيان أخرى عندما تكون الأحداث السياسية وأخبار الكوارث قليلة تقوم وسائل الإعلام ببث بعض الريبورتاجات المصورة عن المنظمات الفاشية فى روسيا . والمتتبع لهذه الموضوعات الخطيرة يدرك أنها ليست منظمات متواضعة أو ضعيفة . فهى جيوش مسلحة وغنية يبلغ تعدادها عشرات الآلاف ويتجمعون فى ساحات موسكو وميادينها الكبرى ويملكون إمكانيات مادية ضخمة وأسلحة ويتدربون فى الغابات والأماكن النائية والمعزولة وفقا لقوانين صارمة تشبه نظام القوات المسلحة . وتتشكل فى الأساس من الشباب (١٤ - ٣٥ عاما) أما القادة فهم من أصحاب الخبرات العسكرية والأمنية السابقين وبالتالى تتراوح أعمارهم من ٤٥ إلى ٦٠ عاما . وبدون مبالغة يتمتع أعضاء المنظمات الفاشية فى روسيا بلياقة بدنية عالية ويمارسون تدريبات يومية على الحرب وحرب العصابات والاغتيالات .

ولعل كوارث الحروب الداخلية فى روسيا وبالذات الحربين الشيشانيتين الأولى (١٩٩٤ - ١٩٩٦) والثانية (١٩٩٩ -) قد روجت لتلك المنظمات وجعلت من لوجودها مبررا على جميع الأصعدة وبين جميع شرائح المجتمع الروسى . وبالتالى فالإعلان عن مقتل شيشانى أو داغستانى أو أذربيجانى يمر ببساطة مدهشة . وأحيانا تقوم هذه المجموعات بقتل أى ملون ثم يتضح أنه مواطن أجنبى أو سائح من الهند أو باكستان أو من أية دولة عربية . وينتهى الأمر بأسف لا يقل إثارة للدهشة : "كانوا يظنوا أنه من القوقاز" وكأن قتل القوقازى فى روسيا قد أصبح أمرا عاديا.

فى ربيع ٢٠٠١ قام الفاشيون الروس بإقامة احتفالات ضخمة بالعيد ١١٢ لميلاد إدولف هتلر فى ساحات وميادين العاصمة الروسية موسكو وفى محطات المترو والأماكن التى يقطنها مواطنو روسيا من دول القوقاز . وعلى الرغم من علم الأجهزة الأمنية المسبق بأماكن تجمعات الفاشيين وحليقى الرؤوس وأصحاب القمصان السوداء أسفرت الاحتفالات عن مجموعة من الحوادث منها مقتل شاب شيشانى وتدمير أحد أكبر أسواق موسكو الذى يعمل به مواطنوا جمهوريات القوقاز وليس الشيشان فقط .

الجدير بالذكر أن الفاشيين قاموا بقتل الشاب الشيشانى فى أكبر ميادين موسكو على الإطلاق "مانيجنى بلوشد" بجوار الميدان الأحمر ومبنى البرلمان الروسى وأمام أعين اخوته . أما حادثة تدمير سوق "ياسنيفو" فقد بدأت بالاعتداء على العاملين القوقاز مما أسفر عن إصابة العشرات منهم بجراح خطيرة .

ومن المستحيل تبرئة الأجهزة الأمنية مما يحدث . ففى حالات كثيرة يغمض رجال الشرطة عيونهم عن مثل هذه الحوادث . والأخطر من ذلك يشاركون فيها بشكل أو بآخر . فبخلاف المشاركة المباشرة بالضرب والاعتداء وأحيانا بالقتل يصرون فى كثير من الأحيان (أثناء النهار طبعا) على إهانة الملونين فى الأماكن العامة ومحطات المترو المزدحمة بتوقيفهم أو إلقائهم على الأرض وتفتيشهم بشكل استفزازى . كل ذلك يؤدى بشكل أو بآخر إلى إعطاء المشروعية لما يحدث ويرسخ فى أذهان المواطنين البسطاء أن الشرطة تحافظ على حياتهم من هؤلاء وهؤلاء بالذات : القوقازيون والملونون والسود الغرباء .

بعد ١١ سبتمبر

بمجرد حدوث التفجيرات فى الولايات المتحدة تطورت الأحداث بشكل ملفت للنظر . وشرعت وسائل الإعلام فى إشعال نار الفتنة و"تسويق" مصطلح الإرهاب بشكل يثير الدهشة . وأصبح الربط بين ما حدث فى الولايات المتحدة

وبين ما حدث من تفجيرات في موسكو خلال العامين الماضيين وما يحدث حاليا فى الشيشان من طبائع الأمور . وبالتالي أصبح كل قوقازى إرهابى وكل عربى إرهابى وكل ملون مسلم وكل مسلم إرهابى . واختلطت الأوراق فأصبح من الضرورى أن تسير بجواز سفرك مفتوحا وتعلن لكل من يقابلك بأنك مسيحى أرثوذكسى . ومع ذلك يفضحك لونك حتى ولو كنت بوذيا . أما رجال الشرطة فقد أخذوا على عاتقهم مهمة تقنين الأمور والحفاظ على أمن المواطن الروسى الأبيض .

من أحد الحوادث المثيرة للضحك والأسف فى آن واحد هو أثناء عودة عازف "الساكسفون" الأرمنى (إميل) الذى يعيش فى موسكو بشكل رسمى مع أسرته الكبيرة والصغيرة فى إلى منزله فى ساعة متأخرة من الليل استوقفه رجال الشرطة وقاموا بتفتيشه بشكل أرغمه على البكاء . سألوه مباشرة عن وجود مخدرات . فرد بالنفى . سألوه عن وجود أسلحة . فرد بالنفى . ضربوه فى الشارع (لم يلاحظ رجال الشرطة أن "إميل" كان بمفرده ومن دون سيارة ! ولم يسمعوا تأكيداته لهم بأنه حتى لا يدخن !) وساقوه إلى قسم البوليس لتبدأ الجولة الثانية . جردوه من ثيابه بالكامل من أجل التفتيش الدقيق عن المخدرات والأسلحة . ثم وضعوه تحت "الدش" البارد فى برد روسيا ! وبدأ الضرب . فى الصباح جاء رئيس القسم الذى فوجئ بـ (إميل) ابن الرجل الذى يعرفه جيدا . سأل الرئيس رجاله عن سبب وجود هذا الشخص . قالوا : نعتقد إنه إرهابى . قال الرئيس : أنا أعرفه وأعرف والده .. إنهم يسكنون قريبا منا .. وهذا الولد رزق بمولودة منذ ٣ أيام . قال الرجال : إذن حدث خطأ فهو أسود ومن الممكن أن يكون تاجر مخدرات أو مهرب أو فى أسوأ الأحوال مدمن . وذهب إميل إلى البيت ليغلق على نفسه غرفته لأسبوع كامل . وتم إنهاء الأمر بـ "السكوت" وإلا من الممكن أن تتطور الأمور ورجال الشرطة قادرون على كل شئ .

الحادث الثانى عندما أوقف رجال الشرطة سيارة بها ٣ اخوة من الشيشان الموسكوفيين . فقتلوا واحدا أثناء التفتيش وأصبح الثانى عاجزا والثالث لا يزال فى غرفة الإنعاش . وحتى الآن لم يتم العثور على "رجال الشرطة" !

الحوادث كثيرة والانتهاكات من جانب الأجهزة الأمنية الروسية بحق الملونين والأجانب لأن الأحداث الأخيرة تثبت تورط ليس فقط القوميين المتطرفين الروس وإنما أيضا الفاشيين ومعهم رجال الشرطة . والأصولية فى روسيا الآن أصبحت وثيقة الارتباط بالدين المسيحى وبالأرثوذكسية الروسية على وجه التحديد . فبعد أن بدأ عصابات المافيا الروسية فى مطلع التسعينات بتعليق "الصلبان" ووضع الأناجيل وصور القديسين فى سياراتهم ومكاتب مؤسساتهم وقصورهم مما شكل طوال السنوات السابقة مادة للتسلية والتهكم بدأ الفاشيون الروس والقوميون المتطرفون فى انتهاج أساليب مبرمجة ودعائية تربط بين القومية السلافية والأرثوذكسية الروسية وضرورة "تنظيف" روسيا من الإرهاب المرتبط بأصحاب الحضارات المتخلفة من الملونين وخاصة المسلمين حتى وإن كانوا من البيض . ففى يوم ٣٠ سبتمبر ووفقا لأقوال النائب العام فى موسكو هجمت مجموعة مسلحة (١٦ - ١٨ عاما) من ١٥٠ شخصا على محطة مترو " تساريتسينا " جنوب موسكو وشرعوا فى ضرب كل من يشتبه أنه ليس من القومية السلافية (هذه المنطقة يسكنها العديد من مواطنى القوقاز وبها سوق ضخمة يعملون بها) . فى نفس اللحظة انطلقت مجموعات أخرى مكونة من ٣٠٠ شخص إلى مترو "كاشيرسكايا" و"كاخوفسكايا" وفندق "سفاستوبول" حيث تعيش تجمعات مواطنى أفغانستان . استمرت الاشتباكات حوالى ١٥ دقيقة وأسفرت عن مقتل أرمينى (٥٥ سنة) وهندى (٣٥ سنة) وبعد يومين مات طاجيكى (٣٠ سنة) فى غرفة الإنعاش ومن المتوقع أن يقضى اثنان آخران نحبهما خلال الأيام القادمة . أما عدد الجرحى فقد وصل إلى المئات من مواطنى الهند وطاجيكستان وأرمينيا وأفغانستان . وظهرت فجأة شعارات جديدة : "كل من يشترى شئ من مسلم يساهم فى انتشار الإرهاب" "كل من يشترى بضاعة من طاجيكى

أو أفغانى يمول أسامة بن لادن" "موسكو للموسكوفيين" "روسيا للروس" "ليذهب الملونون إلى الجحيم" .. إلخ

وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر ٢٠٠١ قام الفاشيون من جديد بإطلاق الرصاص على ٣ من الأرمن فى شارع (لينينسكى بروسبيكت) أحد أكبر شوارع موسكو على الإطلاق متصورين أنهم أفغان أو من أولئك الإرهابيين الملونين (هذا ما بثته وسائل الإعلام) .

وسائل الإعلام الروسية أطلقت على الأحداث الأخيرة المصطلح الروسى المعروف (بوجرومى) أى المذابح . ومن الواضح أن الأمور لم تصل بعد إلى مستوى المصطلح . ولكن يبدو أن وسائل الإعلام فى روسيا تتوقع الأسوأ .

كان كل ذلك يحدث ولا يزال يحدث فى الغرب وفى الولايات المتحدة حتى ضد مواطنيها الملونين . ولكن لم يكن أحد يتوقع أن يحدث ذلك وبهذه الصورة المرعبة فى روسيا بوشكين وتولستوى وديستويفسكى وتشيخوف ومندليف وبافلوف وجاجارين ورخمانينوف وشستاكوفيتش وأندريه روبليوف . ولكنه الطابع المتطرف الذى أدى بهم إلى تقديس ماركس ولينين وما يسمى بالشيوعية السوفيتية ومن ثم وصفوا التجربة الصينية بالانحراف ورأوا أن الأحزاب الشيوعية الأوروبية انتهازية ونفعية ومنحرفة وفوضوية وعلى رأسها الحزبين الشيوعيين الإيطالى والفرنسى وفى لحظة واحدة بصقوا على كل شئ و"تبولوا" على شيوعيتهم السوفيتية التى حاولوا فى زمنهم إرغام الجميع على اعتناقها كدين جديد لا يوجد (ولن يوجد !) غيره !

سيناريوهات عسكرة العالم

كان يوليو ـ أغسطس ٢٠٠١ من أنشط الفترات خلال السنوات الأخيرة في مجال المناورات بين موسكو وواشنطن . ففي الوقت الذي كان يواصل فيه زعيم كوريا الشمالية كيم يونج إيل زيارته لروسيا غادر موسكو الوفد العسكري الروسي بقيادة النائب الأول لرئيس الأركان الجنرال يوري بالويفسكي إلى واشنطن بهدف بدء المباحثات العسكرية الروسية ـ الأمريكية بشأن اتفاقية الدفاع المضاد للصواريخ والأسلحة الاستراتيجية . وفي نفس الوقت كانت تجرى في مدينة سانت بطرسبورج مباحثات وزير الدفاع الروسي سيرجي إيفانوف مع نظيره الألماني رودولف شاربينج .

هذه الحلقة من المفاوضات والتي يمكن أن تبدو مفرغة تمثل أهمية شديدة بالنسبة لهندسة العالم الجديدة استنادا للتصريحات الخطيرة التي تم الإدلاء بها .

زيارة كوندوليزا رايس والمؤامرة الإعلامية

قامت مستشارة الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي كوندوليزا رايس بزيارة لموسكو استمرت يومين التقت خلالها مع وزير الدفاع سيرجي إيفانوف وسكرتير الأمن القومي فلاديمير روشايللو والرئيس الروسي فلاديمير بوتين .

وعلى الرغم من تناقض التصريحات نتيجة لإجراء بعض اللقاءات خلف الأبواب الموصدة إلا أن جميع الشواهد تشير إلى تشدد الموقف الأمريكي وإصرار واشنطن على المضي قدما في تنفيذ جميع مخططاتها وفي جميع المجالات بداية من بناء الدرع القومي النووي الأمريكي إلى رفض التوقيع على معاهدة حظر الأسلحة الجرثومية ومرورا برفضها التوقيع على معاهدة كيوتو .

الشواهد تشير أيضا إلى حدوث مرونة غير متوقعة في الموقف الروسي الذي يتأرجح بين الموافقة الكاملة والموافقة بشروط تحفظ ماء الوجه الروسي ليس فقط أمام دول العالم وإنما بالذات أمام الصين التي تستخدمها موسكو في الفترة الأخيرة كورقة ضغط على واشنطن . وهذا ما دفع الرئيس الروسي بوتين إلى الاتصال فورا بنظيره الصيني زيان زيمين أثناء وجود كوندوليزا رايس في موسكو من أجل أن يزيل أي قلق في نفس بكين من الأنباء المتوالية حول تراجع موسكو عن مواقفها تجاه الاستقرار الاستراتيجي والخطط الأمريكية ولكي يؤكد لزيمين أن موسكو لا تزال على موقفها السابق من القضايا المذكورة إلا أن المسألة في حاجة إلى مرونة من نوع خاص وإجراء مباحثات على مستوى الخبراء بين موسكو وواشنطن .

وبرغم التحفظ الواضح في تصريحات الطرفين الروسي والأمريكي بعد انتهاء المباحثات حول أنظمة الدفاع المضادة للصواريخ والاستقرار الاستراتيجي في العالم إلا أن الإصرار الأمريكي لا يعني في أي حال من الأحوال أن واشنطن ستمضي قدما في تنفيذ مخططاتها ضاربة عرض الحائط بمواقف القوى النووية الأخرى وعدم الرضاء الاتحاد الأوروبي عن خطواتها وخاصة التقارب الشكلي مع موسكو الذي يمكنه أن يمثل خطرا ما على الأمن والاستقرار في أوروبا . كما أن التراجع أو المرونة الروسية لا يعني قبول موسكو بكل شئ ضاربة عرض الحائط بمصالحها القومية والجيوبوليتيكية وتحالفاتها الدولية وخاصة مع الصين .

ففي الوقت الذي صرحت فيه كوندوليزا رايس بأنه على واشنطن وموسكو أن تبذلا قصارى جهودهما من أجل التخلي مرة واحدة وإلى الأبد عن الحرب الباردة بما في ذلك اتفاقية الدفاع المضاد للصواريخ لعام ١٩٧٢ وأن الجانبين الروسي والأمريكي يدركان جيدا مدى الأخطار التي تحيق بهما وبالتالي فلا داعي أبدا الانتظار أو التمهل أعلن وزير الدفاع الروسي سيرجي إيفانوف أن مباحثات رايس في روسيا لم تتناول إطلاقا التوقيع على أي اتفاقيات وإنما

أكدت فقط على عدم وجود عداوة بين موسكو وواشنطن وعلى البلدين الاجتهاد فى العثور على سبل أكثر جدية وقوة لبناء منظومة جديدة للأمن والاستقرار العالمى . والواضح هنا أن السياسيين الروس فى غاية الحذر والتوجس ولا يعرفون بعد ماهية هذا النظام الجديد : سيكون جديدا تماما وعلى أسس واتفاقيات جديدة أم سيكون جديدا على بعض الأسس والاتفاقيات القديمة !

إلا أن رايس ردت على إيفانوف بقولها : " على روسيا والولايات المتحدة إيجاد قاعدة جديدة للتعاون والخروج من إطار الاتفاقيات الموقعة فى زمن الحرب الباردة وهذا بالذات سوف يحدد البناء الجديد للأمن والاستقرار العالمى فى إشارة واضحة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تنوى التعامل بالتجزىء مع ما قبل انهيار الاتحاد السوفيتى وتغير موازين القوى على أرض الواقع وإنما ستتعامل مع هذه الحقبة جملة واحدة وهى ما يستحق النسيان على حد تعبير المستشارة الأمريكية .

أما سكرتير الأمن القومى الروسى فلاديمير روشايللو فقد صرح بأن موسكو وواشنطن قد بدأتا المباحثات على خطين متوازيين : الاستقرار الاستراتيجى والحفاظ على منظومة التوازن العسكرى بشأن الأسلحة الدفاعية والهجومية .

من الواضح أن الطرفين الروسي والأمريكي يتحدثان عن شئ واحد ولكن بلغتين مختلفتين من أجل أن يحافظ كل منهما على خطوة للخلف من ناحية وإمكانية على المناورة فى حالة إذا ما وصلت مباحثاتهما إلى طريق مسدود من ناحية أخرى . إلا أن الأشهر القليلة القادمة - على حد تعبير المحللين السياسيين الروس والأمريكيين - سوف تحمل الكثير من المفاجآت نظرا لأن لا موسكو ولا واشنطن تنظران باهتمام إلى المصالح الأوروبية أو الصينية . والطرفان الأخيران بالذات سيكونان مصدر المفاجآت المقبلة .

المثير أن الكرملين وبمجرد رحيل رايس متجهة إلى بلادها اكتشف أنه وقع فى فخ إعلامى كاد يورطه فى علاقاته الدولية مع الدول الصديقة مثل الصين بينما صدرت جميع الصحف الروسية لتعلن عن استسلام بوتين وروسيا .

تعليقات الصحف الروسية

كان وزير الدفاع الروسى سيرجى إيفانوف قد صرح قبيل وصول رايس إلى موسكو بساعات قليلة أنه : " يمكن لروسيا أن تلجأ إلى تعديل معاهدة الحد من النظام الدفاعى المضاد للصواريخ إذا وافقت واشنطن على مواصلة التخفيض الاستراتيجى لأسلحتها النووية وفق الشروط الروسية" . وهو الأمر الذى أثار ثائرة وسائل الإعلام الروسية .

فكتبت صحيفة "فريميا نوفوستي" تقول أن : "روسيا والولايات المتحدة الأمريكية باشرتا بمشاورات مكثفة فى إطار ما تم الاتفاق عليه فى ليوبليانا وجنوى بين الرئيسين الروسى فلاديمير بوتين والأمريكي جورج بوش . وعلى مدى يومين ستجرى فى موسكو محادثات مكثفة حول الأنظمة الهجومية والدفاعية . وسيمثل الجانب الأمريكي مستشارة الرئيس الأمريكى لشؤون الأمن القومى كوندوليزا رايس فى حين سيمثل الجانب الروسى سكرتير مجلس الأمن فلاديمير روشايلو ووزير الدفاع سيرجى إيفانوف" .

وتضيف الصحيفة أن "محاورى رايس يتوقعون أن تخرج مستشارة الرئيس الأمريكي عن إطار الإعلانات والتصريحات التى يروج لها الإعلام وتنتقل إلى الحديث الواقعى المحسوس . ولا سيما أن الوقت قد حان لتقديم إيضاحات أكثر تفصيلا حول خطط الولايات المتحدة الأمريكية لإقامة الدرع النووى الصاروخى ونظرة واشنطن إلى مصير معاهدة (إي.بي.إم) ١٩٧٢ وأخيرا تحديد المطالب ومسألة الحجم المقبول من الولايات المتحدة الأمريكية حول

التحديد المتبادل المستقبلي على الأسلحة الاستراتيجية . ومن الواضح أنه ومن دون تفصيل هذه المسائل فمن الصعب انتظار تحقيق اتفاقات واقعية" .

بينما قالت صحيفة "كميرسانت" : "من حيث الجوهر فإن المحادثات تبدأ اليوم حيث ستصل مستشارة الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي كوندوليزا رايس إلى موسكو في زيارة تستغرق يومين . إلا أن الصفقة الأساسية ستجرى في ٧ ـ ٨ أغسطس في واشنطن حيث سيصل إلى هناك وفد من الخبراء العسكريين الروس برئاسة نائب رئيس هيئة الأركان العامة الجنرال يوري بالويفسكي . وفي ١٣ ـ ١٤ أغسطس في موسكو حيث سيزورها سيد البنتاجون دونالد رامسفيلد بدعوة من نظيره الروسي سيرجي إيفانوف .

ورأت الصحيفة أن "الوقت قليل جدا أمام المتفاوضين وعليهم تحقيق أية نتيجة قبل لقاء الرئيسين الروسي فلاديمير بوتين والأمريكي جورج بوش في تكساس والمفترض انعقاده في نوفمبر القادم . وإذا لم يجر الأمر على هذا النحو فإن أعمال بناء مركز يعتبر من عناصر الدرع النووي الصاروخي الأمريكي ستبدأ في ألاسكا في الخريف القادم كما هو مخطط لها وهذا يعني خروج أحادي الجانب للولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة (إي.بي.إم) ويتعين حينها على روسيا اتخاذ إجراءات معينة معاكسة وعندها فإن الوقت لن يكون متاحا للبحث عن حلول مقبولة" .

وتتابع الصحيفة القول أنه "وكما ذكر سيرجي إيفانوف فإن المهمة الأساسية هي البحث في السبل الأفضل لتخفيض الأسلحة الهجومية من أجل عدم التسبب بإلحاق الأضرار بالمصالح القومية للدولتين" . وفي هذا الصدد أعلن الوزير أن مفاوضات الطرفين لن تبتعد عما تم توقيعه عام ١٩٩٣ إلا إن واشنطن لم تصدق حتى الآن على معاهدة "ستارت ـ ٢" وهي ستبحث في دائرة واسعة من المقاييس . وهذا يعني أن الحديث سيدور حول إعداد وثائق جديدة مبدئية يمكنها أن تغير جذريا من قواعد اللعبة . والواضح هو أنه إلى جانب دفاع بوتين عن مبادرته بتخفيض عدد الرؤوس النووية من ٦ ـ ٥ر٦ ألف رأس حاليا إلى ٥ر١ ـ ٢ ألف رأس لكل جانب فإن روسيا ستصر على حق امتلاك قواعد أرضية للصواريخ الباليستية العابرة للقارات مع رؤوس متعددة انشطارية (تحظرها معاهدة "ستارت ـ ٢") وفقط في مثل هذه الحال سيكون هناك من حظوظ لموسكو بالمحافظة على التكافؤ مع الولايات المتحدة الأمريكية من دون زيادة حادة في المعونات المخصصة للحاجات الدفاعية . وكما أعلن في الأسبوع الماضي مساعد الرئيس الروسي لشؤون الاستقرار الاستراتيجي إجور سيرجيف فإن لدى روسيا ٣٠ خيارا جاهزا محتملة حول تطورات الأحداث" .

وتواصل الصحيفة لقد أعلن وزير الدفاع أمس وللمرة الأولى بأن أية دولة من الدول المدعوة بـ "المارقة" لن يكن بوسعها حسب رأيه في السنوات الـ ١٠ ـ ١٥ القريبة المقبلة من إنشاء صواريخ بالستية عابرة للقارات وأنه يمكن بواسطة نظام الدفاع المضاد للصواريخ الدفاع عن الأراضي في مسرح العمليات العسكرية في مواجهة الصواريخ المتوسط المدى التي لم تحظرها معاهدة عام ١٩٧٢ . وهكذا يكون سيرجي إيفانوف قد ألمح من ناحية إلى أن موسكو غير موافقة سلفا على تغيير مُعاهدة (إي.بي.إم) ولكنه من ناحية أخرى لم يلمح فقط وإنما صرح بأن موسكو مستعدة إلى تعديلها ولكن بشروط .

في الوقت نفسه أعرب الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عن سعادته بالدور الأوروبي في مساعدة روسيا للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية كأحد أهم نتائج قمة الثماني الكبار في جنوى .

وفي تصريح أمام أعضاء الحكومة الروسية أكد بوتين بأن قادة الدول الصناعية الأكثر تطورا أبدوا استعدادهم لمساعدة روسيا للحصول على عضوية منظمة التجارة العالمية وبشروط ملائمة على عكس السابق حينما دأبت واشنطن والدول الأوروبية في إعاقة روسيا . ولكن صحيفة "كميرسانت" الروسية لم تترك الأمور تمر كالعادة فصدرت بعنوان

رئيسي ساخر على صدر صفحتها الأولى يقول (روسيا استسلمت : اتفاقية ١٩٧٢ لم يعد لها وجود) وتحت العنوان صورة لبوتين وهو يبتسم رافعا يديه إلى أعلى أمام الجماهير .

وأكدت "كميرسانت" على أن قمة جنوى قد حققت التنبؤ الذى همس به الكثيرون قبيل انعقاد القمة حيث وضع بوش وبوتين النهاية الأليمة لاتفاقية ١٩٧٢ فى لقائهما الثنائى إبان أعمال مؤتمر جنوى .

وأشارت الصحيفة إلى أن بوش قد خرج منتصرا من قمة الثمانى الكبار وبالتالى فعلى المنتصر أن يكون رحيما مع خصمه " المهزوم " . ولذلك بالذات أومأ بوش إلى استعداد واشنطن لإجراء مشاورات ثنائية حول موضوع الأسلحة الاستراتيجية . ولم ينس - حسب قول الصحيفة - أن يعد روسيا بمساعدتها فى الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وتقديم بعض المساعدات الاقتصادية إليها .

غير أن الدبلوماسية الأمريكية استطاعت تحقيق انتصار لم تكن تحلم به فى إقناع روسيا بضرورة الخروج من إطار المعاهدات التى تشكلت فى أعوام الحرب الباردة . ومن الملاحظ أن أولى تلك المعاهدات هى معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والتى ظلت روسيا تتمسك بها حتى آخر لحظة .

فى هذا الإطار أعلنت مستشارة الرئيس الأمريكى لشؤون الأمن القومى كوندوليزا رايس عقب مباحثاتها مع وزير الدفاع الروسى سيرجى إيفانوف عن بداية إنشاء جهاز دولى جديد للأمن العالمى بعد أن أكدت الموقف الرسمى للحكومة الأمريكية والذى يقضى بـ " ضرورة الخروج من إطار جميع المعاهدات التى تشكلت إبان الحرب الباردة " .

وأكد وزير الدفاع الروسى تأييده لبيان كوندوليزا رايس مضيفا بأن التفاصيل المحددة للتصميم الأمنى الدولى الجديد لا يعرفها أحد حتى الآن ولا تزال موسكو وواشنطن فى بداية الطريق .

وأكد كل من إيفانوف ورايس فى ختام مباحثاتهما على المواقف المبدئية لروسيا والولايات المتحدة الأمريكية والتى ترتكز أساسا على إزالة العداوة بين البلدين وانتهاج مبدأ الشراكة فى حل وتسوية الأزمات الدولية وخاصة فى البلقان والشرق الأوسط وناجورنى كاراباخ .

بيان عاجل للخارجية الروسية

فى اليوم الثانى مباشرة من رحيل رايس صدر بيان رسمى عاجل تم توزيعه على جميع وكالات الأنباء الروسية والأجنبية وتم بثه مباشرة على القناة التلفزيونية الحكومية الروسية نفى الناطق الرسمى بوزارة الخارجية الروسية ألكسندر ياكوفينكو ما يتردد فى وسائل الإعلام الروسية والغربية بشأن تغير موقف موسكو من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لعام ١٩٧٢ .

وعلى الرغم من التصريحات السابقة لوزير الدفاع الروسى سيرجى إيفانوف التى جاء فيها بالحرف الواحد : " يمكن لروسيا أن تلجأ إلى تعديل معاهدة الحد من النظام الدفاعى المضاد للصواريخ إذا وافقت واشنطن على مواصلة التخفيض الاستراتيجى لأسلحتها النووية وفق الشروط الروسية " إلا أن الناطق الرسمى للخارجية الروسية أكد بأن مزاعم تغير موقف روسيا من هذه القضية لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

كما صرح ياكوفينكو بأن موقف موسكو الداعم لمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ كأحد المكونات الثابتة للاستقرار الاستراتيجى فى العالم تأكد على لسان الرئيس الروسى فلاديمير بوتين أثناء لقائه بنظيره الأمريكى جورج بوش فى جنوى .

وأضاف ياكوفينكو مؤكدا بأن موسكو لم تسمع من كوندوليزا رايس أثناء زيارتها لموسكو أى حجج جديدة

يمكنها أن تحث روسيا على إعادة النظر فى موقفها المبدئى من معاهدة ١٩٧٢ .

إلا أن التصريح الأكثر وضوحا لرايس فى موسكو والذى عبر بدقة عن الموقف الأمريكى حيال اتفاقية الدفاع المضاد للصواريخ : " على موسكو وواشنطن بذل قصارى جهودهما من أجل التخلى مرة واحدة وإلى الأبد عن الحرب الباردة بما فى ذلك اتفاقية الدفاع المضاد للصواريخ لعام ١٩٧٢ " كان رسالة واضحة إلى سادة الكرملين بأن واشنطن لن تغير موقفها بشأن وسائلها الدفاعية التى تراها مناسبة لأمنها القومى وحماية أراضيها فى ظل تغير موازين القوى فى العالم .

فى هذا الإطار أكدت مصادر روسية أن حربا باردة سوف تبدأ لا محالة حتى وإن وجدت واشنطن وموسكو حلا وسطا لخلافاتهما . وأشارت هذه المصادر إلى أن كل ما يجرى من مناورات وتصريحات سواء من البيت الأبيض أو الكرملين مجرد بالونات اختبار الهدف منها وقوف كل فريق على نوايا الآخر ومدى قوته ورد فعله : فإذا كانت واشنطن تعتمد على انفرادها بالساحة الدولية وإمكانياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية من قبلهما فموسكو كعادتها منذ زمن الاتحاد السوفيتى تعتمد على برود الأعصاب والمناورات السياسية على مستوى الحلاف والتكتلات الإقليمية والدولية واللعب على التناقضات .

من ناحية أخرى تبدو موسكو واعية تماما بالدرس الذى فكك الاتحاد السوفيتى وتحاول قدر الإمكان عدم عسكرة الاقتصاد بتقليص الترسانة النووية الروسية عبر معاهدتى " ستارت - ١ " و" ستارت - ٢ " والعمل بأسرع وقت ممكن لتنمية اجتماعية تراعى ظروفها القومية والدينية . إلا أن واشنطن هى الأخرى واعية أيضا بذلك فهى حتى الآن لم توقع على معاهدة " ستارت - ٢ " بل وتستخدمها حاليا للمناورة نظرا لثقتها الشديدة فى احتياج روسيا لتنفيذها . فمقابل تقليص الترسانة النووية الأمريكية تطلب واشنطن مواقف مرنة بشأن الدرع القومى الأمريكى . وهنا يأتى دور الصين التى تعتبر الورقة الرابحة لموسكو تناور بها وقت الحاجة . والسؤال المطروح هل تستجيب بكين لرغبات روسيا

الأمر الآخر هو تأكيد خبراء الاقتصاد على صعود نجم الصين خلال القرن الحادى والعشرين وإمكانية بروزها كقطب قوى أمام تفرد الولايات المتحدة بالساحة الدولية وهو ما يؤكد توتر العلاقات الدائم بين واشنطن وبكين من ناحية ومحاولات الأولى للزج بالثانية فى سباق تسلح سيؤثر حتما على اقتصادها والتنمية الاجتماعية فيها .

روسيا لديها إمكانية للدخول فى سباق تسلح مع واشنطن ليس بزيادة صواريخها النووية وإنما بإضافة اسطوانات انشطارية للصواريخ وهو أمر لن يكلفها كثيرا أما الصين التى لا تملك إلا عدة صواريخ بالستية فماذا يمكنها أن تفعل فى حالة الدخول فى سباق تسلح فهل تستجيب الصين للاستفزازات الأمريكية ويحدث لها ما حدث للاتحاد السوفيتى!.

موسكو - برلين

خلال مباحثات سيرجى إيفانوف ورودولف شاربينج أعرب الأول عن قلق بلاده الشديد تجاه مخططات حلف الأطلسى بالتوسع نحو الشرق فيما أعلن وزير الدفاع الألمانى رودولف شاربينج أنه من الضرورى الأخذ فى الحسبان أحد العوامل ذات الطابع المبدئى وهو أن دول النصف الشمالى من الكرة الأرضية يجب أن تتعاون لمواجهة المخاطر القادمة من دول النصف الجنوبى .

وأشار إيفانوف خلال مباحثاته مع نظيره الألمانى أنه يقصد بكلامه الحلف العسكرى السياسى بالذات . وأعلن

الوزير الروسى أن الكرملين لا يستطيع أن يفسر للشعب الروسى لماذا يقوم حلف معين بالاستمرار فى التوسع نحو الشرق بعد انتهاء الحرب الباردة وغياب الأحلاف العسكرية . وأكد إيفانوف أن توسع الاتحاد الأوروبى نحو حدود روسيا لا يثير أى قلق لديها فى إشارة إلى أن الاتحاد الأوروبى ليس حلفا سياسيا أو عسكريا .

وبدوره أعلن شاربينج أن التوسع المحتمل لحلف الأطلسى نحو الشرق ليس موجها ضد روسيا وبالتالى على بلادنا أن توفر فى الوقت الحاضر الأمن ليس من جهة ضد أخرى وإنما بالجهود المشتركة .

وخلال مباحثاتهما أعلن الوزيران الروسى والألمانى عن عزمهما خلال الأسبوع المقبل على توقيع اتفاقية لتحديث طائرات " ميج ـ ٢٩ " فى إطار تنفيذ برنامج " ميج ـ ٢٩ ـ غرب " .

وأوضحت مصادر عسكرية روسية أن هذا المشروع الضخم للمؤسستين العسكريتين الروسية والألمانية يعد بمثابة استمرار للاتفاقية الموقعة بين البلدين عام ١٩٩٣ حول تكييف طائرات "ميج" الروسية التى ورثتها ألمانيا الغربية من ألمانيا الشرقية " بعد إلغاء الأخيرة " لتناسب متطلبات حلف الأطلسى .

هذا وكانت شركتا " دايملر ـ كرايزلر إيروسبايس " الألمانية و"روسفوروجينيه " الروسية قد قامتا بتأسيس شركة روسية ألمانية مشتركة باسم " ميج إيركرافت برودكت سيبورت " بمبادرة من ألمانيا التى رأت فى ذلك فرصة اقتصادية لا تعوض نظرا لأن العديد من دول أوروبا الشرقية سابقا والتى انضمت إلى حلف الأطلسى تمتلك أعدادا ضخمة من هذه الطائرات . ورأت ألمانيا أيضا أنه من المربح لها أن تعمل على تحديث ليس فقط طائراتها وإنما أيضا طائرات دول أوروبا الشرقية والدول الأخرى التى تمتلك هذه الطراز من الطائرات .

موسكو ـ بيونج يانج

من الصعب تماما الحديث عن نتائج محددة للقاء القمة الروسى ـ الكورى الشمالى فى ظل ستار السرية والحالة الأمنية اللذين ضربا حول زيارة الزعيم الكورى كيم يونج إيل لروسيا . وعلى الرغم من طلب الجانب الكورى الشمالى عدم عقد لقاء صحفى مشترك بعد مباحثات بوتين ـ كيم إيل إلا أن كل ما دار فى المباحثات انعكس تقريبا فى " بيان موسكو " الذى وقعه الرئيسان الروسى والكورى .

ولقد حاولت روسيا من جانبها الاستفادة الكاملة من زيارة الزعيم الكورى كورقة رابحة لمساومة الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية مع إعطاء كوريا أقل ما يمكن من ضمانات . أما كوريا فقد لعبت بنفس الدور تقريبا حيث لم تقدم أى ضمانات واضحة فى " بيان موسكو " الذى لا يلزم أحد من الطرفين ولكنه عبارة عن وثيقة إثبات حسن النية لا أكثر .

ومن النقاط الرئيسية للبيان يمكن إدراك مغزى لقاء القمة الروسى الكورى :

ـ اتفاق الجانبين على ضرورة الحفاظ على معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لعام ١٩٧٢ كحجر أساس لمن والاستقرار الدولى . وهو الجانب الذى يهم روسيا كثيرا وتستخدمه حاليا من أجل المساومة على أمور أخرى مع واشنطن .

ـ استعداد كوريا الشمالية لتجميد إطلاق صواريخها الباليستية حتى عام ٢٠٠٣ وترحيب روسيا بذلك . وهو الأمر الذى أعلنت كوريا استعدادها له ولكنها لم تعلن فى مقبل ماذا !

ـ استعداد روسيا للعمل على إعادة كوريا الشمالية إلى المجتمع الدولى وخاصة أوروبا والولايات المتحدة . ولكن كيف ستفعل روسيا ذلك وما هو المقابل ليس من كوريا فقط ولكن أيضا من الغرب والولايات المتحدة

- إقامة منظومة دولية جديدة قائمة على العدل والاحترام والتعاون وضمان أمن كل دولة فى كافة المجالات .
- تقوية دور الأمم المتحدة فى حل النزاعات الدولية .
- إعلان كوريا بأن برنامجها الصاروخى النووى لا يهدد أية دولة تحترم استقلال كوريا الشمالية !
- مطالبة كوريا الشمالية للولايات المتحدة بسحب قواتها العسكرية من كوريا الجنوبية وترحيب روسيا بذلك .
- ترحيب موسكو بمواصلة وتعميق الحوار بين كوريا الشمالية والجنوبية بدون تدخل أية أطراف خارجية .
- إقامة خط سكك حديدية يصل شمال وجنوب شبه الجزيرة الكورية مع روسيا وأوروبا .

نتيجة للسرية الشديدة لم يتم الإعلان عن أى صفقات من الأسلحة الروسية لكوريا رغم توقع الخبراء وتصريحات بعض المسؤولين الروس بعقد صفقات سلاح تصل قيمتها إلى ٢٠٠ مليون دولار . أما التعاون الاقتصادى الذى كان من المفترض أن يشكل عصب المباحثات بين موسكو وبيونج يانج فقد اقتصر على قيام روسيا فى المستقبل المنظور ببناء محطة كهروذرية فى كوريا وتعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية .

لم يخرج الطرفان الروسى والكورى الشمالى من لقاء القمة سوى ببيان موسكو وإعلان حسن النية تجاه قضايا لا تزال محل مساومات من القوى الكبرى . فقد أعلن الكرملين صراحة أنه لن يعفى كوريا من ديونها المستحقة للاتحاد السوفيتى السابق . وأكد أيضا أن موسكو غير مستعدة لتقديم أى شئ إلى كوريا مجانا لأن عهد تأسيس العلاقات الروسية على أرضية أيديولوجية قد انتهى إلى غير رجعة .

الأكثر إثارة أن زيارة الزعيم الكورى لموسكو ضربت عرض الحائط بكل قوانين علوم الرياضيات والفيزياء . فقد تحرك الزعيم كيم إيل من بيونج يانج قبل ١٣ يوما من بدء الزيارة فى قطار مصفح يتكون من ٢١ قاطرة مجهزة تماما من الداخل وظلت أخبار حركة فى سرية تامة طوال الخمسة أيام الأولى إلى أن عبر الحدود الروسية . وفى إقليم بريموري الروسى أعلنوا عن زيارة الزعيم وبدأت احتياطات أمنية بطول روسيا وعرضها . ومرت ثمانية أيام أخرى إلى أن وصل إلى محطة قطار يورسلافل فى موسكو ليبدأ الزيارة فى الساعة ١٠ من مساء الجمعة ٣ أغسطس ٢٠٠١ .

تقول الرواية الأولى أن الرئيس الروسى بوتين عرض على الضيف إرسال طائرته الخاصة إليه فى كوريا لنقله إلى موسكو إلا أن كيم يونج إيل يخشى ركوب الطائرات . وتقول الرواية الثانية أن كيم إيل أراد أن يسلك نفس الطريق الذى سلكه والده من قبل إلى روسيا وهى رسالة واضحة إلى الجانب الروسى لإثبات حسن النوايا والاستعداد لمواصلة طريق العلاقات التاريخية . أما الرواية الثالثة فهى موجهة إلى كل من كوريا الجنوبية وروسيا أيضا لأن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة . ولكن فى حالة كيم إيل فقد بدأت زيارة اليومين بـ ١٣ يوما . ومع ذلك فالرسالة واضحة : إذا كان الزعيم الكورى ذهب إلى روسيا الشاسعة مشيا على الأقدام تقريبا فما هى تلك العوائق التى يمكن أن تحول دون اتحاد الكوريتين !

قبيل لقائه مع بوتين زار الزعيم الكورى قبر الجندى المجهول . وفى مراسم مهيبة ذكرت العالم بطقوس العهد السوفيتى وقف الزعيم فى مهابة واحترام ووضع إكليل الزهور على القبر وظل واقفا على حالته هذه إلى أن انتهى الأوركسترا من عزفه . بعد ذلك اتجه الضيف فى حشد مهيب إلى ضريح لينين ليظل إلى جواره ٥ دقائق كاملة .

هنا يأتى دور وسائل الإعلام والمواطن الروسى البسيط . فقد صدرت صحيفة " إزفستيا " بمانشيت ضخم على صفحتها الأولى يتحدث عن " شبح الشيوعية " . إلى جانب التهكم الشديد الذى سيطر تماما على وسائل الإعلام الأخرى . أما المواطن الروسى العادى فقد سيطرت عليه حالة من الاستفزاز والتذمر لدرجة أن البعض رفع قضايا على الحكومة الروسية نتيجة لما أصابهم من تأخر حركة القطارات الخارجية والداخلية .

الأكثر إثارة وبالرغم من إعلان حسن النوايا فى بيان موسكو فقد أعلنت واشنطن بشكل مباشر وصريح أن كوريا الشمالية تشكل فى الواقع خطرا على الأمن القومى الأمريكى . فهل ستكون كوريا الشمالية الورقة الثانية الرابحة بعد الصين في يد موسكو علما بأن الأخيرة تتعامل بشكل براجماتى تماما ولا تعد بأى شئ ولكنها لا تزال تناور واشنطن مستخدمة تلك الأوراق أم أن بكين وبيونج يانج واعيتان للمناورات الروسية خاصة وأن اقتصاديهما لا يسمح لهما إطلاقا بدخول مواجهات مع واشنطن أو التورط بشكل أو بآخر فى سباق تسلح خاصة وأن خبراء الاقتصاد يتوقعون مستقبلا باهرا لهما : لـ"لقطب" الصينى القادم ولـ"النمر" الكورى الشمالى الذى يسير بخطوات حثيثة نحو الأمام !

الأكثر خطورة هنا أن الغرب ورغم التنازلات الروسية التى لم يكن يحلم بها أحد لا يزال ينظر إلى روسيا بانعدام ثقة . وبالتالى لم تقبل عضويتها فى منظمة التجارة العالمية ولا فى الاتحاد الأوروبى ويجمدون عضويتها غير الكاملة بين الحين والآخر فى برلمان أوروبا . ولا تزال أيضا النصف الزائد على مجموعة " السبعة الكبار " . وفى لقاء جنوى الأخير لم يشركوا بوتين فى مباحثاتهم المالية التى انعقدت قبيل القمة مباشرة . فماذا تريد روسيا بالضبط .. وهل ستنجح فى مهامها وإذا نجحت بدرجة أو أخرى فهل سيكافئها الغرب وواشنطن أم ستتحول ببساطة إلى عراب القرن الحادى والعشرين وتبقى حديقة أوروبا الخلفية التى يمكن أن تتحول إلى كل شئ حتى مزبلة للنفايات النووية !

كوندوليزا مرة أخرى

فى الوقت الذى وقعت فيه روسيا إعلانا مشتركا مع كوريا الشمالية تعهدا فيه بضرورة الحفاظ على معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لعام ١٩٧٢ صرحت مصادر روسية مطلعة بأن وزير الدفاع الروسى سيرجى إيفانوف أجرى اتصالا هاتفيا مع مستشارة الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى كوندوليزا رايس التى تحدثت بشأن مقترحات أمريكية لوضع اتفاقية عسكرية جديدة تحل محل معاهدة ١٩٧٢ .

فى هذا الإطار صرح مدير مركز الدراسات الاستراتيجية فى روسيا والخبير فى الشئون الاستراتيجية فيتالى ناؤمكين بأن هناك أهداف كثيرة لهذه المناورات والتحالفات . فالعلاقات مع الدول الأسيوية تعتبر من أهم المدارات للسياسة الخارجية فى مرحلة بوتين . كما أن العلاقة بكوريا الشمالية لها أيضا أهمية استراتيجية بعيدة المدى بالنسبة لتوسط موسكو بين كوريا الشمالية والجنوبية . وهذه الورقة - على حد قول الخبير الروسى - فى غاية الأهمية ليس فقط بالنسبة لتحسين علاقة روسيا بالدول الأسيوية كلها وبالذات بكوريا الشمالية والجنوبية ولكن أيضا كورقة فى علاقتها بواشنطن والدول الكبرى .

وأشار البروفيسور فيتالى ناؤمكين إلى أن المناورات السياسية الروسية حاليا مع الصين وكوريا الشمالية تتضمن بعدا اقتصاديا هائلا . فبالنسبة لكوريا على سبيل المثال سيتم بناء خط سكك حديدية يربط كوريا الجنوبية بالشمالية ويمر إلى أوروبا عبر الأراضى الروسية وهو ما يمثل أهمية اقتصادية ضخمة لروسيا .

إلا أن ناؤمكين أشار مؤكدا بأن ما يحدث ليس بالضبط تحالفات ولكنها مجرد لقاءات مع الصين وكوريا والدول الأخرى . واستبعد الخبير الروسى تماما أية إمكانية لإقامة تحالفات مع دولة مثل كوريا الشمالية أو حتى الصين.

ماذا لو انسحبت واشنطن

موسكو لا تزال تراهن على أن الولايات المتحدة غير قادرة فنيا على تنفيذ مشروع الدرع القومي النووى وترى أن تصريحاتها مجرد استعراض يهدف إلى الحصول على مكاسب سياسية ومع ذلك ستكون روسيا فى موقف غاية فى الصعوبة فى حالة إذا ما انسحبت واشنطن من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ من طرف واحد .

فى هذا الصدد قال الخبير الاستراتيجى الروسى فيتالى ناؤمكين لقد وافقت روسيا قبل كل شئ الدخول إلى المفاوضات مع واشنطن . وهناك عدة سيناريوهات بشأن قضية الخلاف على اتفاقية ١٩٧٢ والدرع القومى الأمريكى . السيناريو الأول : فى حالة تمسك روسيا بالمعاهدة وانسحاب واشنطن منها من طرف واحد ستقوم روسيا باتخاذ إجراءات معينة لتعزيز إمكانياتها الدفاعية . السيناريو الثانى : هو أن الطرفين قد يتفقا على تعديل أو تزويد هذه المعاهدة ببعض البروتوكولات الجديدة وقد توافق روسيا على ذلك . السيناريو الثالث : وهو مستحيل ولكن الأمريكيين يعلقون أملهم على موافقة روسيا مع واشنطن على إلغاء اتفاقية ١٩٧٢ على أن تتطور علاقاتهما وفقا لأسس أخرى .

وبشأن مقترحات كوندوليزا رايس الأخيرة ذكر الخبير الروسى أن المقترحات الأمريكية غير واضحة حتى الآن والعديد من المسؤولين الأمريكيين الآخرين اقترحوا على روسيا إلغاء جميع الاتفاقيات بين البلدين مستندين إلى نمط العلاقات بين واشنطن وباريس ولندن والدول الأخرى وعلى ضوء تحسن العلاقات الروسية الأمريكية يمكن إقامة علاقاتهما الاستراتيجية ليس على الاتفاقيات ومن ضمنها اتفاقية ١٩٧٢ و"ستارت ١" و"ستارت - ٢" و"ستارت - ٣" وإنما على أسس أخرى . وهنا يمكن أن تستغنى موسكو وواشنطن عن أى اتفاقيات جديدة .

ما يحدث حاليا أقرب إلى المناورات منه إلى التحالفات . ومع ذلك فموسكو حائرة بين أسلوب تحالفات الحرب الباردة وهى الوسيلة الوحيدة للحفاظ على روسيا كقوة عظمى وبين الرغبة فى نفض ثوب الماضى وإرضاء الغرب تحت الضغوط الاقتصادية والسياسية . ولكن مما لا شك فيه أن ما يجرى تشكيله الآن وهندسته وخاصة بشأن الدروع النووية والصواريخ المضادة للصواريخ والمفاوضات والضغوط الاقتصادية والسياسية تؤكد بشكل أو بآخر أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تريد استخدام حلف شمال الأطلنطى كذراع عسكرية لها وهى القطب الوحيد ومركز العالم القادم (تستثمر فقط فى 'المناورات مع القوى النووية الكبرى وخاصة روسيا) وإنما تريد إقامة ذراع خاصة تتناسب وقوتها كقطب واحد ووحيد رغم أنف أوروبا وروسيا والصين .

أما السؤال الذى يطرح نفسه بعفوية فهو : هل هناك علاقة ما لما يسمى بدول الأطراف بالهندسة العسكرية الجديدة للعالم وما رأى دول الأطراف فى معاهدة ١٩٧٢ والخطط الأمريكية الجديدة هل من دور لهذه الدول ولو حتى بإعلان رأيها فى الهندسة العسكرية الجديدة التى تؤسس للعولمة كنظام هيمنة اقتصادى - عسكرى - سياسى !

بعد ١١ سبتمبر

مصائب قوم عند قوم فوائد !

حل المشاكل الداخلية والصراع على القوقاز ووسط آسيا

سقطت طائرة ركاب تابعة لشركة " سيبيريا " فوق البحر الأسود بجنوب روسيا وأسفر الحادث عن مصرع جميع الركاب الذين يصل عددهم إلى ٥١ إسرائيليا و١٥ روسيا(جنسية مزدوجة روسية ـ إسرائيلية) وطاقم الطائرة ١٢ شخصا . كانت الطائرة المملوكة لشركة "سيبيريا" الروسية في رحلة من مطار بن جوريون فى تل أبيب إلى نوفوسيمبيرسك بسيبيريا واختفت فجأة من شاشات المراقبة . وأعلنت وكالات الأنباء الروسية أن جميع ركاب الطائرة من مواطنى إسرائيل بما فيهم الروس نظرا لأن الرحلة هي الوحيدة التى تعمل على خط (تل أبيب ـ سيبيريا) وأن جميع البطاقات تم شراؤها فى إسرائيل .

وفي تصريح لسكرتير الأمن القومي الروسي الذى تلقي أوامر سريعة من الرئيس الروسى فلاديمير بوتين باتخاذ الإجراءات اللازمة قال أكد بأن جميع البطاقات تم شراؤها فى إسرائيل ومن غير المستبعد أن يكون الحادث نتيجة لعملية إرهابية .

وتناقلت وسائل الإعلام الروسية مجموعة أخرى من الاحتمالات حيث أكدت مصادر روسية بأن الطائرة توقفت فى طريقها للتزود بالوقود فى أحد مطارات بلغاريا وحملت ٦ ركاب جدد . أما الاحتمال الثانى فهو تعطل محركاتها فجأة نتيجة لإهمال عمال الصيانة فى مطار بن جوريون .

كانت أولى التصريحات لوزير المواصلات الإسرائيلى الذى أكد أن سقوط الطائرة نتيجة لعملية إرهابية وأعلن عن اجتماع طارئ لأجهزة الأمن الإسرائيلية . بعد ذلك مباشرة قطع الرئيس الروسى فلاديمير بوتين لقاءه مع أعضاء مجلس أوروبا وممثلى وزارات العدل ليصرح لوسائل الإعلام أنه لا يستبعد أن الحادث جاء نتيجة لعملية إرهابية ثم قام هو الآخر وعلى الفور أيضا بعقد لقاء مع مدير الأمن الفيدرالى نيكولاى باتروشيف وسكرتير مجلس الأمن القومي الروسى فلاديمير روشايلو . بذلك يكون الرئيس الروسى هو الشخصية الثالثة بعد وزير المواصلات الإسرائيلى وسكرتير مجلس الأمن القومى الروسى الذي لم يستبعد وجود عملية إرهابية . الأطرف من كل هذا وذاك أن وكالتى أنباء "أسوشيدت برس" و"رويترز" أكدتا على لسان مصادر عسكرية أمريكية ومن البنتاجون شخصيا أن سقوط الطائرة يمكن أن يكون قد حدث بالصدفة أو فى أسوأ الأحوال بسبب القوات المسلحة الأوكرانية التى كانت تجرى مناورات عسكرية بالقرب من موقع الحادث . وترجع المصادر الأمريكية أن الطائرة أصيبت بصاروخ جو ـ أرض من أحد المواقع العسكرية الأوكرانية فى شبه جزيرة القرم . وأكدت مصادر البنتاجون أن الأقمار الصناعية الأمريكية التى كانت تراقب المناورات الأوكرانية قد التقطت صورا تفصيلية لما حدث . وقد جرى الانفجار الأول بعد انطلاق صاروخ جو ـ أرض من شبه جزيرة القرم .

ثلاث شخصيات سياسية تمثل الموقف الرسمي لبلادها اتفقت فى لحظة واحدة على أن سقوط طائرة إسرائيلية فى البحر الأسود ناتج لعملية إرهابية على الرغم من أن مطار بن جوريون بالذات هو عبارة عن قلعة مسلحة وليس مطارا وفى نفس الوقت أعرب البنتاجون أن الإرهاب ليس له علاقة بالموضوع .

مصائب قوم عند قوم !

منذ الثلاثاء الأمريكي المأساوي وعلى خلفية ما حدث أو ما أعلن على العامة جرت تحولات غريبة في المواقف واستثمارات مريبة للأوضاع العالمية . ففي روسيا تمكن الكرملين - مثلا - من تمرير أحد أخطر القوانين في تاريخ روسيا . واستطاعت إيران أن تدعم نفسها عسكريا وأمنيا . كما استعادت " الإمبراطورية الشمطاء " أملها في الحصول على قطعة أكبر من الكعكة المقبلة . وحاولت الولايات المتحدة أن تلعب بالورقة الفلسطينية مثلما لعب بالضبط بوش الأكبر بها أثناء حرب الخليج وقام بمناورة عقد مؤتمر مدريد .

روسيا وقانون الأرض

القانون يسمح للمواطنين الروس بشراء الأراضي وبيعها ولكنه لا يتعرض للأراضي الزراعية أو المتاخمة للأحواض المائية الضخمة أو أراضي الغابات . وقد وافق عليه ٢٥٧ عضوا بينما كان الحد الأدنى للأصوات اللازمة لذلك ٢٢٦ صوتا فقط وصوت ضده ١٣٠ وامتنع واحد عن التصويت . بذلك يكون مجلس الدوما الروسي بعد تغيير تركيبته لصالح الكرملين قد نجح في دق المسمار الأخير في "نعش" الشيوعية الكلاسيكية في روسيا .

وكان المسمار قبل الأخير قد دق عام ٢٠٠٠ عندما تمكنت الحكومة الروسية على الرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها الشيوعيون الروس من استصدار قانون يسمح بإغراق محطة "مير" الفضائية وإخراج روسيا نهائيا من حلبة الصراع الفضائي العالمي والاكتفاء بالمشاركة في المحطة الفضائية الدولية بقيادة الولايات المتحدة .

وتعتبر مسألة الأرض في روسيا من أخطر المسائل على الإطلاق وكانت سبب العديد من الهبات والثورات ضد العديد من القياصرة . ولم تتمكن جميع الحكومات الروسية طوال ١٠ سنوات خلال عهد بوريس يلتسين من الاقتراب من هذه القضية المفصلية . ولكن بعد تغيير تركيبة مجلس الدوما الروسي لصالح الكرملين باتحاد ٤ كتل نيابية تمثل كتلة وسط واحدة تمكن الكرملين من توجيه الضربة الأخيرة والحاسمة للوجود الشيوعي في روسيا .

وينوي الكرملين قريبا الدخول في معركة أخرى بطرح مجموعة قوانين جديدة لبيع وشراء الأراضي الزراعية وفي حالة موافقة البرلمان الروسي على هذه القوانين ستكون الساحة السياسية والشعبية قد خلت تماما من التأثير الشيوعي في روسيا .

إلى ذلك يأخذ قانون الأراضي الجديد في روسيا في اعتباره حق تملك الأجانب للأرض وهو ما يحدث لأول مرة في تاريخ روسيا منذ نشأتها .

اتفاقية التعاون العسكري الروسي - الإيراني

في ظل الأحداث العالمية المتصاعدة استقبلت موسكو وزير الدفاع الإيراني علي شامخاني في زيارة لمدة ٤ أيام التقى فيها بعدد من المسؤولين الروس . كان من المخطط أن تتم هذه الزيارة في ٤ - ٨ سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن تأجلت بطلب من الجانب الإيراني بسبب وجود رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك في موسكو وتخوفا من الافتراءات السياسية . وبالرغم من ذلك لم يفوت شارون الفرصة حيث أعلن مباشرة بأن إسرائيل قلقة من التعاون العسكري الروسي - الإيراني الذي من شأنه أن يخل بموازين القوى في منطقة الشرق الأوسط . بيد أن رد المسؤولين الروس كان أيضا واضحا وصريحا حيث أعلن كل من وزير الدفاع سيرجي إيفانوف ووزير الخارجية إيجور إيفانوف بأن روسيا تقيم علاقاتها وفقا للقوانين الدولية ولمصالحها القومية .

انتهت زيارة شامخانى لروسيا بالتوقيع على اتفاقية التعاون العسكرى ـ التقنى بين موسكو وطهران والتى تبلغ قيمتها الإجمالية ١٫٥ مليار دولار . أما حجم التعاون العسكرى بين موسكو وطهران خلال السنوات الخمس المقبلة يمكن أن يصل إلى ٢ مليار دولار وهو ما سيجعل إيران الدولة الثالثة بعد الصين والهند من حيث شراء الأسلحة الروسية . وصرح الخبراء العسكريون الروس بأن طهران مهتمة بشراء منظومات الصواريخ الجوية المضادة من طراز (إس ـ ٣٠٠) و (إيجلا) و (توبول ـ م ١) وكذلك الصواريخ المضادة للسفن من طراز (موسكيت) و(ياخونت) . وأشاروا إلى أن صفقات الطائرات المتفق عليها بين البلدين يمكن أن تغيير موازين القوى فى المنطقة حيث تشتمل على طائرات من طراز (سوخوى ـ ٢٧) و(سوخوى ـ ٣٠) ومروحيات من طراز (كا ـ ٥٠) و (كا ـ ٥٢) إضافة إلى تحديث الدبابات من طراز (ت ـ ٧٢) وامتلاك أخرى جديدة من طراز (ت ـ ٩٠ إس) و(ت ـ ٨٠ يو) .

أثناء وجود شامخانى فى موسكو أعرب السفير الأمريكى لدى روسيا الاتحادية ألكسندر فيرشبو بأن "واشنطن قلقة من العلاقات العسكرية الروسية ـ الإيرانية بغض النظر عن أن إيران تقف ضد نظام طالبان وأسامة بن لادن " . وأكد السفير أن " هناك أدلة على أن إيران أيدت وتؤيد مجموعات إرهابية فى الشرق الأوسط " . إلا أن وزير الدفاع الروسى سيرجى إيفانوف عاد ليؤكد من جديد بالاتفاق مع وزير الدفاع الإيرانى فى تصريح خاص بأن اتفاقية التعاون العسكرى بين موسكو وطهران ليست موجهة إلى أية دولة ثالثة فيما شدد الأول على أنها لن تغير من ميزان القوى فى المنطقة مشيرا إلى أن روسيا ضد هذا الأمر بصورة مبدئية .

. إن أسباب القلق الأمريكى واضحة ومفهومة . فتاريخ العلاقات بين روسيا وإيران يمتد إلى أكثر من ٤ قرون . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وظهور ملامح جيوسياسية جديدة أصبحت العلاقات الروسية ـ الإيرانية من أولويات موسكو الخارجية على المحور الجنوبى . وكل من روسيا وإيران تتابع باهتمام التطورات الجارية فى ما وراء القوقاز ووسط آسيا إضافة إلى الدور الهام الذى يلعبه بحر قزوين كأحد أكبر مصادر الطاقة فى القرون القادمة . كل تلك الأمور على خلفية تحرك قوى ثالثة فى المنطقة (الولايات المتحدة ـ تركيا ـ حلف لأطلسى) عززت من التقارب فى المصالح بين موسكو وطهران وأسست التربة الصالحة لتعاونهما .

والآن ومع الأخذ بالاعتبار توازن القوى فى منطقة ما وراء القوقاز ووسط آسيا فمن المنطقى أن ترسى موسكو علاقات " شراكة " مع طهران نظرا لأن الأخيرة لها موقعها السياسى والاقتصادى والعسكرى فى الشرق الأوسط من ناحية وفى وسط آسيا من ناحية أخرى . وهنا تأتى أهمية التعاون العسكرى الروسى ـ الإيرانى فى الفترة الأخيرة وخاصة فى ظل تصاعد الأحداث الخاصة بأفغانستان وتوجيه الولايات المتحدة ضرباتها العسكرية لحركة طالبان . فعلى الرغم من الإعلان الواضح والصريح لوزير الدفاع الإيرانى بأن بلاده ضد الإرهاب بكل أشكاله وأنها أيضا ضد "المعيار المزدوج" فى الموقف من الإرهاب وإعرابه عن أمله فى أن يقدم الرأى العام العالمى تقييما جديدا "أكثر صوابا وجدية" لمفهوم الإرهاب مؤكدا بأن "إيران سوف تدعم أى قرار ضد الإرهاب إذا تم اتخاذه فى إطار الأمم المتحدة" يظل التعاون الروسى ـ الإيرانى يشكل مخاوف شديدة بالنسبة للولايات المتحدة استنادا إلى ثقتها العميقة بأن إيران تسعى إلى توطيد مواقعها فى الشرق الأوسط من ناحية وفى وسط آسيا من ناحية أخرى الأمر الذى يعيق المخططات الأمريكية للتواجد فى منطقة آسيا الوسطى وقزوين . وإدراكا منها لذلك تصر روسيا على مواصلة التعاون "الاستراتيجى" مع إيران وتزويدها بأنواع حديثة من الأسلحة الدفاعية والهجومية خاصة وأن الأخيرة أعلنت أنها تدعم قوات التحالف الشمالى الحليف الأساسى لروسيا فى أفغانستان . وهنا تأتى أهمية هذا التعاون ليس فقط فى تأمين حدود روسيا الجنوبية وإنما أيضا فى الشرق الأوسط ومنطقة الخليج العربى . فحتى الآن تلتزم روسيا بالقرارات

الدولية بشأن إعادة علاقاتها الكاملة مع العراق . وبالتالى ترى أن إيران هى الشريك الأساسى "حاليا" فى هذه المنطقة من أجل "عدم تثبيت" القدم الأمريكية حتى النهاية أو انفراد واشنطن بجميع الصفقات التى يمكن أن تتم بما فى ذلك حل مشكلة الشرق الأوسط . ومن المتوقع أن تظهر الأسابيع القليلة القادمة عن مجموعة هائلة من التغيرات فى خريطة العلاقات الدولية فى منطقة آسيا الوسطى ستلعب فيها إيران ـ بدعم من روسيا ـ دورا حاسما وهو ما يمكنه أن يوسع مساحة النزاعات المتوقعة فى المنطقة العربية وفى الخليج العربى بالذات .

وصرح رئيس مركز تنسيق وإعداد البرامج الروسية ـ الإيرانية رجب سافاروف بأن اتحاد "روس أبورون إكسبورت" الروسى يعتزم فى القريب العاجل التوقيع على مجموعة هامة من الاتفاقيات فى القطاع العسكرى مع الشركات الإيرانية المعنية . وتتضمن العقود المقبلة شراء الجانب الإيرانى صواريخ تكتيكية سريعة من طراز "إسكندر" وطوربيدات مضادة للسفن من طراز "ياخونت" . وفى ختام التصريحات أعلن سافاروف أن طهران مستعدة للتعاون مع موسكو فى المجال العسكرى فى إطار أكثر "الشروط" التى تناسب روسيا . وأشار إلى أن المبالغ التى يمكن أن تحصل عليها موسكو من تعاونها مع طهران يمكن أن تصل إلى ٧ مليارات دولار وليس ١ر٥ مليار كما كان متفق عليه قبل توقيع اتفاقية التعاون بين البلدين . وأضاف بأن مشكلة تحسين وتحديث الأسلحة وقضية الأمن تتصدران أولويات إيران التى تحتاج بشكل جدى إلى تحديث قدراتها المسلحة .

هنا تبرز أهم القضايا الأمنية الإيرانية والتى يمكن أن تتلخص "مؤقتا" فى ٤ نقاط أساسية : تعزيز الحدود مع أفغانستان بهدف إقامة حاجز فى وجه تجارة المخدرات وإدخال الأسلحة بصورة غير شرعية إلى إيران . توفير أمن المنشآت الهامة داخل إيران وإمكانية مواجهة الأسلحة الحديثة والتى تمتاز بدقة عالية . تمكين إيران من إجراء حوار " متكافئ " مع بعض دول المنطقة . وأخيرا دعم إيران فى سعيها للقيام بدور اللاعب الأكبر فى المنطقة .

أمريكا وبريطانيا و" الكعكة " الأبدية

وصل رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير إلى موسكو فى زيارة خاطفة ومفاجئة لليلة واحدة عقب سقوط الطائرة " تو ـ ١٥٤ " بأربع ساعات . وأجرى مباحثات سرية مع بوتين ليغادر موسكو فى الصباح متوجها إلى القواعد البريطانية فى عمان وباكستان . لم يعلن أى شئ من نتائج هذه المباحثات سوى "اليافتات" العامة من قبيل محاربة الإرهاب وتوحيد الجهود الدولية إلخ ولكن مما لا شك فيه أن بريطانيا تدخل لعبة التقسيم العالمية بكل ثقلها .. فهل من المعقول أن تترك الإمبراطورية "الشمطاء" أحلامها "القديمة" ! جاء ذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه وزير الدفاع الأمريكى يقوم بجولته فى عمان والمملكة العربية السعودية ومصر وأوزبكستان فى محاولة لتوحيد هذه الدول الأربع حول محاربة الإرهاب . وفجأة عندما صرح الرئيس الأمريكى جورج بوش أن إدارته كانت تنوى العمل على تأسيس الدولة الفلسطينية قبل ١١ سبتمبر هب العالم العربى مرحبا بينما أعلن شارون أنه لن يسمع لا كلام أمريكا ولا أوروبا ولا الشيطان . ورأت بعض وسائل الإعلام البريطانية والفرنسية والأمريكية أن شارون ناكر "للجميل" . ففى الوقت الذى دعمت فيه الولايات المتحدة إسرائيل طوال ٥٠ عاما يبخل شارون بمساعدة "أصدقائه" ولو لمرة واحدة فى ظروفهم التعيسة الحالية . فيما وصفته بعض وسائل الإعلام الغربية الأخرى أنه يمكن أن يحصل على لقب "بطل قومى عربى" لأنه الوحيد الذى يعمل دوما لصالح الذاكرة العربية ويعمل دوما على إحياء المجازر وسفك الدماء وهو ما كاد يضيع من ذاكرة الأطفال العرب بعد معاهدة كامب ديفيد الأولى . إلا إنه ولسوء حظ إسرائيل جاء شارون إلى السلطة ليحيى من جديد المأساة العربية ويذكر الأطفال العرب بدماء آبائهم وأجدادهم على يد الإسرائيليين .

ومع ذلك فالعملية " إرهابية "

بالعودة مرة أخرى إلى موضوع الطائرة الروسية . نجد أنه وبمجرد إدلاء السكرتير العام للأمن القومى الروسى فلاديمير روشايلو أن الطائرة " تو - ١٥٤ " أقلعت من مطار بن جوريون فى إسرائيل وأن جميع البطاقات قد تم شراؤها فى إسرائيل تراجعت التصريحات الإسرائيلية بحدة عن وصف ما حدث بـ "العملية الإرهابية" والإعلان مجددا عن البحث فى روايات وأسباب أخرى . وقامت النيابة العامة الروسية برفع قضية ضد "الإرهاب" . أما تراجع المسؤولين الإسرائيليين فيعود إلى خوفهم من ضياع هيبة مطار بن جوريون الذى يفخرون به كواحد من أكثر مطارات العالم أمنا إضافة إلى خوفهم أيضا من أن تكون العملية قد تم تدبيرها فى إسرائيل وفى مطار بن جوريون بالذات وهو ما يمكنه أن يسلط النظر على إسرائيل كدولة لها علاقة مباشرة بالإرهاب .

أما الرواية الأولى والتى كانت مرشحة فعليا للاختبار هى سقوط الطائرة بصاروخ أوكرانى أثناء إجراء مناورات للقوات المسلحة الأوكرانية فى شبه جزيرة القرم . وعلى الرغم من التصريحات الخاصة التى أدلى بها الرئيس الروسى مستبعدا على الإطلاق هذه الرواية نظرا لعدم إمكانية الأسلحة المستخدمة فى المناورات على الوصول إلى الطائرة المدنية التى كانت تبعد عن موقع المناورات بـ ٢٧٠ كم أكدت مصادر عسكرية روسية وأوكرانية أن الجيش الأوكرانى استخدم فى مناوراته صواريخ من طراز (إس - ٢٠٠) و (إس - ٣٠٠) والتى يصل مداها إلى ٧٥٠ كم .

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة الأولى والوحيدة التى أعلنت عن سقوط الطائرة بصاروخ أوكرانى . وهو ما فسره المحللون الروس بأن واشنطن وبعد فشلها فى اختراق المجال الروسى ومجال دول وسط آسيا فى عملياتها القادمة فى أفغانستان تحاول اليوم دق " إسفين " بين روسيا وأوكرانيا . ولهذا السبب بالذات أعلن كل من الرئيسين الروسى بوتين والأوكرانى كوتشما عن استبعادهما للأثر الأوكرانى فى سقوط الطائرة .

ورأى جانب آخر من المحللين أن وصف بوتين لسقوط الطائرة بـ "العملية الإرهابية" ليس موجها إلى دولة معينة أو أفراد بعينهم ولا ينسحب عليه المفهوم الأمريكى للإرهاب وإنما يعنى - حسب قول المراقبين أن ما حدث يندرج تحت مسمى "الإرهاب" بكل أشكاله وتجلياته حتى وإن كان من طرف دولة أخرى تحاول استغلال توتر العلاقات الدولية حاليا واستثمار ما يجرى لمصالحها الخاصة دون النظر إلى أرواح المواطنين البسطاء سواء فى الجو أو على الأرض .

من جانب آخر أعلنت قوات الإنقاذ الروسية أنها عثرت على أشلاء ٢٠ من ركاب الطائرة وحطام كابينة القيادة . وأشارت إلى أن العثور على "الصندوق الأسود" أمر غير ممكن نظرا لعدم استواء قاع البحر الأسود فى تلك المنطقة حيث يتراوح العمق بين ١٠٠٠ - ٢١٥٠ مترا واتساع المساحة التى تناثر فيها حطام الطائرة والتى تصل إلى ٢٥ كم مربع . إلا إن الأخبار "الرسمية" بعد ذلك قلصت الروايات إلى واحدة فقط . فبعد العثور على قطع كبيرة من حطام الطائرة أعلن قوات الإنقاذ الروسية أنه تم العثور على آثار لوجود عمل إرهابى استهدف الطائرة المنكوبة . وعلى الفور أعلنت محطات التلفزيون الروسى فى أسف شديد بأنه لم يكن هناك أى "عربى" بين ركاب الطائرة !

أوكرانيا تعترف وتعتذر

فى نهاية الأمر أعلن رئيس لجنة التحقيق وسكرتير مجلس الأمن القومى الروسى فلاديمير روشايلو أن الطائرة الروسية (تو-١٥٤) سقطت بصاروخ أوكرانى . واعترف وزير الدفاع الأوكرانى ألكسندر كوزموك بذلك أيضا مقدما اعتذاره إلى الرئيس الأوكرانى والشعب الأوكرانى والبرلمان الأوكرانى بسبب المس بهيبة أوكرانيا . وقدم قائد جيش الدفاع الجوى الأوكرانى الجنرال فلاديمير تكاتشيف ونائبه استقالتهما . ورغم ذلك فـ " العرب " وبالذات العرب عليهم

أن " يبرؤوا " أنفسهم لفترة طويلة بعد أن لعبت وسائل الإعلام لعبتها " الخسيسة " فى نسب التهمة إليهم . فعلى الرغم من التقارير النهائية للجنة التحقيق الروسية - الأوكرانية - الإسرائيلية لا يزال مدير قناة التلفزيون الحكومي الروسي يصر على أن العملية إرهابية .. هذا ما قاله علنا على شاشة التلفزيون الحكومي الروسي . ولكن حتى وقتنا هذا لا يريد أحد أن يحدد بالضبط : من هم هؤلاء "الإرهابيين" الذين قاموا بذلك !

ومع ذلك اخترقت واشنطن وسط آسيا والقوقاز

فى ظل انشغال العالم كله بما يحدث فى أفغانستان بدأت حرب فعلية بين جورجيا وأبخازيا . الأولى عضو فى رابطة الدول المستقلة برئاسة إدوارد شيفاردنادزه مهندس الإطاحة بالاتحاد السوفيتي والذى لا يزال يفخر بأن إمبراطورية الشر لقيت نهايتها على يديه . والثانية جمهورية إسلامية صغيرة نالت استقلالها عام ١٩٩٤ بعد أن كانت تابعة لجورجيا أثناء وجود الاتحاد السوفيتي . هناك أيضا قوات حفظ السلام الروسية الموجودة بقرار من رابطة الدول المستقلة على الأراضى الجورجية - الأبخازية لمنع أى صدام مسلح بين الدولتين . ولكن شيفادنادزه تمكن مؤخرا وبشكل "ديمقراطى" أن يحصل على قرار من برلمانه بخروج قوات حفظ السلام الروسية وبالتالى ستصبح أبخازيا مفتوحة أمامه . بل ويطالب البرلمان الجورجي حاليا بتواجد قوات سلام دولية أو من حلف الأطلنطى وهنا تكون الولايات المتحدة وأوروبا قد دخلت بهدوء و"ديمقراطية " إلى قلب القوقاز . وأخيرا بدأت جورجيا الإعداد للخروج من رابطة الدول المستقلة . ومن المتوقع أن تخرج بهدوء ليحل محل روسيا الناتو أو الاتحاد الأوروبى أو أى شكل آخر على النقيض مع المصالح الروسية . وهنا ستظهر مشكلة روسيا التى يحاول الكرملين تغطيتها بأى شكل من الأشكال . إنها مشكلة الكيل بمكيالين . ففى الوقت الذى تقوم فيه القوات العسكرية الروسية فى الشيشان بعمليات خاصة يومية على اعتبار أن الشيشان أراضى تابعة روسيا تحرم ذلك على جورجيا التى تعتبر أن أبخازيا أراضى تابعة لها . ولعل الروس كانوا على علم مؤكد بتصاعد المشكلة الجورجية - الأبخازية وبالتالى بدأوا فى مغازلة المقاتلين الشيشان بمجرد بداية الضربات الأمريكية لأفغانستان . والهدف من ذلك واضح تماما . فمن ناحية يجب تفويت الفرصة على من يتهمون روسيا بسياسة الكيل بمكيالين ومن ناحية ثانية يجب رأب الصدع فى روسيا أمام الخوف من الوجود الأمريكي فى القوقاز . إلا أن جورجيا مصممة تماما على المضى قدما فى خططها بالانفصال عن روسيا ورابطة الدول المستقلة والتوجه نحو أوروبا والناتو . ولعل السياسة الأوكرانية فى الفترة الأخيرة تدفعنا إلى الاعتقاد بأنها ستلحق بجورجيا إن عاجلا أو آجلا . إضافة إلى ذلك تتجه سياسة أذربيجان وأوزبكستان إلى الإفلات بهدوء من الفلك الروسى . وبالتالى يبقى فقط بلاروسيا وكازاخستان وقيرجيزيا وطاجيكستان وتركمانستان وأرمينيا فهل ستشكل هذه الدول عبئا على روسيا باقتصادها المهلهل وفضائها السياسى المخترق وهل ستتمكن روسيا من إنهاء المشكلة الشيشانية سلميا أم أن الوجود الأمريكى فى وسط آسيا والقوقاز سيعمق من هذه المشاكل خارج روسيا وداخلها وهل من الممكن أن يستبدل الغرب والولايات المتحدة النفط العربى بنفط بحر قزوين وفى النهاية هل هناك استراتيجية عربية للتعامل مع هذه المتغيرات إذ أن العالم اليوم يتكامل بينما الحركات الانفصالية تجرى كلها فى الفضاء السوفيتي السابق وبالتالى فهناك فرصة ذهبية للعالم العربى من أجل حل بعض القضايا المزمنة.

شهر العسل بين موسكو وواشنطن قارب على النهاية

زيارة باول إلى موسكو : نهاية الوفاق أم بداية الخلاف !

على الرغم من الآمال العريضة التى علقها المراقبون على زيارة وزير الخارجية الأمريكي كولن باول إلى موسكو فى ٩ ـ ١٠ ديسمبر ٢٠٠١ لم تسفر هذه الزيارة عن أى تقدم ملموس فى نقاط الخلاف الأساسية بشأن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ وإقامة الدرع القومي الأمريكي وتقليص الأسلحة الاستراتيجية الهجومية وعلاقة روسيا بالناتو وتوسع الأخير نحو الشرق . فقد أعلنت موسكو أنها لا تزال تتمسك بمعاهدة (إى.بى.إم) لعام ١٩٧٢ كحجر أساس للاستقرار الاستراتيجى العالمى . ومن الواضح أن وزير الخارجية الأمريكي قد جاء إلى موسكو برسالة "محددة وواضحة" جعلت نظيره الروسى إيجور إيفانوف يصرح مباشرة وبوضوح شديد أنه يتوقع الآن أن " الجانب الروسى لا يستبعد إمكانية خروج الولايات المتحدة من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لعام ١٩٧٢ " . وبالتالى لم يعد أمام موسكو إلا مطالبة واشنطن بضرورة الإسراع فى "صياغة اتفاقية قانونية حول التقليص الجذرى للأسلحة الاستراتيجية الهجومية " والتمسك أيضا بـ "مستوى هذا التقليص وإجراءات الرقابة عليه " . ومرة أخرى كان رد كولن باول " لا أستطيع تحديد ذلك ومن الضرورى أن أبلغ الرئيس بوش أولا عن نتائج مباحثاتى فى موسكو " .

فى هذا السياق لم ينس كولن باول أن يذكر القيادة الروسية أثناء لقائه بالرئيس الروسى فلاديمير بوتين ووزير الخارجية إيفانوف بأن الولايات المتحدة لا تزال قلقة مما يحدث فى الشيشان ولكنهم راضون بالتحقيقات الجارية بشأن المخالفات التى ارتكبها العسكريون الروس ضد المدنيين الشيشان . وفى إطار التصريحات أيضا وتذكير العالم بأن هناك قوتين عظميين أعرب الجانبان عن قلقهما مما يحدث فى الشرق الأوسط وعزمهما على بذل جهودهما لتطبيع الأوضاع "هناك" . ومن الواضح أن موقف كل من موسكو وواشنطن من أزمة الشرق الأوسط والأحداث الساخنة فى الأراضى الفلسطينية المحتلة قد بدأ يتقارب وهو ما يعنى بشكل مباشر تغيرا فى الموقف الروسى الذى يبالغ كثيرا فى البراجماتية التى يعلن عنها فى سياسته الخارجية . فقد اتفق كولن وإيفانوف على ضرورة "إجبار" الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى على الجلوس خلف طاولة المفاوضات والضغط على ياسر عرفات للتخلص من المنظمات "الإرهابية" .

وفى لقائه مع النواب البرلمانيين الروس بمبنى السفارة الأمريكية بموسكو وعد وزير الخارجية الأمريكي كولن باول أن الولايات المتحدة ستعمل على حل العوائق الاقتصادية أمام روسيا بشكل إيجابى . وخلال اللقاء تطرق النواب الروس إلى قضية منظومات الدفاع المضاد للصواريخ حيث أكد نائب رئيس مجلس الدوما الروسى فلاديمير لوكين أن باول أعلن أن روسيا والولايات المتحدة تثقان ببعضهما البعض ومن حق كل منهما الدفاع عن نفسها كما ترى ذلك ضروريا . ولعل ذلك بالذات يخص إطلاق يد واشنطن لإقامة درعها القومي النووى المضاد للصواريخ الذى سيسبقه بطبيعة الحال خروجا من طرف واحد من معاهدة (إى.بى.إم) التى تحاول موسكو استثمارها بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة .

وبشأن علاقة روسيا بحلف شمال الأطلسى قال كولن باول أن واشنطن تؤيد صيغة (العشرين) والتى تعطى روسيا حق التصويت مثل باقى دول أعضاء حلف الناتو الـ ١٩ فى أمور معينة فقط وليس فى كل شئ . ولم يتحدث عن مشاركة روسيا فى صياغة واتخاذ القرارات والتصويت عليها كعضو كامل الصلاحية وهو ما ترى موسكو أنه أمر ضرورى لتوسيع آفاق العلاقة مع الحلف .

وكان باول قد وصل إلى موسكو مساء الأحد ٩ ديسمبر بعد جولة فى أوزبكستان وكازاخستان شكر فيها قيادة

الأولى على دورها بينما شكر الثانية على موقفهما من العمليات الأمريكية فى أفغانستان . وفى موسكو التقى بوزير الخارجية الروسى إيجور إيفانوف الذى صرح فى بداية مباحثاته مع الوزير الأمريكى بأن موسكو وواشنطن ستعملان على تطوير علاقتهما فى مكافحة الإرهاب على ضوء الأحداث الأخيرة فى أفغانستان . وأعلن إيفانوف أن كل من روسيا والولايات المتحدة يمكنهما الآن القيام بالكثير لحل الأزمات الدولية وعلى رأسها الشرق الأوسط والبلقان والخليج العربى .

فى هذا الإطار تجلت حالة الوفاق الحقيقية "الظاهرية" حينما أعرب باول للقيادة الروسية عن رضا واشنطن وسعادتها على الدور الروسى فى العمليات العسكرية الأمريكية وبالتالى أعرب الرئيس الروسى بوتين عن امتنان بلاده على مساعدة القوات الأمريكية لقوات الطوارئ الروسية فى مطار "بجرام" الأفغانى أثناء نقل "المساعدات الإنسانية " الروسية إلى كابول . هذا التناغم "الشكلى" بين موسكو وواشنطن بشأن الحالة الأفغانية وعمليات مكافحة الإرهاب ذكر بالدرجة الأولى بالهدوء الذى يسبق العاصفة وجعل التصريح الأول لوزير الخارجية الروسى إيفانوف يقترب من الواقع وهو أنه سمع رسالة واضحة ومحددة من نظيره كولن باول أكد فيها بأن واشنطن سوف تخرج من طرف واحد من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وهو أيضا ما جعل باول يؤكد فى تصريح له بعد لقائه بالرئيس الروسى "لا نعرف بعد ماذا يجب عمله فى المرحلة القادمة إلا إننا فى الطور الثانى من عمليات مكافحة الإرهاب سنقوم بمراقبة المنظمات الإرهابية والدول التى تساندها " . ولم يجهد باول نفسه فى تحديد هذه المنظمات أو الدول ولم يسأله أحد من القيادات الروسية عنها لأنه من الواضح أن القيادة الروسية كانت قد فقدت اتزانها بعد سماع خبر عزم الولايات المتحدة الخروج من معاهدة ١٩٧٢ .

لذلك بالذات وصف المراقبون علاقة موسكو وواشنطن فى الفترة الأخيرة بـ "شهر العسل" على الرغم من الخلافات الكثيرة الأخرى التى تستجيب لها موسكو تباعا بصرف النظر عن أن موسكو تستجيب صاغرة أم راضية . ولكن السؤال الذى كان يطرح نفسه حتى مساء يوم ١٠ ديسمبر ٢٠٠١ هو : هل يمكن أن ينتهى شهر العسل هذا عندما تقرر واشنطن الخروج من طرف واحد من معاهدة ١٩٧٢ أو تبدأ تبدأ عملياتها ضد دول معينة حليفة لروسيا أو عندما يقرر الناتو فى نوفمبر ٢٠٠٢ ضم دول البلطيق أى التوسع شرقا حتى الحدود الروسية وهل سيؤثر كل ذلك على علاقة روسيا مع الصين وكوريا الشمالية وهما الماردان القادمان فى القرن الحادى والعشرين وما هو موقف الدول العربية من "الإزاحات" الواضحة فى الموقف الروسى بشأن القضية الفلسطينية

الحرب ضد الإرهاب لن تزيل فقدان الثقة

قبل ذلك بعدة أيام وفى إطار الزيارة الأخيرة لأمين عام حلف شمال الأطلسى جورج روبرتسون إلى موسكو أكد الرئيس الروسى فلاديمير بوتين على استعداد موسكو لتقريب مواقفها مع الناتو فى العديد من الاتجاهات بالقدر الذى يعرب فيه الناتو عن الاستعداد بأخذ المصالح الروسية بعين الاعتبار . وشدد على أن روسيا لا تعتزم الوقوف "فى الطابور" بانتظار قبولها فى الحلف إذ أن طاقات روسيا الاقتصادية والبشرية والعسكرية والعلمية - التقنية ومساحتها تجعل منها دولة مكتفية وقادرة على ضمان أمنها .

ومن جانبه أعلن جورج روبرتسون أن حلف الناتو الذى يضم ١٩ دولة مستعد لمناقشة جملة من الموضوعات مع روسيا فى تشكيلة جديدة تضم ٢٠ دولة بما فيها روسيا . ورأى أن الأحداث الأخيرة فى العالم قد عملت على إنضاج العلاقة بين موسكو والناتو بما فيه الكفاية " ومن الحماقة " تفويت مثل هذه "الفرصة الذهبية" . وفى سياق الحديث عن

المجالات تسوية الخلافات بين الطرفين في إطار تشكيلة "العشرين" الجديدة قال روبرتسون أن المجال الرئيسي لمثل هذا التعاون هو مكافحة الإرهاب الدولي ولكن هناك مجالات أخرى يمكن البحث فيها .

وخلال مباحثاته مع وزير الدفاع الروسي سيرجي إيفانوف أشار روبرتسون إلى أن الظروف الراهنة تحتم على حلف الناتو توسيع التعاون مع روسيا التي لن يكون هناك أمن دولي بدونها . بينما رأى سيرجي إيفانوف ضرورة إنشاء آلية جديدة لتعاون روسيا مع الناتو على أن يكون لروسيا فيها حق التصويت الكامل وحق اتخاذ القرارات في إطار الحلف مشيرا إلى أن هذا المبدأ بالذات هو ما يجعل موسكو تنطلق من قاعدة التكافؤ والتساوي في العلاقات .

ومع الاختلاف الواضح في وجهات نظر كل من موسكو والناتو حول مجالات ومستويات التعاون حدد المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الروسية ألكسندر ياكوفينكو وجهة نظر موسكو في هذا الصدد بعدم ضرورة تجاهل المسائل الدفاعية والعسكرية ـ الأمنية بين موسكو والحلف وأشار إلى أهمية مواصلة العمل المشترك لتطوير الطاقات العسكرية التي تتلاءم مع الحاجات الدفاعية بشكل صارم من دون تقويض أمن الجهة الأخرى . وبشأن توسع الناتو شرقا قال ياكوفينكو أن موسكو لا تريد أن يصبح مثل هذا التوسع عائقا أمام تطور العلاقات وهذا ما يمكن أن يحدث فعليا في حال عدم الأخذ بأسباب القلق الروسي ومصالح روسيا الأمنية . وحذر بأن موسكو لا تزال تعتقد أن توسع الناتو لن يرسخ الأمن والسلام الدولي بل سيتسبب في مشكلات إضافية .

وفي ختام مباحثاته مع روبرتسون صرح وزير الدفاع الروسي سيرجي إيفانوف بأن الأخطار والتحديات الجديدة لم تعد تنطلق من أراضي الطرفين وأن العدو الجديد المشترك يمنح روسيا والناتو إمكانية تاريخية لنقل تعاونهما إلى مستوى جديد . بينما أكد روبرتسون على أن التعاون بين روسيا ودول الناتو قد يملي على الجميع تغيير مواقفهم السابقة حيال العديد من القضايا الدولية .

الى ذلك رأت العديد من المصادر السياسية والدبلوماسية أن ما يدور حاليا بين روسيا وحلف شمال الأطلسي من جهة وبين روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا من جهة أخرى ما هو إلا "شهر عسل" جديد سينقضي بمجرد انقضاء الحاجة وهو سر انعدام الثقة بين جميع هذه الأطراف . وفسرت المصادر ذلك بأن روسيا قلقة على أمنها القومي من توسع الناتو شرقا وتقلص وجودها الجيوسياسي . بينما دخول روسيا إلى حلف الناتو سيغير من موازين القوى وبالتالي لن تسمح الولايات المتحدة ولا الدول الأوروبية بمنح روسيا العضوية الكاملة في حلف شمال الأطلسي وإنما ستحاول عقد صفقات معها من قبيل دخول منظمة التجارة العالمية أو مجموعة الثمانية أو رفع الحظر الاقتصادي فيما يعرف بـ (جاكسون ـ فينيك) والإقرار بأن الاقتصاد الروسي اقتصاد سوق وستجعل من روسيا فاصلا مانعا بين أوروبا والولايات المتحدة وبين دول الشرق عموما والعالم الإسلامي على وجه الخصوص . ومن ناحية أخرى يمكن أن تدخل واشنطن في حلف (بصيغة معينة وفي ظروف معينة) مع روسيا بحيث تدفع الثانية إلى لعب الدور المساعد في السياسة الخارجية الأمريكية وهو الدور الذي يمكنه أن يقدم لروسيا بعض الفوائد .

ويبدو أن فقدان الثقة بين موسكو والناتو هو المحرك الأساسي للعديد من التحليلات والتوقعات السياسية ويشير إلى ذلك النقاط الأربع التي قد يكون الكرملين سربها خصيصا مع زيارة جورج روبرتسون لموسكو بهدف الوقوف على نوايا واشنطن والدول الأوروبية بشأن علاقة روسيا بالناتو والتحركات النشطة والمبادرات الجديدة التي يطرحها قادة بعض دول الحلف وعلى رأسهم رئيس الوزراء البريطاني توني بلير . والنقاط الأربع التي تثير مخاوف روسيا والولايات المتحدة والدول الأوروبية الأعضاء في الناتو تتلخص في :

- ظهور قطب نووي جديد سيؤثر حتما على وضع الريادة للولايات المتحدة وبالتالي سيغير من تركيبة الحلف .

ـ عدم رغبة دول الناتو فى الدفاع عن الأراضى الروسية المترامية الأطراف إذ أن ميثاق الحلف يلزم دوله بالدفاع عن أى عضو فيه فى حال تعرضه لهجوم من طرف آخر من خارج الحلف .

ـ عدم رغبة حلف الناتو ككل فى الاحتكاك بالصين مباشرة وهو ما يجعل واشنطن ولندن تلوحان بورقة التعاون دون تحديد مجالات معينة أو التوقيع على اتفاقيات واضحة المعالم .

ـ عدم رغبة بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى وجود روسيا لأن هذه الدول تعتبر قادة أوروبا فى الحلف ويدخول روسيا سيظهر قائد جديد لديه فرصة أكبر لريادة أوروبا بالكامل .

إضافة إلى كل ذلك فروسيا لا تضمن ردود أفعال دول مثل الصين وكوريا الشمالية وإيران والهند على تقاربها غير المحسوب من حلف شمال الأطلسى وهو ما يمكنه أن يزيد الأوضاع تعقيدا بالنسبة لها .

قرار بوش بالخروج من المعاهدة

فى الساعة التاسعة بتوقيت موسكو يوم الأربعاء ١٢ ديسمبر وفى وقت واحد تقريبا ظهر بجميع وسائل الإعلام الروسية بما فى ذلك وكالات الأنباء خبر يفيد بأن الرئيس الأمريكى جورج بوش قد أعلن أنه اتخذ قرارا بخروج الولايات المتحدة من طرف واحد من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ الموقعة فى موسكو عام ١٩٧٢ . هذا اليوم بالذات كان عطلة رسمية فى روسيا لأنه عيد الدستور وكان بوتين منشغلا بافتتاح محطة مترو جديدة ووزير الخارجية يستعد لزيارة أنجولا ورئيس الوزراء فى البرازيل ووزير الدفاع يتفقد بعض وحدات الجيش الروسى فى أحد الأقاليم النائية .

بذلك تكون واشنطن قد وضعت "نقطة" فى نهاية صفحة قديمة مع روسيا الجديدة لتبدأ فى تنفيذ خططها الخاصة المبنية على اختلال توازن القوى لصالحها . فهى كما قلنا فى السابق قد أصبحت موجودة بكثافة فى وسط آسيا وأفغانستان وجورجيا وأوكرانيا والبلقان وفى مناطق أخرى لم تكن تحلم بها أبدا .

الدور الروسى فى الشرق الأوسط بين الوهم والخيال

بعد أكثر من عشر سنوات كاملة لغياب الدور الروسى فى الشرق الأوسط تحاول السياسة الخارجية الروسية فى الفترة الأخيرة العودة إلى المنطقة . برز ذلك من خلال عرض النظرية الروسية فى مجال السياسة الخارجية التى صادق عليها الرئيس الروسى فلاديمير بوتين ومن خلال إعلان وزير الخارجية إيجور إيفانوف بأن بلاده تسعى إلى تحقيق الاستقرار فى الشرق الأوسط باعتبارها أحد راعى مسيرة التسوية فى المنطقة . واعتبر إيفانوف أن استعادة روسيا لمواقعها فى الشرق الأوسط وفى المنطقة العربية بالذات إحدى المهام الأساسية فى قائمة أولويات السياسة الخارجية الروسية . من هنا تحديدا تتجه نوايا موسكو الجدية إلى اتباع سياسة المشاركة النشطة فى تطبيع الوضع الشائك بالمنطقة العربية .

آفاق الدور الروسى

تنبهت موسكو أخيرا إلى أهمية وجودها فى الشرق الأوسط وبدأت الرحلات المكوكية لوزير الخارجية إيفانوف ونائبه فاسيلى سريدين واللقاءات المتكررة مع رئيس الوزراء الإسرائيلى باراك والمسؤولين الفلسطينيين فى غزة . وبالتالى فقد عادت قضية الشرق الأوسط لتحتل مكانة هامة فى قائمة أولويات السياسة الخارجية الروسية باعتبارها أحد الأبواب الرئيسية التى يمكن أن تعيد موسكو إلى المنطقة بعد أن دمرت سياسات الإصلاحيين الروس الجدد الذين

سيطروا على مقاليد السلطة فى الكرملين طوال عشر سنوات العديد من العلاقات بين موسكو والبلدان العربية . ومع وصول بريماكوف إلى وزارة الخارجية أصبحت نظرية العالم متعدد الأقطاب تمثل جوهر السياسة الرسمية للكرملين الأمر الذى دفع موسكو للبحث عن سبل جديدة للعودة إلى مواقعها التقليدية واستعادة نفوذها فى مناطق كثيرة من العالم .

وبالرغم من أن روسيا تعتبر أحد راعى السلام فى التسوية السياسية بالشرق الأوسط إلا أن الكرملين يدرك أن تأثيره على مسيرة التسوية السلمية يكاد يكون معدوما . كما أن تحرك الدبلوماسية الروسية بين الحين والآخر فى إطار دفع مسيرة التسوية السلمية لا يستهدف أساسا إلا استخدام هذا المدخل للعودة إلى المنطقة كبداية لتحقيق مصالحها بعد أن فقدت الكثير منها خلال السنوات العشر الماضية . بيد أن روسيا الجديدة التى تعلن دوما من خلال سياستها الخارجية عن رغبتها الصادقة فى العودة إلى منطقة الشرق الأوسط من أجل المشاركة الفعالة فى التسوية السلمية ليست هى روسيا التى لا تزال فى أذهان الكثيرين بالعالم العربى . هناك العديد من التغيرات التى لحقت بروسيا نفسها ناهيك عن تركيبة النظام السياسى والتحولات الجذرية التى حدثت طوال عشر سنوات الأمر الذى يجب أخذه بعين الاعتبار أثناء الحديث عن عودة روسيا إلى منطقة الشرق الأوسط وآفاق الدور الروسى فى مسيرة التسوية السلمية .

لعل أهم التحولات التى حدثت هو طابع العلاقات الروسية الإسرائيلية التى شهدت ازدهارا ملحوظا فى السنوات الأخيرة وأصبحت تشكل مصدر قلق للولايات المتحدة الأمريكية نفسها . ترتكز هذه العلاقات على محورين أساسين . الأول المهاجرون اليهود من الاتحاد السوفيتى وروسيا الاتحادية الذين وصل تعدادهم إلى مليون و ٢٠٠ ألف شخص . الثانى التعاون الروسى الإسرائيلى فى مجال الأمن والاستثمار والصناعات العسكرية .

يشكل المهاجرون اليهود الروس حوالى سدس سكان إسرائيل وبالتالى تحولوا إلى قوة سياسية واقتصادية ضاغطة ليس فقط على الحكومة الإسرائيلية بل وأيضا على الكرملين . وبفضل هجرة عشرات الآلاف من الخبرات العلمية والتقنية الروسية تمكنت إسرائيل من اللحاق بالتطور العلمى وامتلاك طاقات علمية توازى ما لدى أوروبا الغربية كلها وأصبحت تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية من حيث نصيب الفرد من الاختراعات العلمية . هذا إلى جانب أن المهاجرين الروس يشكلون ثلث مجموع العاملين فى المجال التكنولوجى الإسرائيلى وخاصة فى التكنولوجيات الرفيعة ولهم الفضل فى زيادة صادرات إسرائيل فى هذا المجال بنسبة ٣٠٪ بالمقارنة بالسنوات السابقة .

فى ظل هذا الوضع كان من البديهى أن تتشكل أحزاب يهودية روسية فى إسرائيل . ولعل أبرز هذه الأحزاب حزب " إسرائيل بعاليا " الذى يتزعمه وزير الداخلية الإسرائيلى المستقل ناتان تشارانسكى الذى كان قد هرب من الاتحاد السوفيتى فى السبعينات بعد اتهامه بالتجسس لحساب المخابرات الأمريكية . أما حزب " بيتنا إسرائيل " (وهو على غرار حزب " بيتنا روسيا " الذى تزعمه فيكتور تشيرنوميردين وحكم روسيا فترة طويلة خلال وجود يلتسين فى السلطة) والذى يتزعمه جيرمان اليهودى السوفيتى من أصول مولدافية فقد ظهر على الساحة السياسية فى إسرائيل على أثر انشقاق فى حزب تشارانسكى ليصبح ثانى قوة سياسية روسية فى إسرائيل .

من ناحية أخرى تشهد علاقات التعاون بين روسيا وإسرائيل تطورات هامة فى مجال التصنيع الحربى حيث نجحت مجموعة مشتركة من خبراء البلدين فى تطوير نموذج طائرات " سوخوى ٣٠ " المقاتلة متعددة الأهداف وكذلك تحديث أجهزة التصويب والرادار فى عدد من نماذج المروحيات العسكرية الروسية وبذلك أصبحت هذه النماذج تنافس مثيلاتها فى الدول الغربية مما أثار شهية دول حلف الأطلنطى التى راحت تتسابق على شرائها .

هذا وتلعب " جمعية البيزنس الدولية " التى يرأسها يورى لوجكوف عمدة موسكو دورا هاما فى اجتذاب الاستثمارات الإسرائيلية إلى العاصمة الروسية . وقد عقدت هذه الجمعية مؤتمرها السنوى (موسكو إنفيست ٢٠٠٠) فى تل أبيب وشارك فى هذا المؤتمر حوالى ١٠٠ من رجال الأعمال الروس منهم أعضاء بارزين فى الحكومة الروسية إلى جانب بعض حكام الأقاليم ورجال الأعمال الروس . ويدعو عمدة موسكو لوجكوف إلى اجتذاب رؤوس الأموال الإسرائيلية حتى يتم عن طريقها إقناع رأس المال الغربى والأمريكى بضرورة المجىء إلى روسيا والعمل بها .

وعلى الصعيد السياسى قامت إسرائيل بمساندة موسكو فى مواقفها من أزمة كوسوفو وأدانت دعم حلف الأطلنطى لألبان كوسوفو محذرة من مخاطر قيام دولة طائفية . كما أيدت أيضا حملات موسكو العسكرية ضد المعارضة الشيشانية معتبرة أن مكافحة " التطرف " الإسلامى أصبحت مهمة عالمية من أجل حماية الديمقراطية .

فى هذا الإطار وعلى ضوء التقارب الروسى ـ الإسرائيلى يمكن القول بأن تفعيل الدور الروسى فى حل أزمة الشرق الأوسط وفى مسار التسوية السلمية قد يشكل ضررا لمصالحها لأنه سيجبرها على الانحياز إلى أحد الطرفين وبالتالى ستخسر الطرف الثانى . ومع ذلك فمسألة الانحياز هذه وخسارة أحد الطرفين المترتبة عليها ليست هكذا ميكانيكية إلى هذا الحد لأن أمريكا على سبيل المثال تعلن ضمنا وصراحة وبوضوح شديد عن انحيازها لإسرائيل ومع ذلك لم تخسر أى من الأطراف العربية وبالذات السلطة الفلسطينية . فهل فعلا سيكون هناك دور روسى فعال ومؤثر وإلى أى مدى سيكون فعالا ومؤثرا

توجهات جديدة أم ضعف سياسى

فى الوقت الذى انطلقت فيه التصريحات الحادة لمختلف الأطياف السياسية الروسية بما فى ذلك ممثلى السلطة الرسمية فى الكرملين من حيث الشجب والإدانة للسلوك الإسرائيلى فى تعامله مع الأحداث فى الأراضى الفلسطينية المحتلة وكذلك اليمين الروسى الذى ـ على النقيض تماما ـ أدان رد فعل الشارع الفلسطينى والعربى على وقاحة السلطة الإسرائيلية ويمينها الفاشى فى استفزاز وقمع المواطن الفلسطينى الأعزل تصورت العديد من القوى السياسية العربية أن الدور الروسى آت لا محالة وسوف تلعب روسيا دورها التاريخى فى مباحثات التسوية السلمية فى الشرق الأوسط . بل وظلت وسائل الإعلام العربية تناشد روسيا بالقدوم إلى المنطقة والتدخل على قدم المساواة مع الولايات المتحدة الأمريكية كأحد راعى السلام .

أما الخارجية الروسية فقد ظلت على أمل أن يتم توجيه الدعوة إليها فى مباحثات قمة شرم الشيخ . وأصدرت وزارة الخارجية الروسية قبل انعقاد المؤتمر بيانا أعلنت فيه بأنها على استعداد للمشاركة فى المؤتمر كراعى سلام ثان لأن روسيا ترى أن نجاح هذه المباحثات من مصلحتها ومن هذا المنطلق فهى مستعدة للمشاركة مع الولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى ومصر والأردن . وذكر البيان أن جهود روسيا تتوافق تماما مع جهود الأمين العام للأمم المتحدة ومع ممثلى الدول المشاركة . ولدى الجميع هدف واحد ـ التوصل بأقصى سرعة ممكنة إلى وقف أحداث العنف وإعادة الحوار بين الأطراف المتنازعة . وأعلن وزير الخارجية الروسى قبل المؤتمر أيضا أنه على استعداد للمشاركة بسبب أهمية نتائجه لروسيا . وأكد على أن روسيا ستبقى شريكا كاملا فى مباحثات التسوية السلمية بالشرق الأوسط .

بدأت مباحثات شرم الشيخ وانتهت بدون دعوة روسيا وبالتالى من دون مشاركتها . وأعلن رئيس لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان الروسى ديمترى روجوزين أن المفاوضات فى الشرق الأوسط لا يمكن أن تنجح بدون مشاركة روسيا

وأكد بأنه لا يمكن حل ولو مشكلة واحدة بين الفلسطينيين والإسرائيليين من دون الراعي الروسي . ومن أجل أن يكسب تكهناته أبعادا أخرى صرح بأنه من الممكن التوصل إلى مصالحة ولكن سيكون ثمنها بحرا من الدماء . وفي معرض حديثه علق قائلا بأن الجميع يتحدثون عن الدور الروسي وضرورة إشراك روسيا في عملية التسوية السلمية في الشرق الأوسط ومن ناحية أخرى يخشون دعوتها للمشاركة حتى لا تستغل نجاحها في إدارة المباحثات لمصالحها الخاصة .

على الجانب الآخر وفي تناغم شديد أعلن وزير الخارجية إيفانوف بأنه يرى أن اللقاء في شرم الشيخ هو أحد الحلقات في سلسلة طويلة ومعقدة من الجهود التي يجب بذلها . وأكد بأن مشكلة الشرق الأوسط من أعقد المشاكل الدولية التي لا يمكن حلها في لقاء واحد .

ولكن هل كانت توجد حقا لدى روسيا رغبة فعلية في المشاركة الجادة والعملية في التسوية السلمية بالشرق الأوسط أم إنها تنتظر أن يفشل " الراعي " الأمريكي تماما ومن ثم يأتي الجميع على أربع لاستجدائها في المشاركة وهل روسيا في حالة سياسية ـ اقتصادية تسمح لها بهذه بالمشاركة في ظل التغيرات الدولية الجديدة والتغيرات داخل روسيا نفسها

من الصعب الإجابة على مثل هذه الأسئلة من دون معرفة بعض العناصر التي تتحكم في الشارع السياسي الروسي وتوجهات السياسة الخارجية الروسية في السنوات الأخيرة .

في تصريح لرئيس صندوق " السياسة " الروسي فيتشيسلاف نيكونوف قبل انعقاد مؤتمر شرم الشيخ قال أن أية نتيجة يخرج بها المشاركون سوف تكون مفيدة . ومع ذلك فهذه المفاوضات ليست مضمونة النجاح حتى إذا أخذنا في الحسبان الحملة الانتخابية الأمريكية . وأضاف نيكونوف : بالنسبة لبيل كلينتون من المهم له أن يوفق الطرفين وإلا فسوف ينتظر ألبرت جور فشل ذريع . ولكن يجب أن ندرك أنه لا ياسر عرفات ولا إيهود باراك مستعدان لفعل أي شئ بصورة خاصة من أجل " عيون الديمقراطيين الأمريكيين " ومن المتوقع أنهما سيستغلان جيدا هذا الموقف لصالحهما .

وبشأن مشاركة روسيا في تلك القمة أكد نيكونوف ـ بعد انعقاد المؤتمر ـ أن عدم دعوتها ليس بالكارثة الكبرى رغم أن هذا أمر مؤسف لا جدال وعدم الدعوة في حد ذاته يمثل ضربة قاسية لهيبتها .

من ناحية أخرى أشار مدير مركز الأبحاث السياسية الروسي سيرجي ماركوف إلى أن ما يحدث في الشرق الأوسط يشبه مسرحية يقوم بها ممثلان من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من المساعدات من أمريكا ومن الاقتصاد العالمي ككل حيث أن الولايات المتحدة مستعدة في ظروف الانتخابات لدفع أي ثمن من أجل أي سلام في الشرق الأوسط .

وذكر ماركوف أن عدم دعوة روسيا إلى شرم الشيخ كان أمرا سيئا بلا شك ولكن ذلك حدث ليس بسبب سوء السياسة الخارجية الروسية وإنما لأن روسيا ليس لديها الأموال الكافية وهو الشيء الأول الذي يطلبونه في هذه المفاوضات .

أما تصريحات الرئيس الروسي فلاديمير بوتين فقد دارت في مجملها حول ترحيبه بالنتائج التي توصل إليها مؤتمر القمة في شرم الشيخ وتوجيهه التحية والشكر للأطراف المشاركة . وفي هذا الأمر يتفق معه أيضا وزير خارجيته إيفانوف ويرى أن فرصة مشاركة روسيا لا تزال موجودة في التسوية السلمية رغم عدم دعوتها إلى قمة شرم الشيخ .

على الجانب الآخر صدرت تصريحات من بعض الكتل البرلمانية الروسية مثل الحزب الشيوعي بقيادة جينادي زيوجانوف والحزب الديمقراطي الليبرالي بزعامة فلاديمير جيرينوفسكي أدانوا فيها العدوان الإسرائيلي على الشعب

الفلسطينى وعدم التزام إسرائيل بتنفيذ القرارات الدولية . هذا فى الوقت الذى خفت فيه حدة التصريحات من جانب العديد من المسؤولين السياسيين الذين أدانوا إسرائيل فى بداية الأحداث .

أما اليمين الروسى فهو أكثر فاشية ليس فقط من الحكومة الإسرائيلية بل وأيضا من اليمين الفاشى الإسرائيلى . فهو لا يكف عن ترديد تلك المقارنة الساذجة بين الصراع الروسى الشيشانى والصراع الفلسطينى الإسرائيلى ونظرا لأن أكثر من ٩٠٪ من وسائل الإعلام الروسية مملوكة لطواغيت المال اليهود فهذه المقارنة تجد استجابة عالية من الشارع السياسى الروسى والمواطن البسيط على حد سواء . ومن هنا أصبحت مصطلحات "الإرهاب" و"الإرهاب الفلسطينى" و"الإرهاب الإسلامى" و"الأعمال الإرهابية" كلها تحمل معنى واحدا وتنطبق تماما على كل ما يحدث فى الأراضى العربية المحتلة وتتساوى فى ذهن المواطن الروسى مع نفس المصطلحات التى تبثها وسائل الإعلام يوميا بشأن ما يجرى فى الشيشان .

ولعل " الحج " المتواصل للمسؤولين الإسرائيليين إلى موسكو وخاصة فى ظل انتفاضة الأقصى (حدث وأن تواجد فى موسكو وفى وقت واحد أربعة مسؤولين إسرائيليين : شمعون بيريز وبنيامين نتنياهو وناتان شارانسكى ورومان برونفمان) قد أوضح المعادلة التى يرتكز إليها الإسرائيليون فى تعاملهم مع الروس بخصوص التسوية فى الشرق الأوسط . فاليمين الروسى يرسخ لمفهوم المقارنة التى ذكرناها أعلاه ويأتى المسؤولون الإسرائيليون جماعات لعيدوا الذاكرة إلى قادة الكرملين مطالبين روسيا بالوقوف إلى جانب إسرائيل فى محاربة "الإرهاب العربى" مثلما وقفت إسرائيل - ومازالت تقف - مع روسيا فى مقاومتها لـ "الإرهاب الشيشانى" .

وفى استطلاع للرأى العام الروسى أجراه صندوق " الرأى العام " برزت بعض النتائج المنطقية تماما . فبخصوص السؤال عن تدهور الأوضاع فى الشرق الأوسط وأهمية ذلك للمواطن الروسى أجاب ٦٢٪ بأنهم قلقون من ذلك ويرى ١٨٪ أن المشكلة لا تهمهم و١٤٪ لا يعرفون أى شئ عن الموضوع . وعن السؤال بشأن الطرف الذى يتحمل مسؤولية اندلاع حرب فى الشرق الأوسط أجاب ٣٧٪ بأن المسؤولية تقع بالتساوى على الفلسطينيين والإسرائيليين ويرى ١٠٪ أن المسؤولية تقع على الجانب الإسرائيلى و٨٪ على الفلسطينيين . أما بخصوص تدخل روسيا فى النزاع فقد رأى ٥٢٪ أن روسيا لا يجب أن تتدخل و٥٪ يرون أن تقوم روسيا بدعم الإسرائيليين و٦٪ يرون دعم الفلسطينيين .

هنا تبرز عدة أسئلة أخرى : هل تعمد المشاركون فى قمة شرم الشيخ عدم دعوة روسيا إلى المؤتمر وهل جاء ذلك لضعفها وعدم قدرتها على التأثير فى الأحداث الجارية أم أن الروس يرغبون فى عدم المشاركة بشكل مباشر بسبب استحداث منظومة من العناصر الجديدة فى سياستهم الخارجية المبنية تماما على مبادئ براجماتية محضة

إن التدهور الاقتصادى والسياسى فى روسيا ليس السبب الوحيد - كما يتصور بعض الحالمين - فى " خلعها " من العديد من المواقع الحيوية فى العالم . ولعل ضرب حلف الأطلنطى ليوغسلافيا هو أكبر الدلائل التى تشير إلى أن روسيا قد بدأت تنتهج سياسة خارجية برجماتية تماما حتى فى علاقتها بحلفائها المصيريين مثل يوغسلافيا . الأمر الثانى هو الانتخابات الأخيرة فى يوغسلافيا أيضا حيث كان الروس هم أول من ذهب إلى بلجراد لتهنئة الرئيس الجديد كوشتونيتسا والتخلى عن حليفهم القديم والتقليدى سلوبودان ميلوشيفيتش . بذلك تكون روسيا قد انتزعت قدميها من البلقان رغم التكهنات الكثيرة بأن الرئيس اليوغسلافى الجديد شخصية قومية وسوف يقف أمام أطماع الغرب والولايات المتحدة الأمريكية فى يوغسلافيا .

على الجانب الآخر تعتبر عدم دعوة روسيا للمشاركة فى مؤتمر شرم الشيخ مؤشرا هاما على عدم تأثيرها فى

المنطقة . ولعل الروس يرحبون أيضا من جانبهم بذلك نظرا لاتباعهم سياسة محايدة تجاه الطرفين وهو الأمر الذى لا يروق لبعض الأطراف العربية التى لا تزال ترى فى روسيا (اتحادا سوفيتيا) حليفا تقليديا لها متغاضية عن العلاقات الهامة والاستراتيجية بين روسيا وإسرائيل .

لم يعد يهم السياسة الخارجية الروسية التواجد فى البلقان أو فى الشرق الأوسط إلا بالقدر الذى ترى فيها مصالحها القريبة والمباشرة . ولعل أخطر دليل هو المحاولات الحثيثة التى تجرى لخلع روسيا من منطقة وسط آسيا . فعلى الرغم من انتباه الروس لهذا الأمر فهم لا يبدون أى رد فعل إلا عندما يمس الأمر مصالحهم المباشرة بعكس ما كان جاريا فى الماضى باعتبار أن منطقة وسط آسيا هى العمق الاستراتيجى لروسيا .

معنى ذلك هل لو كانت روسيا ما بعد السوفيتية قوية سياسيا واقتصاديا كان من الممكن أن تشارك بصورة مؤثرة فى مباحثات التسوية السلمية فى الشرق الأوسط وهل لو كانت روسيا قوية كان من الممكن أن تقف إلى جانب العرب فى المطالبة بحقوقهم المشروعة التى نصت عليها قرارات الأمم المتحدة

إن الإجابة على هذين السؤالين تثبت بالقطع أن روسيا ما بعد السوفيتية تتراجع عن مواقعها التقليدية ليس فقط بسبب تدهور أوضاعها ولكن أيضا - وهذا هو الأمر الرئيسى - بسبب توجهات السياسة الخارجية البراجماتية التى تنتهجها روسيا الجديدة .

فى إطار الحملة الإعلامية المسمومة ضد الدول العربية والتى تشنها العديد من وسائل الإعلام الروسية خلال السنوات الأخيرة متسترة بالحرب الشيشانية من ناحية ومرتكزة إلى ما يحدث من تفجيرات فى المبانى السكنية والمرافق العامة من ناحية أخرى وبعد التصريحات الخطيرة التى أعلنها عمدة موسكو يورى لوجكوف باتهامه الشيشانيين فى تفجير نفق مترو بوشكينسكايا فى وسط العاصمة الروسية فى أغسطس ٢٠٠١ والتى اتضح عدم صحتها فيما بعد تواصل وسائل الإعلام الروسية نفس النهج غير المسؤول الذى تتعامل به فى السنوات الأخيرة فى بث الكراهية الدينية والعرقية بين شعوب روسيا الاتحادية من ناحية وتعمل على اختراع المصطلحات التى تكرس للشقاق القومى والعرقى والدينى ليس فقط بين شعوب روسيا بل وأيضا بين الروس والأجانب الملونين وخاصة العرب .

فى هذا السياق قامت قوات الأمن الخاصة الروسية باقتحام مقر جمعية "الإصلاح الاجتماعى" الكويتية فى موسكو وأجرت عملية تفتيش دقيقة . وفى اليوم التالى صدرت ثلاث من أهم الصحف الروسية بمقالات ساخنة حول عمليات التفتيش وبلهجة معادية للإسلام والعرب .

صحيفة " فريميا "

صدرت هذه الصحيفة بموضوع تحت عنوان " عملية تفتيش لدى الإخوان المسلمين " تستند فيه إلى مصادر من قوات الأمن الروسية وتعتبر أن جمعية " الإصلاح الاجتماعى " أسسها الجناح الأصولى لحركة الإخوان المسلمين وتستخدم الأعمال الخيرية كغطاء لنشر أفكار الإسلام العسكرى . وأفادت الصحيفة بأن حركة الإخوان المسلمين الأصولية تعمل فى أكثر من ٥٠ دولة بقيادة المركز الموجود فى الشرق الأوسط ويوجد للجمعية ٤٩ مقرا فى روسيا ودول الكمنولث وأن المقرات الموجودة فى روسيا تعمل بالتخطيط مع المنظمات الإرهابية مثل " الجماعة الإسلامية " و " الجهاد الإسلامى " وأسامه بن لادن .

لم تكتف الصحيفة بهذا الخلط وإنما تمادت فى نشر معلومات مغلوطة بالعثور على وثائق ومستندات بمقر الجمعية تثبت بأن هناك مساعدات يجرى جمعها فى الخارج وتستخدم من أجل تجنيد الموظفين وزرعهم فى هياكل

الدولة وكذلك بهدف دراسة الأوضاع الجغرافية ـ العسكرية والسياسية ـ الاجتماعية والاقتصادية لدول الكمنولث من أجل إعداد خطط لتصعيد الأوضاع فيما بعد .

هذا وأكدت الصحيفة بأن جمعية " الإصلاح الاجتماعى " هى إحدى المنظمات العالمية التى تساعد المنشقين والإرهابيين الشيشان وتقوم بجمع التبرعات السرية لإرسالها فيما بعد إلى جمهورية الشيشان عبر العاصمة الأذربيجانية باكو .

الجدير بالذكر ـ وحسب الوثائق الرسمية الروسية ـ أن جمعية " الإصلاح الاجتماعى " هى جمعية خيرية مسجلة بوزارة الداخلية الروسية منذ عام ١٩٩٣م وتعمل بشكل رسمى ليس فقط فى روسيا وغيرها من دول الكمنولث وإنما أيضا فى أكثر من ٥٠ دولة من دول العالم . وخضعت هذه الجمعية لتحريات وملاحقات من أجهزة الأمن الروسية فى عامى ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠ فى إطار الحرب الشيشانية واعتبرتها أجهزة الاستخبارات الروسية أحد ممولى مقاتلى المعارضة الشيشانية . وأعلن آنذاك نائب مدير هيئة الأمن فى موسكو كوزما شالينكوف أن وزارة الداخلية الروسية طلبت مساعدة الإنتربول للكشف عن مصادر تمويل فصائل المعارضة الشيشانية من الجهات الأهلية غير الحكومية مثل جمعية الإصلاح الاجتماعى والمعونة الإسلامية والمؤتمر الإسلامى . المثير أنه لم توجه أية اتهامات إلى الجمعية منذ عام ١٩٩٣م وفى عام ١٩٩٩ أيضا . ويرى العديد من المراقبين الروس أن الجهات الأمنية الروسية توقفت عن ملاحقة الجمعية بسبب الاتفاق المبرم بينها وبين إدارة مسلمى تتارستان والذى انتهى ببناء الجامعة الإسلامية فى العاصمة التتارية قازان .

صحيفة " كميرسانت "

وتحت عنوان " المخابرات الروسية تلاحق الإخوان المسلمين " صدرت صحيفة " كميرسانت " بصورة تحاول أن تكون محايدة بتأكيدها على بعض الإشاعات التى لا تستند إلى مصادر واضحة من جانب ونفيها لبعض مزاعم رجال الأمن من جانب آخر .

إستندت " كميرسانت " فى موضوعها إلى تصريحات مجهولة لرجال الأمن بأن التحقيقات كشفت عن حرص أجهزة الأستخبارات الروسية على اكتشاف علاقة الجمعية مع المعارضة الشيشانية ومراكز الإرهاب الدولى وأسامة بن لادن . ورأت الصحيفة أن عملية التفتيش مكنت أجهزة الأمن الروسية من معرفة أسماء كافة المنظمات التى أسستها حركة الإخوان المسلمين الدولية واعتبروا أن جمعية الإصلاح الاجتماعى أحد هذه الأجنحة العالمية المتطرفة وتحصل على تمويل خارجى لتجنيد عناصر فى مختلف المواقع بدول الكمنولث وروسيا ولها علاقات بمقاتلى البوسنة وتستخدم الأعمال الخيرية كغطاء للدعوة إلى الجهاد .

ومن ناحية أخرى تطرقت الصحيفة ساخرة إلى أن أجهزة الاستخبارات الروسية لم تعلن عن حصولها على أى معلومات بعد التفتيش وأن ما أكدته بعض مصادر الأمن بشأن ارتباط الجمعية بالمتطرفين مجرد " هراء " واستفزاز .

هذا وقد أكد ممثل الجمعية ـ حسب ما ذكرته صحيفة " كميرسانت " ـ أن الجمعية تقوم بتقديم مساعدات لسكان شمال القوقاز للاجئين فى أنجوشيا من خلال جهة رسمية وهى وزارة الطوارئ حيث تم إرسال ٣٨ ألف صندوق من المواد الغذائية للاجئين إضافة إلى الملابس والأدوية . وأشار ممثل الجمعية ـ حسب قول الصحيفة ـ إلى أن اتهامات أجهزة الأمن وممارستها يمكنها أن تتسبب فى تعطيل هذه المساعدات الإنسانية التى نقدمها عبر الجهات الرسمية الروسية للاجئين .

صحيفة " كمسموليسكايا برافدا "

في هذا الإطار صدرت صحيفة " كمسموليسكايا برافدا " بعنوان عدائي ومثير " فصل ٩ دول إسلامية عن روسيا قريبا " . وجاء الموضوع على صفحتين مع صور ضخمة لأسامة بن لادن وخريطة جغرافية لروسيا والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى .

بدأ الموضوع بعبارات تحريضية مثيرة : " أجهزة الأمن كشفت عن نشاط منظمة تروج للتطرف الإسلامي . لكن المعلومات التي لدينا تفيد بأن الجماعات الإسلامية التي تنشر دينها قسرا تمارس نشاطاتها بهدوء في ٤٩ نقطة ببلادنا " .

وبصورة تحريضية أخرى أشارت الصحيفة إلى أنه : " تم العثور على خريطة جغرافية أخرى في مكتب هؤلاء المصلحين الاجتماعيين صادرة في الرياض تتضمن الأهداف والمهام المنحصرة في تحويل ٩ مناطق روسية إلى دول إسلامية مستقلة وهي أديجيا وأنجوشيا وأوسيتيا الشمالية وأدمورتيا وماريل وبشكورتستان وتتارستان وكاباردينابلكانسكايا وطبعا الشيشان " .

وأشارت الصحيفة بدون أية مصادر إلى أن : " الدول التي تمول المتطرفين هي الكويت والسعودية وباكستان ومصر وانجلترا وعدة دول أخرى " .

ليست هذه هي المرة الأولى التي تمارس فيها بعض وسائل الإعلام الروسية مثل هذه الحملات على دول بأكملها . ولكنها في هذه المرة بالذات تطرقت إلى علاقات الزواج بين الروسيات والعرب واتهمت العرب المتزوجين من روسيات بالتعامل مع المنظمات المتطرفة في سابقة لم يحدث لها مثيل من قبل . المثير أن وزارة الطوارئ لم تبد أي رد فعل على اتهامات وسائل الإعلام ضد الجمعيات الخيرية التي تتعاون رسميا مع الوزارة في تقديم المعونات والمساعدات للأطفال والمسنين والنساء اللاجئين في المخيمات وفي الجبال . ومن الواضح أن العديد من الصحف ووسائل الإعلام الروسية تعمل بدأب على التحريض بتشويه الحقائق ونسب التصريحات إلى مصادر مجهولة من أجل بث الشقاق في المجتمع الروسي وتحريض رجل الشارع البسيط ضد الملونين ومعتنقي الديانات الأخرى بصرف النظر عن كونهم عرب أو من القوقاز أو حتى من الأرمن والجورجيين المسيحيين . أليست وسائل الإعلام الروسية هي التي اخترعت أحد أخطر المصطلحات خلال السنوات العشر الأخيرة " قوقازي " والذي صار الأطفال الروس في المدارس يستخدمونه في سب بعضهم البعض من دون أن يعرفوا الخلفيات السياسية أو العرقية الكامنة وراءه إلى جوار ذلك يأتي مصطلح "إرهاب" الذي روجت له وسائل الإعلام الروسية رابطة إياه بـ "العرب" و"الإسلام" و"الشيشان" لنكتشف ببساطة شديدة أن هناك الكثير من الأمور التي لا تدخل في إطار الواقع وإنما تتأرجح بين دفتي الوهم والخيال .

الحضور ليس كالغياب

قبيل انتخاب جورج بوش الابن لرئاسة الولايات المتحدة بعدة أشهر وقفت وزيرة الخارجية الأمريكية (الديمقراطية) مادلين أولبرايت لتطمئن العالم كله وخاصة "المقهور" بأنه من المستبعد أن يكون مصير الولايات المتحدة هو نفس مصير الإمبراطورية الرومانية . قالت "السيدة" أولبرايت هذا الكلام في حالة "انتشاء" أو "نشوة" ردا على خيالات وأوهام أو "تمنيات" بعض الكتاب والصحفيين والمحللين السياسيين والتاريخيين . وبعد ضرب الولايات المتحدة بالطيران من داخلها في ١١ سبتمبر طرح الرئيس الأمريكي سؤالا مثيرا وفي حزن وأسى شديدين : لماذا يكره العالم الولايات المتحدة !

اتفق الكثيرون على أن رد أولبرايت لا يخضع إطلاقا لتحليلات علم السياسة أو الاجتماع أو التاريخ . أما سؤال جورج بوش فله علاقة مباشرة بعلم النفس بمعناه الواسع والعميق بما في ذلك الأمراض النفسية أيضا .

حالتان متناقضتان تناقضا شكليا فقط . فعلى الرغم من أن الأولى قالت كلامها في حالة انتشاء والثاني قال كلامه في حالة حزن إلا أن الحالتين وجهان لعملة واحدة . تلك العملة رفعتها الولايات المتحدة مؤخرا لتقذفها إلى أعلى (على طريقة لعبة الرفه المصرية) : ملك ولا كتابة ! من معنا ومن ضدنا هذا السؤال بالذات هو الرد المنطقي على نفس السؤال الحزين (والبرئ) لرئيس أكبر دولة في العالم . وبالطبع فقد أنقذنا بوش من الحيرة والخجل فلو كان قد طرح سؤاله على النحو التالي : لماذا لا يحب العالم أمريكا لأوقعنا في مصيدة كبيرة وجعلنا نعيد التفكير في قدرتنا على عدم فهم الرجل "الجمهوري الطيب" الذي استطاع أخيرا أن يستخدم كلمة "حب" رغم معرفتنا العميقة بتاريخ الجمهوريين وحروبهم وبرنامجهم وعلاقتهم بمؤسسات "السلاح" وليس "الحب" داخل الإمبراطورية الأمريكية .

الغرب والشرق والحب

ظللنا لفترات طويلة نطرح إشكاليات الغرب والشرق في السياسة والتاريخ والأدب والثقافة والفلسفة وكنا نناقشها ونبحثها من جوانب مختلفة من قبل حتى كتابة روايات مثل "زينب" و"عصفور من الشرق" و"موسم الهجرة للشمال" و"حب في المنفى" . اختلفنا واختلفت الآراء . ومع كل فيمكنني الادعاء بأننا في بلاد العرب قد تناولنا هذه القضية بشكل محترم وراق . والحديث يدور هنا عن وجهات النظر الموضوعية والعلمية وعن أن الغرب والشرق ليس مجرد جغرافيا وإنما منظومات تفكير ذهنية وحياتية وليس عن الحب والكره والتعصب الديني والعرقي . إلا أن تناولنا المحترم والراقي لم يقابله الغرب بالمثل ووصلنا إلى مرحلة هي الأكثر انحطاطا و"نذالة" في تاريخ البشرية . ربما وقفت بعض العقول المستنيرة في الغرب مع ما طرحته عقولنا المستنيرة ولكن الغرب بشكل عام على مستوى السياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة والعسكرة لا يزال متخندقا وراء فكرة التمييز بالمفاهيم التشويه . هذا ما كنا ندركه ونحن نتحدث بعلمية وموضوعية ولكن " رفة " الرئيس بوش تضعنا الآن في مفترق الطرق وتجعلنا نطرح سؤالا مريضا بالضبط مثل سؤاله : لماذا لا يحبنا الغرب والمقصود بـ "نا" هنا يمكن تفسيره بكل الطرق : المسلمون المسيحيون الشرقيون العرب الملونون شعوب العالم الثالث الجنوب الشرق .. إلخ

هنا يمكننا أن نشاهد مرة أخرى فيلم "القيامة الآن" تلك الرحلة العبقرية في ضمير أمريكا وفي ضمير النفس البشرية الأمريكية التي تميل نحو العنف والقوة و"كوكب القرود" الذي أكد فيه مساعد الرئيس الأمريكي للشئون العلمية (في الفيلم طبعا) أن الأمريكيين "يكرهون" القرود لأنهم يذكرونهم بماضيهم و"كاليجولا" الذي يمثل أعلى مراحل انحطاط البشر وهم في أوج عظمتهم أو نعيد قراءة رواية "رجل من حقل السبانخ" لصبري موسى التي صدرت

فى غفلة من الزمن والنقاد والناس عام ١٩٨٧ . هناك بالطبع أعمال كثيرة هامة حتى فى الفكر السياسى بالذات منذ سنوات الخمسينات والستينات ولكن الأدب والسينما لهما مفعول السحر وفى متناول الجميع .

لا يوجد اختلاف على أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية قد قلبت العالم رأسا على عقب . ومع ذلك فهى نتيجة لأحداث سابقة وليست مجرد سبب "خلق" لتوه وعلى العالم أن "يهندس" نفسه عليه . فقد طرحت فرنسا "مشروع مارشال جديد" لأفغانستان واستعداها للمشاركة المباشرة فى العمليات العسكرية الأمريكية وأبدت ألمانيا واليابان استعدادهما لإرسال قوات عسكرية إلى أفغانستان . أى إعادة النظر فى قرارات الأمم المتحدة بشأن حرمان ألمانيا واليابان من تشكيل جيوش بمواصفات معينة أو المشاركة فى حروب خارج أراضيهما بعد الحرب العالمية الثانية . وهذا ما يعنى على أرض الواقع إعادة النظر فى البنية الأساسية للأمم المتحدة وخاصة بعد أن حصل سكرتيرها العام كوفى أنان على جائزة نوبل . أما بريطانيا أو "الإمبراطورية الشمطاء" كما يحلو للبعض تسميتها فهى لا تزال تحلم باستعادة المجد القديم وهذا هو السبب فى اندفاعها بـ "حرقة" شديدة للعب دور ليس فقط العراب وإنما أيضا الشريك المبدئى فى العمليات العسكرية الجارية حاليا . وهنا يأتى دور روسيا التى سمحت لها هذه الأحداث باستعادة توازنها فى الساحة الدولية بعض أن ظن البعض أن نجمها قد أفل .

ولماذا روسيا أيضا !!

تحدثنا كثيرا عن روسيا من داخلها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وماذا يحدث فيها خلال السنوات العشر الأخيرة : وسائل الإعلام الروسية وسيطرة اللوبى الصهيونى الانهيار الثقافى والقيمى التوجهات المغايرة للسياسة الخارجية الروسية التعصب العرقى والعنصرية فى روسيا الجديدة .. إلخ وإذا كانت هذه النقاط تعتبر من المسلمات فى ما يسمى بـ "الغرب" فقد كانت جديدة بالنسبة للكثيرين حينما سمعوا أنها موجودة فى روسيا . ولكن روسيا مثل أية دولة أخرى تغير توجهاتها السياسية والإعلامية بتغير قياداتها ووفقا لمصالحها القومية من وجهة نظر هذه القيادة . وبالتالى لا يمكن الحكم هكذا ببساطة على ما يجرى الآن فى روسيا وعلاقته "بنا" أو الخروج بنتائج محددة ونهائية وسريعة .

لا أحد فى العالم يحبنا إذا استثنينا بعض الناس الذين عايشونا بصدق وعن قرب : أثناء الدراسة أو العمل أو الزيارات الخاطفة ومع ذلك فتلك العلاقات الحميمية والقريبة خاضعة أيضا للمد والجزر . ورغم إدراكى أن التعميم مسألة خاطئة إلا أن فترات التقارب بين الدول نتيجة لوجود تيار معين فى السلطة ليست إطلاقا مسوغا للحكم بأن الشعب الروسى يحب مثلا الشعب المصرى أو العكس . أو أن الفرنسيين يعشقون مثلا الجزائريين أو العكس أو أن الأمريكيين يحبون الأفغان أو العكس .. وهكذا

لذا فالحب والكراهية مسألة يمكن أن ندعها جانبا ونتحدث عن "الوجود" أو "الحضور" : هل هناك حضور معين للعرب فى الغرب أو فى روسيا ما تأثيره على الجانبين ما مدى حضور الغرب أو روسيا فى الشرق بشكل عام وفى المنطقة العربية على وجه التحديد وما تأثيره على الطرفين والحضور هنا على كل المستويات : الإعلام السياسة الاقتصاد الثقافة الفكر .. إلخ

فى الغرب الأمور واضحة . فهناك استثمارات عربية فى مجالات مختلفة تصل إلى ١٢٠٠ مليار دولار . ولكن ما هو حجم عائداتها !! الاستثمارات العربية فى الإعلام الغربى ما بين ٨٠٠ مليون و٢ مليار دولار ! فما حجم عائداتها ! أما الحضور الغربى على كل المستويات وبين جميع الشرائح فى بلاد العرب فحدث ولا حرج . ولكن ماذا

بشأن روسيا ليس للعرب أي حضور في روسيا سوى الصورة السلبية التي تراكمت لدى الغرب طوال القرون السابقة وكانت السنوات العشر الماضية هي فوهة "القمقم" الذي انطلقت منه وأصبحت من البديهيات في بلاد الروس . فالثقافة العربية في روسيا متوقفة عند القرن الرابع الهجري وإنجازاته "الحضارية" . وفي عصر الدولة السوفيتية تحركت الأمور قليلا فترجموا بعض الأعمال الأدبية العربية وفقا لـ "اللائحة" وانتشرت بين المتخصصين والمستعربين وبعض الدارسين فقط وانتهى الأمر . لن نتحدث عن الفكر والسياسة والاقتصاد اللهم باستثناء بعض أعمال سمير أمين التي ترجمت إلى الروسية عن الفرنسية أو بعض الاستشهادات بأعمال إيهاب حسن . أما الفنون العربية فالروس يتعاملون معها كـ "فلكلور" مرتبط أساسا بالسياحة والبحر والصحرا ، والإبل والاسترخاء . ولعل السنوات العشر الماضية تشهد بأن مهرجانات السينما والمسرح الروسية لم تستقبل عملا عربيا . وبهذه المناسبة استضافت موسكو هذا العام المهرجان الثالث للمسرح العالمي (الأول كان في اليونان والثاني كان في اليابان) وأرسلت اللجنة التنظيمية رسالة رسمية إلى المخرج أحمد إسماعيل تدعوه للمشاركة . وفجأة تغيرت اللجنة التي كان بها بعض المهتمين بالمسرح العربي وجاءت أخرى ليقتصر المهرجان على المسرح الأوروبي والأمريكي . وفي نفس تلك الفترة قامت مصر بعمل "أسبوع السينما المصرية في موسكو" والذي اتضح أنه كان أسبوعا سريا فلم يعرف به أحد حتى الجمهور الروسي إلا بعد انتهائه بشهرين .

الإعلام العربي في روسيا غير موجود على الإطلاق : على مستوى المؤسسات والاستثمارات وبالتالي التأثير . هناك بعض المحاولات العقيمة للسفارات والمكاتب الثقافية والإعلامية لترجمة بعض النشرات السياحية والإعلامية أو المجلات التافهة التي لا تخرج عن نطاق "العلاقات العربية الروسية" وتصويرها بـ "السمنة على العسل" أو توجيه بعض العتاب الخفيف لما يجري في وسائل الإعلام الروسية ضد العرب . ولعل آخر الكوارث التي اكتشفها الباحثون العرب بأنفسهم هي مؤتمر عقدته "الجامعة الروسية لصداقة الشعوب" (باتريس لومومبا سابقا) في الفترة من ١ ـ ١٠ مايو ٢٠٠١ بالاشتراك مع جامعة حلوان بعنوان " الشرق والغرب في ظل المتغيرات العالمية الجديدة" وحضرة مجموعة من خيرة الباحثين المصريين والتونسيين وأساتذة الجامعة (زبيدة عطا وفريدة النقاش ومنى طلبة وسهام نصار ونجاح مدبولي ومصطفى لطيفي حسن طلب وصلاح السروي وأنور مغيث ومجدي عبدالحافظ وعمرو سلامة) وغاب عنه مجموعة أخرى من الباحثين السودانيين والجزائريين واللبنانيين لأسباب غير معروفة . وبدون مبالغة فقد أثبت الباحثون المصريون أنهم قادرون على استيعاب وتحليل المتغيرات العالمية الجديدة بينما اتضح أن الباحثين الروس في حالة تخبط (وإن كنا نرجع أسبابها إلأى حسن النية وليس إلى التعمد) حيث تعودوا في الفترة الأخيرة على نمط معين من الطرح للقضايا العربية والإسلامية والعلاقات الروسية ـ العربية الإسلامية وتصوروا أن ذلك سيمر أيضا في هذا المؤتمر فاكتشفوا أنهم كانوا على خطأ كبير .

في هذا المؤتمر تبنى الروس مشروع "الأمة الإسلامية" مزايدين بذلك على كل التيارات الأصولية من المغرب حتى أندونسيا وماليزيا . بل ووضعوا هذا المشروع في مواجهة المشروع الغربي الذي حددوه بالعولمة في نفس الوقت الذي يرحبون هم فيه ـ وبدرجات متفاوتة ـ بهذه العولمة . وأكدت إحدى الباحثات الروسيات على ضرورة وأهمية الحوار مع "النخبة" في العالم العربي . وعندما سألها كاتب هذه السطور عما تقصده بـ "النخبة" ردت بفصاحة ووضوح : "النخبة السياسية المتنفذة صاحبة القرار" . وهنا يبرز تساؤل غريب : لماذا يحرص هكذا الباحثون الروس على وجود أمة إسلامية ولماذا يرون أن هذه الأمة التي يفترضونها يجب أن تقف ضد العولمة والمشروعات الغربية وهل تقصد الباحثة حوار النخبة الثقافية الروسية مع النخبة السياسية العربية أم حوار النخبتين الثقافيتين أم السياسيتين وامتد الحديث

إلى اتهام الباحثين العرب بعدم معرفتهم بالمصطلحات الجديدة في العالم . وكان الرد في غاية القسوة والعلمية والموضوعية على تلك المغالطات مما دفع الزملاء الروس إلى مراجعة أنفسهم (أو هكذا نتمنى) والتفكير جديا في العودة إلى البحث العلمي الجاد والابتعاد عن الفاحتة والتملق العلمي والنظر بجدية إلى الأمور .

القرب ليس مثل الحضور

لماذا لا يحبنا الغرب ! سؤال تأخر كثيرا ولكن الإجابة عليه واضحة تماما . نحن لسنا موجودين على خريطة المواطن الروسي فهو يقرأ عابرا عنا في الصحف أو يرانا على شاشة التلفزيون . ولكن عندما يأتي الاحتكاك المباشر نكتشف أن هناك دائما فكرة مسبقة عن العرب خاصة وأنهم لم يسعوا أبدا إلى تغييرها بآليات الزمن الجديد وإنما اعتمدوا ولا يزالوا يعتمدون على "المجد الغابر" و"الحضارة" التي علمت الدنيا من مشرقها إلى مغربها ولكن ماذا عن الـ " هنا " و" الآن " ! ولذلك يثني المواطن الروسي البسيط على قوة ملاحظته عندما يدرك أنك عربي ثم يبدأ في التعامل معك كمسلم (أي يختصرك في ذلك فقط) ويندهش كثيرا عندما يعرف أن هناك مسيحيين بين العرب وليس هناك عداء بينهما .. وبدون مبالغة أيضا فقد جرى مثل هذا الحديث الذي سأل المواطن الروسي في نهايته :: وهل هؤلاء المسيحيون مسلمين أيضا ثم استدرك سريعا وسأل :: أقصد هل هم عرب ثم استدرك مرة أخرى بالصمت ..

بعد ١١ سبتمبر أصبحت الخريطة أكثر سوداوية وإعتاما . فالقيادة السياسية في روسيا في واد والمواطن العادي في واد ثان ووسائل الإعلام في واد ثالث .. القيادة السياسية مشغولة بالشيشان وأفغانستان والمناورات السياسية من أجل منع الولايات المتحدة من الدخول إلى وسط آسيا وتقليص الوجود الروسي هناك والاقتراب من ثروات بحر قزوين وحصار روسيا من جبهة الجنوب تمهيدا لتفكيكها هي الأخرى بعد تفكيك الاتحاد السوفيتي .. فهي تعلن تارة أنها تساند الولايات المتحدة ولكنها تعود لتؤكد أن العمليات العسكرية يجب أن تنتهي بسرعة ولا ينبغي أن تطال المدنيين .. ثم تعلن عن مساندة التحالف الشمالي بالسلاح والمعدات والأموال والخبراء وفي الوقت نفسه ترى أن المباحثات السلمية هي المخرج الوحيد من الأزمة بينما العمليات العسكرية مستمرة في الشيشان .. أما المواطن العادي بعد أن كان يكره القوقازيين (شيشان جورجيين داغستانيين أنجوش) وسكان وسط آسيا (طاجيك أوزبيك أذربيجان تركمان) فقد أصبح الآن يكره كل الملونين الذين يرتبطون في ذهنه - بعد ١١ سبتمبر - بالتخلف "الحضاري" والعداء للحضارة "البيضاء" .. وهنا يأتي دور القوميين الروس والفاشيين الجدد في روسيا .. فهم يتسيدون الشارع الآن ويقتلون السود والملونين وفقا للصورة الذهنية المترسخة في أذهانهم بعد ١١ سبتمبر على الرغم من أن أغلب القتلى من بين الأرمن والطاجيك والهنود وأيضا الروس من الآباء أو الأمهات غير روس ولكن ألوان بشرتهم وألوان عيونهم وشعرهم تجني عليهم .. أما وسائل الإعلام في روسيا فحدث ولا حرج ويكفي الإشارة إلى أنها ليست فقط مملوكة أو موالية للوبي الصهيوني وإنما ٩٠٪ منها تتبنى وجهات النظر الإسرائيلية بل وتتفوق عليها في أحيان كثيرة .. ونحن نعرف رأي إسرائيل (القيادة السياسية ووسائل الإعلام والمواطن العادي وخاصة اليهود الروس في إسرائيل) في أحداث ١١ سبتمبر والعمليات العسكرية الأمريكية في أفغانستان وفي العرب بشكل عام ..

البكاء على الحليب المسكوب

روسيا في كل الأحوال وفي كل حقبها التاريخية تحت أي نظام دولة تسعى إلى تحقيق مصالحها بصرف النظر عن الاختلاف أو الاتفاق مع ذلك .. روسيا ساعدت البيزنطيين في ضرب العرب أثناء احتلالهم لأرمينيا في القرن الرابع

الهجرى . روسيا تحالفت مع بريطانيا وفرنسا وتركيا فى "تهشيم" مشروع محمد علي والقضاء عليه في مهده . الاتحاد السوفيتى اعترف بإسرائيل فى الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ . روسيا الجديدة أرسلت بمليون و ٢٠٠ ألف مواطن روسى إلى إسرائيل منهم ٦٠ ألف جندى يقتلون الفلسطينيين كل يوم وهم الأقسى فى استخدام العنف والسلاح بشهادة المراسلين الصحفيين الغربيين . أغلب قادة المنظمات الإرهابية الصهيونية كانوا من الاتحاد السوفيتي والذين أصبحوا فيما بعد قادة إسرائيل والموجودون حاليا منهم هم أكثر المتشددين والعنصريين ضد العرب عموما والشعب الفلسطينى على وجه الخصوص . روسيا تدافع بشدة عن مواطنيها اليهود فى إسرائيل وتدين أية عملية فدائية ضد الاحتلال الإسرائيلى فى الوقت الذى تخلى فيه أولئك اليهود الروس عن جنسيتهم الروسية بينما تغض البصر تماما الروسيات المتزوجات من فلسطينيين واللاتى لا يزلن يحتفظن بالجنسية الروسية ويعشن مع أبنائهن فى الأراضى الفلسطينية المحتلة . ومع ذلك فروسيا وقيادتها تتعامل مع الأمور بصورة برجماتية تماما ترتبط بالمصالح . فما موقفنا نحن ! أين الإعلام المصرى والعربى وبالذات فى الخارج فى روسيا هل هناك مصالح ما لروسيا فى منطقتنا لكى تخشى عليها وتتعامل معنا نحن أيضا ببرجماتية نستطيع أن نستوعبها ونوظفها لمصالحنا ماذا لدينا من مصالح فى روسيا لكى نخشى عليه وتخشى روسيا أيضا عليه !

لقد تجاهلنا طوال عشرات السنين الماضية الأسس التى بنى عليها العالم المعاصر : العلوم والتكنولوجيا أو حتى الإسهام النظرى فيها ترسيخ أسس التعددية والديمقراطية والدولة المدنية تطوير العلاقات الاجتماعية والمؤسسات الثقافية والفكرية وإشاعة الحرية فيها وضع الخطط طويلة المدى بصرف النظر عن الأنظمة السياسية المتوالية (وعموما فقد توالت ثلاثة أنظمة فقط طوال نصف قرن!) أما على مستوى المنطقة العربية فحدث ولا حرج . ففى الوقت الذى يحدث فيه تكامل بين الدول الأوروبية والعديد من الدول الأسيوية لا نزال نفكر "نحن" فى "المسائل" . فماذا يمكن أن يحدث إذا استمرت حركتنا على هذا الإيقاع ! هناك مثل روسى وعنوان لأحد النصوص الدرامية الروسية الرائعة "التأخر خير من عدم المجىء" وهناك جملة تاريخية قالها رئيس الوزراء الروسى الأسبق فيكتور تشيرنوميردين بعد الأزمة المالية التى ألمت بروسيا فى ١٧ أغسطس ١٩٩٨ وكادت تعلن إفلاسها على أثرها "كنا نريد الأفضل ولكن حدث كما يحدث دائما" ولدينا مثل عربى رائع "لن ينفع البكاء على الحليب المسكوب" ! إذا كنا نكره الغرب (على حد رأى بوش) أو إذا كان الغرب يكرهنا (على حد رأى البعض) . رغم أن المسألة ليست على هذا النحو الساذج إطلاقا . فمعنى ذلك أن هناك ما يمكن أن نستثمره وهو بالذات ما يمكن أن ينطبق عليه المثل العربى السابق إذا لم ننتبه بعد عدة سنوات .

الجزء الثانى

الثقافة الروسية انهيار أم تحول؟

الشارع الثقافى الروسى بعد ١٠ سنوات من التحلل

منذ ١٠ سنوات بالضبط - فى شتاء ١٩٩١ - و"بجرة قلم" تلاشت إمبراطورية "الاتحاد السوفيتى" الضخمة من على وجه الأرض . كانت هذه الإمبراطورية مكونة من ١٥ جمهورية بلغ عدد سكانها فى نهاية الثمانينات من القرن العشرين حوالى ٣٠٠ مليون نسمة . تفرقت السبل بكل جمهورية وبقيت روسيا السوفيتية التى تحولت إلى "روسيا الاتحادية" وبـ "جرة قلم" أيضا ليصبح عدد سكانها ما يقرب من ١٤٠ مليون نسمة . وبعيدا عن السياسة وأسباب الانهيار أو التحولات دخل الشارع الثقافى الروسى مجموعة هامة من المنعطفات أدت إلى نتائج "مدهشة" فى الشارع الثقافى الروسى على مستوى الطباعة والنشر والقراءة والترجمة من وإلى الروسية .

بلوغ الذروة

فى النصف الثانى من الثمانينات وخلال السنوات الأربع التى أطلق فيها ميخائيل جورباتشوف مصطلحاته السياسية " العلانية " و"إعادة البناء" وصلت الحالة الثقافية بجميع عناصرها (الطباعة والنشر والقراءة والترجمة .. إلخ) إلى أعلى معدلاتها فى تاريخ الاتحاد السوفيتى . ولم يكن ذلك نتيجة لحالة ثقافية كمية أو نوعية وإنما كان نتيجة لانعطافة هامة تصدرها مصطلح "الأدب السرى" و"المطبوعات السرية" وتمثلت فى الطلب المنقطع النظير على الصحف والمجلات التى تضمنت مواد سياسية وفنية مثيرة للرأى العام من ناحية ومن ناحية أخرى بدأت المطابع ودور النشر فى إعادة طباعة الأعمال القديمة التى كانت ممنوعة لبعض الكتاب مثل ميخائيل بولجاكوف وألكسندر سولجينيتسين وبوريس باسترناك وأوسيب مندلشتام وسيرجى يسنن وفلاديمير مايكوفسكى وآنا أخماتوفا ومارينا تسفتايفا وكانت مؤلفات جوركى وشولوخوف وسيمونوف وحمزاتوف وإيتماتوف لا تزال فى الأسواق . بل ووصلت مطبوعات أكاديمية العلوم الروسية فى نهاية الثمانينات إلى ما يزيد عن ٢٥٠٠ عنوان فى السنة . وكانت الترجمة من الروسية إلى جميع لغات العالم فى أعلى مستوياتها حيث كانت تتم فى الاتحاد السوفيتى بـ حوالى ١٤٠ لغة . ناهيك عن الترجمة إلى الروسية وإلى لغات القوميات السوفيتية الأخرى والتى كانت تجرى على نفس المستوى .

بداية الهبوط الحاد

مع حلول عام ١٩٩٢ هبط معدل إصدارات أكاديمية العلوم الروسية إلى ٦٠٠ - ٨٠٠ عنوان فى السنة . وارتفعت أسعار الكتب بشكل خيالى رغم قلة المطبوعات . فى هذا الإطار كتبت إحدى المحللات الروسيات بوكالة أنباء "ريا نوفستى" أولجا سوبوليفسكايا منذ فترة وجيزة تقول :"خلال العشر سنوات الماضية أقفرت أرفف مخازن بيع الكتب إذ أن الأزمة الاقتصادية أرغمت الدولة على تجاهل دعم إصدار الكتب . وأصبح الروس يقرأون بشكل أقل إذ انكبت عليهم كتلة من المشاكل وأصبح شراء الكتب مسألة تتعدى إمكانيات العديد منهم . وطغت القصص البوليسية المحلية والأجنبية . فالناس فى عجلتهم للابتعاد عن الواقع الصعب اتجهوا بكل سرور نحو الواقع الخيالى ودخلت إلى الموضة القصص الغرامية المستوردة ذات النهايات الجميلة والأبطال المحظوظين والجميلين الذين يجسدون الأحلام الأبدية المليئة بالحب والرخاء ".

فى هذا الإطار وبعد أن كان الشعب السوفيتى رقم (١) فى العالم من حيث القراءة أصبح كل روسى من ٣ لا يقرأ الكتب على الإطلاق ووصل عدد القراء الروس إلى ٣٢٪ بينما كشفت الإحصائيات عن أن ٣٩٪ من الأمريكيين يقرأون بشكل شبه ثابت . وخلال الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٨ هبط عدد المكتبات فى روسيا بمقدار

١٠٤٠٠ مكتبة . والمكتبات بالنسبة للروس هي شريان الحياة الثقافية . فهم لم يتعودوا على شراء الكتب رغم أسعارها الرخيصة في السابق ولكنهم كانوا يفضلون الجلوس فى المكتبات أو الاستعارة فى المقام الأول . بعد ذلك تأتى عملية الشراء فى حالة الرغبة فى إنشاء مكتبة خاصة . بل وهبط معدل إصدار الكتب خلال السنوات العشر الأخيرة إلى ٤ مرات والصحف إلى ٣ر٦ مرة . وفي عام ٢٠٠٠ كشفت إحصائية رسمية عن هبوط إنتاج كتب الأطفال بنسبة ٢٪ ولم يصدر منها إلا ٣٠٥ عنوان فقط فى ٢٠٠ ألف نسخة وهو ما أثار الرأى العام الروسى بشكل لم يحدث خلال السنوات العشر الماضية . فالطفل فى الحقبة السوفيتية كان دوما على رأس القائمة . الكتب المجلات لعب الأطفال الملابس الحدائق الخاصة الملاهى الخاصة المسارح ودور السينما المجانية المواصلات المجانية .. إلخ

كارثة دور النشر والترجمة

فى البداية توقفت دور النشر . وبعد إجراء بعض التعديلات بإغلاق بعضها أو تحويل البعض الآخر إلى بوتيكات ومحلات أحذية وملابس داخلية جاء الدور على دار "رادوجا" لتتلاشى تماما من الوجود وتتحول دار"التقدم" إلى محل محترم من ٣ طوابق : الأول لبيع آلات وأدوات التصوير اليابانية الثانى لبيع الخضروات والمعلبات العربية والهندية الثالث لبيع الملابس من كل صنف وجنس . بذلك تلاشت ليس فقط الكتب الأجنبية المترجمة إلى الروسية بل وأيضا الروسية المترجمة إلى اللغات الأخرى . وكان على رأس القائمة الترجمات إلى العربية . وما يوجد الآن من كتب فى الأسواق هو البقية الباقية من الزمن الماضى . وفجأة ظهر جيش من المتقاعدين الجدد : المترجمين سواء من العرب أو الروس وتبعه ظهور جيش آخر وهو جيش المستعربين وباحثى علم الاستشراق .

الآن توقفت حركة الترجمة من العربية إلى الروسية . وأصبح جيش المترجمين الروس يعيش على النشرات الإعلامية التى تكلفه بها السفارات العربية ومكاتبها الإعلامية والثقافية وهى نشرات متواضعة ليس لها أية علاقة بالثقافة بمعناها الواسع والعميق مجرد معلومات عن كل دولة عربية كما يراها أصحابها وكما يحلمون بأن يراها الآخرين : سياحة إنجازات حديثة فى استخدام الكمبيوتر والملاهي والمطاعم طهى ومأكولات شعبية فواكه وخضروات عظمة العرب فى القرن الرابع الهجرى العلاقات العربية ـ الروسية فى أبهى صورها مثل "السمنة على العسل" فضل الحضارة العربية الإسلامية فى صدر الإسلام على أوروبا والعالم كله .. إلخ

أما باحثو علم الاستشراق الروس فهم لا يزالون غارقين فى الأندلس والحضارة العباسية والطرق الصوفية والإسلام السياسى المرتبط بالشعارات السياسية اكثر من ارتباطه بظروف وعوامل أكثر علمية وموضوعية والترويج لإمكانية ظهور أمة إسلامية من المغرب إلى أندونيسيا وماليزيا والصين ومن ألبانيا والبوسنة والهرسك إلى اليمن ونيجيريا وجنوب أفريقيا .

لقد أدى انهيار حركة الطباعة والنشر والترجمة فى روسيا وبالذات فيما يخص اللغة العربية إلى حالة من التردى وسوء الفهم والترويج لمجموعة من الأفكار الخطيرة دفعت بكلا الجيشين (المترجمين من الجانبين والمستشرقين الروس) إلى النقيض البعض من الجيش الأول جلس فى بيته وسلم أمره إلى الله والبعض الآخر يتسول "طلبيات" من السفارات العربية لإصدار نشرات ومجلات تافهة تكرس لمرجعيات مزيفة وقديمة مثل العالم ولا أحد يعرف ماذا يحدث فى العالم العربى من تطورات فى المجالات الأدبية والثقافية والفنية . والبعض من الجيش الثانى يعمل بنظام "المقاولات" ولديه القدرة على تأليف كتاب فى ليلة واحدة وحسب الطلب : فمراجع صدر الإسلام موجودة والكتب

القديمة عن القرن الرابع الهجرى متوفرة : السنة الشيعة المعتزلة المتصوفة . والبعض الآخر من هذا الجيش أصبح متخصصا فى إقامة المؤتمرات واللقاءات بين الباحثين العرب والروس والموضوع واحد "العلاقات العربية - الروسية" أو"العالم الإسلامى وروسيا" أو"العلاقات العربية الإسلامية - الروسية فى ظل العولمة" لنكتشف فى النهاية أن الباحثين الروس فى علم الاستشراق لا يعرفون عن العالم العربى (فى العشرين سنة الأخيرة) إلا ما ينشر فى الصحف اليومية أو ما تنشره الصحف الروسية عن الدول العربية مأخوذا عن وكالات الأنباء والمصادر الغربية .

مهرجان موسكو السينمائي الثالث والعشرين

قررت اللجنة التنظيمية لمهرجان موسكو السينمائي الدولي الثالث والعشرين الذي جرى في الفترة من ٢١ - ٣٠ يونيو ٢٠٠١ أن يقام بدون مشاركة الأفلام الروسية في المسابقة الرئيسية مما أثار دهشة الأوساط الثقافية والفنية في روسيا .

مهرجان موسكو السينمائي الدولي الذي كان قبل ١٠ سنوات فقط ينافس مسابقة الأوسكار الأمريكية ومهرجان كان وبرلين وفينيسيا وكان يجمع في مسابقاته مجموعات هامة من الأفلام الأوروبية والعربية والسوفيتية على مستو عال من الحرفية والفكر والإبداع أصبح الآن مجرد " مهرجان " فقط . وعلى الرغم من أنه كان يقام في السابق بالتبادل مع طشقند بشكل سنوي دوري فقد استطاع أن يحتل موقعا هاما بين مهرجانات السينما العالمية . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي تعثر المهرجان بشكل ملحوظ ونظرا لانشغال الروس بالسياسة والانفتاح والمافيا وتأسيس البنوك الوهمية والمهرجانات الوهمية قررت اللجنة التنظيمية للمهرجان إقامته كل عامين - كما في السابق ولكن بدون طشقند التي أصبحت عاصمة لدولة أجنبية (جديدة!) هي أوزبكستان . وبعد ذلك أصبح يقام سنويا منذ عام ١٩٩٩ .

خلال السنوات العشر المنصرمة تراجع المهرجان ليتحول إلى فترة استجمام للمخرجين والممثلين الأوروبيين متواضعي الموهبة وساحة لتجريب الأعمال الفنية السينمائية ضعيفة المستوى والتي فشلت في بلادها وأمام جمهورها .

الجدير بالذكر أن مهرجان موسكو السينمائي الدولي قد تم توجيهه نحو الغرب تماما تماشيا مع السياسة الروسية في مطلع التسعينات وهو الأمر الذي أدى إلى استبعاد سينما العالم الثالث واقتصار المهرجان على الأفلام الأوروبية الضعيفة والتافهة مما جعل أغلب المخرجين الجادين يتراجعون عن الاشتراك فيه .

في هذا العام تنافس ١٧ فيلما أجنبيا لا يوجد بينها فيلما روسيا واحدا . هكذا قررت اللجنة التنظيمية للمهرجان ومديره الممثل والمخرج نيكيتا ميخائيلكوف . ومثل كل المهرجانات فقد كانت هناك جوائز كثيرة : جائزة أفضل فيلم وجائزة لجنة التحكيم الخاصة وجائزة أفضل مخرج وجائزة أفضل دور رجالي وأفضل دور " حريمي " وجائزة خاصة للإسهام في فن السينما العالمية . وهنا طبعا لا يمكن الحديث عن السينما العربية لأنها غير موجودة في مهرجانات موسكو منذ مطلع التسعينات ولا ندري ما السبب : عدم دعوة الجانب الروسي أم إحجام عربي عام عن المشاركة !

وعلى الرغم من شروط اللجنة التنظيمية بعدم عرض الأفلام التي تم عرضها من قبل سواء في المهرجانات أو دور العرض السينمائية فقد " فلت " من هذه الشروط فيلم روسي بعنوان "أغسطس ٤٤" إلا أن اللجنة رفضت مشاركته لأنه وزع عن طريق الفيديو . في الوقت الذي تمت فيه الموافقة على فيلم "المتعصب" أو "المهووس" والذي كان قد عرض من قبل في مهرجان السينما "غير المنحازة !" وحصل على الجائزة الأولى فيها . بل وحصل على الجائزة الأولى أيضا في مهرجان موسكو ! (أ لم يكن مدير إنتاج الفيلم من أعضاء لجنة التحكيم في مهرجان موسكو !) .

الفيلم الذي حصل على الجائزة الأولى أحد أهم الأفلام التي توصل لـ " عبقرية ! " الشخصية اليهودية الصهيونية وتمنحها "مجانا!" صكوك الغفران لكل ما ارتكبته ولا تزال ترتكبه في حق البشرية . أما فيلم " أغسطس ٤٤" الذي منع من الاشتراك في المهرجان فهو من طراز آخر ويلعب في منطقة أخرى تماما . أما المفاجأة الأخطر في هذا المهرجان فكانت حضور ليني ريفينتشال التي وصفتها وسائل الإعلام " الروسية ! " بأنها أحد أعظم المخرجين في تاريخ السينما العالمية وأكثرهم عبقرية . فمن هي ليني ريفينشتال الألمانية التي ولدت في ٢ أغسطس ١٩٠٢ ! أ ليست هي أعظم

من كرس ورسخ للنازية فى ألمانيا ومحبوبة هتلر ومرآة الفاشية التى تمثل الوجه الآخر للصهيونية !!

فى هذا العام أيضا اخترعت اللجنة التنظيمية لمهرجان موسكو السينمائى الثالث والعشرين برامج جديدة على هامش المسابقة الرئيسية . البرنامج الأول تحت عنوان (٨ر٥) والذى تعرض إلى أهم النزعات والتوجهات السينمائية الجديدة فى العالم . والثانى تحت عنوان (الروائع الوطنية) وضم الأفلام التى لاقت نجاحا كبيرا فى بلادها . والبرنامج الثالث بعنوان (أتيليه) وتضمن مجموعة من عروض الفيديو لأكبر المخرجين السينمائيين المعاصرين فى العالم مثل أندريه تاركوفسكى وإنجمار برجمان وراينر فيرنر وآخرين . كل ذلك إضافة إلى عرض مجموعة من الأفلام القديمة على رأسها فيلم بعنوان (١٠٠) احتفالا باليوبيل المئوى لبعض المخرجين السينمائيين الروس من أمثال مارك دونسكى وإيفان بيرييف وميخائيل رووم . هذا ومن أجل التنوع الشكلى فقط شاركت مجموعة هائلة من الأفلام السويسرية المعاصرة والكورية الشمالية والجنوبية الجديدة على هامش المسابقة الرئيسية للمهرجان .

أما لجنة التحكيم فقد ظلت سرية حتى اللحظات الأولى من افتتاح المهرجان بالضبط مثل أسماء الأفلام المشاركة . حيث أن اللجنة التنظيمية لمهرجان موسكو السينمائى تتعمد فى السنوات الأخيرة إخفاء جميع تفاصيل المهرجان والإعلان عنها فى اللحظات الأخيرة تفاديا لهجوم النقاد والأوساط الثقافية والفنية الروسية التى بدأت الإحجام عن المشاركة فى المهرجان نظرا لتوجهاته الجديدة التى جعلته يتراجع إلى صفوف المهرجانات الإقليمية البسيطة .

ورغم المفاجآت الصبيانية التى تمارسها اللجنة التنظيمية للمهرجان وعلى رأسها إخفاء أسماء الضيوف وأعضاء لجنة التحكيم وبعض التفاصيل الأخرى التى تهم وسائل الإعلام والنقاد فقد جاءت لجنة التحكيم من الأسماء المتواضعة كعادة المهرجان فى السنوات العشر الأخيرة مثل المخرجة والممثلة والكاتبة الألمانية مارجريت فون تروت والمخرج والممثل الصينى تشان فان والممثل الأوكرانى بوجدان ستوبكا ومدير مهرجان برلين السينمائى موريس دى هادلن والممثلة الروسية من أصل ليتوانى إينجبور دايكونايتى .

ميخائيلكوف يشارك سبيلبيرج فى الجزء الثانى من فيلم الأوسكار

أعلن المخرج الروسى نيكيتا ميخائيلكوف أنه سيبدأ فى تصوير المشاهد الأولى من الجزء الثانى بعنوان "سيكويل" . وسوف تدور أحداث الفيلم الجديد حول الحرب العالمية الثانية التى يسميها الروس "الحرب الوطنية العظمى" . وسوف يتتبع المخرج مسار حياة الطفلة " ناديا " ابنة الضابط " سيرجى كوتوف " والتى ستعمل أثناء الحرب الوطنية العظمى ممرضة .

فى هذه المرة قرر ميخائيلكوف العمل مع المخرج الأمريكى العالمى ستيفن سبيلبيرج الذى سيتكفل بمشاهد الحرب الصعبة .

فى الجزء الأول بعنوان " المتعبون من الشمس " والذى حاز على جائزة الأوسكار فى " كان " قام ميخائيلكوف بدور البطل " سيرجى كوتوف " الذى اعتقلته السلطات الستالينية فى نهاية الفيلم . أما "ناديجدا" ابنته فى الواقع فقد لعبت دور " ناديا " وكانت أيضا ابنته فى الفيلم والتى ستكون بطلة أحداث الجزء الثانى .

خلال السنوات الخمس الماضية لم يخرج ميخائيلكوف سوى فيلما واحدا بعنوان "حلاق سيبيريا" تدور أحداثه حول تمجيد القيصر نيكولاى الثانى الذى أطاحت به الثورة البلشفية . وميخائيلكوف مغرم باستعارة أسماء أفلامه من الموضوعات الشعبية والعالمية . فاسم "المتعبون من الشمس" مأخوذ من كلمات أغنية شعبية شهيرة كان الروس يغنونها

في سنوات العشرينات والثلاثينات . أما "حلاق سيبيريا" فمثل "حلاق سيفيليا" لموتسارت و"حلاق بغداد" و"حلاق أشبيلية" .. إلخ

بعد حصوله على جائزة الأوسكار أصبح نيكيتا سيرجيفيتش ميخائيلكوف "أشهر مخرج سينمائي روسي!" بعد سيرجي إيزنشتاين الغني عن التعريف وأطلق عليه الإعلام الروسي الجديد لقب " أبو ما بعد الحداثة السوفيتية! " . ومنذ حصوله على الجائزة دخل معترك السياسة والسياسة الثقافية مثل الكثيرين خلال السنوات العشر الماضية في روسيا . ولكنه حاول خلال النصف الثاني من تسعينات القرن العشرين أن يؤكد جدارته بالأوسكار ونفي التهم الكثيرة الموجهة إليه عن هذا الفيلم بالتحديد فأخرج فيلم " حلاق سيبيريا " الذي جاء في غاية السوء فنا وموضوعا .

لقد رشح ميخائيلكوف لهذه الجائزة مرتين ولم يحصل عليها . وبين الترشيح للجائزة والحصول عليها انتشرت الإشاعات عن سبب حصوله عليها في المرة الثالثة . ومن المعروف أن نيكيتا ميخائيلكوف هو ابن سيرجي ميخائيلكوف كاتب الأطفال الشهير وكاتب كلمات النشيد الوطني للاتحاد السوفيتي وأحد أهم أفراد حاشية يوسف ستالين .

فضل نيكيتا الاحتفاظ بلقب عائلة والده " ميخائيلكوف " بينما أخذ شقيقه أندريه كونشالوفسكي لقب عائلة والدته " كونشالوفسكايا " وهاجر إلى أمريكا منذ زمن بعيد ليصبح أحد المخرجين والمنظرين السينمائيين الغربيين . وظل نيكيتا ملتصقا بروسيا السوفيتية ولم يبد أبدا معارضا لها أو مقاوما للسلطة السوفيتية في أي وقت . وفجأة خرج بفيلم "المتعبون من الشمس" ليفوز بالأوسكار وهو لم يخرج بعد من غرفة المونتاج مما أثار العديد من الخلافات التي لا تزال قائمة حول سبب حصوله على الجائزة من ناحية وحول المستوى الفني والفكري المتواضع للفيلم من ناحية أخرى .

من أهم أفلام نيكيتا ميخائيلكوف الروائية " يوم هادئ في نهاية الحرب ـ ١٩٧١ " و"قريب وسط الغرباء وغريب وسط الأقرباء ـ ١٩٧٤ " عن رواية " الذهب الأحمر " للكاتب إدوارد فولودارسكي و"عبيد الحب ـ ١٩٧٦ " و"مسرحية غير منتهية على بيانو ميكانيكي ـ ١٩٧٧ " عن أحد مؤلفات أنطون تشيخوف و"خمس أمسيات ـ ١٩٧٩ " عن نص مسرحي للكاتب ألكسندر فولودين و" عدة أيام من حياة إليا إليتش أبلوموف ـ ١٩٨٠ " عن رواية " أبلوموف " للكاتب الروسي إيفان جونتشاروف و" قريب ـ ١٩٨٢ " و" بدون شهود ـ ١٩٨٣ " عن نص مسرحي بعنوان " بدون شهود للكاتب سيرجي بروكوفييف و"العيون السودا ء ـ ١٩٨٩ " عن أحد مؤلفات تشيخوف و"أوتوستوب ـ ١٩٩٠ " و" أورجا ـ حدود الحب ـ ١٩٩٢ " (أورجا الاسم القديم لعاصمة منغوليا الحالية) و" المتعبون من الشمس ـ ١٩٩٤ " عن مجموعة قصص للكاتب أركادي جيدار و" حلاق سيبيريا ـ ١٩٩٨ " .

نيكيتا ميخائيلكوف على الرغم من اختلاف النقاد الروس حول مستواه كمخرج جيد لا يستطيع أي ناقد حتى وإن كان غير روسي أن يشك لحظة في مستواه كممثل عبقري (في الحياة وفي السينما على حد سواء) ويؤكد ذلك أدواره الرائعة في المسرحيات والأفلام المبنية على الأعمال الكلاسيكية لديستويفسكي وتورجينيف وأستروفسكي وبوشكين وكذلك أدواره البعيدة عن الساحة الفنية وخشبات المسارح عندما ساند بوريس يلتسين في حملته الانتخابية عام ١٩٩٦ موظفا كل إمكانياته لخداع الفلاحين الروس والبسطاء الذين كشفت كاميرات التلفزيون آنذاك عن عدم تصديقهم بأن نيكيتا ميخائيلكوف بينهم ويمكنهم لمسه والحديث معه (معنى ذلك أن يلتسين شخصية رائعة بالضبط مثل ممثله ميخائيلكوف) . إن نيكيتا سيرجيفيتش ميخائيلكوف يحيط نفسه بهالة كاذبة مستخدما فيها علاقاته الوثيقة بكل السلطات المتوالية على روسيا بداية من السلطة السوفيتية إلى بوتين شخصيا (الذي التقى بضيوف

مهرجان ٢٠٠١ فى منزل ميخائيلكوف الصيفى فى ضواحى موسكو و"دردش" قليلا مع جاك نيكلسون لدرجة أن الأخير ـ نيكلسون ـ دعاه للقيام ببطولة فيلم معه) .

خلاصة القول الروس يحبون استخدام كلمة " إنتلجينسيا " . وأحيانا يسندها البعض إلى كلمة "المأجورة" . ومن الواضح أن التراث الأدبى والفنى والثقافى بشكل عام فى روسيا ومنذ بداية القرن التاسع عشر كانت لديه القدرة الفذة على اكتشاف الميول "المنحرفة" لدى الناس ولدى الإنتلجنسيا بالذات . وبالتالى عندما يصف البعض (فى روسيا) ميخائيلكوف بأنه يجسد المفهوم الحقيقى لمثلى "الإنتلجنسيا المأجورة" نكتشف نحن أنهم لم يأتوا بجديد وإنما فقط استطاعوا أن يستلهموا تراثهم الثقافى والفنى .

الروس يتنبهون أخيرا إلى انهيار صناعة السينما

منذ فترة أعلن وزير الثقافة الروسى ميخائيل شفيدكوى أن صناعة السينما فى روسيا سوف تحصل على ٧٫٥ مليار روبل (حوالى ٢٥٠ مليون دولار) من ميزانية الدولة خلال الأعوام الخمسة القادمة . وأشار الوزير إلى أن مثل هذا المبلغ غير قليل ولكنه فى الوقت نفسه غير كاف لتطوير صناعة السينما المحلية .

المعروف أنه خلال السنوات العشر الماضية تحولت السينما الروسية إلى نسخة مشوهة من السينما الهندية والمكسيكية والمصرية وسيطرت على الإنتاج السينمائى والتلفزيونى نزعات التسطيح والعنف والعنصرية (تماشيا مع أسوأ ما تنتجه السينما الأمريكية تحديد) التى دفعت بالمؤسسات السينمائية إلى آخر القائمة . فلم يكن حظ السينما الروسية بعد البيريسترويكا أفضل نصيبا من حظ الحركة الأدبية والمسرحية . فقد بدأت سياسة إعادة البناء والعلانية بعرض أفلام أندريه تاركوفسكى لإثبات حسن النية والجدية فى نفس الوقت الذى قامت فيه بطرح موجة من الأفلام الانفتاحية الغثة والرديئة التى تميزت بالسخرية من كل شئ وهدم كل ما مضى دون طرح رؤية جدية لسبر أغوار المتفرج الذى استيقظ فجأة على حالة من الخواء الروحى . إضافة إلى ذلك أظهرت أفلام البيريسترويكا والإصلاحات الجديدة عنصرية واضحة ضد الأجانب من العرب والسود وأصدقاء الأمس من دول الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتى السابق فى الوقت الذى رسخت فيه نموذج الحياة الأمريكى والأوروبى وتم فتح الأبواب لأفلام "الأكشن" الأمريكية كمقدمة لاستقبال أفلام سلفستر ستالونى فى فيتنام وأفغانستان وأفلام شوارتزنيجر وفان دام والمافيا الإيطالية والأمريكية .

لقد جاءت التحولات الجديدة فى روسيا على قاعدة هائلة من الاستوديوهات ودور العرض السينمائى والميزانيات الضخمة وهو الأمر الذى ساهم فى انتشار موجة السينما الاستهلاكية فى السنوات الأولى للبيريسترويكا وسنوات الإصلاح اليلتسينية . وقامت أجهزة الفيديو والتلفزيون بدورها فى التأثير على الشباب وكبار السن بعرض أفلام الجنس والمخدرات والمسلسلات الهندية والمكسيكية والأمريكية الميلودرامية التى يبلغ طول المسلسل الواحد منها إلى أكثر من ٣٠٠ حلقة . ومع نهاية عصر البيريسترويكا فى بداية التسعينات كانت استوديوهات "لينينجراد فيلم" أو "لينفيلم" قد توقفت تماما عن الإنتاج وبدأت المفاوضات مع صندوق السينما الفرنسى وبعض الجمعيات الأوروبية الأخرى للقيام بدور الممول فى حين تحول جيش المخرجين والممثلين والعاملين فى مجال السينما إلى عاطلين عن العمل . وكان أمامهم أحد طريقين إما الانخراط والمساهمة فى تغييب وعى الجمهور بالعمل فى سينما الانفتاح وإما انتظار دور الدولة برصد الميزانيات الكافية أو البحث عن ممولين جادين لتبنى سينما حقيقية تقوم بدورها الطبيعى . ولكن مع بداية حقبة الإصلاحات اليلتسينية تحولت معظم دور العرض السينمائى إلى محلات لبيع الملابس والمشروبات الكحولية وأفلام الفيديو الأجنبية وآلات التصوير .

مع بداية انهيار الاتحاد السوفيتى تقلص الإنتاج السينمائى من ١٧٠ فيلما فى السنة الواحدة إلى ٣٠ فيلما فقط . وبالرغم من أن هذا العد لا يمثل ٢٠٪ من الإنتاج السابق إلا أن الدولة ترصد له مبلغا ضئيلا للغاية يذهب ثلثه للصرف على العاملين . ومع الوهم بانتظار رأس المال الوطنى للمساهمة فى استمرار مسيرة صناعة السينما فوجئ المهمومون بأن المطلوب فى هذا الزمن سينما خاصة وسريعة الكسب وبالتالى اشترى العديد من الروس الجدد دور العرض السينمائى ليحولوها إلى مؤسسات تجارية ومعارض للسيارات ! ناهيك عن إنه قد أصبح من الصعب حاليا تصدير السينما الروسية لرداءة مستواها وانعدام الإنتاج الجيد وقلة الأفلام بشكل عام . وقد وصل إنتاج استوديوهات "جوركى" المعروضة حاليا للبيع إلى فيلمين فى السنة الواحدة .

على الجانب الآخر أعلن نائب وزير الثقافة الروسى ألكسندر جولوتوف أن هناك نموا فى إنتاج الأفلام لعام ٢٠٠٠ حيث وصل عددها إلى ٦١ فيلما حصل نصفها على دعما من الدولة . ويضيف جولوتوف بأن السينما الروسية تعانى من هجرة الكوادر .

الجدير بالذكر أن مشكلة هجرة الكوادر بدأت فى منتصف الثمانينات وهى المشكلة التى حذرت منها الأوساط الثقافية فى روسيا ولكن الفوضى التى أطاحت بكل شئ خلال السنوات العشر الماضية لم تعط فرصة لأحد كى يعالج هذه المشكلة فى حينه .

وأعلن وزير الثقافة الروسى مؤخرا أنه من الضرورى زيادة الإنتاج من ٤٠ فيلما إلى ١٠٠ - ١٢٠ فيلما سنويا لاستمرار صناعة السينما الروسية وهذا الأمر يتطلب مالا يقل عن ٢٠٠ مليون دولار سنويا .

من الواضح أن أوضاع السينما الروسية على الرغم من محاولات الإصلاح لا تزال فى تدهور مستمر . ومن الملاحظ أن جميع الندوات والمؤتمرات الفنية تتناول صناعة السينما فى روسيا على مستوى الكم ولم يحدث خلال السنوات العشر الماضية أن قامت المؤسسات الثقافية فى روسيا بمناقشة المستوى والنوعية الأمر الذى أدى فى النهاية ليس فقط إلى تهجير الكوادر الفنية والقضاء على جيل كامل كان من المفترض أن يبرز مستخدما القاعدة الفنية والاقتصادية السابقة بل وأيضا على مهرجان موسكو السينمائى الذى أصبح مهرجانا محليا بكل المواصفات وصارت الأفلام التى تشارك فيه لا تقل فى مستواها عن الأفلام الروسية السائدة .

"المهووس" : الفيلم الحائز على الجائزة الأولى فى مهرجان موسكو

المخرج الأمريكى هنرى بن يطرح بطله "دينى بيلين" البسيط الذى يمثل الغالبية العظمى من بسطاء الشبان بينطلون جينز أزرق وفانلة " تشيرت " عادية جدا . إلا إنه يحمل رأسا عجيبا مثل الكثيرين من الشباب فى أوروبا . فرأسه الكبير الحليق تماما يحمل بداخله تساؤلات كثيرة حول ما يسمى بالثقافة اليهودية والنفسية اليهودية والسياسة الأمريكية . المخرج هنا وعلى خلفية هذا التصوير الذى أوحى به للمتفرج يطرح تساؤلات فى غاية الخطورة : لماذا أصبح هذا الشاب فاشيا وهو الذى ليس فقط يهوديا وإنما عارف جيد بـ "ثقافته اليهودية" والمخرج هنا أيضا يرتكز فى كل أدواته إلى وهم ما يسمى بـ "الشخصية اليهودية" وكأنه منفصل تماما عن العالم وما يجرى فيه من أحداث أو إنه يتعمد الإلحاح على المتفرج بهدف الترويج لبضاعة مستهلكة وقديمة جدا مثل العالم متحديا إياه بقوله (مجازا) : ومع ذلك فهذه هى بضاعتنا وهى الرائجة ولا يوجد غيرها وسوف تشتريها شئت أم أبيت !

المخرج هنرى بن ينتزع من الزمن حدثا واقعيا ليصفه على خلفية وهم شائع ويبنى عليه مجموعة من التصورات التى " يريد " أن يثبتها كوقائع . ففى سنوات الستينات من القرن العشرين نشرت صحيفة " نيويورك تايمز " مقالا

حول قائد لإحدى المنظمات الفاشية الجديدة في الولايات المتحدة والذي اتضح خلال البحث أنه يهودي . إلا أن حقيبة الستينات وقتها كانت مليئة بالحركة والتمخضات الاجتماعية والسياسية في العالم كله . ومن المشكوك فيه (وقتها طبعا) أن يصبح مصير أحد الفاشيين اليهود أمر هام على خلفية أحداث سياسية واجتماعية هائلة في دول كثيرة . بل ومن الصعب أن يكون هناك أحد قد تذكر مثل هذا الشخص كظاهرة حتمية لما كان يدور في رأسه من أوهام . وبالتالي تفتق هنري بن في نقل الحدث من الستينات إلى زمننا هذا .. زمن التليفون المحمول .. وبنادق صيد البشر !

لقد استخدم المخرج أسلوب سينمائي متقشف للغاية من أجل رواية أحداث من السيرة الذاتية للبطل . وهي حيلة فنية تبرر للسيناريست والمصور والمخرج سقطات كثيرة لا يضع يده عليها سوى "أصحاب المهنة" . لقد استطاع البطل "دينى" الذي لعب دوره الممثل الأمريكي رايان هوزلينج أن يحوز على الاهتمام الكامل من المخرج والمتفرج على حد سواء . فهو مثقف جدا وموهوب في كل شئ ونشيط للغاية . عيناه تبحثان على الدوام عن أي إنسان يمكن الدخول معه في منافسة أية منافسة على أي شئ وعضلاته النافرة تنتظر باستمرار أية لحظة تثبت فيها أفضلية صاحبها . فهو لا يرى أي معنى إطلاقا في أن يتوقف فجأة في منتصف الشارع ليركل بقسوة شديدة أي صبي صغير حتى وإن كان يهوديا ومن دون حتى أن يرفع رأسه أو يحاول النظر إليه أو مثلا ينحشر وبشكل تظاهري تماما بين اثنين من السود ليفرق بينهما أثناء صعودهما على الدرج وهما منهمكان في حديث ثنائي . أما الأكثر تأثيرا عندما يبدأ الحديث عن كراهية اليهود وهو ما يصتف تحت بند عقوبات ما يسمى بـ " معاداة السامية " مستخدما بعض جمل هتلر وعباراته الرنانة في ثقة وتعبيرية ونبرة تنم عن دراية وقوة ورسوخ . وبالتالي يلقى البطل ترحيبا شديدا في أوساط الفاشيين الأمريكيين الذين يتجمعون في منزل إحدى السيدات .

كل ذلك يبرزه المخرج بوضوح وتفصيل شديدين ولكنه من جانب آخر يركز على المعاناة الروحية للبطل . ولكن ما هي أسباب تلك المعاناة أو التمزق الروحي لديه هذه الأسباب بالذات هي المحور الرئيسي للفيلم ومادته الأساسية وما يريد المخرج أن يرسخه تاريخيا وإنسانيا في أعماق المتفرج .

إن أسباب معاناة البطل وتمزقه الروحي كما يراها المخرج تعود إلى حبه لثقافته القومية اليهودية العظيمة وفي نفس الوقت إلى كراهيته لأمته وحقده الدفين عليها وغضبه التراجيدي من مصيرها المأساوي . ثلاث نقاط في غاية الخطورة تلخص ما يطلق عليه الباحثون في الفترة الأخيرة "تفكيك الصهيونية" . ولكن التفكيك هنا يأتي عن طريق الفن - السينما إحدى أكثر وسائل الاتصال انتشارا وتأثيرا . فالبطل يعتز بـ " ثقافته القومية اليهودية العظيمة " ولكنه في ذات الوقت يكن " كراهية شديدة وحقدا على أمته التي لم تستطع الحفاظ على هذه الثقافة القومية اليهودية العظيمة " . وفي ذات الوقت يعلن غضبه الشديد جدا والمأساوي جدا من مصيرها التاريخي . والنقطة الأخيرة بالذات هي الأخطر لأنها مفتاح كل التبريرات بداية من صراع أنبيائهم الذين يخترعونهم في توراتهم مع الآلهة مرورا بـ"هولوكست" نبوخذ نصر و"هولوكست" فرعون و"هولوكست" المسيحيين و"هولوكست" المسلمين و"هولوكست" النازيين وأخيرا "هولوكست" الفلسطينيين الذين يحاولون اليوم احتلال أرض إسرائيل وطرد اليهود منها !

بعد ذلك يظهر مستوى آخر جديد لتطور شخصية البطل . فالأسباب الثلاثة السابقة لم تكن كافية ويجب البحث عن خلفية تاريخية وربما حبذا لو كانت من بين دفاتر الإحصاءات الأوروبية التي أصبحت جزء من التاريخ " الواقعي " للبشرية .. بغض النظر عن حقيقة وجودها أصلا . وبالتالي لا يوجد أفضل من أكذوبة " الهولوكوستات " وحكايات العجائز عن محارق اليهود الوهمية في معسكرات النازي .

هنا يظهر المدى الشديد الذي يتعامل به المخرج هنري بن مع أحداث فيلمه بشكل عام ومع بطله على وجه

الخصوص . وبالتالى يلتمس له كل المبررات اللازمة ليس فقط لتبرئته على المستوى الشخصى بل وأيضا لتبرئة الفكرة الوهمية التى تحولت إلى حقيقة راسخة لدى يهود العالم وأصبحت المحرك الأساسى لهم فى كل تصرفاتهم الفردية والجماعية .

إن أقوى ما يمكن أن يراه المتفرج هو الصراع الداخلى لدى البطل فى مشهد مع بعض العجائز الذين عاصروا ما يسمى بـ "الهولوكست" .. فها هو العجوز المتهالك الذى عاصر الحرب العالمية الثانية يحكى ويبكى فى آن واحد وها هم الشبان الصغار - الفاشيين الجدد - جالسين فى حلقة يستمعون باهتمام إلى حكايات الكبار وابتسامات متشفية وساخرة على وجوه محبى هتلر وعشاق عبقريته . بينما "دينى" يستمع وهو يحبس دموعه إلى أحد العجائز اليهود وهو يحكى له كيف قتل الفاشيون ولده الصغير . وهنا يشد البطل على أسنانه غيظا وحقدا ويوجه نظرة قاتلة إلى محدثه العجوز بل ويعلن صراحة عن احتقاره لليهود فى الحرب العالمية الثانية لا لأنهم ركزوا جميع رؤوس الأموال الألمانية فى أيديهم وحاولوا تجويع الشعب الألمانى البسيط وهو ما يمثل أحد أسباب ظهور الفاشية فى ألمانيا وإنما انطلاقا من موقفهم السلبى وضعفهم فى مقاومة النازى .

المخرج يتتبع بطله باهتمام وبالتالى تظهر المبررات الكاملة والبديهية جدا لكل تصرفاته شخصيا ولكل تصرفات اليهود إجمالا . وكلما ركزت الكاميرا عينها على العالم الداخلى للبطل توارت تماما الخلفية الاجتماعية والتاريخية ليصبح "دينى" هو العالم منذ بدايته وحتى نهايته : مثل شعبه بالضبط ! فهاهو دينى يذهب إلى أول عملية لاغتيال إحدى الشخصيات اليهودية المؤثرة . ولكنه يطلق الرصاصة ليس على الهدف وإنما على زميله الذى يرافقه . بعد ذلك ينسى المخرج هذا الخط تماما .. فمن قتل من وماذا ترتب على ذلك وما هى نتيجة العملية الأولى التى بموجبها تظهر مصداقية العضو الجديد ومن ثم يحوز على ثقة المنظمة ويصبح أحد أعضائها

من الواضح أن المخرج لا يهمه إطلاقا موضوع المنطق الداخلى لأية نزعة سينمائية . علما بأن ما يسمى حتى بـ "السينما السوريالية" لها منطقها الداخلى على مستوى تطور الحدث والزمن الذى ليس بالضرورة أن يستمر فى خط مستقيم ولكنه مع ذلك يمتلك منطقه الخاص به . ويبدو أن الأمر الهام بالنسبة للمخرج هو كيف أن دينى لم يستطع إطلاق الرصاصة على الهدف الأيديولوجى لأنه - أى المخرج - يرى أن البطل لا يتصرف بناء على قرارات محسوبة ورسوخ عقائدى وإنما يرتكز فى كل تصرفاته على تناقضات داخلية ويعيش حالة حماسية بعيدة تماما عن كونه قد أعطى نفسه لفكرته . بعد ذلك يضع دينى وزملاؤه الديناميت فى المعبد اليهودى ولكنه يتمكن فى آخر لحظة من إنقاذ بعض الأشياء التى رأى فيها أهمية بينما نظر الزملاء إلى ذلك بفتور وغرابة .

هناك خط آخر فى الفيلم يظهر حرص المخرج وإصراره على عدم إعطاء البطل صوته الخاص والمستقل . فهو يتحرك بين زملاء الدراسة القدامى فى المدرسة اليهودية وبين الفاشيين الجدد من أصحاب اليوم وابنة المرأة صاحبة البيت . وهنا لابد من قصة حب بينه وبين الفتاة التى تحاول جاهدة الدخول إن لم يكن إلى العالم السرى للطقوس اليهودية فعلى الأقل إلى سبيل للإلمام بالأشياء الطريفة فيها . هذا الخط يطرح أسئلة كثيرة : من أين أتت هذه المرأة وابنتها وأين تربت المرأة من أين أتت تلك التربة الفاشية التى أنبتتها وأين أسرة دينى وفى أى وسط اجتماعى نشأ وكيف يعيش الآن ومع من

إن السياق الاجتماعى للفيلم يتحول إلى مجرد تساؤلات ربما لا تهم المخرج كثيرا أو بالأحرى ربما كان من شأنها إعاقة المخرج عن توصيل رسالته

يبقى فقط شئ واحد وهو أن جميع المحيطين بالبطل سواء اليهود من زملاء الدراسة القدامى أو الفاشيين الجدد

من أصدقاء اليوم يؤمنون إيمانا راسخا بأن دينى يتفوق عليهم من حيث الثقافة والقدرة على التفكير والإبداع والحساسية . ويرى المخرج أن كارثة البطل تكمن فى هذا الأمر بالذات : فهو لا يرى أمامه لا أصدقاء أكفاء ولا أعداء أكفاء . وهو أفضل الجميع . وبالتالى لا يرى إلا نفسه .

فى النهاية ينظم دينى عملية لتفجير المعبد اليهودى ويخطط للبقاء فيه لحظة الانفجار ليتخلص من حياته بنفسه . وهو يختار تلك الطريقة الراديكالية تماما للتخلص من جميع المشاكل والتناقضات لتكتشف فى نهاية الأمر أن المخرج هنرى بن قد حول الصراع الروحى والتناقضات الداخلية للبطل الذى لم يستطع أن يتوحد مع أية ثقافة أو مجتمع إلى كارثة خاصة جدا وشخصية جدا ليعلن فى النهاية أن "المهووس" شخص تحولت حياته إلى مأساة .. وهى مأساة الإنسان الذى لم يستطع تحقيق هويته .

فهل الفيلم يغوص داخل ما يسمى بـ "الشخصية اليهودية" أم يلتمس لها الأعذار والتبريرات أم إن تفكيك الصهيونية قد وصل إلى مرحلة معقدى تستدعى إعادة النظر فى الدعوات المطروحة بشأن ما يسمى بـ "الشخصية اليهودية" والتماس الأعذار والتبريرات من أجل تجميل الأفكار القديمة والوجوه القديمة التى لا تزال تبدل الأقنعة لإخفاء التجاعيد والقناعات معا.

حكاية البولشوى حكاية روسيا

لم تستطع " مذبحة " مسرح البولشوى أن تتصدر الأخبار الأولى فى وسائل الإعلام الروسية خلال النصف الثانى من سبتمبر ٢٠٠٠ نتيجة للكوارث المتلاحقة التى نزلت على رأس الروس بداية من يوليو إلى سبتمبر ٢٠٠٠ . وعلى الرغم من انشغال جميع الأوساط بما فيها الفنية بغرق الغواصة الذرية "كورسك " واحتراق برج " أستانكنا " ثم انفجار مترو " بوشكينسكايا " وقضايا التجسس الأخيرة التى كان أشهرها قضية الجاسوس الأمريكى " إدموند بووب " وحصوله على العفو من الرئيس الروسى بعد إثبات التهمة والحكم عليه بعشرين عاما كاملة تنبأ الكثيرون من النقاد والمهمومين بالحركة الفنية الروسية بكارثة البولشوى التى يمكن أن تؤدى فعليا إلى سقوط هذه القلعة الفنية العريقة . وبعيدا عن نظرية المؤامرة فنفس التوجه الذى قاد روسيا خلال السنوات العشر الماضية هو نفسه الذى يسيطر على مسرح البولشوى !

فى الأسبوع الأول من نوفمبر ٢٠٠٠ بدأ مسرح البولشوى موسمه اليوبيلى (٢٢٥) بأوبرا "بوريس جودونوف " بدلا من أوبرا " إيفان سوسانين " وهو التقليد الذى ساد فى الفترة السوفيتية وبعض سنوات روسيا الجديدة ما بعد السوفيتية . هذه البداية غير التقليدية تأتى فى إطار مرحلة من أخطر المراحل فى تاريخ مسرح البولشوى الروسى حيث يختلط الفن بالسياسة بالإعلام بالاقتصاد الأمر الذى أنتج مجموعة هائلة من المفاجآت التى لا يزال يقف الناقد الروسى أمامها فى حيرة شديدة ناهيك عن البلبلة التى أصابت المتفرج البسيط الذى اعتاد ارتياد مسرح البولشوى مثلما اعتاد بسطاء الناس ارتياد المقاهى والحدائق العامة .

حكاية البولشوى

ظل مسرح البولشوى يمثل طوال ما يقرب من قرنين إحدى أهم القلاع الثقافية فى روسيا والعالم . طوال قرنين وقف هذا المسرح فى مواجهة العديد من التغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية ولم تستطع أية عاصفة اقتلاعه أو التأثير عليه سلبا . المدهش أن كل تغير فى الأنظمة السياسية أو الاقتصادية أو التوجهات الثقافية لم يفعل أى شئ سوى زيادة صلابة هذه القلعة وترسيخها وإثراء برنامجها الفنى .

مسرح البولشوى يقع فى وسط موسكو فى واحد من أجمل وأعرق ميادينها ببنائه الكلاسيكى بواجهة من ثمانية أعمدة ضخمة تحمل أربعة أحصنة تجر مركبة أبوللو إله الفن . هذا التكوين الفنى - المعمارى أحد شطحات مثال القرن التاسع عشر بيوتر كلودت فى روسيا .

بنى مسرح البولشوى على أساس تصميمات المعمارى الروسى أوسيب بوفا عام ١٨٢٤م . وأعيد بناؤه بعد حريقه عام ١٨٥٣م . ولكن بداياته تعود إلى عام ١٧٧٦م حيث المخاض والبدايات الأولى لوليد عظيم سيحمل روسيا على أكتافه فى لحظات الضعف والتدهور .

خلال قرنين من الزمن استطاع البولشوى أن يهب العالم ٨٠٠ عملا توزعت بين الأوبرا والباليه وهذا هو سر المعادلة الصعبة التى حققها البولشوى وعلى أساسها أصبح أكاديمية البولشوى الفنية . ومدرسة الباليه الروسى الكلاسيكية تدين بالفضل للمصمم والمخرج الفرنسى ماريوس بيتيب الذى عاش وأبدع فى روسيا والذى لا تزال أعماله الخالدة تعرض كل موسم .

فى عام ١٨٤٣م وضع مسرح البولشوى تصميما لباليه " جيزيل " بعد تصميمه فى فرنسا بعامين فقط ومنذ ذلك الحين لم يفارق هذا الباليه خشبات البولشوى . استطاع المسرح أن يجعل من الباليه والأوبرا فنا روسيا شعبيا

بالمعنى الحرفى للكلمة حيث امتزجت موسيقى بيوتر تشايكوفسكى بأعمال بوشكين فى أوبرا " يفجينى أونيجين " ثم رقص الروس على موسيقى تشايكوفسكى فى " بحيرة البجع " و" الجميلة النائمة " و عشرات العروض الأخرى . هناك أيضا كورساكوف وموسورجسكى ويورودين وشتاكوفيتش فى أوبرا " بوريس جودونوف " و " الأمير إيجور " . وهناك - على خشبات البولشوى - رقصت أعظم راقصة باليه روسية فى التاريخ : جالينا أولانوفا التى رحلت منذ عامين فأعلنت وسائل الإعلام والناس فى الشوارع حدادا طويلا ومأساويا على آخر " البجعات " الروسيات التى حلقت بعيدا ولن تعود . ولكن العزاء الوحيد أن هناك بيننا لا تزال مايا بليسيتسكايا ويكاترينا مكسيموفا ونينا أنانياشفيلى وعشرات أخريات .

إذا كانت روسيا واحدة من أغنى دول العالم بثرواتها الطبيعية إن لم تكن أغناها على الإطلاق فهناك مصدر آخر للدخل القومى الروسى يعود على الخزينة بمئات الملايين من الدولارات سنويا . وبدون مبالغة فهذا المصدر هو مسرح البولشوى الذى لا يمكن وصفه بكلمة واحدة فهو أكبر بكثير من مسرح ومن بناء معمارى رائع ومن معمل فنى ومن مفاعل نووى . إنه ببساطة : سبارتاكوس وبحيرة البجع والجميلة النائمة وجيزيل وكسارة البندق .

البولشوى فى السنوات العشرة الأخيرة

انهارت روسيا القيصرية عام ١٩١٧م . وانهار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١م . ومع ذلك ظل البولشوى صامدا يمثل مزيجا من الحقب و " الحضارات الفنية " والقيم التى جمعت بين ميثولوجيا الشرق والغرب فى ثوب روسى ورسالة فنية روسية تنظر إلى إنتاج العالم الفنى باهتمام وتسامح . من هنا يخضع مسرح البولشوى مباشرة لرئيس الدولة فى روسيا . أى لا يتم أى تغيير فيه إلا بمرسوم رئاسى . وبالتالى فهذه العلاقة منحت مدير البولشوى وضعا استثنائيا وأعطته حق " الفيتو " فى المجال الثقافى - السياسى لروسيا . ورغم الانهيار التام الذى بدأ مع بداية التسعينات قام الرئيس يلتسين بإصدار مرسوم رئاسى فى ١٧ مارس ١٩٩٥م بتعيين فلاديمير فاسيليف مديرا عاما لمسرح البولشوى . على أثر هذا القرار انتعشت الأوساط الثقافية والفنية وفى ذات الوقت تحفزت المجموعات الأخرى : فمسرح البولشوى يملك كل مقومات الدولة بمختلف توجهاتها الفكرية والسياسية والاقتصادية . وفاسيليف أحد أعمدة فن الباليه الروسى راقصا ومصمما وبروفيسور فى أكاديمية الثقافة الروسية وأحد المجددين الراديكاليين فى فن الباليه العالمى .

فى بداية الموسم ٢١٩ بداية فترة فلاديمير فاسيليف اختفى من الافتتاح عرض أوبرا " إيفان سوسانين " بموسيقى يورى جريجوريفيتش (أحد المناوئين لفاسيليف) وحلت محله أوبرا " المرأة البستونى " . ومن أجل تأكيد سلطته قام فاسيليف بافتتاح الموسم ٢٢٠ بباليه " سبارتاكوس " . فى تلك الفترة اتهم فاسيليف باختلاس أموال الدولة بسبب الرواج المادى الذى حدث للمسرح من جراء عروضه فى الخارج وبالذات فى أوروبا وأمريكا وانتشرت الشائعات بأن فاسيليف جعل من زوجته يكاترينا مكسيموفا الراقصة الأولى والوحيدة فى مسرح البولشوى . تزامنت الصراعات السياسية فى روسيا فى أواسط التسعينات مع الصراعات فى " دولة البولشوى " . وبرأت المحكمة ساحة فاسيليف . ومع كل ذلك لم يتوقف عن التغييرات الفنية الجذرية فى العديد من عروض الباليه التى ارتبطت وستبقى مرتبطة باسمه فى تاريخ هذا الفن .

فى نهاية الموسم ٢٢٤ أعلن فاسيليف عن " خبطة " فنية فى غاية الخطورة : سوف يتضمن برنامج البولشوى للموسم اليوبيلى ٢٢٥ عرض باليه " ابنة فرعون " وسوف ترقص نينا أنانياشفيلى أمام الأهرامات فى مصر . وفعلا

قدمت أنانياشفيلى عرض الافتتاح فى موسكو . وبدأت حملة صحفية ضد العرض وبصورة لم يسبق لها مثيل منذ بداية التسعينات .

حكاية " ابنة فرعون "

بعد أن قام مسرح البولشوى فى السنوات الأخيرة بعرض مجموعة من الباليهات الضخمة مثل " سبارتاكوس " و " سلفيدا " و" دون كيخوت " أراد فى موسمه اليوبيلى أن يفاجئ المتفرج الروسى بواحد من أكثر عروض الباليه إثارة للإشكاليات منذ قرن ونصف . وبالرغم من عدم جرأة المخرجين الروس على تناول هذا الموضوع طوال سنوات عديدة فقد صممت إدارة " البولشوى " على عرضه حتى ولو بمخرج فرنسى .

بيير لاكوت المخرج أو مصمم الباليه الفرنسى الشهير بـ " مرمم الباليهات القديمة " والذى استطاع بمهارة عالية ترميم وإحياء باليه " سلفيدا " عام ١٩٧٥م كان صاحب الفرصة والمشكلة على خشبات مسرح البولشوى وعلى صفحات الجرائد والمجلات الروسية فى آن واحد . أما سبب عدم رغبة لاكوت فى تصميم هذا الباليه على المسارح الفرنسية وبراقصين فرنسيين ما يزال موضع دهشة العديد من النقاد والصحفيين وتساؤلاتهم التى لا تخلو من الغمز واللمز . بيد أن السبب المباشر والواضح تماما هو أن باليه " ابنة فرعون " مأخوذ عن رواية الكاتب الفرنسى تيوفيل جوتييه " المومياء " وقام بتصميمه لأول مرة المخرج الروسى ماريوس إيفانوفيتش بيتيب عام ١٨٦٢م على مسارح بطرسبورج بموسيقى سيزار بون التى كتبها فى زمنه خلال ستة أسابيع فقط .

بالرغم من أن باليه " ابنة فرعون " لم يكن أبدا أحد التحف الفنية مثل " سبارتاكوس " أو " دون كيخوت " إلا إنه لاقى إقبالا غير عادى فى روسيا حتى عام ١٩٢٨م وهى السنة التى تم فيها استبعاده من قائمة عروض المسرح بعد عدة أيام من عرضه نتيجة لسخرية النقاد والمتفرجين بسبب عدم معقوليته .

كانت ماريا سوروفشيكوفسكايا - زوجة ماريوس بيتيب - هى أول راقصة تقوم بدور ابنة فرعون ثم جاء بعدها ماتيلدا كشيسينسكايا وآنا بافلوفا . ولاشك أن راقصات القرن التاسع عشر استطعن أداء مثل هذا الدور بحرفية فنية عالية ارتكازا إلى تعاليم مدرسة الباليه الروسية من ناحية وعبقرية بيتيب من ناحية أخرى . ولكن مع الأسف الشديد فقد ضاعت جميع تصميمات هذا الباليه ولعله الأمر الذى دفع مرمم الباليهات بيير لاكوت إلى إحيائه من جديد وعلى مسرح البولشوى العريق وبتقنيات فرنسية غير جديدة على الباليه الروسى ولكنها صعبة للغاية ومجهدة للراقصين والراقصات على حد سواء .

اللورد الإنجليزى يلوذ بالهرم هاربا من إحدى العواصف الصحراوية . وهناك يدخن بعض المخدرات . فجأة تدب الحياة أمامه فى إحدى المومياوات ويتضح أنها ابنة فرعون . من هذه الفكرة بدأ ماريوس بيتيب من قرن ونصف فى تصميم سينوجرافية فى غاية الضخمة والفخامة والأبهة : هرم ضخم ونيل عظيم ومواكب فرعونية هائلة وأعمدة وبشر كثيرون وأحصنة وجمال وقرود وطيور... لدرجة أن الأمر ظل يبدو حقيقيا حتى عام ١٩٢٨م . وبعد قرن ونصف جاء لاكوت ليحيى مومياء ابنة فرعون مرة أخرى بنفس البناءات والتصميمات ولكنه كان متأثرا بشدة بأوبرا " عايدة " حيث جاءت المواكب الفرعونية غاية فى الفخامة والضخامة وبدت السينوجرافيا على خشبة المسرح - من فرط ضخامتها - غير معقولة . إضافة إلى أن الباليه كعرض بدا أيضا قديما للغاية وعتيقا وغير معقول ومزدحم بالناس والألوان ولم يبق لاكوت من حيوانات بيتيب الكثيرة إلا على حصان واحد فقط .

قصة الحب أو بالأحرى وهم قصة الحب بين اللورد الإنجليزى وابنة فرعون هو البطل الرئيسى للعرض . ويبدو أن

نينا أنانياشفيلى قد استطاعت رغم شكواها المرة من التقنيات الفرنسية الصارمة والصعبة من أداء دورها ببراعة جعلت الجمهور فى حالة دهشة حقيقية .

مدرسة الباليه الفرنسية تشترك فى العديد من عناصرها بمدارس الباليه الأوروبية والأمريكية من حيث الإحساس المادى والتقنيات الرفيعة والاستدارات المفاجئة والحركات القصيرة الضيقة . ومدرسة الباليه الروسية تتميز بالرسوخ والروحانية واتساع الحركة والانسيابية . ولعل هذا هو السبب فى الإجهاد الشديد الذى حدث لسيرجى فيلين - اللورد الإنجليزى - الذى أدى دوره بمهارة تبعث على الحسد .

النقاد الروس

اجتمع رأى النقاد الروس على أن هذا العرض " صالح تماما من أجل السياح الذين يرغبون فى رؤية مسرح البولشوى ومشاهدة الملاعق المذهبة وثريات الكريستال الضخمة . و " ابنة فرعون " - عرض رائع من أجل النزهة والراحة الأسرية مع الأطفال حيث اجتمع الباليه والسيرك وحديقة الحيوانات فى عرض واحد . ولكن من أجل الفن الرفيع والراقى فهناك معرض تريتياكوف للفن التشكيلى " .

مرة أخرى يصطدم الرأى العام الثقافى والفنى بالمعادلة الصعبة بين النقاد والجمهور . فالنقاد يسخرون بشدة من تصميم العرض " السياحى " . ومع ذلك يحدث إقبال منقطع النظير على العرض . إقبال لم يحدث منذ أكثر من خمس سنوات حينما عرضوا " سلفيدا " التى لم ترها خشبات المسارح الروسية منذ ما يقرب من سبعين عاما . النقاد يرون العرض تافها وسخيفا وغير معقول والجمهور يرى العرض رائعا وفخما وضخما جدا : يليق بمسرح البولشوى ويليق بنجمة الباليه نينا أنانياشفيلى السمراء الجورجية الأصل ربيبة مدرسة الباليه الروسية والتى رقصت هذه المرة بعقل فرنسى وقدرات خاصة : قدرات البولشوى الهائلة وقدراتها التى جعلت منها إحدى أهم راقصات الباليه فى العالم .

مذبحة البولشوى

فى منتصف سبتمبر ٢٠٠٠م وقبل بداية الموسم اليوبيلى الذى استعدت له إدارة مسرح البولشوى ببرنامج ضخم سيغزو دول الشرق والغرب صدر قرار مفاجئ بإقالة فاسيليف وتعيين المايسترو جينادى راجديستفينسكى مديرا عاما لمسرح البولشوى .

اسم راجديستفينسكى مرتبط ارتباطا تاريخيا بالأوبرا وبمسرح البولشوى على حد سواء . ومنذ عام ١٩٩٢م يعمل قائدا للأوركسترا السيمفونى الملكى فى السويد . وبداية تعاونه مع هذا الأوركسترا تعود إلى عام ١٩٧٣م حيث استطاع أن يقدم خلال مرحلتى (١٩٧٣-١٩٧٧) و (١٩٨٩-١٩٩٥) ١٥٠ حفلا موسيقيا وعزف ١٥٠ مؤلفا موسيقيا منها ٥٧ لمؤلفين روس ، وهو أيضا من المجددين الراديكاليين فى مجال الموسيقى الأوبرالية والباليه .

قرر المدير الجديد أن يكون التغيير كاملا وشاملا . وأعلن أن أبرا الافتتاح هى " بوريس جودونوف " برؤية يورى جريجوريفيتش (من مجموعة راجديستفينسكى) وهى من ناحية أخرى يمكنها أن تكشف بصدق عن آلام روسيا ومعاناتها فى السنوات الأخيرة وتفضح العديد من المشاهد التى لا تستطيع وسائل الإعلام الخوض فيها .

أما أخطر قرارات الإدارة الجديدة هى استبعاد باليه " ابنة فرعون " نهائيا من برنامج المسرح واستبعاد العروض التى ستعرض فى اليابان ولندن واستبعاد أحد العروض لمصمم يونانى . قام راجديستفينسكى باستبعاد باليه " القرصان " ثم عاد ليعلن أن القضية مفتوحة ومن الممكن عرض الباليه ولكن برؤية موسيقية غير التى طرحتها الإدارة

القديمة أى بموسيقى لمؤلف آخر وقائد أوركسترا آخر من المرجح أن يكون يورى جريجوريفيتش (كما تكهنت الأوساط الثقافية والفنية فى موسكو) .

الإدارة الجديدة فى مسرح البولشوى تستبعد أعمال فاسيليف من برنامجها وتضع سياسات جديدة لعروض المسرح فى الخارج مثلما فعل بالضبط فاسيليف مع أعمال راجديستفينسكى وجريجوريفيتش . وقام الناقد فاديم جايفسكى بتوجيه انتقادات لاذعة إلى فاسيليف قائلا بأن الأخير حول مسرح البولشوى إلى مسرح للباليه فقط وقلص مساحة العروض الأوبرالية على الرغم من أن مسرح البولشوى هو مسرح للباليه والأوبرا . الانتقاد الثانى هو أن فاسيليف اشترى النقاد والصحفيين وخلال الخمس سنوات التى أدار فيها مسرح البولشوى لم تكتب مقالة نقدية جادة عن أى عرض من العروض واكتفت الصحف بالإشادة و" التطبيل " لعروض فاسيليف .

ما وراء الكواليس

الأسباب المذكور أعلاه كلها أسباب شخصية بالدرجة الأولى . والاتهامات التى يوجهها كل من الطرفين وأنصارهما تمثل نصف الحقيقة الموجودة داخل المسرح والمرئية للجميع . ولكن بما أن المسرح يمثل دولة داخل الدولة وتجرى التغييرات فيه بمراسيم رئاسية ووزارية وتمتلك إدارته وضعا استثنائيا يقارب الحصانة الدبلوماسية وبما أن للمسرح كواليس وللسياسة أيضا كواليس إذا لا يخلو الأمر من تغيير ألوان الطيف الثقافى - الفنى - السياسى فى مسرح البولشوى . ولعل وسائل الإعلام الروسية لم تأت بجديد حينما أشارت إلى تغيير السياسة الثقافية وتوجهاتها بإقالة فاسيليف وتعيين راجديستفينسكى .

فهل سيظل مسرح البولشوى هو الأكاديمية الفنية العتيدة التى استطاعت بمهارة وحنكة تاريخية وفنية من ممارسة رسالة إنسانية جمعت بين حضارات الشرق والغرب وهل سيحافظ مسرح البولشوى على توجهاته الثقافية الفنية فى رسالته التاريخية وخطابه الثقافى الفكرى للشرق والغرب أم أن استبعاده العديد من العروض المبنية على ميثولوجيا شرقية ستكون مؤشرا لانزياحه نحو الغرب فى هذه الحالة هل سيظل البولشوى تلك القلعة الثقافية والفنية التليدة ومصدرا للدخل القومى الروسى أم سيصبح مثل الكثير من المؤسسات الروسية التى ابتعدت عن المعادلة الصعبة (التى حافظت عليها روسيا لفترات طويلة فى التوازن بين الشرق والغرب) وتوهمت بأن الغرب يفتح لها صدره فتخلت عن الحذر ولا تزال إلى وقتنا هذا تتأرجح فى الفراغ الخانق !

هراءات العهد القديم

من الواضح أن مخاوف النقاد والمهمومين لم تكن من فراغ . فقد صممت الإدارة الجديدة لمسرح البولشوى على افتتاح القرن الحادى والعشرين والألفية الثالثة بعرض أوبرا فيردى " نابوكو " البطل اليهودى الهمام الذى تحكى عنه أوهام التوراة فى " حدوتة " ما يسمى بالسبى البابلى .

هذا العرض جاء فى غاية الفخامة وتكلف ميزانية باهظة وحشدت له إمكانيات ضخمة قلما تتوافر لأى عرض آخر سواء أوبرا أو باليه . والبطل اليهودى " نابوكو " يظهر فارسا مغوارا ومقاتلا باسلا وهو يصارع ويقتل ويريق الدماء باسم الإرادة الإلهية وبتفويض منها . ولكن الأوبرا كأحد أرقى الفنون وأشملها فضحت الكذبة على المستوى الفنى حيث لم يستطع المغنى " التينور " أن يحقق المعادلة الصوتية اللازمة لإظهار حق البطل وبسالته فخذله صوته وخذلته المعادلة الحركية التى حاول المخرج توظيفها لحل بعض إشكاليات الصراع والمبارزة عن طريق الباليه .

من ناحية أخرى حاول الكورال الضخم أن يعيد الميزان إلى نصابه ولكنه بدلا من ذلك أشاع حالة من الفوضى بإثارة مشاعر الجمهور والبكاء والعويل والتصفيق الذى ابتلع نصف العرض . وانتهى الأمر بتحرير اليهود من " الظلم " و " الأسر " ويغناء الكورال أغنية تمزق نياط القلب .

بشهادة النقاد الروس جاء العرض فى غاية التواضع . ورأت جريدة " إزفستيا " أنه عرض ضعيف ولكن أهميته تكمن فى تماشيه مع السائد حاليا فى المجتمع الروسى .

الغريب فى الأمر أن وكالة " نوفستى " الروسية نشرت خبرا عن اقتراب موعد عرض باليه " ابنة فرعون " فى أبريل ٢٠٠١ عند سفح الأهرامات وهو ما كان مخطط له قبل التغييرات فى إدارة المسرح وأيضا قبل عرض " أوهام التوراة " التى ما كانت لتعرض على خشبات البولشوى إلا فى ظل إدارته الحالية . وستقوم بالرقص ابنة فرعون الجورجية نينا أنانياشفيلى .

السؤال الذى يطرح نفسه : بعد " عايدة " السياحية هل هناك ضرورة لـ " ابنة فرعون " التى يراها النقاد الروس عبارة عن " حديقة حيوانات " تبرز " سحر الشرق " وتنوع ما فيه من "مخلوقات" هل استطاعت "عايدة" السياحية خلال السنوات الماضية أن تضيف لفن الأوبرا المصرى وهل ستضيف "ابنة فرعون " لفن الباليه المصرى ! عموما كان من الممكن أن يرى النقاد الفرق الشاسع بين ما يجرى فى المبنى القائم أمام جامعة القاهرة وبين ما سيحدث عند سفح الأهرامات فى أبريل ٢٠٠١ . بل وكان من الممكن أن تخطئ إدارة البولشوى وتأتى بـ " بمقاتل العناية الإلهية " لفيردى بدلا من اللورد الإنجليزى "المسطول" . ولكن وبالصدفة أيضا جاء شهر أبريل ثم مايو ويونيو ويوليو ولم يذهب إلى القاهرة لا اللورد الإنجليزى ولا مقاتل العناية الإلهية واتضح أن "السمسار" الذى حاول "التفاهم" مع "أبناء العناية الإلهية" فى مسرح البولشوى اختلف معهم على الأسعار وانهارت الصفقة الفنية !

وفى خبر آخر مفاجئ لا يقل إثارة للدهشة عما سبقه من أخبار أرسل المدير الفنى لمسرح البولشوى جينادى راجديستفنسكى رسالة إلى وزير الثقافة الروسى متضمنة استقالته نظرا لظروفه الصحية وارتباطاته بعقود خارجية حتى عام ٢٠٠٤ . وفى الوقت الذى كان وزير الثقافة ميخائيل شفيدكوى يقرأ طلب الاستقالة كانت جميع وسائل الإعلام المقروءة والمرئية ومواقع الإنترنت قد نشرت نص الرسالة . وبدأت بوادر أزمة جديدة فى دولة البولشوى التى لا تزال حتى الآن بدون رئيس .

الفن التشكيلي الروسي على حدود قرنين

قبل انهيار " القارة " السوفيتية كانت هناك آلة ضخمة موجهة إلى العالم كله تدفع كل لحظة بالمزيد من النشاطات والإنجازات في مختلف فروع مجالات الجهد البشري وخاصة في مجال الفن والثقافة . وإذا كان قد تم الاصطلاح على أن فني السينما والمسرح فنان جماهيريان وأن الفنون التشكيلية والباليه والموسيقى والأوبرا فنون رفيعة من أجل الصفوة والمثقفين المتخصصين فإن هذا المصطلح يمتلك صحته بالنسبة لسكان ما يسمى بالعالم الثالث الذي لا يزال يعيش مشاكله الخاصة من الأمية والبطالة وسوء التخطيط والصراعات الطائفية والقومية ولكنه يفقد مصداقيته في دول أوروبا وأمريكا حيث استطاعت شعوب هذه البلدان أن تقطع طريقا طويلا في تذوق وممارسة تلك الفنون الأمر الذي جعلها فنونا جماهيرية لها خصوصيتها في مثل تلك الدول . وروسيا التي كانت " سوفيتية " تدخل في عداد الدول التي تربت شعوبها على الإحساس بعظمة وجمال هذه الفنون والمساهمة بنصيب وافر في تقدمها ليس فقط في الحقبة السوفيتية وإنما أيضا في فترة الحكم القيصري .

بعد انهيار " الإمبراطورية " السوفيتية الضخمة ودول الكتلة الشرقية التي كانت تتعامل مع الثقافة والفنون من منطلقات مغايرة لما يطلقون عليه بالكتلة الغربية أو حلف الأطلنطي حدث فراغ ما وصفه البعض بالأيديولوجي أو بالروحي أو بالفني . ورغم التطور السريع الذي حدث في وسائل الإعلام وبث المعلومات لحظيا بالصوت والصورة لا يزال هناك فراغ في جوانب كثيرة بالنسبة لما يحدث في روسيا وخاصة في مجالات الإبداعات الفنية .

التاريخ لن يعود إلى الوراء . وبالتالي فالمقارنة بين الدولة السوفيتية وبين روسيا الجديدة يعطي صورة خادعة ومضللة . والمقارنة بين الفنون السوفيتية وما يوجد حاليا على الساحة الروسية من فنون أمر غير منطقي ومن ثم فالمقارنة بين الجمهورين السوفيتي والروسي أمر يجانبه الصواب والدقة . لقد سقطت الدولة السوفيتية بتجربتها الرائدة في القرن العشرين لأنها - أي التجربة - تحولت من تجربة طليعية متجددة ومجددة إلى تجربة تنحو إلى المحافظة وتستبعد كل ما عدا ذلك . فسقطت التجربة وسقطت المنظومة الثقافية الفنية التي كانت إحدى أهم الدعامات التي تستند إليها التجربة السوفيتية .

في خضم هذا الحطام الهائل مثل أي حطام وانهيار تبقى بعض الزهور وينمو بعضها الآخر . ولعل هذا ما يتوارد على الذهن عندما نسمع عبارة الكاتب الروسي فيكتور يروفييف : " زهور الشر الروسية " .

بقيت زهور كثيرة في وسط الحطام : في الفنون التشكيلية والباليه والأوبرا والموسيقى وبقي جمهور يعشقها ويعتبرها جزء هام من حركته المعرفية اليومية وليست جزء زائدا يمكن الاستغناء عنه في خضم العرق اليومي وكسب الرزق والبحث عن مأوى .

في لقاء مع الفنان التشكيلي " النحات " سورين ماليان عام ١٩٩٥م قال ببساطة : " لكل مرحلة فنونها . والفن بشكل عام في حالة تغير وتطور دائمة . وللأسف كان الفن التشكيلي في العصر السوفيتي محصورا في الواقعية الاشتراكية . وبعد " البريسترويكا " شعر الفنان بالارتياح والحرية واستطاع الاحتكاك بالعالم الخارجي والمدارس الفنية الأخرى " .

أما الفنان التشكيلي " الرسام " قدير رحيموف فقد أكد ذلك بقوله : " كان الفنان في الفترة السوفيتية يعتمد ماديا وروحيا على أشياء كثيرة أعاقته عن الإبداع . ولكننا في الفترة الأخيرة حصلنا على مساحة معقولة نسبيا من الحرية في الاحتكاك بالمدارس الأخرى إلى جانب الواقعية الاشتراكية " .

في هذا الإطار وفي معرضهما المشترك عام ١٩٩٦م قال الفنانان التشكيليان جريجوري بوردين وزوجته

مارجاريتا بوردين : " قامت البريسترويكا بدور عظيم فى إتاحة الفرصة للاحتكاك بالفن الأوروبى ووهبت الفنان حرية الانفتاح على العالم الذى حرم منه لفترة طويلة " . وأكدا بأن الفترة السوفيتية كانت أسوأ الفترات التى مر بها الفن التشكيلى الروسى حيث حاصرتهم بالواقعية الاشتراكية التى قلصت حدود إبداعاتهم وحالت دون انطلاقهم الفنى .

كل تلك الشهادات تحمل الكثير من المعانى وتحتمل التأويل والتفسير على أكثر من وجه . ومع ذلك فقد فشلت الغالبية العظمى من الفنانين التشكيليين الروس فى تحديد ملامح جيل فنى جديد أو حتى ذكر أسماء جديدة فى فضاء الفن التشكيلى الروسى واكتفوا فقط بذكر الأسماء السوفيتية اللامعة مثل آسوفسكى وفيلونوف وشيلوف وجلوزونوف وفالك . إلا إنه بالنظر إلى خارطة الفن التشكيلى الروسى نجد أنها قد اتسعت بالفعل وتنوعت من حيث المصادر والنزعات والتوجهات . ولعل مدينة موسكو بما فيها من معارض ومتاحف كثيرة لا تزال تمثل " دولة " كسموبوليتانية لتيارات فنية ونزعات ومدارس فى غاية التنوع والاختلاف والتناقض نظرا لوجود أعداد غفيرة من مبدعى دول الجمهوريات السوفيتية السابقة فيها ذلك إلى جانب الفنانين الروس ذوى المشارب الفنية المختلفة أيضا . ورغم ما يقال عن سوء حالة جمهور الفن التشكيلى خلال مرحلة التسعينات من القرن العشرين إلا أن الواقع يؤكد على عكس ذلك . فإذا كان الفنان التشكيلى ألكسندر شيلوف قد ذكر مؤخرا أنهم أيقظوه فى أحد أيام عام ١٩٧٠م وكان فنانا مغمورا آنذاك بقولهم : الناس يقفون على معرضك فى طوابير أطول من الطوابير التى يقفون فيها على طلب السجق " . ففى عام ١٩٩٨م وقف الموسكوفيون والأجانب على معرض أيفازوفسكى فى طوابير امتدت - بدون مبالغة - إلى ما يقرب من خمسمائة متر أمام البيت البيت المركزى للفنانين . معنى ذلك أن الجمهور يعرف ما يريد رغم سوء الأحوال الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية سواء فى فترة السبعينات أو التسعينات . فالجمهور الذى يرتكز على أرضية ثقافية صلبة يرى أن الثقافة والفن بشكل عام أحد المتطلبات الضرورية اليومية لوجوده وبالتالى يحدد بنفسه الطريق للحصول على مثل هذه الضروريات .

على الجانب الآخر لا يزال الفنان التشكيلى الروسى فى حالة بحث عن وجوده الإبداعى - الفنى لأنه إلى وقتنا هذا لم تتشكل بعد ملامح توجهات فنية يمكن تسميتها بتوجهات ما بعد البريسترويكا . ومع ذلك فقد ظهرت بعض ملامح الاختلاف والتباين كإرهاصات أولية لتشكيل توجهات ما ولكنها لا تنفصل أبدا عن تواصلها مع الطريق السابق . كل ما فى الأمر أن الفنان التشكيلى الروسى قد أصبح حر الحركة وهذا يشكل الخطوة الأولى والرئيسية لانطلاق أى مبدع فى أى مجال .

فلاديمير بوريسوفيتش سوسكييف (نحات)

لعل معرض أعمال فلاديمير سوسكييف الذى أقيم فى قاعة " تريتياكوف " وهى إحدى أهم قاعات الفن التشكيلى فى روسيا والاتحاد السوفيتى السابق ومن قبلهما روسيا القيصرية يمثل حدثا فى غاية الأهمية فى الحياة الفنية الروسية . وقد أكد هذا المعرض الضخم على كل ما قيل فى وقت مبكر عن أهمية أعمال سوسكييف التى تعتبر إحدى أهم الظواهر الفنية فى فن النحت المعاصر .

تقوم أعمال فلاديمير سوسكييف على الاستخدام الماهر للأساليب الفنية والحسابات الدقيقة والأفكار الجديدة المبنية على خيال فنى جامع وأصيل . تتميز هذه الأعمال بعمق تراثى روحى ودقة وحب فى التعامل مع النموذج الفنى الذى يتميز بصدق الشكل وبلاغة تأثيره من حيث التشكيل أو التصوير الأمر الذى مكنه من تطويع كل ما يبدو صعبا ومستحيلا وإظهاره فى بساطة وجدية ناهيك عن قدرته الفنية الرفيعة على قول الحقيقة فى يسر وسهولة

ووضوح .

إن أعمال هذا الفنان تنتمى من حيث النزعة إلى مدرسة النحت الموسكوفية العريقة بمبادئها الكلاسيكية وأسسها ذات الخصوصية الواضحة . وترتكز على ثقافة حرفية رفيعة واهتمام دائم بقضية الشكل وبحث متواصل فى المادة وهو الأمر الذى يشكل القضية الرئيسية فى حياة سوسكييف .

لعل هذا المعرض هو الشهادة الحقيقية الواضحة على أن مدرسة النحت الموسكوفية لا تزال موجودة وأن أعمال سوسكييف النحتية تكتسب وجودها وتواصلها واستمراريتها فى علاقتها الجدلية مع هذه المدرسة . فاللغة النحتية التشكيلية لدى فلاديمير سوسكييف فى غاية الخصوصية والعمق حيث توحدت فيها بشكل عضوى الأسس الحرفية لمدرسة النحت الموسكوفية مع تقاليد الثقافة " الأوسيتينية " العريقة وأساطيرها وعالمها الروحى والطبيعة القوقازية : حيث ولد الفنان وترعرع هناك .

هذا الفنان يؤكد فى كل أعماله على مجموعة من الأبجديات الإنسانية : الإيمان الحب حب الإنسان وعالمه معرفة القيمة الحقيقية للخير القدرة على تمييز ما هو خالد وما هو عابر ومؤقت - كل ذلك يؤكده الفنان فى هدوء وثقة فى أعماله بعيدا عن الزعيق والصراخ والتحليق فى الهيولى وبعيدا عن الطريق المضبب والمسدود لما يسمى بـ " ما بعد الحداثة " الذى يحاول ابتلاع النشاط الإبداعى الخلاق للروح البشرية .

كثيراً ما يلجأ سوسكييف إلى مفاهيمه الخاصة عن الأساطير وخاصة القوقازية المطعمة بما طبعته الديانات والثقافات المختلفة على روحه ولكنه يعود ليرتبط بالأرض فى تمثاله " المتفائل " ليؤكد بحرفية عالية أن الإله صنع الإنسان من تراب الأرض ثم نفخ فيه الحياه فصار يمتلك روحا . إن نموذج الإنسان البسيط يظل على الدوام هو أقرب النماذج إلى روح فلاديمير سوسكييف . فـ "المتفائل" يجلس فى هدوء وثقة على الأرض لأنه منها وإليها : يفكر ويتأمل فى اطمئنان يلتصق بها فى قوة وحب يمنحها ثقته بل وأحيانا يحتضنها فى حالة عشق كما فى تمثاله "ملاك النوم" و"حلم أبريك" و"تكوين" .

أما فى تمثاله " فجيعة " فيعلن فيه عن مجموعة التقاليد القوقازية التى تمارس أثناء طقس الموت وتشييع الجنازة . واستطاع بمهارة شديدة وحرفية أن يصل إلى سر المادة ثم يقوم بتشكيلها على أسس طقسية أسطورية فبدا الحزن المخيم على النماذج البشرية فى هذا التكوين حقيقيا .

إن سوسكييف يتعمد التقتير فى الخامات والتفاصيل فى آن بسبب سعيه الدائم فى التخلص من كل ما هو زائد . فهو عندما يتعامل مع النموذج " الحى " - وهذا واحد من أهم ملامح إبداع هذا الفنان - يدرك جيدا أن هذا النموذج لا يجب أن يبقى " حيا " بين يديه وإنما يجب أن يصبح تمثالا .

نبذة عن حياة وأعمال فلاديمير سوسكييف

ولد عام ١٩٤١م فى قرية سورخ - ديجور بأوسيتيا الشمالية .

٦٧ - ١٩٧٣م درس بمعهد موسكو الفنى (معهد سوريكوف) .

١٩٧١م بداية المشاركة فى المعارض الفنية .

١٩٧٦م حصل على عضوية اتحاد الفنانين التشكيليين السوفييت .

١٩٧٧م شارك بمعرض الفنون التشكيلية لعموم الاتحاد السوفيتى (موسكو) .

١٩٧٩م شارك فى السومبوزيوم الدولى لفن النحت (تشكوسلوفاكيا) .

١٩٨١م شارك فى معرض فنانى موسكو وحصل على جائزة الأولى لأفضل عمل عن ذلك العام . ثم حصل

على الجائزة الأولى فى " ترينالى النحت للأشكال الصغيرة " (بودابست) .

١٩٨٣م شارك فى معرض عموم الاتحاد السوفيتى لفن النحت .

١٩٨٤م حصل على الجائزة الأولى فى المعرض الرابع لفن النحت (ريجا) .

١٩٨٥م شارك فى معرض الفنانين السوفيت (طوكيو) .

١٩٨٥م معرض النحت السوفيتى (برلين) .

١٩٨٦م معرض " المراحل الأولى على الطريق الطويل " .

١٩٨٧م شارك فى البينالى الثانى عشر لدول البلطيق فى ألمانيا الشرقية .

١٩٨٨م شارك فى المعرض العاشر لمجموعة النحاتين الموسكوفيين .

١٩٨٩م شارك فى معرض مجموعة النحاتين السوفييت فى ميلانو .

١٩٨٩م معرض شخصى .

١٩٩٠م معرض مشترك للفنانين السوفييت والفرنسيين بباريس وموسكو .

١٩٩١م معرض بالمركز الدولى للفنون التشكيلية (باريس) .

١٩٩٢م المعرض الدولى فى فرنسا (باريس) .

١٩٩٧م معرض الربيع لفنانى موسكو .

توجد مجموعة أعمال الفنان فى أحد أهم معارض روسيا (قاعة تريتياكوف) وفى المتحف الروسى بسانت بطرسبورج وفى متحف شعوب الشرق بموسكو وفى مجموعات عديدة خاصة فى روسيا وخارجها .

قدير رحيموف (رسام)

فى عام ١٩٩٤م بجمهورية روسيا البيضاء (بلاروسيا) أقيمت مسابقة مارك شاجال الدولية للفنون التشكيلية وحدثت مفاجأة غريبة أثارت انتباه النقاد والجمهور على حد سواء حيث فاز بالمركز الأول فنانان : الأول روسى من أصل طاجيكى (قدير رحيموف) والثانى إيطالى (جوسيبى باكاميتشو) . وجاءت كلمة لجنة التحكيم فى غاية البساطة والجدية : " ... إن الذى جمع بين هذين الفنانين هو الحب والتبجيل الذين أبداهما كل من الروسى - الطاجيكى قدير رحيموف والإيطالى جوسيبى باكاميتشو ... " . وختمت اللجنة كلمتها بـ : " ... أعمال هذين الفنانين تتضمن إعادة قراءة جديدة لأفكار مارك شاجال الفنية " .

عقب ذلك الفوز الكبير الذى مثل طفرة لكل من هذين الفنانين قررا إقامة معرضهما المشترك عام ١٩٩٥م فى موسكو والذى بنى فى الأساس على التناقض بين عالمى الفنانين . وكان هذا التناقض " الدرامى " يكمن بالدرجة الأولى فى الأسلوبين المختلفين تمامًا وفى طرق إدراك الواقع ومن ثم تجليات كل ذلك فى اللوحات .

لم يكن الفوز بالمركز الأولى فى مسابقة مارك شاجال الدولية هو بداية قدير رحيموف ولكنه كان بالفعل طفرة جعلته يتوقف قليلا لإعادة حساباته من أجل انطلاقة جديدة .

بدأ رحيموف مشواره الفنى عام ١٩٨٥م بالمشاركة فى معرض عموم الاتحاد السوفيتى للفنون التشكيلية والذى أقيم بمناسبة مرور ٤٠ عاما على الانتصار على الفاشية . ولعل رحيموف عانى بعض الشئ من عدم الفهم بسبب إدراكه الفنتازى للعالم . ولكنه كما يقول : " نحن أبناء الواقعية ... لا يهم أية واقعية . وبالتالى عندما نعلن عن فنتازيتنا فهذا أمر واقعى جدا . انظر إلى الواقع ... هل هناك فنتازيا أكثر من ذلك ! " ويقول أيضا ضاحكا (غير

أن هذا الضحك يتضمن الكثير من التلميحات) : " فى أوروبا يخترعون كل يوم نزعة جديدة ويصنعون نجوم جدد حتى فى الفن التشكيلى ولكننا هنا فى روسيا لا نهتم كثيرا بمثل هذه الاختراعات ولا ننشغل بصناعة نجوم الثقافة والفن لأن روسيا فى حد ذاتها مولد هائل الضخامة : فيه العبث والسوريالية والواقعية والعصيدة والسحر والتهريج ... انظر ! هل هناك بلد فى العالم مثل روسيا يجرب على نفسه كل الوصفات ! يخترع المشاكل من أجل أن يعود من جديد ليبدأ فى حلها ! إننا هنا نرسم العالم نعيد خلقه من جديد وعندما " نعبث " فعبثنا واقعى جدا ! "

قدير رحيموف يمتلك شخصية إبداعية انفعالية للغاية تتجلى بوضوح شديد فى أعماله وفى إدراكه للعالم واستيعابه لحركته فهو يرسم كل ما يصادفه بطريقته الخاصة ويرسم علاقاته بالناس فى شكل ورود وأشكال متداخله بإيقاعات لونية تشبه الجبر الموسيقى لدى ساليرى . المدهش أن هذه الانفعالية تنعكس على اللوحات فى صورة فنتازية تترك انطباعات غاية فى الواقعية لا يمكن أن تخطئها العين . أما الأكثر إثارة للدهشة أن أعمال الفنان لا تتطلب النظر والتأمل الطويلين الذين تتطلبهما أحيانا المناظر الطبيعية الكلاسيكية أو حتى المعاصرة . فهناك ومضة انفعالية من جانب المشاهد تعادل فى قياسها الومضة الانفعالية لدى الفنان التشكيلى وتكون النتيجة أن يتأثر الإحساس قبل العين .

إن النماذج الأصيلة للحيوانات والنباتات والأشياء . تلك النماذج التى تأخذ أشكالا متحولة (حتى وهى على اللوحة) تمتزج فى تكوينات غاية فى الصعوبة والتعقيد ولكنها فى ذات الوقت تظهر وكأنها على مسافات محددة من بعضها البعض تربطها علاقات ما تشكل فى الأساس علاقاتها الحياتية مع بعضها البعض فى اللوحة وفى الواقع الفنتازى الملىء بالألوان . فالألوان بالذات لدى رحيموف أو بالأحرى التكوينات اللونية الحرة هى التى تتجلى فيها عفوية الفنان وبواعثه الفنية والنفسية . والفنان فى لوحاته يمتلك قدرة إبداعية فذة فى إخضاع خيالات الأشياء وأشباحها والأشكال والنماذج لفرشاة ألوانه ولأحاسيسه فى آن واحد . غير أن هذه الأعمال ليست شيفرة كما تبدو للوهلة الأولى تحتاج إلى مفاتيح وليست هيروغليفية أيضا تحتاج إلى فك طلاسمها وإعادة قراءتها ولكن تيار الوعى الموجود فى اللوحة هو الذى يعطى الدفعة " الشرارة " الأولى لخيال المشاهد ومن هنا تحديدا تبدأ الرؤية الحقيقية للوحات رحيموف .

إلا أن كشف عالم قدير رحيموف أو بالأحرى الدخول إلى عالمه الفنى أمر يمثل إشكالية واضحة وذلك ليس بسبب تداخل الأشكال والألوان وامتزاجها على هذه الدرجة من الصعوبة والتعقيد أو تلك بقدر ما يكمن هذا السبب فى الأسس الذاتية الخاصة جدا لعالمه الإبداعى . فى تلك الحالة لا بد من التأكيد على أن ذا الأمر لا يشكل أى تعارض أو تناقض مع ما قيل أعلاه حول إمكانية الدخول إلى عالم الفنان . ولكن الأمر ببساطة هو أن الوعى الموجود فى أعمال رحيموف الفنية يرتكز على أسس لها خصوصيتها تحتم على الفنان أن يكون مختلفا فى كل عمل ومختلفا عن نفسه فى كل دائرة ومنحنى الأمر الذى يشكل أمام المشاهد تحديا يدفعه ليس إلى الابتعاد . وكفى الله المؤمنين شر القتال . وإنما إلى قبول التحدى والاعتماد على الوعى الذاتى الخاص والخبرة وتراكمات اللاوعى فى أعمق مناطق الروح . هنا تحديدا نكتشف الإيقاع الموجود فى أعمال رحيموف والذى يتسلل إلى المشاهد فى هدوء وسرية وحميمية ليضبط إيقاعه . أى إيقاع المشاهد . وعلى الفور تحدث تلك العملية التزامنية فى الإدراك بين الفنان والمشاهد عبر اللوحة .

ولكن فيما تكمن ذاتية قدير رحيموف إن ذاتية رحيموف ليست فقط فى مدخله إلى حدود الوعى الأولى بالعالم ذلك الوعى الذى يتجلى فى نهاية الأمر عن العمل الفنى على اللوحة وإنما أيضا فى طريقة معالجته للنماذج الأصلية التى انطبعت فى وعيه . كما أن تعدد البواعث واختلافها لدى رحيموف هو الأمر الذى تسبب بشكل أو بآخر فى تنوع

أعماله واختلافها . غير أنه فى مراحل ما من العمل تتغلب تلك البواعث على نحو فني تشكيلي خالص وتخضع للقوانين (أو بالأحرى يستطيع الفنان أن يخضعها للقوانين) التى يعمل بها . بعد ذلك تبدأ هذه البواعث فى امتلاك الفنان بشكل تدريجي غير محسوس له هو نفسه وتكتسب ثقته فيبدأ تدريجيا فى الخضوع لها . هنا بالذات تكمن الحلول الذاتية للتكوينات الموجودة فى لوحات رحيموف .

الأمر الأهم هو أنه من الخطأ تماما التعامل مع أعمال قدير رحيموف على أنها قطع فنية ديكورية بسبب " السياسة " اللونية التى يعتنقها الفنان لأن جوهر مضمون اللوحة لا ينفصل لديه إطلاقا عن تكويناتها اللونية . ومع ذلك لا نستطيع نفى وجود بواعث أو أسس ديكورية فى أعمال رحيموف (هو نفسه يرى ذلك ولكنه يؤكد دائما على النسبة والتناسب فى مكونات العمل الفنى : فى الجوهر والمضمون والرسالة ولغة الخطاب) . ولكن الأمر الهام بالنسبة له هو أنه يمنحنا الإحساس بأن "رؤاه " تتضمن إدراكا متعدد التفسيرات والتأويلات ومتغير باستمرار وذاتى وانفعالى فى علاقته بالواقع المحيط بكل ما فيه من تعقيدات . ولعل ذلك بالذات هو الانطباع ورد الفعل على كل ما نراه وما نسمعه فى لوحاته وما نعيشه فيها وما نحسه من خلالها .

إن رحيموف فى أعماله الفنية يتوصل إلى درجة ما من التعبيرية من خلال المجموعات اللونية وتناقضاتها والترددات المعقدة لظلال الألوان والتناسبات بين اللمسات اللونية الكثيفة وسطح الخيش الناعم . فهو يتعامل مع الخلفية بنفس الاهتمام الذي يتعامل به مع تصميم العناصر الأساسية للوحة . وهو فى بعض الأحيان يضع " فى سذاجة " الألوان فى تناسبات واضحة ومفهومة ومباشرة وفى أحيان أخرى يمزجها (أو يركبها) فوق بعضها البعض فى رسالة غاية فى التعقيد . ومع ذلك فلوحاته تتميز بسطح ذى تركيبة ناعمة حيث تسقط لمسات الفرشاة أحيانا هنا وأحيانا هناك وأحيانا تغطى موجة " طرطشة " لونية أوسع مساحة ولكنها فى كل الأحوال تكون فى موضعها الصحيح خاضعة بذلك إلى منطق الفنان الخاص ومجيبة فى الوقت نفسه على الحالة الانفعالية له . كما أن الحركة الحرة ولكن الدقيقة والمقابلات الحادة بين عمق الألوان الدافئة والباردة وكذلك الأشكال والنماذج والتناقض بين الخشونة والنعومة واضطربات الألوان المتداخلة ـ كل ذلك بعيد عن التوازنات الهارمونية . بيد أن تلك المسألة لبست مهمة الفنان بقدر ما تكون مهمته فى الوصول إلى حالة ديناميكية تشيع مجموعة من العلاقات بين الأشياء والنماذج فى اللوحة ، بين عالمها الخاص جدا .

نبذة عن حياة وأعمال قدير رحيموف

ولد قدير رحيموف فى مدينة دوشانبيه بجمهورية طاجيكستان . أنهى معهد طاجيكستان الفنى عام ١٩٨٤م . بدأ حياته فى موسكو عام ١٩٨٦م . حصل على عضوية اتحاد الفنانين التشكيليين السوفيت عام ١٩٨٧م .

١٩٨٥م شارك فى معرض لعموم الاتحاد السوفيتى بمناسبة مرور ٤٠ عاما على الانتصار على الفاشية .

١٩٨٧م شارك فى معرض عموم الاتحاد السوفيتى (شباب الدولة) .

١٩٨٧م شارك فى معرض عموم الاتحاد السوفيتى (دولة السوفيتات) .

١٩٨٧م شارك فى معرض عموم الاتحاد السوفيتى (العالم بعيون الفنان) ـ لينينجراد درزدن هامبورج .

١٩٨٨م شارك فى معرض (عمل واحد) ـ بكين .

١٩٨٨م شارك فى معرض (معاصرونا) ـ طوكيو .

١٩٨٩م شارك فى معرض عموم الاتحاد السوفيتى (معاصرنا) .

١٩٩٠م شارك فى معرض فنانى الدول الاشتراكية الشبان .
١٩٩١م شارك فى معرض اتحاد الفنانين التشكيليين الروس .
١٩٩١م شارك فى معرض (معاصرنا) - برلين .
١٩٩٤م شارك فى مسابقة مارك شاجال - بلاروسيا .
١٩٩٤م شارك فى معرض " سوفت - آرت " .
معارض شخصية
١٩٨٦م متحف بانكوك .
١٩٨٧م متحف الفن - الجزائر .
١٩٨٩م معرض " إكسبو - سنتر " - ليما .
١٩٩١م معرض " فوستوك " - موسكو .
١٩٩٢م معرض " مدينة الفن " - باريس .
١٩٩٣م معرض " فيلجا " - صوفيا .

توجد العديد من أعمال قدير رحيموف في متحف تريتياكوف في موسكو وفى متحف نوفوكوزنيتسكى الفنى وفى جاليرى فولجدا وفى متحف نيجنيتاجيلسكى الحكومى للفنون التشكيلية وفى المتحف الإقليمى فى فيلنوس وليما ومتحف مارك شاجال وفى باريس وشتوتجارت وصوفيا وشيكاغو وسول وبانكوك واليونان وإيطاليا وكندا وبولندا .

الفنان الواقعي في زمن الفتنة
حوار مع الفنان التشكيلي الروسي
ألكسندر شيلوف

ألكسندر ماكسوفيتش شيلوف مواليد موسكو عام ١٩٤٣ . أنهى معهد سوريكوف للفنون التشكيلية . اشتغل في صباه حمالا وعاملا في فابريكة للحياكة . في سنوات السبعينات والثمانينات أطلقوا عليه "رسام وجوه الصفوة السوفيتية" . وفي عام ١٩٩٠ أصبح رساما لوجوه الصفوة الدينية .

حصل شيلوف على لقب فنان الشعب عام ١٩٨٥ . وفي ١ يوليو ١٩٩٧ في موسكو تم افتتاح متحف لوحات ألكسندر شيلوف الحكومي الذي يحوز على تقدير كبير من جانب الجمهور رغم الآراء المتناقضة للنقاد وخاصة "المتقعرين" منهم . ولعل شيلوف أحد الفنانين التشكيليين إن لم يكن الوحيد الذي يقام له متحف وليس مجرد معرض لأعماله أثناء حياته .

ـ ألكسندر ماكسوفيتش هل تشعر بحركة الزمن

ـ نعم فهو يسير بشكل سريع للغاية ..

ـ ولكن عند النظر إلى لوحاتك يبدو وكأن الزمن قد توقف وأنك لا تزال تعيش في مثل الماضي ..

ـ أعتقد أن المقاييس الحقيقية للنبل الإنساني والأمانة والسمو والشرف والروحانية يجب بالضرورة أن يتم الحفاظ عليها بصرف النظر عن الزمن بل ويجب حتى أن تصونها الدولة . إن النزعة التي أتبعها في أعمالي وهي المدرسة الوطنية لفن التصوير من وجهة نظري مستقلة عن الزمن . وبالتالي فالفن الحقيقي الذي أحاول خدمته لا يعتمد إطلاقا على حركة "الموضة" وكما قال الفنان الفرنسي العظيم إنجر : " الجمال الحقيقي ليس في حاجة أبدا إلى تجديد " فأنا دوما من أنصار هذا المبدأ .

ـ هل تعتقد أن هذه المقاييس لا تزال حية في أيامنا هذه؟

ـ أعتقد أنه قد ألقي بها تحت الأقدام . كما أن الفن أيضا قد سحق تقريبا .

ـ هل من المعقول ألا يكون للفن أي دور في حياتنا الآن؟

ـ هذا يختلف من شخص لآخر . فالفن في اعتقادي مدعو للسمو بالروح البشرية وتطهيرها من القبح والخبث والكراهية والارتفاع بنفس الإنسان وإحاطته بالجمال الداخلي والخارجي . في كل ذلك يكمن الدور الرئيسي للفن .

ـ ولكن ما هو الجمال بالنسبة لك؟

ـ مثلما هو بالنسبة للجميع . فقد آمن ليونارد دافينشي بالهارمونية وبأن الجمال الخارجي للإنسان يعكس الثراء الروحي . ولكن ذلك ليس ضروريا على الإطلاق . فأحيانا يكون الإنسان قبيحا على المستوى الخارجي ولكن روحه ملائكية وطاهرة . وأحيانا يحدث العكس لنكتشف أن ذلك الإنسان الجميل ليس إلا مجرد وغد .

أنا طبعا مع الهارمونية . ولكن ذلك مع الأسف ظاهرة نادرة للغاية . وبالتالي أميل على أية حال إلى من يتلألأ من الداخل . فالجمال بالنسبة لي أمر يخص الأحاسيس الدائمة لدى الإنسان . وكما الأمانة والشرف والإخلاص في الحياة هي أيضا نفسها في الفن . وأنا أعمل كما أحس وهذا ما يجعلني لا أشعر أبدا بالخجل أمام نفسي .

ـ ألا تعتقد أن زمن الركود الروحي قد عاد مرة أخرى؟

ـ أعتقد أنه زمن السقوط وليس زمن الركود . الفن يحتضر . نحلق في هوة معتمة . العزاء الوحيد أن هناك

بعض الدفء الذى يلف حياتنا أحيانا فى الكونسرفتوار حيث لا تزال بعد المدرسة القديمة التى تعمل الآن بقوة الدفع الذاتى . وعلى أية حال فروسيا لا تزال على مستوى عال فى الفن التشكيلى والموسيقى على حد سواء . ولا توجد دولة واحدة فى العالم يمكن مقارنتها بنا . ولكننا نبدد قوانا وطاقاتنا يوما بعد يوم لأننا مثل القرود نقلد الغرب باتباع كل ما هو سيئ لديه .

ـ هل من الضرورى أن تنعكس أيديولوجية الدولة فى الفن؟

ـ المبدعون كانوا يتحدثون عن ذلك وخاصة فى زمن الاتحاد السوفيتى . والآن أيضا يحبون الخوض فى هذا الموضوع من أجل " تغطية " أنفسهم بالتأكيد على أن وجود أيديولوجية واحدة فى الفن أمر غير مسموح به وأنه لكل فنان أيديولوجيته الخاصة به . هذا كذب وتضليل . لنأخذ مثلا عصرا محددا : عصر النهضة على سبيل المثال . كان لهذا العصر أيديولوجيته بشكل عام . فمن الذى أملى هذه الأيديولوجية ! بابا روما وحاشيته . كان هؤلاء الناس مثقفين لدرجة أنهم يفهمون أرفع مستويات الفن وينتقون أفضل الأعمال . والنتيجة نراها الآن بأعيننا . ففى وقتنا هذا لا يزال الناس يذهبون إلى إيطاليا وكأنهم ذاهبون إلى مكة : يبدون إعجابهم بكل جسر وبكل باب ناهيك عن لوحات الفن التشكيلى والتماثيل وفن العمارة .

ولكن عندنا فى روسيا يسير كل شئ بالعكس . لقد " أفلتونا " تحت شعار الديمقراطية فماذا حدث حدث أن أصبح الفن عمليا فى حالة احتضار . وإذا كان كل شئ يدرك بالمقارنة فالفن فى أيامنا هذه مجرد نقاط وبقع وفواصل أما فى السابق فكان يتم خلق أعمال إبداعية غير عادية . فمن الذى صنع مثل هذه الأعمال العدم أم قلوب وأيدى الفنانين من الصعب اليوم تصور إلى أى مستوى تدهور بنا الحال روحيا ..

إن الفن الحقيقى كان مفهوما كان يفهم دوما فى الحال : رافائيل كان دوما رافائيل بريولوف كان دوما بريولوف مع تقدم الزمن تكتسب أعمالهما قيمة مادية وروحية أعلى فأعلى لأن البشرية تدرك جيدا أنه لن يتمكن أحد بعدهما من إبداع مثل تلك الأعمال . وهذا التقدير لا يعود إلى أو يعنى أبدا أن العالم فهم أعمالهما بعد مائة عام . هذا الكلام مجرد تخريف لبعض الفنانين المخابيل الذين لا يمتلكون القدرة على عمل أى شئ وفقط يطلقون على أنفسهم ألقابا ضخمة ! مشيرين إلى أن فان ديجا لم يعترف به أحد إلا بعد ٣٠٠ سنة . هراء ! لقد ثمنه معاصروه وقوموه عاليا .

ـ ما رأيك فى علاقة ارتباط الفنان بالسلطة أو اعتماده عليها وهل يرتبط الفنان أيضا بالزمن؟

ـ أنا على سبيل المثال كنت أرسم كل ما أريده . السلطة لم تشكل إطلاقا أى عائق أمامى . وعلاقة التحامل أو المحاباة أو حتى الأحكام المسبقة بالنسبة للسلطة ـ علاقة مضللة وتضليلية وخادعة . علاقة الفنان بالسلطة موجودة دائما . فمن الذى أسس متحف اللوفر الملوك . من الذى وافق على قبول الأعمال الفنية الملوك أيضا . التلطيخات والرسوم الرديئة على القماش والخيش لم تكن تقبل . كان الفنان مضطرا للعمل بالحجز وبالطلب . وهذا ينطبق على المبدعين الآخرين مثل العازفين والشعراء والمؤلفين الموسيقيين والرسامين . من هنا تحديدا ظهرت الأعمال الخالدة : اللوحات والأبنية والقصور التى لا نزال حتى يومنا هذا نقف أمامها مفتوحى الأفواه والعيون فكيف كان يعمل مايكل أنجلو وليونارد دافنشى ورافائيل وجوتتو وتشيلليني كانوا يعملون بالطلب !

الآن يهاجمون الفترة السوفيتية مع إنه فى ذاك الوقت عندما كان يقام معرض فنى فى قاعة المعارض الرئيسية (مانيج) ـ لا يهم معرض إقليمى أو على مستوى الاتحاد السوفيتى أو حتى روسيا نفسها ـ يصبح حدثا فنيا ضخما يستحق أن يرتدى الفنان والزائر العادى على حد سواء ثيابهم الرسمية من أجله . وكان مجرد الدخول لمشاهدة المعرض

حدثا هاما فى حياة أى شخص ناهيك طبعا عن وجود جميع وسائل الإعلام ورجال الدولة والمكتب السياسى للجنة المركزية للحزب وعلى رأسهم السكرتير العام شخصيا .

أما فى أيامنا هذه يفتتح المعرض ولا نجد أحدا يحرص على الحضور أو المشاهدة والصالات تبقى خاوية طوال فترة المعارض تقريبا . الأمر الآخر يخص جوائز الدولة التى لا ندرى بالضبط لمن يمنحونها . فمن الطبيعى أن يحصل على الجائزة الفنانون على أعمالهم التى يعترف بها الناس ويقومونها بجدية منذ فترة عرض التلفزيون بعض التلطيخات الغريبة جدا لأحد الرسامين الحاصلين على إحدى الجوائز لحظتها اكتشفت أن رأى الناس ونظرتهم وذوقهم أمور غير هامة إطلاقا ولا تعنى أى أحد .

- معنى ذلك أنهم فى الفترة السوفيتية كانوا يقومون جهد الفنان ويثمنون أعماله

- طبعا . فقط كان هذا الأمر على درجة عالية من الاستحقاق والتكريم . وكان ذلك يعكس فعليا مدى تطور الفن التشكيلى وسموه وعمق الروح الإنسانية . وعموما أنا أرى إنه يمكن الحكم على ثقافة أية أمة من خلال فنها التشكيلى .فماذا سيبقى بعد أن نرحل وأى فن تشكيلى سيبقى فعلا ولماذا لا تهتم الدولة بذلك فالفنان ليس ذلك الشخص الذى يتناول الفرشاة ليرسم شعرا متهدلا ولحية ثم يلطخ الخش ويقول : " هذه كلمتى الجديدة فى الفن ! " . إن كل من يمسك بالفرشاة الآن يرى إنه مبدع وعبقرى . فبأى حق يقوم أولئك الناس بارغام الآخرين على تقبل مواهبهم الفقيرة وأفكارهم المشوشة واضمحلال الحرفة والإبداع لديهم الطريف أن الكثيرين من هؤلاء الأشخاص يعتقدون إنه إذا لم يتم الاعتراف بهم الآن فسوف يفهمهم الناس بعد مائة عام أولئك " الأساتذة " مجتهدين فى عرض أعمالهم ليس هكذا فى أى مكان والسلام وإنما بالذات فى الطابق الأول بمتحف تريتياكوف أو الطابق الأول بمتحف بوشكين . الناس يرتادون هذه المتاحف لرؤية أعمال رمبرانت وفلاسكيز وموريللى ولكن - ولسوء الحظ - يكتشفون أن هؤلاء " الأساتذة " فى نفس المكان وتحت نفس السقف . هذا طبعا أمر مفهوم فلو عرضوا أعمالهم فى قاعات منفردة فلن يذهب أحد لمشاهدتها أبدا .

- ومع ذلك فكيف الحال الآن فى روسيا وهل يمكن القول - من وجهة نظركم - بوجود فنانين بارزين أو أسماء لامعة

- إننى أحكم بمقاييسى الخاصة . والزمن هو الذى سيثبت كل شئ . وبرغم كل ذلك فلا يجب إطلاقا الإلحاح على المشاهد أو الضغط عليه : يجب أن تحب هذا التكوين من الضرورى أن تقرأ هذا الكاتب ينبغى أن تستمتع بهذه اللوحة المشاهد نفسه هو الذى يجب أن يختار لنفسه ما يحبه وما يرغبه . فماذا يحدث الآن من الممكن طبعا أن نتهجم على ليفيتان وبربولوف ورافائيل ونشبعهم سبا ولكن لا ينبغى أن نمس الطليعية والطليعيين ! الآن تجرى عملية صراع ليس من أجل الوجود وإنما من أجل الموت .

- معنى ذلك أن لديكم اعتراضات ما على الطليعية !

- هذا ليس فنا . وكما قال مايكل أنجلو :"من يستطيع الرسم فهو يتحدث مع الخالق !" . فى هذه الجملة قيل كل شئ . لقد بنى كل شئ على الفن الكلاسيكى وبالتالى فمن يتمكن من الفن الكلاسيكى يمكنه إخضاع كل شئ . أما ما يسمى بالفن الطليعى فلا يوجد به أى شئ يذكر . إنه مجرد امتهان وتدنيس ومجرد أوهام حول الملك العارى . الأمر الأخطر هو عندما تذيل لوحة ما لفنان طليعى ما بتوقيعه .. عندئذ يقول الناس :"أوه انظروا هذا شئ رائع !" . أما وسائل الإعلام فتبدأ فى سرد قائمة كاملة من الأهداف والأفكار والأسباب والمسوغات : انظروا كيف فعل ذلك إذن لماذا فعله لقد فعله من أجل وأجل وبسبب

- ولكن ألا تعتقدون أن مثل هذا الأمر مرتبط بعملية التفرد الشخصي وخصوصية العالم الحسي والحالة الشعورية لكل إنسان على حده أو بالأحرى بخصوصية النزعة الشخصية

- لا .. لا . الجميع لديهم نزعات شخصية متشابهة . ولكن الفنان يختلف من حيث ضرورة الإحساس بشكل أدق وأعمق وأكثر رهافة وأن يمتلك فى الوقت نفسه الحرفية مثلما يمتلك الكاتب الكلمة . فلو خفق قلبه مثل أى إنسان آخر جرحت روحه يجب أن تكون لديه القدرة على نقل أحاسيسه وترجمتها على الخيش ارتكازا إلى حرفيته وموهبته ومعارفه النظرية . وعموما فأنا أرى أن أية عجوز فى أية قرية يمكنها أن تحس بقلبها على نحو أعمق بكثير من الكثيرين الذين أنهوا أكاديمية الفنون ولكن هناك أدوات أخرى لدى الفنان لترجمة مثل تلك الأحاسيس

أنا نفسى رأيت كيف كان الناس يبكون أمام لوحات ليفيتان . أولئك الناس لم تكن لهم علاقة إطلاقا بالنقد الفنى ولم يدرسوه أبدا . لقد أحسوا فقط لأن الفنان رسم بقلبه والفنان الحقيقى هو عبارة عن قلب وحرفية . وبالتالى فلا يوجد أبدا فنين بل فن واحد وواحد فقط . وإذا كان هذا الفن الواحد حقيقيا فلن يعتمد على الزمن أو يرتبط به . فقد مرت مائة عام ولا نزال فى حاجة إلى أمثال ليفيتان وسفراسوف .

- وبالنسبة للفنانين الشبان هل هناك أمل ما ؟

- من الصعب الحكم على هذا الأمر . ولكن الفترة الزمنية والنتائج أمران هامان جدا فى عملية النظر والتقويم . لقد درس معى فى المعهد أشخاص على درجة عالية من الموهبة ولكنهم مع الأسف غير موجودين الآن على الرغم من إنهم حافظوا على قدر ما من الحب للفن . ولكن لابد وأن يشتعل الإنسان من الداخل لكى يبقى يبقى كفنان . وعندما تخمد هذه النيران تلك الجذوة يموت الفنان وبالتالى فحياته المستقبلية ووجوده ليس لهما أية ضرورة .

الجميع الآن يريدون شق طريقهم بسرعة إلى القمة والريادة ويريدون الشهرة بأية وسيلة . فهم فى نهاية الأمر فى حاجة إلى المال بيد أن عمل الفنان كان دائما مرتبطا بالكد والدقة والتعب بدون أى تفكير فى النجاح السريع . إن عمل الفنان هو جهد مضنى ومحض إرادته أى عذاب طوعى . والدليل على ذلك حياة وإبداع قنسطنطين بريولوف وألكسندر إيفانوف وألكسندر سافراسوف . القليلون من الفنانين قادرون على مثل هذا العناء والعذاب . وأولئك بالذات هم الذين يحبون الفن ولا يستطيعون عقد أية صفقة مع ضمائرهم .

- ولكن أ ليس من الممكن ببساطة ألا نكون على علم بجميع الأسماء الشابة وهنا يمكننى استخدام كلمتكم " شق الطريق " فالحياة تغير كثيرا وأصبح من الصعب الآن أن "يشق" الإنسان "طريقه " بسهولة

- إن كلمة " يشق طريقه " هذا غير مناسبة إطلاقا للإنسان المبدع . الفنان الحقيقى لن يفكر كيف مشهورا وبسرعة . سوف يتعذب ويرسم ويتألم من أجل الحصول على الاعتراف - الاعتراف الحقيقى . إن كلمة "يشق" طريقه هذه تتناسب مع الغناء والطرب والرقص حيث يتشابه الجميع . أما فى الفن - فالأمر ليس إلا عذاب يومى وجهد مضنى مضفور بحب حقيقى .. من القلب وبإيمان وثقة . الأمر الرئيسى هو الوصول إلى قلب المشاهد . فلو عرضت لوحة ورأيت الناس يمرون إلى جوارها بدون اهتمام سوف تكون ضربة قاضية بالنسبة لى . معنى ذلك يجب أن أطرح على نفسه سؤالا : إما إننى أعمل بشكل سيئ أو إن ذلك ليس ضروريا لأحد إننى بطبيعتى فى حالة توتر دائم وصراع داخلى وعدم رضاء عن النفس .

وعلى ضوء ما يجرى ووفقا لأعداد الزائرين لمتحفى أعتقد إننى مازلت ضروريا . وأولئك الناس الذين يرتادون المتحف ويتحدثون معى أو يشكروننى أو يتمنون لى التوفيق - كل ذلك هو المحرك الأساسى لى فى العمل والثمن الحقيقى أيضا . وهذا طبعا لا يعنى أن يتوقف الإنسان .

مع الأسف قليلون جدا من لديهم الرغبة في السير عبر هذا الطريق الوعر . أما أصحاب "البيزنس" و"العقلية التجارية فهم كثيرون وهم بالذات من "يشقون" طريقهم .

ـ وماذا عن الأعمال الفنية التي ترسم بالطلب؟ هل طلبت منكم لوحات معينة في السابق؟

ـ نعم . والآن أيضا أعمل بالطلب . هذا هو مصدري الوحيد للرزق . فأنا في حاجة إلى النقود من أجل شراء الألوان والخيش والإطارات والصرف على الرسم بشكل عام ومن أجل الخبز أيضا . ومع ذلك فأنا أرسم لنفسي .. في متحفي ٦٦٧ لوحة رسمتها من أجلي أنا .

ـ لنتحدث قليلا عن الفن التشكيلي ومدارسه ونزعاته . ما هو الفرق ـ من وجهة نظركم ـ بين المدرسة الواقعية الروسية في الفن التشكيلي والمدرسة الواقعية الاشتراكية

ـ الفرق الوحيد هو الموضوع . أقصد المهمة المطروحة للمعالجة . ففي الفترة السوفيتية كانت الحكومة ترصد أموالا لشراء اللوحات ذات الموضوعات الخاصة بالحزب . هذا النوع من الطلب كان موجودا على الدوام وسيظل موجودا . وقد كان نابليون على سبيل المثال يحارب كثيرا وكان الكثيرون من الفنانين الفرنسيين الموهوبين يعكسون معاركه في لوحاتهم . وبالتالي فأثناء الفترة الستالينية كان جميع الفنانين يرسمون الموضوعات التي كانت تتطلبها المرحلة . وعموما فلم يكن هناك أحد مضطر إلى ذلك : إذا كان الموضوع يناسبك فارسم . وإذا كان العكس فيمكنك أن تجلس في مرسمك لترسم مناظر طبيعية أو أي لوحات ذات موضوعات أخرى . هذا هو الفرق الوحيد : الموضوع .

ـ أمام بعض أعمالك مثل "شابة موسكوفية" و"الرقص مع آمور" و"هناك حيث تخيم النغمات" يتولد إحساس ما بأن الشخصيات الموجودة فيها قد رسمت في سياق تاريخي آخر بل وتبدو وكأنها بشر مرحلة أخرى

ـ كثيرا ما ينظر الفنانون إلى اللوحات في متحف بوشكين أو تريتياكوف أو اللوفر ويقولون "أوه أية وجوه ! أي مظهر ! لم يعد هذا موجود الآن ! أي زمن كان ! " . ولكن ذلك غير صحيح . محض تضليل . فأنا أحيانا أسير في الشارع ألتقي بوجوه مدهشة سواء نسائية أو رجالية . ولكنني في الواقع أخجل من الاقتراب من أصحابها . منذ فترة رأيت شابا بسيطا يرتدي الجينز ولكن وجهه يا إلهي لا أستطيع أن أنساه حتى الآن . إنني أرى يوميا فتيات في غاية الروعة والجمال ولكن مع الأسف فهن يرتدين ثيابهن بشكل سيئ جدا . الجميع يرتدون ثياب غريبة وعجيبة . وأنا بدوري أفكر : في أي ثياب يمكن أن أرسمهم ! وفجأة أرى الشخصية قد اختلفت تماما . هناك أشياء كثيرة تعتمد على الثياب : السلوك التصرفات الحركات والإشارات وأنا طبعا لن أستطيع أن أضيف إليهم أو إليهن مثلا بعض التربية أو أقوم بتقصير خطواتهم أو خطواتهن الواسعة ولا يمكنني أيضا أن أضيف بعض الأنوثة إليهن أو بعض الرجولة إليهم يمكنني أن أرسم منهم جميعا بورتريهات رائعة ولكن القضية تتلخص فقط في عدم وجود تربية كافية وتعليم كاف لا يوجد هدوء في عيونهم . ولا يوجد أيضا ما كانوا يعلمونه سابقا للفتيات في المؤسسات التعليمية : طريقة السير الخطوة التحدث الاستماع النظرة . في ذاك الزمن لم تكن هناك تلك العدوانية أو الوقاحة في النظرات . ولكننا نقابل الآن نقابل ذلك يوميا . ومع ذلك أرسمهم بدون رتوش أو تجميل . كا ما هناك إنني أحاول إبراز شئ ما رقيق ولطيف أنثوي رجولي مستقل سامي رفيع غامض وعندما يرون ذلك فيما بعد يقولون على الفور : " لن نرتدي الجينز بعد ذلك أبدا ولا حتى السترات الجلدية أو "

ـ ولكن لماذا تحديدا تحاولون قصر معظم أعمالكم على جنس البورتريه؟

ـ عندي أعمال كثيرة مختلفة : مناظر طبيعية ناتورمورت موضوعات حياتية ولكنني ببساطة أكثر انجذابا نحو روح الإنسان . وبالتالي فالبورتريه أكثر قربا بالنسبة لي . هذا الجنس الفني جنس تاريخي . ولذلك بالذات

يتحمل الفنان كامل المسؤولية عن أعماله فى إطار هذا الجنس لأنهم بعد ذلك سوف يحكمون على الزمن من خلال لوحاته بالضبط كما نحكم نحن أيضا على الأجيال السابقة من خلال أعمال الرسامين العظماء .

- العديد من لوحاتك فى السنوات الأخيرة يتضمن بورتريهات للشخصيات الدينية . فهل يمكننا اعتبار أن هذه الشخصيات بالذات قد أصبحت قريبة إليك

- لا .. لا . أنا أرسم شخصيات أية مهنة أو صنعة . فلدى المتسكعون والفنانون والأطباء والمتسولون أنا مهتم جدا برسم الجميع بما فيهم رجال الدين . وهؤلاء بدورهم فيهم الطيب والشرير المؤمن وغير المؤمن . والكثيرون منهم غير مؤمنين . والأخيرون بالذات يثيرون اهتمامى أكثر ويتميزون فى لوحاتى بخطوط مختلفة وعالم لونى آخر وثياب فاخرة معبرة تماما . لقد كان من المثير لى دائما كيف يمكن للفنان تناول مثل هذه الشريحة من الناس .

- لوحاتك مثل بورتريه الراهب "إيجومين زينوفى" و"خلف جدران الدير" و"أول الخضار" فيها على الدوام بشر تركوا الحياة وفى ذات الوقت يمكن الإحساس لأول وهلة بأنهم لا يزالوا منجذبين إليها

- طبعا لأنه من غير الممكن أن يقتل الإنسان فى نفسه الحياة خاصة إذا كان شخصا مبدعا : مثل الراهب إيجومين زينوفى أو عازف الكمان السابق . فى هذا السياق أيضا تأتى لوحة "خلف جدران الدير" . فتلك الراهبة الشابة وعلى الرغم من إنها كانت تقرأ وتصلى طوال الليل إلا إنها تطل من النافذة بهذه الصورة التواقة إلى الحياة وفعلاً فالحياة توجد خلف النافذة حياة أخرى تماماً والقلب يخفق ويخفق .. ولا مفر . تلك الأحاسيس هى التى وهبها الله للبشر ولا يجب أن تقتل .

- فى العديد لوحاتك يتكرر أيضا موضوع الوحدة باستمرار

- نعم . أنا أرى كل شئ فى وحدة كل شئ وحيد ومنعزل . الإنسان الذى لا يعانى من الإحساس بالوحدة هو ذلك الشخص الذى أرسل له القدر شخصا آخر قريبا منه جدا . ومع ذلك يبقى الجميع بشكل عام فى عزلتهم ووحدتهم مع آلامهم وأوجاعهم وعذاباتهم وأفراحهم أيضا . والإنسان الوحيد الذى يمكنه أن يساعدك ويفهمك فى فرحتك وفى مصيبتك هو ذلك الإنسان الذى تشعر معه بفرحة الروح . أما السعادة العظمى هى أن تقابل ذلك الإنسان الذى يمكنه أن يفهمك وأن يكون دوما إلى جوارك . وهذا فى الواقع أمر غير ممكن . أنا نفسى مع الأسف لم أوفق فيه .

سوق الدعاية والإعلان والإعلام

خلال ١٠ سنوات تغير وجه روسيا وجوهرها . صارت أفضل وأجمل من وجهة نظر البعض . بينما يراها البعض الآخر قبيحة ومشوهة ومنحرفة . الطريف أن الاختلاف فى وجهات النظر يرتكز إلى سبب واحد وهذا هو سر ذلك التناقض الظاهرى الذى يقابلنا دوما فى التحليلات السياسية عن مواقف روسيا الدولية والأحداث الجارية فيها والتحولات السريعة التى جعلت من موسكو طوال ١٠ سنوات أحد أهم مراكز الحدث فى العالم .

قبل ١٠ سنوات لم يكن هناك فى روسيا السوفيتية صناعة إعلانية على الشكل التى هى عليه الآن . والبعض يرجع عدم وجود هذه الصناعة آنذاك إلى سيطرة قوانين الخطط الاقتصادية فى العصر السوفيتى والتى لم تؤهل لوجود المنافسة بين المنتجين إضافة إلى أن البضائع ذاتها لم تكن تتميز بالتعددية . ومع ذلك وبالرغم من الاتفاق الجزئى مع رأى هذا البعض إلا أن روسيا السوفيتية كانت تمتلك سوقا للإعلانات ولكنه كان بسيطا ومحدودا ويعتمد على تكنولوجيات مختلفة تماما عما كانت عليه فى الغرب الرأسمالى آنذاك .

ظهرت صناعة الدعاية والإعلان فى روسيا بعد أن بدأت السير على طريق تطور السوق . وبمجرد انهيار الاتحاد السوفيتى بدأت الوكالات الإعلانية والمطبوعات الخاصه والبرامج الدعائية تعمل تدريجيا لتكوين ما يسمى بالسوق الإعلانى . إلا أن طبيعة المجتمع الروسى وطريقة تفكيره جعلت من هذه الصناعة أمرا مختلفا تماما عما هى عليه فى الغرب . فهذا المجتمع متطرف للغاية .. يظل وراء أية فكرة إلى حد الانتهاك ولا يرى فيها إلا وجها واحدا .. وعندما يفاجأ بالوجه الآخر يكون التبرير جاهزا : كنا نريد الأفضل ولكن حدث كما يحدث دائما . النقطة الثانية هى صفة الانطباعية التى تصل إلى درجة مرضية للغاية . فبمجرد أن تحوز على إعجاب الشخصية الروسية يمكنك أن تفعل أى شئ وترتكب أى شئ والتبريرات جاهزة . هنا تبدأ الكارثة حينما تجتمع الصفتان : الانطباعية والتطرف .

وبالتالى عندما بدأت مؤسسة " بلاى بوى " و " كوسموبوليتان " نشاطاتها فى روسيا " الجديدة " سيطر على الغرب ذهول عجيب وخاصة النساء . وهذا غيض من فيض .

بالعودة إلى سوق الدعاية والإعلان نجد أن أصحاب الشركات والعاملين فى هذا المجال بدأوا مشاريعهم بصورة تفوق أى وصف وعملوا على تذكير المشاهد أو القارئ بهم فى كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة إلى أن وصل الأمر إلى درجة العدوان : فى التلفزيون والراديو والمجلات الصغيرة والكبيرة . ومع أمله بتحقيق الثراء الفاحش أمعن التلفزيون فى الاستخدام السيئ للإعلانات مكثفا من حصتها على الشاشة الصغيرة على الرغم من أن القانون الخاص بذلك والصادر عام ١٩٩٥ سمح للإعلانات بأن تشغل مالا يفوق عن ٢٥٪ من البث . إلا أن المشاهدين أنفسهم يؤكدون أن الوقت المخصص يفوق ذلك بكثير .

وفى النصف الثانى من التسعينات اتخذت الإعلانات أشكالا جديدة ومختلفة لتتلبس الناس مثل "العفريت" . فهى تهاجم الناس بوقاحة شديدة فى المترو وعلى جوانب الطرقات وفوق الطرقات أيضا وفى المحلات والحدائق العامة . أما المثير للاستنكار هو تكدسها فى صناديق البريد المنزلية : فعندما تهبط صباحا لتفتح صندوق بريدك الخاص للحصول على اشتراكات الصحف والمجلات اليومية تفاجأ بكمية هائلة من أوراق الإعلانات التى تغطيها وعليك إزالة كل ذلك فورا وإلقاءه فى أقرب سلة قمامة . ولكنك تفاجأ مرة أخرى بأنهم كانوا قد سبقوك بشكل أو بآخر إلى مكتب البريد أو مبنى الصحيفة نفسها ليدسوا بعض المجلات الإعلانية بين صفحات الصحيفة أو المجلة .

فى عام ٢٠٠٠ أكدت الإحصائيات أن سوق الدعاية والإعلان فى روسيا نمت بمقدار ١٥٠٪ . وفى عام ٢٠٠١ أكد فلاديمير كيسميريشكين رئيس مجلس الدعاية الروسى أن حجم الأموال الملقاة فى سوق الدعاية والإعلان فى روسيا

تقارب مليار و٨٥٠ مليون دولار أمريكي . وتنبأ الرجل بأن الشركات الوطنية والأجنبية العاملة فى روسيا سوف تزيد من حجم دعايتها وإعلاناتها فى السوق الروسية وقد تزداد بمضى عامين أو ثلاثة إلى ٤ مليارات دولار . وبالرغم من ذلك - وحسب تصريح المسؤول الروسى - فروسيا تحتل حاليا على صعيد حجم سوق الدعاية والإعلان واحدة من آخر المراتب فى أوروبا .

كان من الممكن لهذا الاتساع النسبى فى مجال الدعاية والإعلان فى روسيا أن يتمدد أكثر وأكثر لو كانت الإعلانات حاذقة ومفيدة ومتسقة مع الوضع الاجتماعى والذهنى للمشاهد . إلا أن محتواها وأشكالها لا تزال بعيدة تماما حتى عن الشكل المقبول حيث يجرى الإعلان بشكل أساسى عن المشروبات الغازية والحلويات واللبان وأدوات التجميل وتقنيات الراديو والفيديو ومنتجات النظافة الشخصية وبضائع أخرى كثيرة لا يمكن لغالبية السكان شراؤها . ناهيك طبعا عن انعدام الخجل والحياء فى الصحف اليومية نفسها والتى تعلن يوميا عن الكثير من السخافات التى تعد الناس بحل معضلاتها الشخصية بل والعالمية أيضا بالإعلان عن مئات الأصناف من الأدوية التى يمكنها ضمان الصحة حتى الممات .

وبالرغم من أن ٦٦٪ من المشاهدين الروس يؤكدون أنهم لا يحبون الإعلانات إلا أن علماء النفس يؤكدون أيضا أنه بإمكانها تغيير ليس فقط أذواق الشباب بل وأيضا طريقة تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة نظرا لأن ضحاياها فى غاية الكثرة ومعظمهم من الشباب والمراهقين والأطفال .

الأطرف فى الموضوع أن أصحاب المؤسسات الإعلامية والإعلانية فى غاية الانزعاج من المثقفين الروس " المتخلفين " و " الجهلة " على حد رأى أحد أصحاب واحدة من تلك المؤسسات . ففى لقاء تلفزيونى طويل معه كشف الرجل فى استنكار عن دهشته الشديدة بشأن احتجاجات " الإنتلجنسيا " الروسية ضد مؤسسات الإعلان وتساءل : ماذا يريد هؤلاء ! الناس من كل الأعمار ترحب بالإعلانات بل ويحفظها الصغار قبل الكبار أليس هذا دليل على الإقبال والرواج على أولئك الذين يهاجموننا أن يلتفتوا إلى خيبتهم ويروجوا للقصص والروايات والأشعار التافهة التى يكتبونها ولا يوزعون منها إلا ٥ أو ١٠ نسخ وبعد ذلك يتصوروا أنهم قد صاروا كتابا وشعراء ويحق لهم انتقادنا !!

وهنا يأتى دور وسائل الإعلام فى روسيا كنموذج مثالى للغاية لبلدان عديدة . ولعل أحد أهم المقالات التى كتبت فى هذا المضمار كان للبروفيسورة عضو أكاديمية العلوم الروسية أولجا فارونينا بمجلة "زناميا" . وهذه قراءة بسيطة فى مقال الباحثة الروسية .

حرية الكلمة والشكل النمطى للمرأة فى وسائل الإعلام

أصبحت وسائل الإعلام فى المجتمع المعاصر جزء من منظومة التنميط الاجتماعى socialization للجيل الناشئ والبالغين . وهى تلعب أضخم الأدوار فى تشكيل وصياغة الرأى العام وتقديرات الناس وتوجهاتهم وفى مجريات الأحداث وتقدم للجماهير معايير محددة للحياة والوعى . وعلى الرغم من اختلاف النظرة لهذا النوع أو ذاك من وسائل الإعلام واختلاف الرأى فى المواد التى تقدمها فالمواطن المعاصر لا يمكنه أن يتصور حياته بدون الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون وهى الوسائل التى تحكى لنا بفاعلية ونشاط عن أهم الأحداث فى العالم وفى الوطن وفى المدينة التى نعيش فيها .

هنا تحديدا تظهر المسئولية الاجتماعية لوسائل الإعلام وخاصة فيما يتعلق بالحفاظ على حقوق الإنسان والالتزام بها . ولكن مع الأسف فوسائل الإعلام غالبا ما تتجاهل هذا الجانب فى نشاطاتها بإساءتها - شاءت أم لم تشأ - استخدام مبدأ حرية الكلمة وخاصة فى العلاقة بحقوق المرأة .

وقبل أن ننتقل إلى تحليل المشكلة الواردة فى عنوان المقال من الضرورى تقديم تحديدات لبعض المفاهيم . وسنبدأ بمفهوم الجنس أو النوع gender .

لقد شاع استخدام مفهوم الجنس من أجل الإشارة إلى الاختلافات التشكلية morphological والوظائفية physiological وهو الأساس الذى يتم عليه تحديد الكائنات البشرية من حيث كونها رجالا أم نساء . بيد أنه إلى جانب الاختلافات البيولوجية بين الناس يوجد أيضا تقسيم للأدوار الاجتماعية وأشكال النشاط واختلاف فى السلوك والتصرفات والصفات والخصائص النفسية . فى هذا الإطار ليس من الصعب ملاحظة أن ما يسمى فى أحد المجتمعات بـ "الرجالى" يمكن تحديده فى مجتمع آخر بـ "النسائى" . ففى حقبة الثلاثينات أوضحت الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية المعروفة " مارجريت ميد " كيف تم تحديد أدوار الأمهات والآباء فى المجتمعات التى أجرت عليها أبحاثها وكذلك تحديد مواقع الرجال والنساء فى سلم الارتقاء الاجتماعى . أما الأبحاث التاريخية التى أجريت فى سنوات السبعينات والثمانينات من هذا القرن باستخدام هذه الأفكار فقد أوضحت أن التصورات حول "الرجالى النموذجى" و "النسائى النموذجى" يتغير حتى فى تاريخ نفس المجتمع الواحد .

وهكذا ظهرت ضرورة التمييز بين النوع أو الجنس البيولوجى كجملة للخصائص التشريحية البيولوجية وبين النوع أو الجنس الاجتماعى الذى يمثل البناء الثقافى الاجتماعى الذى يقوم المجتمع ببنائه وتعليته وإعلائه على ما هو موجود حقيقة فى الواقع الفيزيولوجى . فمفهوم الجنس يعنى فى حقيقة الأمر عملية إنتاج المجتمع للاختلاف فى أدوار الرجال والنساء والسلوكيات والتصرفات والصفات الفكرية الذهنية والانفعالية مضافا إلى ذلك أيضا نتيجة البناء الاجتماعى للجنس . وعملية إقامة الاختلافات والتمايزات الجنسية من حيث النوع تجرى عبر منظومة محددة للتنميط الاجتماعى (وهى المنظومة التى تربى مختلف المهارات والخصائص والصفات النفسية لدى البنات والأولاد) وتقسيم العمل بين النساء والرجال وكذلك المعايير الثقافية السائدة فى المجتمع وتقسيم الأدوار والأنماط . فى هذا الإطار لا تمتلك أدوار الجنس والمعايير مضمونا عاما وتكون مختلفة بشكل واضح وملموس فى المجتمعات المختلفة . وفى هذا المفهوم فكون الإنسان رجلا أو امرأة لا يعنى إطلاقا امتلاكه لخصائص ما طبيعية محددة وإنما يعنى القيام بدور النوع أو الجنس الذى رسم له والتطابق مع المعايير التى تم تحديدها (وعلى سبيل المثال : ارتداء الجونلة إذا كنت أيرلنديا وارتداء البنطلون إذا كنت أوزبيكية) .

ولكن على الرغم من أنه فى المجتمعات المختلفة يمكن أن تكون أدوار الرجال والنساء مختلفة فهناك قاعدة

واحدة تسرى فيها جميعا : يقوم المجتمع بوضع علامة الجودة "أو الماركة المسجلة" على كل ما هو رجالى باعتباره أمر له الأولوية والأسبقية والسيادة بينما يعتبر كل ما هو نسائى أمر ثانوى وتابع يأتى فى المرتبة الثانية . وعلى هذا النحو تم العثور على واحدة من خصائص الأدوار والعلاقات الجنسية ـ تلك الأدوار والعلاقات تؤكد عملية سيادة كل ما هو رجالى وقهر كل ما هو نسائى فى المجتمع . وبذلك يعتبر الجنس من حيث الذكورة والأنوثة أحد المبادئ الأساسية لعملية الفصل والتمايز الاجتماعى social stratum وعن طريق المبادئ الأخرى تأتى الحالة الإثنية (القومية) والسن والانتماء الاجتماعى . والجمع بين مبادئ التمييز والفصل تلك وتوحيدها يعمل على تقوية تأثير وفاعلية كل منها (اليوم على سبيل المثال تعتبر الخصائص والصفات البيولوجية بالنسبة لجنس المرأة ـ مثل السن "غير شابة" والمظهر "ليست أوروبية" ـ هى العناصر التى تحد وتقلص من إمكانيات قبولها عند التقدم لطلب عمل ما).

إن بناء المجتمع الديمقراطى المفتوح غير ممكن بدون التغلب على الجنسانية sexism ـ أى التمييز على أساس الجنس " الجنسانية ـ هى المواقف أو الأفعال التى تهين وتستثنى وتستخف وتنمط الناس على أساس جنسهم من حيث الذكورة والأنوثة . الجنسانية ـ هى التوجه الذى يضع أحد الأجناس بالنسبة للجنس الآخر فى ظروف مهينة " (من كتاب أندريه ميشيل بعنوان " فلتسقط الأنماط !") .

الأنماط الجنسية ـ هى إحدى أشكال الأنماط الاجتماعية التى تأسست على التصورات السائدة فى المجتمع حول الرجالى والنسائى وسلم ارتقاءاتها . وعادة ما تتصف الأنماط الجنسية بالجنسانية فى علاقتها بالمرأة .

إن الأنماط فى علاقتها بالجنس من حيث الذكورة والأنوثة تواجه الطفل منذ ولادته . شكل الملابس وحتى ألوانها واللعب والألعاب التى نقدمها للأطفال تختلف وتتمايز تبعا للجنس ومن ثم تشكل الملامح المختلفة لطابع الفتاة والولد . وهكذا فالفساتين الفاخرة (التى يرافقها قلق الأم "لا تركضى وإلا مزقتيها ولوثتيها !") وكذلك الدمى تنمى فى الفتاة الالتزام والمواظبة والاستكانة والبنطلونات والمسدسات ـ الهمة والنشاط والعدوانية عند الولد . وكل ذلك تصاحبه تعليقات وتوجيهات تربوية : "لا تبك فأنت ولد !" ـ حظر (تابو) إظهار التأثر والانفعال عند الرجال " كونى مطيعة وهادئة ـ فأنت فتاة ! " ـ صياغة الخضوع وتشكيله . وهناك العديد من الأبحاث والدراسات التى تظهر تأثير الأنماط الجنسانية على تقديرات الناس وتقويماتهم . على سبيل المثال أعطوا مجموعتين من النساء والرجال بعض الأطفال الرضع فى سن الأسبوع الواحد وهم فى أقمطتهم وطلبوا منهم وصفهم . ولكنهم أعطوا إحدى المجموعتين الأولاد وقالوا أنهم فتيات وفعلوا العكس مع المجموعة الأخرى ـ أعطوها الفتيات وقالوا إنهم أولاد . ولم يخفوا جنس الأطفال عن لجنة الفحص والمراقبة . وكانت النتيجة أن كل من تصوروا فى المجموعات الثلاث أنه ولد وصفوه بأنه قوى ونشيط وعفى ومن تصوروا أنه فتاة وصفوه بأنه ـ رقيق وجميل وضعيف .

إن أنماط الأنوثة والذكورة ليست مجرد صياغة وتشكيل للناس ـ إنها تفرض على الناس تبعا لأجناسهم خصائص وصفات نفسية ومعايير للسلوك والتصرفات ونوع العمل والنشاط والوظائف وأشياء أخرى كثيرة . ومن ثم يتضح أن الجنس البيولوجى فى المجتمع التقليدى هو المؤثر الحاسم والنهائى على حياة الإنسان وليس الشخصية الفردية ـ وقد عبر سيجموند فرويد عن ذلك بحكمته الشهيرة "التشريح ـ هو مصير"! . وبالتالى فالقيود المفروضة على النساء عبر هذه الأنماط كثيرا ما تؤدى إلى الضغوط والانهيارات والفشل . وعلى سبيل المثال ففى الأبحاث الهامة التى أجرتها مارتا جورنر تم العثور على تفسير لماذا تكون الفتيات ـ فى جميع البلدان عمليا ـ على رأس قائمة المتفوقين فى علامات الامتحانات المدرسية (وهذه حقيقة مثبتة حيث أن الفتيات على المستوى العضوى والنفسى يتنامين ويكبرن

بمعدل أسرع من الأولاد) ولكنهن فى السنوات الدراسية النهائية بالمدرسة يبدأ مستواهن الدراسى فى التأخر . ذلك يعود إلى أن آثار ونتائج الأنماط الجنسانية الملقنة فى الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام تؤدى إلى تشكيل عقدة خاصة بالنسبة للفتيات فى سن الخامسة عشر وهى العقدة التى أطلقت عليها مارتا جورنر "الخوف من النجاح" . ونظرا لأن نجاحات النساء فى التعليم والمجالات الفكرية والذهنية كثيرا ما تعد دليل على غياب الأنوثة فإن الفتيات يتوجسن ويخفن فى اللاوعى من الحوز على النجاح حتى لا يفقدن بذلك "أنوثتهن" . ("انسوا أن بولجار امرأة !" . هكذا صرح بطل الشطرنج يو . أورباخ بعد عشرين عاما من نجاحات اللاعبة البلغارية وتفوقها فى المسابقات "الرجالية" للشطرنج).

بيد أنه لا ينبغى أبدا تصور أن النساء فقط هن اللاتى يعانين من عملية الأنماط الجنسية . فالحظر على إبداء المشاعر والانفعالات والتأثرات ونمط الشخص المنتصر على الدوام والجبروت الجنسى تستدعى كلها لدى الرجال الذين لا يرغبون أو لا يقدرون على مواكبة هذه الأنماط وتحقيقها ضغوطا نفسية وانهيارات وإحساسا بالفشل وفى النهاية بالمرض . وهى الظواهر التي كتب عنها كثيرا فى الأدبيات العلمية .

نموذج المرأة فى وسائل الإعلام الروسية

إن طريق النساء للتعبير عن أفكارهن ومصالحهن فى وسائل الإعلام أمر فى غاية الصعوبة والتعقيد . والمعبرون عن مصالح المرأة كقاعدة هم الرجال . فهم يحبون دائما أن يسألونهم : فى أى شئ تكمن سعادة المرأة ونراهم يجيبون فى ثقة : "فى الرجال" . والنساء اللاتى يستطعن قول أى شئ فى وسائل الإعلام هن عبارة عن نوعين يمثلن فى كثير من الأحيان طرفى نقيض : فمن ناحية أولئك اللاتى يستخدمن جميع خصائصهن وصفاتهن الأنثوية الطبيعية (ولا يهم إذا كن أمهات أو حبيبات أو عشيقات) ومن ناحية أخرى . أولئك اللاتى يخفن كل ما هو أنثوى ويتوجسن منه وينفين انتماءهم الجنسى .

ولكن إلى جوار أولئك النساء توجد أخريات . وهن النساء اللاتى يتحدثن عن أن "أسطورة الأنوثة" هى مجرد وسيلة لإخفاء الجنسانية وأن السبيل الوحيد لأن تكون المرأة امرأة حقيقية (بالضبط مثلما أن يكون الرجل رجلا حقيقيا) . هو الاختيار الحر للطريق وألا يصبح الإنسان هدفا للاستغلال . أولئك النساء محرومات فى الواقع من حقوقهن فى طرح آرائهن فى وسائل الإعلام . وهنا نصطدم بالاستهتار والوقاحة الجنسية المبنية على التمييز بين الجنسين .

إن الموقف الموجود فعليا بخصوص تقديم المرأة فى وسائل الإعلام يمكن اعتباره خرق لحرية الرأى بالنسبة للنساء فى أسوأ الأحوال لسببين أساسيين : المعلومات غير الصحيحة والمغلوطة عن النساء فى وسائل الإعلام (التصوير النمطى التقليدى لهن) وعدم وجود مدخل للنساء إلى وسائل الإعلام على أساس أنهن يمثلن مجموعة جنسية من حيث النوع . فى هذه الحالة من الضرورى اتخاذ تشريع روسى متطابق مع المعايير الدولية فى مجال حقوق الإنسان أى إدخال إضافات ملائمة فى مجموعة القوانين بما فى ذلك فى قانون وسائل الإعلام وإقامة ميكانيزمات فعالة لمراقبة الالتزام بالتشريعات والقوانين وكذلك إجراء عمليات الإعداد المعرفى والتخصصى .

وبشكل عام فموضوع المرأة الآن غير متداول فى وسائل الإعلام العادية . ففى فترة نهاية الثمانينات كانوا يكتبون عن المرأة أكثر بكثير مما هو عليه الآن . وكان كل ذلك على نحو نقدى تحليلى يخص تلك المرحلة . بيد أن الحماسة النقدية كانت موجهة ليس إلى المجتمع الذى يمارس التمييز العنصرى تجاه المرأة وإنما إلى النساء أنفسهن

حيث اتهموهن بنسيان "خصوصياتهن الطبيعية" إضافة إلى الآثام والذنوب الأخرى . فى ذاك الوقت بالذات تم إجراء تحليل لوسائل الإعلام المركزية المحلية التى سمح بتناولها واتضح أن النساء اللاتى يتم تقديم نماذجهن فى وسائل الإعلام يطرحن عبر أنماط "الخصوصية النسائية" (الأسرة الأطفال المطبخ) والدونية (كإنسان من الدرجة الثانية) والفساد والفجور والخلاعة و "القذارة" والإغراء والإثارة الجنسية .

وفى حقبة التسعينات تفاقمت عملية تنميط النساء فى وسائل الإعلام : تم تقديم المرأة إما كتفصيلة صغيرة فى واجهة المطبخ أو بين الأطفال وإما كهدف جنسى . وكان ذلك واضحا على وجه الخصوص فيما يسمى بالمجلات النسائية على شاكلة "النادى النسائى" و "ليزا" والمجلات الأخرى التى تمثل فى مجموعها ٣١٪ من حجم المجلات الجماهيرية . وفى جوهر الأمر فجميع هذه المجلات مخصصة لتعليم المرأة كيف تكون جميلة وكيف تكون دمية مغرية ومثيرة وكيف يكون هدف حياتها - أن تكون مسلية للرجل ويمكنها أن تقدم له أكبر قدر من الاستمتاع واللذة . و "المشاكل النسائية" فى هذه المجلات تتمثل فى مشاكل إمكانية وضع الماكياج والقدرة على إعداد وتجهيز الجسد لكى يكون جميلا وإمكانية ممارسة الجنس والطبخ بشكل جيد والتخفيف من الضغط النفسى للرجال وأن تغسل قمصانه بشكل صحيح وهكذا دواليك . وعلى شكل إضافات ثقافية يتم تقديم التنجيم وقراءة الكف والحكايات حول الحياة الواقعية للنساء الواقعيات غير الموجودات فى الحقيقة . فى هذه المجلات لا يوجد إطلاقا ولو بشكل جزئى مكان حتى من أجل تقديم النصائح التربوية - ليس فقط للوظيفة والحرفة وإنما أيضا لدور الأم (وهو الدور الذى يمكنه أن يبعد النساء ولو قليلا عن مفاهيم خدمة الرجل) الذى يعتبر دورا ثانويا لاحقا . بهذا المفهوم يمكن القول بأن أغلب المجلات "النسائية" - مجرد سلة واحدة من الأنماط التافهة والكاذبة والتدليسية . أما المجلات الغربية مثل Vogue و Elle و Cosmopolitan فهى من حيث المبدأ متشابهة تماما مع المجلات الروسية على الرغم من أنه فى بعض الأحيان تظهر فيها أشياء تدور حول الموضوعات الاجتماعية . أما القلق الخاص والخطر الأكبر فهو يأتى من ناحية مجلات مثل Cool أو Cool girl بأغلفتها وطباعتها وصورها الفخمة الجذابة الناعمة التى تجذب الفتيات - المراهقات وتعلمهن كيف يسرن منبطحات وملتويات يتكلفن ويتمايلن فى إغراء وإثارة جنسية .

فى تقرير الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة وردت إشارة إلى أن " دول أوروبا الوسطى والشرقية السابقة تقدم مثالا على : كيف أن التصور النمطى عن المرأة يمكن أن يستخدم كوسيلة أيديولوجية سياسية . وكيف تحول مؤسسو النماذج والأنماط النسائية فى هذه الدول من أحد الأطراف إلى نقيضه : النموذج الذى تم تأسيسه وترسيخه فى السابق للمرأة المنتجة المتعلمة الماهرة ذات الوعى السياسى تم استبداله فى وسائل الإعلام التى تمارس عملية المقرطة إلى نماذج النساء - الموديلات والنساء - الأمهات . وفى نفس الوقت تزايدت بحدة عملية انتشار المطبوعات الجنسية والخليعة وال "بورنو" بشكل عام . وبلغت مطبوعات وأدبيات الـ "بورنو" ذروتها فى عام ١٩٩١م - ١٩٩٣م وتزامن ذلك مع الحصول على الحرية الكاملة لعملية الطبع والنشر . وبذلك أصبحت النماذج والأنماط النسائية بضاعة مربحة فى الظروف الجديدة لاقتصاد السوق .

وفى وسائل الإعلام "اللانسائية" صارت المطبوعات والبرامج المخصصة للنساء ول "الموضوعات النسائية" أقل فأقل بينما أصبحت المقتطفات و "الطرائف" والعناوين التى تتميز بالجنسانية الحادة أكثر فأكثر . ومنها على سبيل المثال : " المرأة يجب أن تكون أنثى" (الجريدة العلمية - الاجتماعية "الأيدز والمعلومات" - شهر ديسمبر ١٩٩٧م - صدر هذا العدد فى ٣٦٧٥٠٠٠ نسخة) "المومسات يعشقن الجنس ولذلك تحديدا يمكن اعتبارهن نساء من الدرجة الأولى" (جريدة "موسكوفسكايا برافدا" - ٢٦ مارس ١٩٩٤م) وهذه الجرائد ليست إطلاقا من الـ "جرائد الصفراء"

التى سوف نوردها لاحقا فى القسم الخاص بال " بورنو " .

من الضرورى ملاحظة أن "المعيارية" أو التقليد الطبيعى السائد فى السماح بظهور الكره والاحتقار والعدائية الحادة على صفحات الجرائد ضد النساء فى حد ذاتهن كنساء، هى الخصائص التى تميز وسائل الإعلام الروسية فى علاقتها بالمرأة . فى هذه الأحوال غالبا ما يحدث اقتباس من أعمال مشاهير الكتاب والمفكرين واختيار المقولات والآراء الحادة المتطرفة . فجريدة "فزجلياد" فى تلذذ واستمتاع وفى أفضل مكان على صفحتها الأولى (من أجلكن أيها النساء) اقتبست أفضل عناوينها من القرن الماضى من نيتشه وستراندبرج : "إننى أناشد كل المشرعين لكى يفكروا ويمعنوا التفكير فى الآثار المحتملة قبل أن يوقعوا على قانون الأحوال المدنية لتلك المخلوقات الشبيهة بالقرود لتلك الحيوانات الدنيئة لهؤلاء الصغار المرضى الذين يعانون من انحراف الصحة ويسقطون فى الجنون ما يقرب من ثلاثة عشر مرة فى السنة من جراء الدورة الشهرية لتلك الكائنات العنيفة الجامحة التى تصاب بالنوبات والأزمات أثناء الحمل والتى تتصرف دون أدنى مسؤولية على الإطلاق طوال أيام حياتها لتلك المخلوقات التى لا تعى خبثها وعدم جدواها والمجرمة فى علاقتها بالمشاعر والأحاسيس تلك المخلوقات الشريرة التى لا تعرف ماذا تفعل !" (أ . ستراندبرج) . "المرأة أوه ما هذا الخطر وما هذا الحيوان الصغير الأملس المفترس ! ومع ذلك فهو معسول جدا ! المرأة بدون مقارنة أشد شرا وضررا من الرجل وأذكى منه إن الطيبة فى المرأة هى مجرد مظهر للسقوط والانحطاط " (ف . نيتشه)] جريدة " فزجلياد " - عدد ٨ مارس ١٩٩٢م [. ومن أجل ألا يتهموا الجريدة بالعنصرية والتحامل قامت باقتباس مقتطفات أخرى حتى "تتزن" الأمور : "احترام المرأة - هو الواجب الذى ينبغى لأى إنسان مخلص وشريف أن يلتزم به منذ الولادة" (لوبيه دى فيجا) . "النساء الجيدات قليلات جدا لدرجة أنه لا يوجد زوج لم يحسد ولو لمرة واحدة فى حياته العزباء" (ج . لابوريوير) .

الأنماط الجنسية والجنسانية فى اللغة

إن قضية تحديد الأنماط الجنسية ليست هكذا بتلك البساطة التى يمكن تصورها وذلك نظرا لأنها كثيرا ما تحمل طابعا مقنعا وفى غاية الصعوبة والتعقيد . ولكن بالطبع إذا كنت إنسانا مثقفا وقابلت رأيا من نوع "كل النساء . . ." فأنت تعرف بدقة أن أمك وزوجتك وابنتك وأختك ومدرستك ومن الممكن أيضا بعض المعارف من النساء الأخريات لسن ولعلك أيضا ستدرك فى كل الأحوال أن هذا الرأى ليس مجازيا على الإطلاق وإنما على الأرجح نمط جنسى تقليدى . وهنا لا توجد أية مبالغة إطلاقا - فعلى سبيل المثال هناك أحد الكتاب المسرحيين الروس الرومانسيين جدا مؤلف العديد من النصوص المسرحية المثيرة للدموع والموجهة إلى الشباب حول الحب السامى قال فى أحد لقاءاته الصحفية المنشورة فى جريدة "موسكوفيسكى كومسوموليتس" : " نصف النساء مومسات والنصف الثانى يريد أن يكون كذلك ولكنه لا يعرف كيف" .

فى حالة أخرى من الممكن أن يكون التمييز الجنسى أو الجنسانية غير واضح تماما . وهنا نورد بعض المقتطفات : "إن كلمات "الحنان" و"القسوة " و"اللقاءات مع الرائع" ابتدعتها كلها الحمقاوات وليس أبدا الحمقى . إن العالم بالنسبة إليهن سهل وبسيط مثل الإصبعين اللذين يبللهن قبل أن يقلبن الصفحة . إن رئيسة حمقاوات التلفزيون غبية إنها ماسونية أصيلة" (جريدة "سيفودنيا" - ٧ أكتوبر ١٩٩٥م) وعلى هذا المنوال تسير الأمور . وعموما فكاتب هذه الكلمات يناضل ضد الحمق وضيق الأفق وانعدام الذوق فى ما يسمى بالبرامج الثقافية أو الاجتماعية - وفى ذلك يمكن طبعا الاتفاق معه بشكل مطلق . إلا إنه من غير المفهوم لماذا يلصق هذه الصفات بالنساء فى مجموعهن أ ليس توجد

في نفس تلك البرامج أيضا مذيعات ومقدمات رائعات مثل والإجابة بسيطة . وهو أن بحث أى شئ سلبي يتم عبر النظر إليه كـ "نسائى" أو نقد أي شئ باعتبار أن امرأة ما لم تفعله بشكل صحيح يتم عبر استئناف الدعوى ضد الكينونة النسائية بشكل عام . كل ذلك يمثل خصوصية علاقة التمييز الجنسى تجاه العالم . ولكنهم لا يلومون إطلاقا ممثلي "الجنس القوى" فى أنهم فعلوا شيئا ما بشكل سئ أو ردئ لكونهم "رجالا" بشكل عام .

إلا أن تلك الأنماط يمكن أن تحمل طابعا فى غاية السرية والتخفى . وعلى سبيل المثال عندما يوجد عنوان "الأب والابن . ذكيان" وتحته توضيح للألعاب الخاصة بتحديد قوة الملاحظة وإلى جانبه على نفس الصفحة (على صفحة : من أجلكن أيها النساء) قوائم وصفات الوجبات والمقادير اللازمة لطهيها وهذا يمثل الاستخدام السرى للأنماط الجنسية والتمييز بين الجنسين . إضافة إلى ذلك توجد أيضا الإعلانات التلفزيونية فى الآونة الأخيرة : " موسوعة للبنات تعلمهن كيف يصبحن نساء حقيقيات . جميلات يستطعن استخدام الماكياج ويطهين ويرتبن البيت بشكل جيد . وموسوعة للأولاد تعلمهم كيف يكونوا أذكياء وأقوياء و " وهكذا . وحتى الآراء الحياتية . المعيشية من نوع : "كل النساء أوجدتهن الطبيعة ذاتها من أجل إرضاء الزوج وإنجاب الأطفال وترتيب البيت" فى إطار معايير القانون الدولى الموجودة حاليا فى مجال حقوق الإنسان تعتبر أنماط للتمييز العنصرى بين الجنسين . فى هذه الحالة وبصرف النظر عما يفكر به أحد أو آخر بخصوص النساء وبخصوص رسالتهن وخصوصياتهن وقضاياهن من حيث المساواة فمن الضرورى أن يلتزم العاملون فى وسائل الإعلام من أمثال الـ"هذا"والـ"ذاك" بالخضوع للقوانين والتشريعات وليس لأذواقهم الشخصية .

أما المشكلة الأخرى الهامة والخطيرة فهى التغلب على وإبعاد أنماط التمييز العنصرى بين الجنسين من اللغة نفسها . وعلى سبيل المثال فمن السائد فى روسيا وصف "الإنسان بشكل عام" أو التوجه إليه بصيغة المذكر : كل مواطن يملك الحق (من الدستور) الكل ملزم بحب الوطن واحترامه . بهذا الشكل فـ "كل واحدة" أى امرأة ليست ممثلة فى فضاء اللغة ومن ثم فى وعى المجتمع . وفى العادة فمفهوم "ناس" مرتبط فقط بالرجال أما النساء فإما غير موجودات فيه (على سبيل المثال كما فى الشعار الذى يبدو فى ظاهره إنسانيا "كل الناس . إخوة") وإما فى وضع متناقض مع هذا المفهوم . وعلى سبيل المثال مانشيت " ناسنا أفضل أما نساؤنا . فأجمل" ("مجدونارودنايا جازيتا" . العدد ٦٩ (٢٤) بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٩٢م) أو تعليقات مقدم البرنامج فى لقاء مع فلاديمير جيرينوفسكى : "إنكم تملكون سلطة ليس فقط على الناس وإنما أيضا على النساء" (٧ مارس ١٩٩٣م القناة التلفزيونية الرابعة الساعة ٣٠ر١١ مساء) أو "الطرائف" من قبيل : "زوجة أو عشيقة من أجل الناس الشباب وأنيسة من أجل الناس متوسطى العمر ومربية من أجل الناس كبار السن" (هذه الطرفة نشرت فى جريدة "مترو" المجانية وبالتالى واسعة الانتشار فى العدد ٢ لعام ١٩٩٨م) . وفى وسائل الإعلام المحلية توجد العديد من الأمور والأشياء الشائعة من نوع "ماذا يلزم الإنسان من أجل السعادة البعض يلزمه المال والبعض يلزمه المجد والبعض يلزمه النساء " (من برنامج تلفزيونى) أو مثل تلك الحكم "السامية" : "كل إنسان مثقف ومتعلم ملزم بحب المرأة واحترامها" . من المشكوك فيه هنا أننا بحاجة إلى توضيح بأنه فى مثل هذه الآراء والمقتطفات والطرائف يقدم إلينا التمييز العنصرى تحت غطاء المواعظ الأخلاقية . وسوف يتضح ذلك ويصبح بديهيا إذا استبدلنا كلمة "امرأة" بكلمة "رجل" فى المقتطفات السابقة . فبماذا يمكنكم أن تشعروا حينما تقرأوا أو تسمعوا : " كل إنسان مثقف ومتعلم ملزم بحب الرجل واحترامه" أو "كل الناس أخوات" . إن العبارة الأولى تعطى انطباعا بالفحش والتحرش والعبارة الثانية لسبب ما يمكن استقبالها كنزعة نسائية عدائية . فى هذا الإطار كلما كان التمييز اللغوى أكثر تخفيا وسرية أصبح

مرهفا وحاذقا ومثقفا ومن ثم أقوى تأثيرا وأوقع على الوعى الباطن للإنسان .

إن الحل الواقعى لهذه القضية فى روسيا من الممكن ألا يكون عملا بسيطا أو هينا نظرا لأن جميع الصيغ النحوية للمذكر والمؤنث فى اللغة الروسية منتشرة جدا . وعلى سبيل المثال فمسميات الوظائف فى اللغة الروسية لها صيغ مذكرة ومؤنثة ونهايات تحول الصيغ المذكرة إلى مؤنثة ولكنها كثيرا ما تعطيها إيقاعا ينطوى على شئ من الاحتقار والاستهانة . وهذه ليست دعوى إلى هدم المعايير اللغوية الموجودة أو إنشاء لغة جديدة (وعلى ما يبدو فكلمة "بروفيسورة" سوف تظل بمتلك ولفترة طويلة ذلك الإيقاع الذى ينطوى على الاحتقار والاستهانة) . بيد أن الالتزام بعض المعايير فى مجال حقوق الإنسان ومبادئ ما يسمى باللباقة السياسية يسمح للعاملين المثقفين فى وسائل الإعلام بالعثور فى الروسية على صيغ لغوية غير جنسانية (لا تميز بين الجنسين) يمكن قبولها والتعامل بها .

أنماط التمييز الجنسى فى الإعلانات

حتى تلك اللحظة التى بدأ فيها التحضير لسن قانون فيدرالى " حول الإعلانات " فى روسيا نجد أن بيزنس الإعلانات الذى يمتلك تاريخا طويلا فى الغرب قد أجريت فيه الكثير من الدراسات والأبحاث لهذه الظاهرة وظهرت العديد من الميكانيزمات السلبية من وجهة النظر الاجتماعية لتأثير الإعلانات وخاصة فى مجال تنميط شكل المرأة والتمييز العنصرى بحقها .

الإعلان يعمل باستخدام النماذج الشفاهية و / أو البصرية - المرئية مؤسسا مجموعة ما من القرائن والترابطات والتداعيات وبذلك يؤثر على الإنسان غير الواعى . ونماذج الإعلانات الغربية الأكثر حظا تضع البضاعة فى موقف أو حالة مزوقة بالانفعالات الإيجابية الأمر الذى يجعلها تستدعى لدى المشاهد انفعالات إيجابية مماثلة وتقوى لدى المستهلك التداعيات الإيجابية والحنان والعطف الشديدين . ولنتذكر الرقة المثيرة والحنان الشديد لإعلان "إيرمان" عن طعام الأطفال أو إعلان "أنت وأنا وروثمان" الذى يعطى مشاعر فورية مباشرة بالسعادة والطمأنينة وراحة البال .

أكد العديد من الباحثين بأن المواد الإعلامية والمعلومات التجارية تتميز بالتصوير النمطى للمرأة والتمييز الجنسى بين الجنسين (حيث النساء فقط هن اللاتى يقمن فى الإعلانات بالأعمال المنزلية والمعيشية حتى مع استخدام الآلات المنزلية الحديثة التى لا تتطلب إطلاقا أية مواصفات "نسائية" خاصة) . وعلى ضوء خصوصية "السوق الروسية الجديدة" التى تطرح فى الأساس الملابس ووسائل التنظيف والأدوية يتوجه الإعلان تحديدا إلى المرأة كإنسان منوط به ترتيب وتنظيم المتطلبات الأسرية والعناية بها . فمن الحجم العام للإعلانات التلفزيونية الموجهة إلى المرأة تخصص نسبة ٣٩٪ للإعلانات التى تقدم إليها وسائل العناية بنفسها (أدوات التجميل العطور الأدوية) ونسبة الـ ٦١٪ الباقية تقدم للمرأة وسائل العناية بالبيت والأطفال والزوج . وبين الإعلانات التى تقدم للمرأة وسائل العناية بالبيت والأسرة توجد بها نسبة ٢٣٪ من البضائع الموجهة للمرأة - الأم ونسبة ٣٨٪ للمرأة - الغسالة وعاملة لنظافة . ووفقا لإحصائيات المؤسسة النسائية الأسبانية فى الإعلان عن مساحيق الغسيل ووسائل التنظيف تحديدا يتم تصوير المرأة ككائن مغلق ومحدود الأفق تماما . أما الأمثلة المحلية لدينا فهى معروفة للجميع - فها هى "العمة آسيا" الشهيرة وجارتها التى تغسل على الدوام قمصان زوجها المتعجل دائما أو "إيما بتروفنا" فى إعلان مسحوق "أريل" أو "الأم الشابة" فى إعلان مسحوق "تايد" . النساء فى الإعلانات يقمن فقط بعمليات التنظيف والغسيل والترتيب المنزلى والطهى وتبديل الثياب الداخلية للأطفال وكذلك يقمن بالعناية بأنفسهن من أجل التخلص من الجفاف والروائح الكريهة وقشر الشعر واصفرار الأسنان والإمساك وهلم جرا . ولنتذكر كل هؤلاء النساء البسيطات فى

إعلانات مكعبات شربة الدجاج أو المايونيز وهن يجحظن بعيونهن من الدهشة والفرح ويحكين عن أسرار السعادة الأسرية. وهذا الإعلان بالطبع إلى جوار الإعلانات التى تتميز بالتمييز الجنسى فى غاية السآمة والملل والتفاهة !

وفى الحقيقة ففى الفترة الأخيرة صارت تظهر نماذج " المرأة العصرية التى بنظام عصر التقدم والإنجازات العلمية الضخمة وبالتالى فهى تكتشف لنفسها " الكريم الفرنسى غالى الثمن من أجل إزالة التجاعيد والفوط النسائية (أوه ما أجمل أن يشعر الإنسان بالنظافة والجفاف !) ومسحوق الغسيل الجديد وأطباق "تيفال" وقطع حلوى "تيك تاك" . وفى الواقع والشيطان نفسه لا يعرف حتى أى من هذه الإعلانات مقزز وأى منها مثير للغضب . نموذج ربة البيت الحمقاء الغبية أم تلك المرأة العصرية .

وحتى الإعلانات السياسية التى تعتبر جديدة بالنسبة لنا لا يمكن لمصمميها والقائمين عليها أن يفلتوا من إغراء الأنماط الجنسية والتمييز الجنسى . وأنا أقصد هنا إعلان إيفان ريبكين فى الحملة الانتخابية الرئاسية لعام ١٩٩٦م . وكان هذا الإعلان وقتها موجها إلى القطاع العريض من "بسطاء" الشعب . وكممثلين لهؤلاء "البسطاء" الذين يفكرون فى حياتهم تم تقديم اثنين من سكان القرى . تيس وبقرة . وكانت البقرة طوال الوقت تسأل التيس باحترام وتوقع وأمل : ما هى السلطة والعدل و إلخ فى حين كان التيس يبدأ كلامه دائما بجملة واحدة : "يااااه كيف يمكن أن أوضح لك بشكل تفهمينه " قاصدا بذلك .. من أين لك أيتها الحرمة البقرة الحمقاء أن تفهمى ذلك

الغريب بالنسبة لروسيا (حيث النساء حتى الآن يمثلن النصف بين العاملين بالأجرة ونسبة ٦٠٪ بين الناس الحاصلين على تعليم عال ومتوسط تخصصى) أن عملية تجاوز وخرق مبدأ المساواة تجرى أكثر ما تجرى أثناء نشر الإعلانات الخاصة بطلب عاملين أو الخاصة بالمسابقات لشغل وظائف خالية . وفى عام ١٩٩٤م بالذات نظرت محكمة النزاعات الإعلامية فى شكوى اتحاد نساء روسيا واتحاد المحامين بخصوص خرق مجموعة من وسائل الإعلام المطبوعة لمعايير دستور روسيا الاتحادية الخاصة بمساواة النساء . وأعلنت محكمة النزاعات الإعلامية أن الإعلان من نوع "مطلوب للعمل رجال فقط" أو"مسموح للرجال فقط بالمشاركة فى المسابقة " تشكل قيودا ومحاذير خاصة بالجنس وتمثل فى حد ذاتها خرقا وقحا للفقرة ١٩ من دستور روسيا الاتحادية التى تقرر أن " الرجال والنساء يملكون حقوقا وحريات متساوية وإمكانيات متساوية من أجل تحقيق أنفسهم" وللفقرة ١٦ من مجموعة قوانين العمل التى لا تسمح بـ "أية قيود تتوقف على الجنس مهما كانت مباشرة أو غير مباشرة أثناء القبول للعمل " وقرار منظمة الأمم المتحدة الخاص بـ "القضاء على جميع أشكال التمييز ضد النساء" والذى يعلن أن الرجال والنساء يملكون الحق "فى الفرص المتساوية أثناء التقدم للعمل بما فى ذلك اتباع نفس المعايير والمقاييس الخاصة بالاختبار أثناء عملية القبول" . وقررت محكمة النزاعات أيضا أن نشر الأخبار من نوع "هيئة التحرير غير مسؤولة عن مضمون الإعلان" فى صيغته العامة مخالف للمادة ٥٧ الخاصة بـ "إخلاء المسؤولية" فى قانون وسائل الإعلام . فى هذه المادة وردت القائمة التفصيلية للمظاهر التى تنتقص من الحقوق والمصالح المشروعة للمواطنين والتى تتحمل مسؤوليتها هيئة التحرير ورئيس التحرير والمحررين المسؤولين عن النشر . وعلى ضوء ذلك تقع مسؤولية مضمون الإعلان المنشور فى وسائل الإعلام على عاتق هيئة التحرير ورئيس التحرير .

واستنادا إلى ما ذكر آنفا قررت محكمة النزاعات الإعلامية :

" ١ ـ الاعتراف بأن نشر الأخبار والمواد فى وسائل الإعلام بما فيها الإعلانات ذات النزعة الموجهة للتقييد المباشر أو غير المباشر أيا كان للحقوق أو وضع العقبات المباشرة أو غير المباشرة أيا كانت أثناء القبول للعمل على أساس الجنس تعتبر خرق وقح لمساواة الرجال والنساء المنصوص عليها فى دستور روسيا الاتحادية وفى التشريعات

الأخرى التى نصت عليها معايير القانون الدولى .

٢ . ---

٣ . إعطاء التوجيهات إلى هيئات التحرير فى وسائل الإعلام بمراقبة الإعلانات المنشورة ومدى مطابقتها للدستور والتشريعات الأخرى المعمول بها فى روسيا الاتحادية " (قرار محكمة النزاعات الإعلامية رقم ٥ بتاريخ ١٧ مارس ١٩٩٤م) .

بيد أنه وللأسف تجدر الإشارة إلى أنه رغم وجود هذا القرار الذى أثر بعض الشئ على عمل الجرائد المحترمة التى كفت عن نشر مثل تلك الإعلانات إلا أن الجرائد المتخصصة فى الإعلانات و" الجرائد الصفراء " مازالت تواصل ممارسة هذه الأمور .

جنسنة الإعلانات

فى كثير من الأحيان يتم الإعلان عن البضاعة باستخدام رموز جنسية مثيرة للاهتمام أو مواقف جنسية مثيرة جنسيا . وفى ٩٠٪ من الحالات يكون " الطعم " الجنسى هو جسد المرأة . ومع ذلك فالمقصود هنا ليس إطلاقا تلك الحالات التى يتم فيها استخدام الأنوثة الطبيعية للمرأة فى خدمة الإعلانات الخاصة بأدوات التجميل ولكن الحديث يدور عن المواقف والحالات الشائعة فى الإعلانات المتخصصة بوسائل الإعلام حينما يتم الإعلان عن مواد البناء أو الكمبيوتر أو السيارة أو الموبيليا أو البضائع الصناعية الأخرى على خلفية من الفتيات الجميلات المرتديات مايوهات البكينى أو العاريات تماما وفى أوضاع مثيرة جنسيا . وفى ذات الوقت لا يمكن إطلاقا أن نرى جسدا رجاليا عاريا فى المواد الإعلانية عن السيارات ومواد البناء (يمكن رؤية جسد الرجل الجذاب بمسحة خفيفة من الإثارة فى الإعلانات عن الملابس الداخلية الرجالية فقط . ولكنه من الضرورى أن يكون مرتديا السروال الداخلى والفانلة وفى أغلب الأحوال يكون مرتديا ملابسه كاملة ومن تحتها تختفى الملابس الداخلية التى يتم الإعلان عنها) . بيد أنه فى الوقت الحاضر كثيرا ما يتم ربما من أجل أحد ما استخدام مؤخرات الأطفال الطرية المستديرة . والحديث لا يدور هنا أيضا عن إعلانات الملابس الداخلية للأطفال أو "البامبرز" حيث يكون من الممكن تبرير ذلك وإنما عن إعلانات مواد البناء . وعلى سبيل المثال فى إعلانات شركة "الاستروى" بجريدة "إكسترا . M.

هناك قاعدة أو ميكانيزم بسيط جدا يعمل فى حالة الإعلانات المجنسنة : فالجسد النسائى الجذاب يضفى من ناحية الجاذبية على البضاعة التى يتم الإعلان عنها بشكل جذاب أيضا . ومن ناحية أخرى فحينما يقوم المشترى بتأثير هذا الإعلان بشراء " باركيه " أو " سيراميك " أو حتى " جرانيت " (!) فهو فى وعيه الباطن كما لو كان يشترى "يمتلك" تلك المرأة الجميلة بصورتها الموجودة عليها فى الإعلان . وقد قام أحد الصحفيين وعلى نحو مباشر بتفسير "الغريزة الجنسية كمحرك للإعلان" وعلى سبيل المثال الإعلان عن الولاعة Zippo فهناك على واجهتها الأولى توجد عبارة " ما تقولش لا أبدا ! " وإلى جانبها صورة لامرأة عارية وعلى الواجهة الثانية . رجل يدخن بلذة واستمتاع . " بعد ذلك سيكون فقط الإنسان الأحمق حمقا بينا هو الذى لا يقتنى مثل تلك الولاعة المعجزة التى بفضلها لن يرفض أحد أحدا أو يرفض أحد شيئا فى الفراش !" (ب . مورادوف . الغريزة الجنسية كمحرك للإعلان . مجلة "أرجومنتى إ فاكتى" . موسكو ١٩٩٧م العدد ٢٢) . إن الصحفى يدرك أن جسد المرأة فى الإعلان الجنسى المثير يأتى على هيئة "طعم" وبضاعة ولكنه فى ذات الوقت جائزة أيضا للمشترى ومع ذلك فهو لا يرى هنا أية مشكلة حيث يقول : "إن جعل الإعلان مغرى ومثير جنسيا أمر لا يضر أى أحد بشكل موضوعى" نظرا لأن "الشخص

الأوهام البشعة والفنتازيا الخرافية والنميمة . بيد أن " الوضع العلمى ـ الجماهيرى " يسمح بترويج هذه المطبوعة ولكن ليس إطلاقا فى " مغلفات خاصة أو حتى فى الأماكن التى تتناسب مع الوضع العلمى ".

فى مشروع قانون " حول تنظيم الدولة ورقابتها على دورة المنتجات ذات الطابع الجنسى " والذى جرت القراءة الثانية له فى بداية عام ١٩٩٨م بمجلس الدوما غابت عملية الفصل الدقيق بين الإثارة الجنسية erotism وبين الإباحية الجنسية pornography فى هذه القراءة أعطى التعريف التالى لـ "البورنو" (وهو التعريف أو التحديد الذى لم يكن موجودا فى القراءة الأولى للقانون) : " البورنو هو منتجات وسائل الإعلام والمنتجات المطبوعة الأخرى ومن ضمنها الإعلانات وكذلك الأخبار والمواد التى يتم بثها عن طريق خطوط وقنوات الاتصال والتى تنطوى على التصوير الخشن والازدرائى و (أو) وصف عمليات العنف ذات الطابع الجنسى ومن ضمنها مع القاصرين والعمليات الجنسية المرتبطة بالاستهزاء بجثث الموتى وكذلك العمليات الجنسية المرتبطة بالحيوانات " . ونلاحظ فى هذه الحالة أنه لم يتم ذكر أى شئ عن منع وتحريم عمليات العنف ذات الطابع الجنسى المرتبطة بالنساء !

وبشكل عام فعدم دقة مفهوم البورنو الذى يستخدم حاليا فى التشريعات الروسية تصنع خطر الازدواجية أو خطر خطأ تفسير هذه الظاهرة والنتيجة هى عدم إمكانية التنظيم القانونى للبورنو فى وسائل الإعلام . وعلى سبيل المثال فتمثال رودان " قبلة " يمكن أن يقع تحت طائلة قانون البورنو بمفهومه الحالى (بسبب التصوير التفصيلى للتفاصيل التشريحية والفيزيولوجية للعملية الجنسية) بينما لن يقع تحت طائلته غلاف مجلة " الأيدز والمعلومات " الذى يصور طفلا صغيرا يزيح طرف جونلة امرأة كاشفا عن مؤخرتها ويدعو "الفتيات للشراء" .

إن كلمة pornography جاءت من الأصل اليونانى porne عاهرة و graphein أو graphos (كتابة أو رسم أو تصوير) . وبذلك فكلمة porne كانت تعنى طبقة العاهرات الدنيا فى عمومها (الجوارى المخصصات للجنس) والتى كانت تخدم جميع الرجال ـ المواطنين . وفى قاموس Webster's ـ ١٩٦٢م :

«البورنو فى بدايته كان يعنى وصف العاهرات وحرفتهن . وفيما بعد أصبح ـ النصوص والصور و الموجهة لإثارة الغرائز الجنسية ».

مبدأ المساواة بين الجنسين feminism والبورنو : نعم و لا

لقد ورد فى تقرير الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة أنه قد انتشرت فى الآونة الأخيرة فى جميع أنحاء العالم حالات عرض وتقديم مشاهد العنف وخاصة فى وسائل الإعلام ويقول : " إن غياب الرقابة فى التلفزيون وكذلك تزايد عدد المحطات الفضائية الدولية أدت إلى تزايد عروض المواد الإباحية إلى عشرة أمثالها خلال السنوات العشر الأخيرة . هذا وقد تم رصد هجمة ضخمة للعروض المكشوفة للمواد الجنسية فى أوروبا الشرقية أيضا . وهناك بيزنس هائل يعمل فى إنتاج وتسويق هذه المواد وهذا البيزنس مرتبط أيضا بالإكراه على ممارسة الدعارة وتجارة النساء وهو يتزايد ويتضخم بسرعة مرعبة ويتحوله إلى أحد أشكال الجريمة المنظمة فقد أصبح يمارس على نطاقات عالمية واسعة .

وفيما بعد فى نفس التقرير جاء : " نظرا لأن العنف الجنسى فى حق النساء يعتبر خرقا لحقوقهن الإنسانية فهذه المشكلة سوف تكون خارج أطر القضايا الأخلاقية . والتحديد الموجود فى إعلان استئصال العنف فى حق النساء والذى يتحدث عن أن مصطلح " العنف فى حق النساء " يعنى " أى فعل عنيف يتم ارتكابه على ضوء الاتصال الجنسى الذى يسبب أو يمكن أن يسبب ضررا نفسيا أو جنسيا أو عضويا أو معاناة للنساء وكذلك التهديد بارتكاب هذه الأفعال " يعتبر ـ هذا التحديد ـ وضعا قانونيا دوليا يجب أن يستخدم فى ممارسة الحد من البورنو والعنف فى

علاقتهما بالنساء فى وسائل الإعلام .

وكما تكتب الباحثة التى تنادى بالمساواة بين الجنسين الـ feminist أندريا دفوركين : " الكثيرون منا يستخدمون كلمتين شهيرتين وردتا إلينا من اليونان - الديمقراطية والدعارة . أما الديمقراطية فقد استثنت منذ البداية جميع النساء وبعض الرجال . والدعارة منذ البداية بررت ذلك وتسببت فيه بإظهارها أنوثة المرأة كأنوثة داعرة (brothel slut أو chattel whore والبورنو كجنس (نوع) فنى يقول بأن سرقة وبيع وشراء النساء - ليس عنفا أو إهانة لأن النساء يعجبهن أن يمارس معهن العنف والعهر نظرا لأن هذه هى طبيعة النساء وطبيعة أنوثتهن . وبما أن البورنو - هو فى الواقع النص المكتوب أو الرسم أو التصوير فقد أصبح من الممكن اعتباره ظاهرة ثقافية لها خصوصيتها كما هى على الأوراق وليس فى الحياة بل وحتى كما هى عليه من جمالية - إستيطيقية وثقافية ذهنية . وبظهور كاميرات التصوير والفيديو تم استبدال رسم النساء بـ " تصويرهن " فى الواقع .

ولكن من أجل الحق يمكن ذكر أنه بين المناديات بمبدأ المساواة بين الرجال والنساء توجد وجهتا نظر متعارضتين بخصوص البورنو - مع و ضد .

فمنطق وأدلة المناديات بالمساواة بين الرجل والمرأة والمساندات للبورنو ليست دائما متوافقة (المقصود هنا الأدلة والمسوغات والأسباب) . جزء منهن لا يقف مع النضال ضد البورنو خشية أن يؤدى ذلك إلى اتخاذ إجراءات صارمة ضد النساء - العاهرات والسحاقيات وكذلك إلى وضع القيود على الأنوثة النسائية والعبث بحقوق المرأة . والجزء الثانى منهن يعادل البورنو بفن الإغراء والتصورات والأفكار الخاصة بالإثارة الجنسية - أى مع شئ ما غير واقعى وإنما يتعلق بعالم الأفكار والتصورات . وبالتالى فهن ينظرن إلى تقييد البورنو كتهديد لحرية الكلمة (- الفكر) وكرقابة أيضا .

أما مواقف المناديات بالمساواة بين الرجل والمرأة والمناهضات للبورنو فهى أكثر مصداقية لأنها مدعمة بالدلائل والأسانيد وتتميز بالمسؤولية الاجتماعية . ففى عام ١٩٨٣م بالولايات المتحدة الأمريكية قام المجلس المحلى بولاية مينيسوتا بتكليف أستاذة القانون كاتريا ماكينون والباحثة الـ feminist الشهيرة أندريا دفوركين بإعداد مشروع "إعلان حول خرق حقوق المرأة كحقوق مدنية عن طريق البورنو" . وحدد إعلان الحقوق المدنية البورنو كـ "ممارسة للتمييز الجنسى تجعل تبعية النساء مجرد تبعية جنسية وتجعل العنف ضد النساء فى صورة إثارة جنسية" .

وبعد ذلك صار هذا المفهوم أكثر تحديدا : " البورنو يعنى تبعية النساء بصورة أحادية وبشكل جنسى عن طريق الصور و / أو الكلمات ويتضمن واحدة أو أكثر من النقاط التالية :

١ - تقديم النساء على نحو غير إنسانى كهدف جنسى أو أشياء أو بضائع (مادة استهلاكية) .

٢ - تقديم النساء على شكل الأهداف الجنسية التى تستمتع بالإهانة والألم .

٣ - تقديم النساء فى صورة الأهداف الجنسية التى تستمتع بالاغتصاب وسفح الدم أو الأشكال الأخرى من صور الاعتداء .

٤ - تقديم النساء فى صورة الأهداف الجنسية المقيدة أو الجريحة أو المشوهة أو المصابة بكدمات ورضوض أو المصابة بعاهات جسدية .

٥ - تقديم النساء فى أوضاع أو مواقف خضوع جنسى وذل وخنوع .

٦ - تقديم أجزاء الجسد (بما فيها العضو التناسلى والثديين والحلمتين - نظرا لأنهم لا يقتصرون عليها فقط) على اعتبار أن المرأة لا تتكون إلا من هذه الأجزاء .

٧ ـ تقديم النساء على أنهن مجرد شئ مجموع ومضاف إلى الأدوات أو الحيوانات .

٨ ـ تقديم النساء في مشاهد الانحطاط والاحتقار والتشوه والضرب وتصويرهن ذليلات وقذرات ينزفن دماء ويكدمات ورضوض في سياق يجعل كل تلك الظروف والمواقف مثيرة جنسيا " .

أحيانا يظهر تساؤل : لماذا يصيبنا القلق والتوتر إلى هذا الحد بخصوص التشريعات والقوانين المناهضة للبورنو إذ أنه على أية حال أحد عناصر الثقافة الجنسية !

ورغم ذلك فالإجابة ببساطة : إن التشريع المدني هو الضمانة الأمينة والحقيقية لمنع أى شئ يوجد بدون رقابة فى النظام التشريعى . وهو لن يعمل على تجريم إنتاج البورنو ويجعل منه صناعة سرية . على العكس سوف يعمل على توضيح الضرر الذى يسببه البورنو لملايين النساء ويضع صيغة قانونية للنضال ضده .

علاقتهما بالنساء فى وسائل الإعلام .

وكما تكتب الباحثة التى تنادى بالمساواة بين الجنسين الـ feminist أندريا دفوركين : " الكثيرون منا يستخدمون كلمتين شهيرتين وردتا إلينا من اليونان - الديمقراطية والدعارة . أما الديمقراطية فقد استثنت منذ البداية جميع النساء ، وبعض الرجال . والدعارة منذ البداية بررت ذلك وتسببت فيه بإظهارها أنوثة المرأة كأنوثة داعرة (brothel slut أو chattel whore والبورنو كجنس (نوع) فنى يقول بأن سرقة وبيع وشراء النساء - ليس عنفا أو إهانة لأن النساء يعجبهن أن يمارس معهن العنف والعهر نظرا لأن هذه هى طبيعة النساء وطبيعة أنوثتهن . وبما أن البورنو - هو فى الواقع النص المكتوب أو الرسم أو التصوير فقد أصبح من الممكن اعتباره ظاهرة ثقافية لها خصوصيتها كما هى على الأوراق وليس فى الحياة بل وحتى كما هى عليه من جمالية - إستيطيقية وثقافية ذهنية . وبظهور كاميرات التصوير والفيديو تم استبدال رسم النساء بـ " تصويرهن " فى الواقع .

ولكن من أجل الحق يمكن ذكر أنه بين المناديات بمبدأ المساواة بين الرجال والنساء توجد وجهتا نظر متعارضتين بخصوص البورنو - مع و ضد .

فمنطق وأدلة المناديات بالمساواة بين الرجل والمرأة والمساندات للبورنو ليست دائما متوافقة (المقصود هنا الأدلة والمسوغات والأسباب) . جزء منهن لا يقف مع النضال ضد البورنو خشية أن يؤدى ذلك إلى اتخاذ إجراءات صارمة ضد النساء - العاهرات والسحاقيات وكذلك إلى وضع القيود على الأنوثة النسائية والعبث بحقوق المرأة . والجزء الثانى منهن يعادل البورنو بفن الإغراء والتصورات والأفكار الخاصة بالإثارة الجنسية - أى مع شئ ما غير واقعى وإنما يتعلق بعالم الأفكار والتصورات . وبالتالى فهن ينظرن إلى تقسيد البورنو كتهديد لحرية الكلمة (بالفكر) وكرقابة أيضا . :

أما مواقف المناديات بالمساواة بين الرجل والمرأة والمنهضات للبورنو فهى أكثر مصداقية لأنها مدعمة بالدلائل والأسانيد وتتميز بالمسئولية الاجتماعية . ففى عام ١٩٨٣م بالولايات المتحدة الأمريكية قام المجلس المحلى بولاية مينيسوتا بتكليف أستاذة القانون كاتريا ماكينون والباحثة الـ feminist الشهيرة أندريا دفوركين بإعداد مشروع "إعلان حول خرق حقوق المرأة كحقوق مدنية عن طريق البورنو" . وحدد إعلان الحقوق المدنية البورنو كـ "ممارسة للتمييز الجنسى تجعل تبعية النساء مجرد تبعية جنسية وتجعل العنف ضد النساء فى صورة إثارة جنسية" .

وبعد ذلك صار هذا المفهوم أكثر تحديدا : " البورنو يعنى تبعية النساء بصورة أحادية وبشكل جنسى عن طريق الصور و / أو الكلمات ويتضمن واحدة أو أكثر من النقاط التالية :

١ - تقديم النساء على نحو غير إنسانى كهدف جنسى أو أشياء أو بضائع (مادة استهلاكية) .

٢ - تقديم النساء على شكل الأهداف الجنسية التى تستمتع بالإهانة والألم .

٣ - تقديم النساء فى صورة الأهداف الجنسية التى تستمتع بالاغتصاب وسفح الدم أو الأشكال الأخرى من صور الاعتداء .

٤ - تقديم النساء فى صورة الأهداف الجنسية المقيدة أو الجريحة أو المشوهة أو المصابة بكدمات ورضوض أو المصابة بعاهات جسدية .

٥ - تقديم النساء فى أوضاع أو مواقف خضوع جنسى وذل وخنوع .

٦ - تقديم أجزاء الجسد (بما فيها العضو التناسلى والثديين والحلمتين نظرا لأنهم لا يقتصرون عليها فقط) على اعتبار أن المرأة لا تتكون إلا من هذه الأجزاء .

٧ ـ تقديم النساء على أنهن مجرد شئ مجموع ومضاف إلى الأدوات أو الحيوانات .

٨ ـ تقديم النساء في مشاهد الانحطاط والاحتقار والتشوه والضرب وتصويرهن ذليلات وقذرات ينزفن دماء ، وبكدمات ورضوض في سياق يجعل كل تلك الظروف والمواقف مثيرة جنسيا " .

أحيانا يظهر تساؤل : لماذا يصيبنا القلق والتوتر إلى هذا الحد بخصوص التشريعات والقوانين المناهضة للبورنو إذ أنه على أية حال أحد عناصر الثقافة الجنسية !

ورغم ذلك فالإجابة ببساطة : إن التشريع المدني هو الضمانة الأمينة والحقيقية لمنع أي شئ يوجد بدون رقابة في النظام التشريعي . وهو لن يعمل على تجريم إنتاج البورنو ويجعل منه صناعة سرية . على العكس سوف يعمل على توضيح الضرر الذي يسببه البورنو لملايين النساء ويضع صيغة قانونية للنضال ضده .

خلط الثقافة بالتاريخ والدين بالسياسة من أجل صناعة تاريخ آخر

(١)

فى واحدة من الزيارات الكثيرة المتكررة لموسكو قام وزير الخارجية الإسرائيلى شيمون بيريز بزيارة متحف الكاتب الروسى ليف تولستوى وسط ضجة إعلامية تعتبر الأولى من نوعها خلال السنوات الأخيرة .

وفى إطار مجموعة التصريحات الخطيرة التى أدلى بها أمام الصحافة الروسية والعالمية قال بيريز " أعتقد أن هناك أفكارا خاطئة فى العالم كله عن علاقة تولستوى بالشعب اليهودى . فالكاتب العظيم كان يملك علاقة لها خصوصيتها بشعبنا بل ودرس اللغة العبرية وقرأ التوراة " .

أثارت هذه التصريحات غضب المثقفين الروس بسبب طبيعتها المضللة نظرا لأن أغلب الكتاب الروس فى القرن التاسع عشر كانوا مهتمين عموما بالديانات الأخرى غير المسيحية . وكان جوجول على سبيل المثال يعرف العربية ويحفظ بعض سور القرآن وتجلى ذلك فى العديد من كتاباته (على سبيل المثال تحليله لخلافة المأمون وشخصيته) . إضافة إلى أن أغلب الكتاب مثل ديستويفسكى وأكساكوف وبلينسكى كانوا يعرفون لغات شرقية ومطلعين على كافة الديانات كجزء أساسى من ثقافتهم . إلا أن بيريز رأى فى ذلك خصوصية فى علاقة الكاتب الروسى العظيم بما يعتبره " الشعب اليهودى " .

واستمرارا لتصريحاته التى تعمد فيها خلط الأوراق ثقافيا وتاريخيا قال بيريز " يسعدنى أن أرى الشعب الروسى وهو يقدر ذكرى ليف تولستوى فهو مثل التوراة وشكسبير ينتمى إلى العالم كله " .

الأكثر إثارة هو تعمد بيريز الحديث عن شكسبير بتلك اللهجة الغريبة وهو يدرك جيدا مدى القطيعة بين شكسبير واليهود ومدى كراهيتهم للكاتب الإنجليزى العظيم بسبب رائعته "تاجر البندقية" الذى جسد فى بطلها " شايلوك " الجشع اليهودى فى أبشع صوره لدرجة أن هذا النموذج الفنى أصبح على مدى القرون دليلا دامغا على العديد من ممارسات اليهود فى كل المجتمعات وفى كل الحقب التاريخية .

وفى سخرية واضحة علق العديد من المثقفين الروس على حيلة وزير خارجية الدولة الصهيونية بخلط الأوراق الذى يستهدف بالدرجة الأولى تجميل الوجه الصهيونى المعادى ليس فقط لشكسبير وديستويفسكى وكبار كتاب العالم الذين كشفوا الوجه المرعب لـ " الجيتو " اليهودى بل وأيضا للثقافات الأخرى ومحاولة السطو عليها أو الادعاء بالمشاركة فيها .

الجدير بالاهتمام أن شكسبير يقف على رأس قائمة طويلة من المعادين لما يسمى بـ "السامية" . وتضم هذه القائمة مجموعة من كبار الكتاب الروس فى القرن التاسع عشر مثل إيفان أكساكوف ونيكولاى جوجول وألكسندر بلوك وميخائيل ليرمنتوف وفيودر ديستويفسكى . ولعل الأخير يتساوى لدى اليهودى بشكسبير بسبب وثيقته التاريخية الخطيرة " المسألة اليهودية " التى أدان فيها " الجيتو " اليهودى فى روسيا ومعاداته للشعب الروسى واستعباده لفترات طويلة خلال القرن التاسع عشر . ولعل خطورة هذه الوثيقة الديستويفسكية تكمن فى ما ورد فيها من تنبؤات تكشف عن الكثير من الممارسات الحالية التى يمارسها اللوبى الصهيونى العالمى والسياسيون الإسرائيليون حاليا .

(٢)

منذ فترة غير بعيده صدر كتاب من ١٩١ صفحة من القطع الصغير بالروسية تحت عنوان (اليهود فى الثقافة

الروسية) . وهو عبارة عن معجم أعلام صغير تضمن ١٠٥٦ اسما لألمع رجال الثقافة والفكر والفن في روسيا القيصرية ومن بعدها السوفيتية ثم روسيا الجديدة .

يتوزع الكتاب على ١١ فصلا بداية من المقدمة التي جاءت على شكل استطلاع رأي افتراضي . أي أن مؤلفي الكتاب افترضوا مسبقا أنهم لو قاموا باستطلاع رأي طرحت فيه أسئلة معينة سيتلقون إجابات معينة : هي تلك المنشورة في مقدمة الكتاب !

س ـ منذ متى يعيش اليهود في روسيا

ج ـ دائما . منذ زمن طويل . لا أعرف .

س ـ كم عدد اليهود في روسيا

ج ـ كل واحد من اثنين . يصعب القول بدقة ومع ذلك فهم كثيرون . لا أعرف .

س ـ ما الأعمال التي يمارسها اليهود في روسيا

ج ـ التجارة تخدير الناس النهب السمسرة النصب الاحتيال .

س ـ وأيضا

ج ـ أحيانا الموسيقى الطب .

س ـ ما هو الوضع الاجتماعي لهذا الشعب

ج ـ اليهود دوما عند السلطة .

س ـ هل حمل هذا الشعب أية فائدة إلى روسيا

ج ـ الضرر فقط لا شئ طيب لا أعرف .

س ـ هل هناك ارتباط لليهود بالثقافة الروسية

ج ـ سؤال مضحك ليس لهم أية علاقة لا أعرف .

س ـ مئات الآلاف من اليهود رحلوا في السنوات الأخيرة عن روسيا . أمر جيد أم سيئ

ج ـ الحمد لله ! كان يجب أن يحدث ذلك منذ زمن بعيد يجب أن يرحلوا عن آخرهم .

بدأ الكتاب بأسماء اليهود الذين ساهموا في الأدب الروسي وبلغت ١٢٥ اسما منهم ميخائيل شاتروف ويوسف برودسكي وبوريس باسترناك وأوسيب مندلشتام ويوري تريفونوف وفاسيلي جروسمان وإسحاق بابل وفاسيلي أكسيونوف . وعلى اعتبار أن اليهود يرون أن بوشكين سكير وزير نساء وديستويفسكي كاتب سيئ وجوجول مجرد دمية كبيرة أنجبت دمى صغيرة كثيرة وتولستوي شخص ملتاث ومتدين وتشيخوف تابع لهم عن طريق زوجته أولجا كنيبر نكتشف أن الأدب الروسي خطه اليهود من ألفه إلى يائه .

وفي باب السينما يأتي ١٩٥ اسما هم كل من بنوا السينما السوفيتية والروسية حاليا . أما باب المسرح الذي ضم ٧٧ اسما فلم يفلت منه إلا ستانسلافسكي الذي يكرهونه بقدر ما يكرهون بريخت . وتأتي الموسيقى بعد الأدب مباشرة من حيث عدد العباقرة اليهود في مجال الموسيقى (١٣٠ اسما) فلت منهم تشايكوفسكي بالصدفة . والفنون التشكيلية ٨٧ على رأسهم مارك شاجال . والفنون الشعبية (الروسية طبعا وليست اليهودية) ٩٣ اسما . والصحافة ٧٩ . والطب ٦١ . والعلوم والتقنيات ١٢٦ اسما . والرياضة ٨٣ اسما .

الكتاب لم يذكر أعداد اليهود في مجالات السياسة والاقتصاد في روسيا . ولكنه يرد على البشرية بحماقة شديدة أحمق من الأسئلة التي يطرحها مبرهنا على أن اليهود لا يمارسون إلا العمل الذهني الذي ساهم في بناء ثقافة

الشعوب الأخرى وخاصة الروس نظرا لأنه بالفعل لا توجد ثقافة روسية كما يدعى الروس وإنما هى ثقافة يهودية - روسية أسسها اليهود من أجل " عيون " الروس .

فى فقرة عابرة بمقدمة الكتاب جاء : " يمكننا أن نفهم جهل الكثيرين وعدم معرفتهم بانتماء العديد من عباقرة العالم إلى الشعب اليهودى مثل : فرانشيسكو جال إميديو موديليانى سارا برنار سيمونا سينورى نيلز بوهر إدوارد تايلور إيف مونتان تسيزار لا مبروزو سيجموند فرويد كارل ماركس كل العلماء الروس ما عدا اثنين أو ثلاثة فرانز كافكا كورت زاندرلينج هنرى جين رومان رولان يوجين يونيسكو ميلوش فورمان جاك أوفينباخ إمرى كالمان مارسيل بروست داستن هوفمان كيرك دوجلاس جان بول بولموندو بن جودمان ليونارد برنشتاين ويمكن الاسترسال إلى نهاية العالم " .

ومع ذلك فالعالم يعرف جيدا رفض بولموندو وهوفمان - القاطع - على سبيل المثال دفع أى مساعدات للجمعيات اليهودية وليس فقط الصهيونية فى فرنسا أو أمريكا . أما الروس فيعرفون جيدا أن القوائم التى أوردها كتاب "اليهود فى الثقافة الروسية" مزيفة على نحو ما . فبينما يشيع اليهود أنهم يعترفون باليهودى لأم يهودية نجد أن العديد من أمهات الواردين فى الكتاب روسيات . فى الوقت الذى يوجد فيه عدد ضخم منهم لأباء وأجداد روس "أبا عن جد" .

(٣)

تحت عنوان " أرض إسرائيل مهبط الديانات والأنبياء " أقامت السفارة الإسرائيلية فى روسيا معرضا للصور فى أضخم معارض موسكو للفنون التشكيلية " البيت المركزى للفنان التشكيلى " فى الفترة من ١٢ إلى ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٠م .

ضم المعرض ٢٥ صورة للقدس وبيت لحم والمسجد الأقصى والبيوت القديمة وحائط المبكى ورافقته حملة إعلامية ضخمة فى وسائل الإعلام الروسية المملوكة جميعا لطواغيت المال اليهود . وبالرغم من صغر حجم المعرض إلا أن الحملة الإعلامية المكثفة لم تستطع التأثير على المواطن الروسى الذى اعتاد قراءة التاريخ قبل ارتياد المعارض وخاصة " البيت المركزى للفنان التشكيلى " .

وفى إطار موجة التدين التى اجتاحت روسيا مؤخرا حاولت وسائل الإعلام استغلالها بالتأكيد على - وكما ذكرت القناتان الأولى والرابعة بالتلفزيون الروسى : " إن أرض إسرائيل هى مهبط جميع الديانات الرئيسية والأنبياء حيث عاش فيها إبراهيم وأولاده وموسى وعيسى ومحمد " . ومع ذلك ظل المعرض خاليا من الزوار طوال فترة إقامته .

وفى إطار هذه الحملة الإعلامية صدرت جريدة " إزفستيا " الروسية بعنوانها الرئيسى : " المسألة الملعونة : من الممكن ألا يبقى فى روسيا ولا يهودى واحد بنهاية القرن . فمن الذى سيبقى "

المعروف أن المسألة الملعونة هى ما يطلق عليه الباحثون " المسألة اليهودية " التى أرقت روسيا القيصرية ومن بعدها الاتحاد السوفيتى ولا تزال تؤرق روسيا الجديدة . بيد أن هذا العنوان جاء لتقرير صدر عن اللجنة اليهودية الأمريكية التى نشطت مؤخرا فى جميع دول أوروبا وخاصة فى روسيا للضغط على مواقفها من ناحية ومحاولة تطويع الرأى العام الروسى من ناحية أخرى بإبراز وجه دينى وسياسى متسامح وهو الأمر الذى يشك فيه الروس كثيرا من فرط ما عانوه منهم فى السابق وما يعانونه الآن من طواغيت المال اليهود فى روسيا .

وحسب توقعات اللجنة اليهودية الأمريكية فإن عدد اليهود في روسيا سينخفض إلى ٢٣ ألف نسمة بعد ٣٠ عاما وسوف يصبح ٢ إلى ٣ آلاف بعد خمسين عاما لتنقرض الجالية اليهودية في روسيا بعد ثمانين عاما . ويذكر التقرير أن عدد اليهود المقيمين في الاتحاد السوفيتي بلغ ٥ر١ مليون يهودي منذ عشرة أعوام وكان هناك ٢ر٥ مليون يهودي قبل بدء الحرب العالمية الثانية أي كان الاتحاد السوفيتي يحتضن ثلث مجموع اليهود في العالم .

ورغم الإحصائيات غير الدقيقة مقارنة بما ذكره روجيه جارودي في كتابه " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " تبقى روسيا أهم محطات يهود العالم كأرض ميعاد أخيرة أو وطن احتياطي في حالة خروجهم من فلسطين .

بالعودة إلى معرض الصور الذي حاول إثبات ما لا يمكن إثباته والحملة الإعلامية الضخمة اجتاحت زوار المعرض نبرة سخرية وأسى وترددت النكات القديمة على ألسنة الروس كرد فعل على ما يحدث خاصة وأن الشارع الروسي البسيط يتابع ما يجري من مفاوضات ويدرك سر الآلة الإعلامية للوبي الصهيوني العالمي . بيد أن العنوان الرئيسي لجريدة " ازفستيا " والذي جاء متزامنا مع بداية المعرض هو الذي لعب دورا هاما في ترديد النكات .

إحدى النكات الهامة التي كانت تتردد في زمن الاتحاد السوفيتي أن سأل أحدهم الآخر : كم عدد سكان مدينة أوديسا أجاب الثاني : مليونان . سأل الأول : وكم عدد اليهود فأجاب الثاني : أنا لا أجيب على السؤال مرتين !

الآن أصبحت مدينة أوديسا تابعة لجمهورية أوكرانيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتي . تلك المدينة التي تشبه المدن الأسطورية في التوراة والتي تعتبر حائط المبكى الحقيقي لليهود حيث دخلت أهازيجهم وأغانيهم وكتاباتهم . أما روسيا الجديدة فلا تزال تضم بين أقاليمها ما يسمى بالإقليم اليهودي ذي الحكم الذاتي في مقاطعة خباروفسك شرق روسيا والذي أسسه ستالين في ٧ مايو عام ١٩٣٤م على مساحة ٣٦ ألف كيلو مترا مربعا ويصل تعداد سكانه إلى أكثر من ٢٢٠ ألف نسمة حسب إحصائيات عام ١٩٩١م .

هل ستتحقق تكهنات اللجنة اليهودية الأمريكية وهل سيقتنع الروس من خلال ٢٥ صورة لمباني تاريخية عربية بأن إسرائيل مهبط الديانات والأنبياء وهل سيرحل اليهود من أوديسا ـ حائط المبكى الأخير أو من الإقليم اليهودي في روسيا أو من روسيا كلها وهي التي تعتبر في لاوعيهم أرض الميعاد الاحتياطية إذن فإلى أين سيرحلون !

سولجينيتسين تحت مطرقة "معاداة السامية"

الكاتب الروسى صاحب نوبل (١٩٧٠) ألكسندر سولجينيتسين مثل كل الكتاب الروس العظام فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ورغم الاتفاق أو الاختلاف حول عظمة أعماله الأدبية والفكرية والسياسية فهو بلا شك سليل تولستوى وديستويفسكى وشولوخوف وجوركى . إلا أن سولجينيتسين يتميز بمجموعة من الصفات الأخرى تبدو فى نظر النقاد وباحثى التاريخ الروس أمور سيئة تضر بسمعة الكاتب (وبالذات الكاتب الروسى الذى لا ينفصل فيه المبدع عن السياسى والمفكر والفيلسوف والشخصية الاجتماعية المتواجدة على الدوام بين الناس) وتقلل من شأنه .

سولجينيتسين معروف بآرائه الحادة والمتناقضة . وكما وصفه الناقد المتخصص فى الأدب الروسى وأعمال مكسيم جوركى على وجه الخصوص البروفيسور فاديم بارانوف : أخطر عيوب سولجينيتسين أنه " ودنى " . أى يعمل بأذنيه . فهو يحب الاستماع إلى الشائعات والأقاويل والتلصص على أخبار الغير . وبعد ذلك يبنى آراءه على تلك الأقاويل مهما كان قائلها ومهما كانت مجانبة للصواب .

فى آخر تصريحاته الساخنة أعلن سولجينيتسين أنه ضد نظام الأحزاب لأنها - أى الأحزاب - لا تفعل شئ لصالح المجتمع وإنما تلعب لصالح نفسها وأعضائها وتسعى للوصول إلى السلطة مهما كلف الأمر . وقال أيضا : لا يجب أن تصرف الدولة على الأحزاب لأنها مؤسسات أنانية وانتهازية .

وفى الوقت نفسه قال الكاتب الروسى : يجب تشكيل مؤسسات اجتماعية تخصصية فئوية تدافع عن مصالح الناس وتضمن لهم الحرية فى الحياة .

المثير أن الكاتب الروسى الكبير كان فى فترة من فترات حياته ضحية هذه الآراء بالذات ولم يدافع عنه سوى الأحزاب الديمقراطية فى الغرب وبالذات فى فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . وبعد أن عاد نهائيا من هجرته إلى الخارج بدأ يطلق تصريحات فى غاية الخطورة والتناقض .

الأمر الآخر الأخطر أن سولجينيتسين كان من أشد أنصار خروج الجيش الروسى من الشيشان . بل صال وجال فى أنحاء روسيا مناديا بترك الشيشان لتحدد مصيرها بنفسها وسحب الجيش الروسى من هذه الأراضى الغريبة .

إلا أن الكاتب وكعادته تراجع مؤخرا عن آرائه بشأن الشيشان وأصبح من أشد أنصار تأديب هذا الشعب وإعادته إلى الحظيرة الروسية مهما كلف الأمر .

الأخطر من هذا وذاك أن روسيا قد أصدرت قانونا فى عام ١٩٩٦ بإلغاء حكم الإعدام من أجل الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى الذى اشترط على موسكو تنفيذ البرتوكول رقم ٦ من الميثاق الأوروبى والخاص بإلغاء أحكام الإعدام . إلا أن سولجينيتسين قد صرح مؤخرا بأنه ضد إلغاء هذا الحكم وبالذات فى حق المقاتلين الشيشان واصفا إياهم بالإرهابيين .

أما بخصوص الغرب الذى دافع فى يوم من الأيام عن سولجينيتسين ووفر له الملجأ والحماية طوال سنوات عديدة فقد قال عنه الكاتب : "الغرب لم يعانى مما عانيناه أو نعانيه . وبالتالى لا يمكنه أن يعلمنا أو يحاكمنا على شئ" .

الرجل ملئ بالتناقضات . ففى لقاء تاريخى جلس مع الرئيس الروسى فلاديمير بوتين على مدى ثلاث ساعات كاملة بناء على رغبة الأخير . وتحت عنوان (حوار الرئيس مع الضمير : يبدو أن بوتين وجد الشخص الذى سيدعمه روحيا) صدرت صحيفة " نيزافسيمايا جازيتا " بموضوع هام تحلل فيه أهم النقاط التى يمكن أن يكون قد تناولها رئيس الدولة مع صاحب نوبل الذى يطلقون عليه فى روسيا "ضمير الأمة" .

أشارت الصحيفة إلى أن الرئيس الروسى لن يطلب لقاء ضمير الأمة من أجل مناقشة جمع محصول البطاطس

لعام ٢٠٠٠م ولا من أجل مناقشة أنواع الفودكا الروسية . ولكن يبدو أن بوتين بعد لقائه مع جورباتشوف ويلتسين قرر الحصول على دعم أحد أهم رؤوس الثقافة الروسية نظرا للتقدير الذى يحظى به داخل روسيا وخارجها .

المعروف أن ميخائيل جورباتشوف استطاع الحصول على رضاء الكتاب الروس فى النصف الثانى من الثمانينات وبالأخص الكاتب فالنتين راسبوتين على إجراءات البيريسترويكا والعلانية كتمهيد لتفكيك الاتحاد السوفيتى السابق . واستطاع يلتسين أن يجند عددا غفيرا من الكتاب والمبدعين الروس لخدمة الإصلاحات الجديدة فى روسيا والتى انتهت بمجمل الكوارث الجارية فى روسيا . أما بوتين الذى جاء فى وقت عصيب من تاريخ روسيا فقد قرر هو الآخر أن يسير على نفس الطريق مشركا بذلك ألكسندر سولجينيتسين لما يتمتع به من احترام بين مختلف الدوائر الإبداعية والثقافية فى روسيا والغرب .

فهل سيصبح مصير سولجينيتسين مثل مصير راسبوتين الذى اعترف بصراحة شديدة بأن لقاءه مع جورباتشوف كان أحد أفظع الأخطاء التاريخية التى ارتكبها فى حياته ولن يغفرها أبدا لنفسه وهل سيندم سولجينيتسين مثلما ندم العديد من الكتاب والمبدعين الذين ساندوا يلتسين

وإذا كان الحديث بين قمة السياسة والأدب فى روسيا لن يدور حول البطاطس والفودكا فحول أى شئ سيدور . هذا السؤال طرحته الجريدة المستقلة الروسية من أجل إلقاء حجر صغير فى المياه الراكدة .

الجدير بالذكر أن سولجينيتسين من أهم المناهضين لسيطرة طواغيت المال على السلطة والمجتمع فى روسيا . وفى أحد مقالاته الأخيرة أكد على أن : " هناك مجموعة مغلقة تقود روسيا قوامها من الإداريين القدامى والشيوعيين وجزء كبير من المجرمين " . ونادى بإبعاد طواغيت المال والتشكيلات الإجرامية عن جسد روسيا المضعضع .

سولجينيتسين مثل كبار كتاب روسيا فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين : يتجول باستمرار فى سيبيريا والفولجا والقرى الروسية النائية والمنسية منذ قرون طويلة . فهل استمع إليه بوتين إذا كان قد تحدث بشأن القرية الروسية أم غير الموضوع إلى وجهة أخرى وهل استجاب له سولجينيتسين العنيد والمرواغ وضمير الأمة أم يحدث الخلاف التاريخى بين تصورات أهل السلطة وأهل الإبداع على الرغم من أن السلطة فى روسيا بحاجة دائمة وماسة إلى دعم الأخيرين

فى نهاية اللقاء صرح سولجينيتسين قائلا : " لدينا رئيس دولة قدير وحيوى وقادر على حل العديد من قضايا البلاد " . فهل هذا ما رآه سولجينيتسين فعلا أم ما تمنى أن يقوم به الرئيس الروسى الذى كان جديدا فى تلك الأيام !

فى الفترة الأخيرة يتعرض سولجينيتسين لحملة عدائية شرسة رغم تقليديتها وابتذالها . فبمجرد صدور الطبعة الأولى (الجزء الأول فقط) من كتاب (٢٠٠ عام معا : ١٧٩٥ - ١٩٩٥) للكاتب وجدت وسائل الإعلام الروسية التابعة للكتل والتنظيمات الصهيونية فى روسيا "ضحية" جديدة لتبرير وجودها ونشاطاتها ولفت أنظار المثقفين الروس عما عانته ولا تزال تعانيه العديد من الشعوب على يد "الجيوب" الصهيونية المنشرة فى كل الدول .

الكتاب يتكون من جزأين . صدر الجزء الأول منذ أيام قليلة متضمنا ١٢ فصلا فى ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط تبدأ من نهاية القرن الثامن عشر وتنتهى بالحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٦) ويتناول الكاتب فيها علاقة الروس باليهود على مدار ما يقرب من قرنين كاملين . واستخدم الكاتب من أجل ذلك ١٧٠ مرجعا تاريخيا وعلميا .

أثار نبأ خروج مثل هذا الكتاب إلى النور ضجة هائلة فى روسيا بشكل عام نظرا لتحريم مناقشة هذا الموضوع بالذات وفى أوساط القوميين الروس واليهود فى روسيا وإسرائيل على وجه الخصوص . وقبيل ظهور الكتاب فى دار

"الكلمة الروسية" بشهر واحد صدر حوالي ٤٠ مقالا ودراسة (أي ما يقرب من حجم الكتاب تقريبا) حول ما يسمى بـ "المسألة اليهودية" في روسيا وتوقعات كتابها عن مادة الكتاب .

وبمجرد ظهور الجزء الأول في الأسواق ثارت ثائرة اللوبي الصهيوني في روسيا وتمترست وسائل الإعلام والمجلات السميكة خلف درع من الهجوم الحاد على سولجينيتسين والذي بدأ من انتقاد أسلوب الكتابة وأسلوب البحث إلى انتقاد المنهج والحجج التاريخية والاتهام بالخبل (مثلما اتهموا من قبل جوجول وديستويفسكي وتولستوي) . فاتهمه البعض بأنه سرق أسلوب كرامزين ورأى البعض الآخر أن الكتاب ليس بحثا تاريخيا وإنما مجرد حكايات من وجهة نظر شخصية وذاتية جدا لأحد " الأدباء " كبار السن .

على الجانب الآخر رأى بعض الكتاب والنقاد الروس من التيار القومي أن سولجينيتسين استطاع أن يجمل تاريخ علاقة الروس باليهود في روسيا خلال قرنين كاملين ويلقي الضوء على المنعطفات التي لا تزال موجودة . وأعربوا في " سخرية مرة " عن مخاوفهم لتعرض الكاتب لمحرقة اللوبي الصهيوني العالمي ووضعه في قائمة ما يسمى بـ " معاداة السامية " . بينما أعرب الباحثون الروس بشكل عام عن ترحيبهم بمثل هذا الجهد العلمي (على الرغم من اختلاف الكثيرين منهم مع بعض وجهات النظر الواردة في الكتاب) الذي ناقش فيه سولجينيتسين أوضاع اليهود في روسيا مقارنا إياها بأوضاع الروس في روسيا ! مبرهنا بذلك على عدم صحة الأرقام التي يعتمدها اليهود في كتبهم وموسوعاتهم عن عدد الضحايا الذين راحوا لما سمي بالصدامات الروسية اليهودية في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والتي يطلق عليها اليهود " المذابح " (بوجرومي) .

الجزء الأول من كتاب (٢٠٠ عام معا) يفضح ولع اليهود والمؤسسات الصهيونية العالمية بلعبة الأرقام المبالغ فيها الأمر الذي يدفع القارئ العادي على ضوء ماورد في كتاب سولجينيتسين إلى التفكير بجدية في ادعاءات اليهود بشأن أرقام ما يسمى بـ " الهولوكست " والأرقام الأخرى الكاذبة التي يعتمدونها ويروجون لها .

وبطريقة سلسة وهادئة للغاية يدافع سولجينيتسين عن الكتاب الروس الذين تناولوا " المسألة اليهودية " في روسيا ووقعوا ضحية لاتهامات اللوبي الصهيوني العالمي مثل شولجين وديستويفسكي وأكساكوف .

وعلى الرغم من أن سولجينيتسين استخدم في كتابه نبرة هادئة تجاه اليهود مثلما استخدم ديستويفسكي في مقاله الرائع " المسألة اليهودية " منذ أكثر من ١٠٠ عام وكذلك شولجين في كتابة الهام " ما لا يعجبنا فيهم " منذ أكثر من ١٠٠ عام أيضا إلا أن الكتاب يعتبر ردا عاما وشاملا وموضوعيا على ما يسمى بـ " المسألة اليهودية " والذي يمكن أن يتعرض بسببه صاحب نوبل الروسي إلى العقاب الشديد واللعنة الأبدية مثل أبناء جلدته الذين حاولوا فك طلاسم الخرافات اليهودية .

العرب خرجوا من القوائم الأوروبية منذ ١٠٠٠ عام

دخل العالم إلى الألفية الثالثة بفرضيات جديدة تماما . ولعل الجميع يعرفون أن من دخل إليها طائرا ليس كمن دخلها على قدميه وليس مثلهما أبدا من دخلها نائما أو مضطجعا أو طائرا بتأثير "البانجو" . فى لفتة هامة تكتسب أيضا أهميتها من الأحداث الجارية بشأن ما يسمى اليوم بـ "العالم المتحضر" الذى يواجه "العالم المتخلف حضاريا" كانت أكبر صحيفة روسية (نيزافيسيمايا جازيتا) قد خصصت ملحقها الثقافى الأسبوعى لنشر أهم ١٠ كتب وشخصيات وأحداث وشعارات أثرت فى مسار الألفية الثانية المنصرمة . وأشارت الصحيفة فى شبه اعتذار إلى أن " عملى " رسالة الغفران " لأبى العلاء المعرى و"ألف ليلة وليلة " لن يدخلا إلى القوائم المذكورة لأنهما صدرا قبل بداية الألفية الثانية على الرغم من أهميتهما " .

وعندما انتهيت من قراءة ملف الجريدة الروسية انتابتنى حالة غريبة من التوتر المشوب بالخجل والاحتقار وكل أحاسيس جلد الذات . فخلف الأربعين رقما لم يكن هناك أي شئ عربى سوى بعض إشارات الهزائم . وكل ما تم إنتاجه من فكر وعلم ومعرفة كان من إنتاج الغرب على مدى الألف سنة الماضية .

الكتب العشرة

١-الكوميديا الإلهية ـ دانتى ـ طبع للمرة الأولى عام ١٣٠٥ .

٢-الخلاصة اللاهوتية ـ توما الإكوينى ـ ١٤٦٣ (اطلع الإكوينى فى كتابه هذا على أعمال ابن سينا والغزالى وابن رشد) .

٣-المدينة الفاضلة " يوتوبيا " ـ توماس مور ـ ١٥١٦ .

٤-نقد العقل المحض ـ كانط ـ ١٧٨١ .

٥-هكذا قال زرادشت ـ نيتشه ـ ١٨٨٣/١٨٨٥ .

٦-تفسير الأحلام ـ سيجموند فرويد ـ ١٩٠٠ .

٧-كابالا دينوداتا ـ كريستيان كنور روزينروت ـ ١٦٧٧ (أحد أهم الكتب التى فضحت الشعوذة اليهودية المرتبطة بتقليعة تفسير تاريخ البشرية على أساس التوارة . وساهم هذا الكتاب فى بناء الفكر الدينى المسيحى فى أوروبا) .

٨-رأس المال ـ كارل ماركس ـ ١٨٥٧/١٨٦٧ .

٩-مطرقة الساحرات ـ هنرى إنستيتوريس وياكوب شبرينجر ـ ١٨٨٤ .

١٠-الاخوة كارامازوف ـ ديستويفسكى ـ ١٨٧٩/١٨٨٠ .

الأحداث العشرة

١-اكتشاف أمريكا فى ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ .

٢-استسلام ألمانيا فى ٨.٩مايو ١٩٤٥ .

٣-سقوط القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ .

٤-سقوط الباستيل فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ .

٥-الثورة البلشفية فى ٧ نوفمبر ١٩١٧ .

٦-انشقاق الكنيسة فى ١٥ـ٢٠يوليو ١٠٥٤ .

٧-اتفاقية سلام " فستفاليا " فى ١٦٤٨ .

٨-معركة تحرير فيينا فى ١٢ سبتمبر١٦٨٣ .

٩-احتلال المغول لبغداد فى ١٢٥٨ .

١٠-هدم معبد التامبل وإحراق جاك موليبه ١٨ مارس ١٣١٤ .

الشخصيات العشر

١-جنكيز خان (١١٥٥-١٢٢٧) .

٢-مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) .

٣-البابا جريجورى السابع (١٠٢١-١٠٨٥) .

٤-فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) .

٥-جان دارك (١٤١٢-١٤٣١) .

٦-أوليفر كروموبل (١٥٩٩-١٦٥٨) .

٧-نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) .

٨-الأمير فلاديمير المقدس (٩٤٦-١٠١٥) .

٩-الإمبراطور بطرس الأول (١٦٧٢-١٧٢٥) .

١٠-الإمام آية الله الخمينى (١٩٠٠-١٩٨٩) .

الشعارات العشرة

١-إنها إرادة الرب !

فى ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥ تحلق جمع غفير من الناس ليستمعوا بحرارة إلى كلمات البابا أوربان الثانى الذى خرج لتوه من من المجمع الكنسى فى كليرمون وراح يدعو المسيحيين إلى انتزاع الأراضى المقدسة من أيدى الأتراك وتحرير قبر المسيح من براثن الكفار . قال البابا : " أقول هذا للحاضرين وآمر بإبلاغه للغائبين . إنه أمر السيد المسيح " . هدر الجمع قائلا " إنها إرادة الرب " .

٢-رب احفظ الملك (صيغة أخرى : رب احفظ القيصر) !

تعبر منذ القدم عن تمجيد القيصر ظل الله على الأرض . وتعرض هذا المبدأ فى تمجيد الحاكم والسلطة منذ أيام عبادة الأصنام لهزات ثورية ودينية ولغضب الأنبياء وصراخ الجموع الحانقة . بهذه الكلمات بدأ النشيد الوطنى الإنجليزى الذى أخذته فيما بعد روسيا القرن التاسع عشر مع تبديل كلمة الملك بالقيصر .

٣-باريس جديرة بالقداديس !

برز هذا الشعار على أثر مقتل هنرى الثالث دون أن يترك وريثا فى أوج الحروب الدينية . فطمع فى العرش هنرى بوربون الهوجونى المعتقد . وبالفعل نصبه الهوجونيون مليكا بينما بدأت باريس تستعد للدفاع عن نفسها رافضة أن تقسم يمين الولاء لأحد الهراطقة . ولكن هنرى كان خفيف الظل لدرجة أنه بدل معتقده من الهوجونية إلى الكاثوليكية . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يفعل فيها ذلك الأمر الذى أنقذ حياته بعد أن انتصر الكاثوليك على الهوجونيين وتم أسر هنرى الذى تولى السلطة فيما بعد عام ١٥٩٣ وفى عام ١٦٩٨ أصدر مرسوم " نانت " الذى ساوى فيه بين جميع الملل والطوائف . وقد غير هنرى الرابع ملته أكثر من مرة .

٤-البساطة المقدسة !

أطلق هذه الجملة يان جوس (١٣٧٠-١٤١٥) الماجستير بجامعة براج الذى آمن بأفكار عصره التحررية وهاجم الكنيسة وثراءها الطائل وهاجم رجال الدين فى نفاقهم وتبريرهم وظلمهم للناس . ورغم القبض عليه ومنحه فرصة للتوبة رفض جوس العرض فحكموا عليه بالحرق . وعندما ألقت امرأة من البسطاء بحزمة حطب إلى المحرقة قال لها جملته الشهيرة .

٥-المجد المقدس للرب الإله !

هذا الشعار خاص برد الفعل القاسى للكنيسة الكاثوليكية ضد نجاحات عهد الإصلاح الدينى . ففى عام ١٥٤٠ تأسست الرهبنة اليسوعية وفى عام ١٥٤٢ بدأت محاكم التفتيش عملها وفى عام ١٥٤٣ بدأت الرقابة وشاع الفساد والتجسس وتسلل الرهبان إلى السلطة حتى استولوا عليها .

٦-أنا لا أتفق معك فى الرأى ولكننى على استعداد لبذل حياتى من أجل أن تعلن رأيك !

جملة فولتير الشهيرة على الرغم من أنه لم يكن لديه أى استعداد فعلى للموت أو التضحية بالنفس من أجل أى شئ . ومع ذلك استطاع أن يصيغ عبارة تاريخية هامة تستند البشرية إليها فى مواقف كثيرة .

٧-يا عمال العالم اتحدوا !

أعلن لأول مرة فى سبتمبر عام ١٨٤٧ على غلاف " البيان الشيوعى " كنداء للثورة الجديدة .

٨-أكون أو لا أكون !

هذا السؤال طرحه شكسبير على لسان بطله هاملت الأمير الدانماركى الذى راح يهيم فى الأروقة الدامسة متعطشا إلى الثأر لمقتل أبيه . ويكاد هذا الشعار يفوز بالأولوية ضمن شعارات الألفية الثانية عندما لم تكن البشرية تعرف بعد ما هى فعلا حرية الكينونة إلا بمجىء القرن التاسع عشر .

٩-الحرية والمساواة والإخاء !

شعار الثورة الفرنسية بداية من عام ١٧٨٩ . ويعتبر هذا المبدأ هو الشعار الأساسى للمجتمع الليبرالى بعد أن كان شعار " أخوية البنائين الأحرار " الماسونية و" الماسونيين الإفرنج " الذين كانوا يسعون إلى إسقاط سلطة الكنيسة الكاثوليكية .

١٠-الهجوم على الشرق !

تحت هذا الشعار كان يتم هجوم الحضارة الأوروبية الغربية (ذات الجذور الجرمانية) على الأراضى السلافية وغيرها من أراضى أوروبا الشرقية على امتداد الألفية الثانية وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية . وثمة اعتقاد سائد الآن أن هذا الهجوم لا يزال مستمرا .

على الرغم من اعتذار الصحيفة عن عدم إيراد " رسالة الغفران " و " ألف ليلة وليلة " إلا إنه من الواضح أن الكتب والشخصيات والأيام الواردة قد أثرت فى تاريخ أوروبا بدرجة أكبر بكثير من تأثيرها فى الشرق الأقصى والأوسط وهى مناطق الحضارات القديمة التى أثرت بشكل أو آخر فى البدايات الأوروبية نفسها .

الكتب والشخصيات والأحداث والشعارات المذكورة على الرغم من أهميتها هى من وجهة نظر أوروبية محضة تؤكد ما يحاول الكثيرون نفيه أو تجاهله بشأن الشوفينية الغربية تجاه الشعوب والحضارات الأخرى التى كانت المصدر الأول والأساسى للمدنية الأوروبية . وهذا ليس تقليل من شأن الإنجازات الأوروبية بقدر ما هو مجرد تأمل وربما " غيرة " . فعلى أية حال لم تحصل أوروبا على إمكاناتها الحقيقية وتصنع هذه الإنجازات إلا بعد أن قطعت طريقا طويلا

ـد الهرطقة وعبادة " الأصنام " الحية والميتة وضحت بخيرة مفكريها وأحرارها إما حرقا أو نفيا أو اغتيالا .

على الجانب الآخر هناك جزء هام وصحيح بشأن شعوب الشرق وحضاراته وإنجازاته التى توقفت منذ القرن الرابع الهجري - عصر النهضة العربى كما أطلق عليه المستعرب الروسى نائيل عثمانوف . فهل فعلا حدث ولم توجد كتب أو أحداث أو شخصيات عربية أو صينية أو هندية خلال الألف سنة الماضية إذن من هو غاندى وإينشتين وطاغور وما هى مذابح الأرمن والفلسطينيين واللبنانيين وما معنى تجريب القنابل الذرية فى هيروشيما وناجازاكى وتجريب طلقات اليورانيوم المتحد على أطفال العراق ويوغسلافيا وماذا عن قتل ملايين الفيتناميين فى ستينات القرن العشرين ودفن الجنود المصريين أحياء فى صحراء سيناء وتكسير عظام أسرى الحرب وقتل الأطفال أمام أعين آبائهم وأمهاتهم والأهم من ذلك كله : ماذا يعنى التدمير المتعمد والمباشر لدول حضارات الشرق القديم وحصارها عسكريا وسياسيا واقتصاديا هل هو فعلا من أجل حقوق الإنسان وحريته أم أن دول الحضارات القديمة أصبحت تشكل عائقا أمام إتمام ما يسمى بالنظام العالمى الجديد والعولمة - أكبر مؤامرة فى تاريخ البشرية أسئلة موجهة ليس إلى الصحيفة المذكورة وليس إلى العقلية الغربية التى لا تنظر إلا إلى نفسها فى المرآة وإنما إلى العقلية الشرقية والعربية على وجه الخصوص !

الأكثر إثارة للدهشة هو : هل خرجنا فعلا من قوائم " الانتخابات " الأوروبية - الأمريكية منذ ١٠٠٠ عام وهل فعلا دخل العالم الأوروبى - الأمريكى الألفية الثالثة بقوائم " جديدة " علينا أن ندخل معه على أساسها شئنا أم أبينا .

الإرهاب من سبارتاكوس إلى جيفارا

عشرات الحوادث تتكرر كل يوم فى روسيا وأوروبا والولايات المتحدة وبالذات بعد ضرب بعض الأهداف المدنية والعسكرية فى الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ . وسائل الإعلام تتخذ من هذه الحوادث المادة الأساسية لتصبها فى اتجاه واحد وواحد فقط . العرب تعلموا قيادة الطيران فانظروا ماذا يفعلون ! وبالتالى ينبغى ليس فقط ألا يتعلموا قيادة الطائرات وإنما لا يجب أن يركبوها من الأساس . العرب يفهمون فى الكيمياء فانظروا ماذا فعلوا ! وبالتالى ينبغى ليس فقط ألا يدرسوها وإنما يحرموا من أى نتائج لأى تقدم علمى فى أى مجال .

والآن بدأت النغمة الأكثر خطورة وهى التصنيف تصنيف البشر باللون والقومية والدين والفكر ونوع الوظيفة والمهنة والرفق بالأغنام والقطط والضفادع . فأخيرا اتفقت وسائل الإعلام فى روسيا على أن "سبارتاكوس " كان إرهابيا وعلى الرغم من ذلك لا يزال مسرح البولشوى يعرض بالية سبارتاكوس أحد أعظم أعمال البالية فى القرن العشرين . واتضح أن "العريس والعروس" الذين أحرقا نفسيهما فى أحد ميادين تشيكوسلوفاكيا إبان الغزو السوفيتى لها عام ١٩٨٦ كان سلوكهما يتضمن مظاهر الإرهاب . ثم جاء دور المواطن الكردى الذى أحرق نفسه فى ميدان عام احتجاجا على القبض على عبدالله أوجلان فاتضح أيضا أنه كان إرهابيا "مثل" أوجلان بالضبط . أما كارلوس وجيفارا فهما إرهابيان بالفطرة . وبعد ذلك يأتى دور ماركس ولينين وستالين وهتلر وماوتسى تونج وفيدل كاسترو وجمال عبدالناصر وياسر عرفات وصدام حسين . بل وتجلت صفات الإرهاب فى الجنود اليابانيين فى الحرب العالمية الثانية وكان الجنود السوفيت فى نفس الحرب (وخاصة الذين كانوا يقومون بحرب العصابات خلف خطوط الجيش النازى) إرهابيين . أما المسكينة زويا كسموديميانسكايا المواطنة السوفيتية التى قبض عليها جنود النازى فى الاتحاد السوفيتى إبان الحرب العالمية الثانية وعذبوها مثل "زميلتها الإرهابية أيضا " جميلة بوحريد الجزائرية ثم علقوها أمام الآلاف من مواطنيها فى ميدان عام وتركوها إلى أن تحللت فقد كان مصيرها أفضل نسبيا حيث صمم محافظ موسكو بوريس جروموف أن يقيم لها تمثالا . وبالفعل نفذ وعده أخيرا رغم أن وسائل الإعلام قد اكتشفت مؤخرا أن" زويا الإرهابية " كانت فعلا إرهابية .

التساؤلات المثارة تدور حول نوايا الإرهاب ومظاهره وتجلياته فى السلوك البشرى : فهل كان إخناتون إرهابيا أم كهنة آمون وهل كان سقراط إرهابيا حينما اختار الموت فى لحظة "تافهة" بينما تمكن جاليليو جاليلى من الإفلات من المصير " الإرهابى" بذكاء وفطنة هل كان جوردان برونو أيضا إرهابيا لأنه وقف ضد المجتمع والكنيسة وتعاليم الرب وذهب إلى المحرقة بقدميه بالضبط مثل جان دارك بينما تمكن فيودر ديستويفسكى أن يفلت من حكم الإعدام ويقدم فروض الولاء والطاعة ومن قبله تمكن بوشكين من الإفلات من النفى مع الديسمبريين والتقى القيصر ليقدم له الاعتذار ويزيل "سوء الفهم" الذى روجت له جهات معادية لبوشكين .. لا يستطيع أحد أن يتحدث اليوم عن الإسكندر الأكبر ونابليون أو الجيوش الأوروبية التى صالت وجالت طوال القرون الماضية لتحرق الأخضر واليابس تحت أقدام شعوب هى الآن فقيرة ومعدمة ومتخلفة حضاريا ومن ثم "إرهابية" . من هى "فانى كابلان" اليهودية التى أطلقت الرصاص على لينين ومن هو مناحم بيجين وإسحاق شامير إريل شارون وناتان شارانسكى وأفجودر ليبرمان

هل الخلط بين الأسماء والمفاهيم والتواريخ متعمد أم فعلا بدأ مفهوم الإرهاب يأخذ صيغة فيروسية (مثل فيروس الإيدز) ليصبح الآن خليطا من "السمك واللبن والتمر هندى" الذى لا يمكن تحديده إلا بعد ضربه بأحدث الأسلحة وبالذات بعد الضرب وليس قبله ! هناك أيضا ٤ مليار إرهابى يقفون بشكل أو بآخر ضد حكومتهم المكونة من مليار واحد فقط وبالتالى أصبح المناهضون للعولمة "إرهابيين" بحكم الموقف والصنعة والسلوك وربما اللون والدين

ومدى نجاحهم فى استخدام الشوكة والسكين وورق التواليت وإيواء الحيوان أما الأطفال فلهم رب يحميهم بل ومن الممكن الآن اكتشاف أن "الإرهابيين" حاولوا لآخر مرة تنفيذ مخططهم المدمر ضد البشرية فى مؤتمر العنصرية فى جنوب أفريقيا ولكن لحسن الحظ لم يقف ضدهم إلا إسرائيل والولايات المتحدة وبعض دول الاتحاد الأوروبى وتم إنقاذ البشر من آخر محاولات "الإرهاب العالمى" !

الجزء الثالث

العلوم في روسيا

العلوم الروسية فى الألفية الثالثة : اختيار الرسالة
العلوم الطبيعية فى البحث عن توازن بين المنطق الداخلى
للتطور الذاتى وبين القانون الاجتماعى

(طاولة مستديرة أقامتها جريدة" نيزافيسيمايا جازيتا ")

توجد تقريبا وعلى الدوام أسباب للحديث عن العلم وعلى الدوام فى روسيا . وبالذات فى روسيا الحديثة .

فى صيف ٢٠٠٠ أقيم احتفال رسمى بمرور ٢٧٥ سنة على تأسيس أكاديمية العلوم الروسية ومر عام منذ لحظة تصديق حكومة روسيا الاتحادية على " تصورات إعادة إصلاح العلوم الروسية فى الفترة حتى حلول عام ٢٠٠٢م " كما أن البلاد الآن مقبلة على الانتخابات البرلمانية والرئاسية . وفى النهاية يوجد أيضا عامل نفسيى محض : انتهاء القرن والألفية بكاملها . وهناك رغبة فى التفكير بعمق وبالذات فى تلك اللحظة فيما يحدث للعلوم الروسية وفيما يحدث فيها الآن .

حول ذلك يطرح المشاركون فى الطاولة المستديرة آراءهم : سيرجى بتروفيتش كابيتسا (بروفيسور ورئيس قسم الفيزياء بمعهد الفيزياء التقنية) سيرجى فيكتوريفيتش يوجوروف (أستاذ الفيزياء الرياضية بروفيسور بجامعة موسكو التربوية وخبير فى مجال السياسة العلمية التقنية) فيتالى لازاريوفيتش جينزبورج (أكاديمى بمعهد فيزياء ليبيديف التابع لأكاديمية العلوم الروسية ورئيس تحرير مجلة " منجازات العلوم الفيزيائية ") أندريه جيورجيفيتش فونوتوف (أستاذ العلوم الاقتصادية ومدير عام الصندوق الروسى للتطور التكنولوجى) يفجينى فاسيليفيتش سيميونوف (أستاذ الفلسفة بروفيسور ومدير عام صندوق العلوم الإنسانية الروسية) أندريه جيناديفيتش فاجانوف (المحرر المسؤول عن ملحق العلوم بـ " نيزافيسيمايا جازيتا ") .

أندريه فاجانوف : إن موضوع اللقاء الذى تم الإعلان عنه بالنسبة لطاولتنا المستديرة " العلوم الروسية فى الألفية الثالثة " هو موضوع غير واضح من حيث الدقة التحديد . وقد وصف الاقتصادى الإنجليزى المعروف جون كينس Keynes مثل تلك الحالات الحدية القصوى : " إذا كنا نتحدث عن آفاق بعيدة المدى فسوف نموت جميعا فى وقت ما " . ولكن إذا أخذنا الأمر بشكل أكثر جدية فموضوع آفاق العلوم الوطنية ـ من وجهة نظرى ـ ليس فقط موضوعا غير واضح بقدر ما هو موضوع يعانى من سوء التقدير مثل العلوم الروسية ذاتها .

سيرجى كابيتسا : بالمناسبة زوجة جون كينس عاشت ١٠٣ سنة ! وكانت راقصة باليه روسية .

أندريه فاجانوف : عموما لا مفر من مناقشة موضوع العلوم الروسية لعلنا نجد مخرجا معقولا . وعلى أية حال فعلى المستوى الذهنى ـ النظرى يمكننا لو حاولنا اليوم كخطوة أولى صياغة مداخل تسمح لنا بتقليل درجة اللاوضوح واللاتحديد . فى هذا الإطار من المهم فى رأيى أن نحاول الإجابة على ثلاث مجموعات من الأسئلة :

١ ـ ما هو الوضع الحقيقى للعلوم فى روسيا الاتحادية وهل تم بالفعل الحفاظ على مثل هذه المؤسسة الاجتماعية

٢ ـ ما هو الوضع الذى يجب أن تكون عليه مبادئ صياغة السياسة العلمية التقنية فى روسيا الاتحادية تلك المبادئ التى تتلاءم مع وجود مجتمع حديث.

٣ ـ كيف نوائم فى ظروف روسيا الحالية بين الأمر المرضى والأمر المجدى وبين العلم والتكنولوجيا

مثل تلك الأسئلة تنطوى بطبيعة الحال على أسئلة كثيرة أخرى . ورغم أننى لا أرغب إطلاقا فى أن يتحول هذا اللقاء إلى " جلسة لطرح الأسئلة والأجوبة " إلا أنه يبقى هناك سؤال آخر صعب : ما رأى جميع الحاضرين هنا فى أن

العامين الأخيرين هما عامان مفقودان من تاريخ العلوم الروسية إذ أنه فى واقع الأمر قد تغيرت أربع حكومات خلال تلك الفترة القصيرة ولم يكن لدى أية واحدة منها إمكانية حتى تقويم أو التعرف على عمل أعضائها ...

سيرجى كابيتسا : لقد صاغت زوجتى هذه الحالة بشكل جيد حيث قالت : " عندما أنظر إلى الحكومة الحالية لا أستطيع أن آأسف على أحد أو أحزن عليه " . هذا هو النفور بعينه وهذا هو التباعد الموجود والذى يسمح لنا بالقول بأن كل ما فى الحكومة يدور فى واد والحياة الواقعية تدور فى واد آخر . وهذان الواديان ـ العالمان لا يتقاطعان أبدا وكل منها يوجد كما لو كان مستقلا ومعزولا عن الآخر . وهذا بالطبع أمر محزن جدا .

سيرجى يوجوروف : ولكن العلم ميدان مميز جدا وله خصوصيته : حيث يمكنه أن يتطور بشكل مستقل عن القرارات القيادية العليا . وذلك خلافا على سبيل المثال لمصلحة السكك الحديدية . حيث هناك فى مصلحة السكة الحديد لا يمكن تصور وجود جهاز التوجيه بمعزل عن مشكل الشحن وخدمات الركاب ... ولكن فى الفترة الحالية نرى أن جميع الإدارات والمصالح المسؤولة عن الأوضاع العلمية فى حالة تفسخ وعدم ارتباط مع العمليات الحقيقية للبحث العلمى . ورغم ذلك يمكن القول بأن العلوم الروسية فى فترة التسعينات موجودة بشكل أو بآخر .وهناك نتائج واضحة.

أندريه فاجانوف : فى هذا الإطار تحضرنى كلمات فلاديمير إيفانوفيتش فرنادسكى التى قالها عام ١٩١٧م : " العلم حر ولا يمكنه أن يحيا داخل أية أطر ... يجب تنظيم العمل العلمى أمام الإبداع العلمى للعلماء الروس ذلك الإبداع الذى لا يمكنه ولا يجب أن يخضع لتوجيهات الدولة . فالعلم لا يثق فى الأطر البيروقراطية . والقضية ليست فى تنظيم الدولة للعلم وإنما فى مساعدة الدولة للإبداع العلمى للأمة " . هذا الكلام بخصوص قضية صياغة السياسة العلمية لروسيا .

ومن البديهى تماما فى نظرى أن هناك أهداف أخرى لدى الذين يقودون الدولة . أهداف أخرى خاصة بهم . وأنا لا أستطيع الحكم عليهم أو عليها . ولكن من هنا تحديدا يحدث كل شئ : عدم الاهتمام بالعلم واحتقاره على الرغم من أن جميع رؤساء الوزراء قاموا على سبيل المثال بزيارة أكاديمية العلوم والتقوا مع العاملين بها وأعلنوا عن دعمهم ومساندتهم للعلم . فماذا يعنى ذلك فى رأيكم : هل هذا عدم فهم أم تجاهل مقصود لدور العلم ومكانته

فيتالى جينزبورج : أنا فى الواقع بعيد تماما عن الأوساط الحاكمة إلا أننى لا أرى إطلاقا أى عدم فهم ولا أرى أى احتقار . إن رئيس أكاديمية العلوم الروسية يورى أوسيبوف موجود بشكل دائم فى مجلس الوزراء . وهو على أية حال ليس عدوا للعلم ؛ إذ أنه يحاول الحصول على الأموال اللازمة . أنا لا أرى أية أضرار من جانب الحكومة تجاه العلم . والأمر الهام الذى يجب أن يدور الحديث حوله اليوم هو إحدى الظواهر المثيرة للقلق : ظاهرة ازدهار العلم الكاذب .

أندريه فاجانوف : ولكن مشكلات العلم الكاذب هى مشكلات فرعية وليست هى التى تحدد حالة العلم .

فيتالى جينزبورج : أنا متفق معكم تماما ولكننى أود التشديد على حقيقة أن إضعاف العلم وتقليل الاهتمام به وبإمكانياته إضافة إلى كل المباحات الأخرى ـ كل ذلك أدى إلى النمو الهائل لحجم العلم الكاذب . ومكافحة ذلك تعتبر قضية ملحة وحيوية ولكن الأهم من ذلك كله هو تحريك العلم نفسه ودفعه إلى أعلى . بيد أنه بدون مكافحة العلم الكاذب تصبح الأمور فى غاية الصعوبة .

أندريه فونوتوف : إذا كنا سنتراجع عن ذلك النموذج العلمى الذى كان موجودا بالاتحاد السوفيتى فيجب علينا أن نعترف جميعا وبدون أدنى شك بأن العلم فى الاتحاد السوفيتى كان أحد مقومات السلطة . وقد أدركت النخبة أو السلطة ـ يمكننا أن تسمى ذلك كما نشاء ـ ذلك الأمر واستخدمت تلك الأداة بشكل فعال فى صراعها من

أجل البقاء.

أما نخبتنا أو مؤسستنا الجديدة لا تزال حتى الآن قانعة وراضية بمصادر أكثر بدائية من أجل ضمان وجودها . أنا لا أتحدث عن " سلطة المال " أو العلاقات الإجرامية المشبوهة أو العلاقـات " القبلية " أو الأمر الأكثر حدة وخطورة - المافيا ... وخلافه . ومع ذلك فكل تلك الأشكال كافية جدا . بهذا المفهوم يكون من البديهى أن العلم ليس هو الأداة الحاسمة . فنحن لم نتطور بعد فى بلادنا إلى ذلك الحد الذى يجعلنا نستخدم العلم كأداة أو كوسيلة للوجود .

لقد حدث ذلك بشكل رئيسى لأن تلك المنظومة العلمية التى تكونت فى الاتحاد السوفيتى كانت موجهة بدقة نحو أهداف محددة - نحو أغراض التصنيع وأغراض الدفاع . وقد قامت هذه الأهداف على الرغم من عدم الدقة التنظيمية بتشكيل قدرة علمية تقنية فعالة جدا . وكانت هذه القدرة موجهة طبعا نحو المجالات الدفاعية بينما كانت المجالات الإنسانية ممثلة بشكل ضعيف ...

يفجينى سيميونوف : وكانت موجهة أيضا نحو الأيديولوجيا .

أندريه فونوتوف : ولكن عندما تفكك الاتحاد السوفيتى اختفى " الزبون " الذى كانت يقبل على شراء المنظومات والآليات الضخمة . اختفى الزبون وبقى جهاز تنظيم القوة العلمية التقنية . والآن تجرى عملية صعبة ومجهدة لتكييف هذه القدرة العلمية التقنية ليس مع الواقع وإنما مع مهام ما مستقبلية لتشغيلها وتفعيلها .

لماذا لأن الصناعة اليوم عندنا قد انهارت فعليا . وتلك الميادين والفروع التى كان إنتاجها مطلوبا بنشاط وفاعلية وديناميكية وبالتالى كانت تتطور وتنمو على أساس ذلك أصبحت اليوم خاملة أو فى أحسن الأحوال تعمل بشكل سئ .

وأعتقد أن المهمة تتلخص فى تحديد ماذا سيكون لدينا فى المستقبل وتحديد تلك الاتجاهات التى ستعين توجهات القدرة العلمية التقنية ومن ثم إعادة هيكلة النظام الحالى لتلك القدرة فى علاقته بالمهام المستقبلية المذكورة أعلاه . لقد فقدت العلوم بوصلة تطورها ولم يعد هناك فى الوقت الحالى طلب اجتماعى عليها . وطالما ليس هناك طلب اجتماعى فمعنى ذلك أننا قد حصلنا على ما أسميه بـ " الثورة العلمية التقنية التافهة " : أى كل تلك الخيالات والأوهام وعلوم التنجيم وكل الأمور التى تحدثنا عنها منذ قليل بخصوص العلم الكاذب .

فيتالى جينزبورج : أنتم تنطلقون من ضرورة وجود الطلب الاجتماعى . وأنا أرى أن العلوم الأساسية (النظرية) ليست فى حاجة إطلاقا إلى هذا الطلب .

سيرجى كابيتسا : من الصعب الموافقة على ذلك . فالطلب الاجتماعى على العلوم الأساسية يعنى التعليم والإسهام فى ثقافة الوطن والمجتمع . أما فيتالى لازاريوفيتش فيقصد المتطلبات الداخلية للإنسان فى معرفة العالم كموضوع أزلى للبحث وذلك على النقيض من المواقف والحالات الخارجية لوجود العالم ذلك الوجود الذى يظهر فى شكل الطلب الاجتماعى والمعرفى .

فيتالى جينزبورج : إذن تعالوا نتفق على معنى الطلب الاجتماعى .. هل تقصدون الطلب التكنولوجى أم ماذا

أندريه فونوتوف : الآن لم يعد الاقتباس من ماركس متماشيا مع الموضة . ومع ذلك فلديه عبارة رائعة : " الحاجة الموضوعية تؤثر أكثر من عشرات الجامعات " .

أندريه فاجانوف : لدينا أمثلة كثيرة موجودة وظاهرة تماما للعيان . خذ مثلا ما يخص الاتحاد السوفيتى : إشاعة الروح الجماعية التصنيع بناء الاقتصاد الوطنى المشروع النووى البرنامج الفضائى - وهذا ما نسميه الطلب الاجتماعى . من الممكن أن نسمى كل ذلك كما يحلو لنا ولكن من أجل إنجاز جميع هذه الأهداف والمهام كان لابد

من أن تعمل جميع العلوم والتصنيع وكل الفروع الأخرى . وهذا ما حدث أيضا فى الولايات المتحدة الأمريكية : مشروع منهاتن النووى برنامج القمر مبادرة الدفاع الاستراتيجية التى تكلفت الكثير وأراقت الكثير من الدماء .

ومع ذلك فأنا غير متيقن من شئ . فلو افترضنا أن الدولة سوف تصيغ فى نهاية الأمر هذا الطلب الاجتماعى . أنا شخصيا لا أدرى ماذا سيكون بعد ذلك . من المحتمل جدا أن تكون هناك دعوة ما للدفاع ضد مخاطر العولمة . لما لا ! ولكننى فى اللحظة الآنية لا أستطيع أن أكون على يقين راسخ بأن العلوم الروسية نفسها فى حالتها الآنية مستعدة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز أو تلبية أى مطلب اجتماعى . فهل حدثت تغيرات فى هذا الأمر تحديدا تكمن من وجهة نظرى المشكلة .

سيرجى كابيتسا : فى أحد الأبحاث التى قدمتها منذ فترة وجيزة بجامعة موسكو قمت ببحث أحد جوانب قضية الطلب الاجتماعى للعلم . وأخذت فى اعتبارى بطبيعة الحال الأبحاث التى تتناول العلاقة ما بين العلوم الطبيعية . وأغلب المهام التى وردت فى أحاديثكم تندرج تحت هذا النوع من الأبحاث الذى يمتلك قيمة ضخمة . وفى جوهر الأمر فالمجتمع فى حالات كثيرة يقيس نتائج العلم على ضوء هذه المهام . ونظرا لأن جميع الأبحاث المحددة التى يتم إجراؤها فى إطار بحوث خاصة تجرى داخل العلم نفسه ومنه وخاصة فى الأعمال العلمية التطبيقية كقاعدة فهى لا تظهر إلى الوجود إلا عندما تتحول إلى شئ ملموس نتيجة لإسهامها فى قضية العلاقة ما بين العلوم الطبيعية.

لقد كانت فكرة كهربة البلاد كلها فى زمن ما أحد المتطلبات الاجتماعية . وتلك الفكرة تعتبر أحد الأمثلة الهامة لربط المهمة السياسية الكبرى بالقضية العلمية التقنية على نطاق البلاد . وبدون شك فقد امتلك عملية الربط هذه أهمية تاريخية كبيرة فى زمنها .

والآن كان من الضرورى أن تظهر مثل هذه القضايا فى بلادنا . ومن ثم كان بإمكانها أن تمنح علومنا كلها أساسا ما وذلك بربطها مع بعضها البعض من ناحية ومن ناحية أخرى نقلها فى اتجاه حل قضية الطاقة والصحة وقضية الاتصال والنقل والعديد من القضايا الأخرى . إن دور الدولة يتلخص فى تشخيص هذه المهام وتحديدها وتهيئة الظروف لحلها فى إطار الاقتصاد الحر وليس فى إطار الاقتصاد الموجه .

وبسبب تلاشى المنظومة السابقة أصبح الجميع لدينا منشغلين بأمورهم الخاصة فقط وفقط لا يفكرون إلا فى ضمان نصيبهم الشخصى وفى حياتهم الخاصة . وفى الواقع فقد حدث انهيار عام للبناء العلمى فى البلاد وصارت المراكز البحثية الصناعية والمؤسسات الأكاديمية تحافظ بالكاد على وحدتها . ففى السابق كانت هذه المراكز والمؤسسات مترابطة مع بعضها البعض على مستوى التنظيم وحل القضايا والكوادر العلمية . والآن لم يعد يهم موظف أية مؤسسة ما سوى المنح والهبات والمساعدات ولم يعد يشغله إطلاقا فى أية منظومة يعمل . كل تلك الأمور قادت بشكل أو بآخر من وجهة نظرى إلى انهيار حاد فى العلوم الغربية . ونحن نسير الآن على نفس الطريق . ومواجهة ذلك لن تتأتى إلا بتشخيص وتحديد وحل القضايا الكبرى والهامة بشكل اجتماعى حيث المكان المناسب وحيث الأبحاث فى مجال العلوم الطبيعية . ولنتذكر جميعا كيف تم تطوير المشروعات الذرية والفضائية السوفيتية .

ومن ناحية أخرى فالمنح والهبات والمساعدات فى شكل تمويل فردى شريطة أن يتم الحصول على نتائج محددة فى أسرع وقت ممكن يعنى على سبيل المثال عدم وجود إمكانية لإصدار تلك الكتب الهامة مثل كتاب " برنامج الفيزياء النظرية " الذى قام بتأليفه لانداو وليفشيتس . فالمؤلفان لم يعد لهما الآن وجود ولكن كتابهما يوجد موحدا بين مجموعة من العلوم الطبيعية بداخل مادة واحدة وهى العلوم التى نشأت عليها أجيال الفيزيائيين النظريين فى

العالم كله . إن صدور تلك الكتب التى كانت الواحد منها يعتبر مشروع حياة مؤلفه بالكامل أصبح الآن فى حكم المستحيل حيث أن التنظيم الجديد الحالى للعلم لم يعد بإمكانه إطلاقا إصدار مثل تلك الكتب .

فيتالى جينزبورج : إن برنامج لانداو وليفشيتس للفيزياء النظرية مازال يصدر . والبروفيسور ل . ب . بيتايفسكى يقوم بالتعديلات والإضافات اللازمة . وأعتقد أن هذا البرنامج سوف يظل لفترة طويلة فى غاية الأهمية .

سيرجى كابيتسا : إن قضايا ما بين المعارف وعلاقتها بأبحاث العلوم الأساسية يمكن تصويرها على سبيل المثال فى التغيرات المناخية فى آسيا الوسطى . فعندما جف نهرا آموداری وسرداری نتيجة للنمو الزراعى المكثف فى تلك المنطقة مات فعليا بحر الأورال . ومن ناحية أخرى تابع الجميع فى رعب كارثة هبوط مستوى بحر قزوين . وبالتالى أغلقوا بوغاز كارا جول وظهر مشروع نقل الأنهار الشمالية لإنقاذ بحر قزوين . ومن أجل ذلك فكروا أيضا فى إجراء عشرات التفجيرات النووية الصناعية بل وتم إجراء واحد منها للتجربة . والآن اتضح أن مستوى بحر قزوين وبشكل غير مفهوم قد بدأ يرتفع . زد على ذلك أن الارتفاع يسير فى اتجاه تجاوز الحد المسموح به . وإذا استمر الأمر على هذا الحال فى المستقبل فسوف تكون هناك تهديدات بإغراق جزء من أراضى " الكالميك " ودلتا الفولجا . أما رسائل الدكتوراه التى تم إعدادها عن هذا الموضوع فمن الممكن أن نبنى بها سدا ومع ذلك لا يوجد فهم كاف لما يحدث . وظهر مؤخرا أحد أهم وأخطر التنبؤات - مستوى بحر قزوين مرتبط بنظام الحرارة والنقل بواسطة التيارات فى المحيط الهادى . وبكلمات أخرى فمن المحتمل أننا نواجه دورة تغيرات فى الدوران العام للمحيط وفى الطقس الشتوى أيضا . وتلك مهمة أساسية تمتلك معرفة عملية ضخمة .

تلك القضية مرتبطة بالجدل حول التغيرات المناخية بسبب تزايد تركيز الغازات الصناعية . فعند احتراق الفحم يتزايد متوسط درجة الحرارة السنوى على الكوكب نظرا لزيادة معدل الغازات التى تتضمن ثانى أكسيد الكربون . بيد أنه من البديهى أن درجة الحرارة العامة لا تقاس فقط بهذا الأمر . والآن بدأ يظهر لدى علماء المناخ رد فعل مضاد لكل تلك الدعاية التى تدور حول هذه القضية . واتضح أنه من المحتمل أن تزيد درجة الحرارة بمعدل نصف درجة لكل مائة عام - تلك أيضا نتيجة وخاصة فى مرحلة دفء ما بعد الجليد التى لم نتجاوزها بعد . والإسهام الرئيسى فى هذا القضية هو الدراسة العملية لمناخ الأرض خلال الأربعمائة ألف سنة الأخيرة تلك الدراسة التى تأسست على تحليل الجليد بمحطة " فوستوك " - الشرق - الموجودة فى القطب الشمالى بروسيا . تلك الأبحاث الأساسية الهامة بدأت منذ ٢٥ عاما مضت . والآن تتوقف على نتائجها أهم القرارات الدولية بخصوص تطوير الطاقة فى العالم كله . وأود أن أذكركم هنا أن الجزء الخاص بالطاقة يستهلك ربع نفقات البشرية .

تلك القضية تمتلك أهمية سياسية ضخمة إذ أن الاتفاقيات الدولية الحالية التى تنص على تخصيص حصة للتخلص من الغازات الصناعية تشترك فيها جميع البلدان والمناطق . وهذا يعنى أن هناك عشرات المليارات من الدولارات التى يجب أن تنتقل من اقتصاد إلى آخر .

أندريه فاجانوف : هل العلوم الروسية مؤهلة الآن وهى على حالها هذا للقيام بحل مثل تلك القضايا

سيرجى كابيتسا : لابد أن يشارك العلم فى حلها . وعموما ففى نتائج النشر النهائية التى ظهرت مؤخرا اتضح أن العلماء الروس يشاركون فعليا فى ذلك وعلى رأسهم الأكاديمى فلاديمير كوتلياكوف . وبالنسبة لروسيا فالأمر فى حاجة ملحة كما يبدو لى لإبداء مشاركة نشطة وفعالة . بالإضافة إلى ذلك يجب امتلاك رأى خاص ومستقل فى مثل هذه القضايا . علما بأن العديد من مشاكلنا الإقليمية (مثل مشكلة بحر قزوين) تعتبر الآن مشاكل دولية وكونية .

يفجيني سيميونوف : لعلني كنت سأتفادى تماما مصطلحا مثل مصطلح " الطلب الاجتماعى " وتحديدا فى علاقته بالعلم لأن العلم عبارة عن منظومة دقيقة جدا ومعقدة . وبناء كلمة مثل " طلب " يصلح بشكل لا إرادى للمطاعم أو أية أماكن أخرى مشابهة .

إن أزمة العلم التى نعيشها هى أزمة عامة وشاملة . تلك الأزمة تنسحب على بناء الآلات وعلى نسبة تزويد العلم بالمعدات التكنولوجية وعلى بناء المجمعات العلمية ومن ضمنها المدارس . إن الأزمة تتجلى فى كل شئ . ولكن هذه الأزمة كما يبدو لى تبدأ من أزمة الوظيفة الاجتماعية - الثقافية الهامة . فعندما يتحدثون عن " طلب " ومن الواضح أن الحديث يدور فعلا عن ذلك يفقد العلم فى مجتمعنا وظائفه الاجتماعية - الثقافية الهامة .

بالنسبة للعلوم الاجتماعية - الإنسانية يتجلى ذلك فى أن العلم لا يشارك فى تشكيل الوعى التاريخى للأمة وفى الثقافة القانونية للمواطنين وفى بناء السياسة الوطنية والاجتماعية والاقتصادية للدولة . إن تلك الحالة التى كان فيها المجتمع أثناء وجود السلطة السوفيتية يمكننى أن أطلق عليها " الظلامية العلمية المستحبة " أما الآن فيمكن أن نسميها " الظلامية العلمية المكروهة " . (على الرغم من أنه ربما فى الاتحاد السوفيتى كانت الحاجة إلى العلم موجودة على نحو شفهى ولكن ليس بشكل عميق) . وباختصار فالعلم فى روسيا الحالية فعلا فى أزمة . وهذا بالضبط ما ينطبق على العلوم الاجتماعية - الإنسانية .

وبالمناسبة فالأزمة قد مست مختلف فروع العلم بأشكال متفاوتة . ولعلها تبدو فى مجال الفيزياء أعمق وأشد بل وأكثر الأزمات - إذا جاز التعبير - إثارة للإشكاليات : من حيث الخروج منها . وهى ليست فقط فى الفيزياء وإنما أيضا فى فروع العلوم الطبيعية الأخرى التى كانت مرتبطة بقوة المنظومة الصناعية العسكرية .

أندريه فاجانوف : لقد كانت نسبة ٧٥٪ من الأموال الموظفة فى مجال الأبحاث العلمية والإنشاءات التصميمية التجريبية تصرف بشكل أو بآخر فى العلوم القائمة على المنظومة الصناعية العسكرية ...

يفجيني سيميونوف : يبدو لى أن الكيمياء تعانى من هذه الأزمة بشكل مختلف قليلا . فمن المعروف أن دولتنا متخصصة فى مزاولة الصناعات " القذرة " وفى دفن النفايات . وبالتالى فبدون الكيمياء لن تسير الأمور على ما يرام ! وربما يكون لدى علماء الكيمياء فى ظل هذا التوجه الذى تنتهجه الدولة فرص ما وآفاق للحل .

هناك أيضا خصوصية شديدة للعلوم الاجتماعية - الإنسانية فى تلك الأزمة . فالأزمة - كما يبدو لى - لم تمس بعد نوعية الإنتاج المعرفى وحجم إنتاج المعرفة . وفى الوقت الحالى بالذات تسير أحوال المنتجات العلمية فى الفروع الاجتماعية - الإنسانية بشكل رائع . فالكتب تصدر على نحو مدهش ! ولكن أعداد النسخ فى غاية المهانة : ألف أو ألفان لا أكثر .

ولذا أقول بأن التأثير الثقافى للعلم ليس كبيرا جدا وهو فى واقع الأمر يبقى شيئا غير ملحوظ بالنسبة للمجتمع . هكذا هى الحياة داخل المجتمع العلمى ذاته . وهى باقية ومستمرة بل وتحافظ حتى على مستوى ما عال من النشاط . فها هو معهد الفلسفة الذى لم يصدر أبدا ذلك العدد الهائل من الكتب كما يفعل الآن ! وها هو معهد تاريخ المعارف الإنسانية والتقنيات الذى لم يصدر أبدا كتبا مثلما يحدث الآن - ضعف ما كان يصدر فى الاتحاد السوفيتى .

لقد قمنا بإصدار كلاسيكيات الفلسفة الروسية بالقرن العشرين . ويبلغ عددها حوالى ٢٥ اسما . وهى أعمال جديرة بالإصدار : ليسوف مامارداشفيلى بودين بلاوبيرج باختين تروبنيكوف إللينيكوف باتيشيف وآخرون كثيرون .

سيرجي يجورروف : أثناء الحديث عن مبادئ السياسة العلمية التقنية يجب الأخذ فى الاعتبار بأن المجتمع العلمى فى حاجة إلى القضايا والمهام الواضحة والمحددة . وهذا لا يعنى أن العالم نفسه لم يعد قادرا على التفكير وإنما يجب أن يكون هناك حافز ولنطلق عليه " الطلب الاجتماعى " . ومن ثم فالعمل على حل القضايا التى تهم المجتمع يجب أن يتم تمويله بشكل واقعى وليس بشكل رمزى .

فى القرن السابع عشر عندما لم يكن هناك بعد ذلك المفهوم المحدد للسياسة العلمية كانت هناك قضية فى غاية الوضوح : كان من الضروري أن يتعلموا تحديد وبدقة شديدة خط الطول الذى تسير عليه السفينة فى المحيط . هذا الأمر فى غاية الأهمية بالنسبة للملاحة البحرية . وحتى تلك الفترة الزمنية كانوا قد استطاعوا التوصل إلى تحديد خط العرض أما خط الطول فلم يكن قد تحدد بعد . وحاول الأسبان والفرنسيون أن يتوصلوا إلى طريقة أثناء المسابقات الملاحية وتم الإعلان عن الجوائز المالية الضخمة وإقامة ما يسمى الآن بالمسابقات الدولية . وفى النهاية استجاب المجتمع العلمى وتم حل القضية .

والآن لننظر إلى الموقف من وجهة نظر الباحث العلمى المعاصر . ما الذى يمكن الاعتماد عليه كنقطة للرؤية من وجهة نظرى الوثائق الرسمية الجيدة : " قانون العلوم والسياسة العلمية التقنية الحكومية " و " مبدأ تنمية العلوم الروسية " . ولكن مثل هاتين الوثيقتين لا تعطيان سوى أكثر الاتجاهات عمومية ولا تعودان بالفائدة إلا على القائمين على تنظيم العلوم ...

فيتالى جينزبورج : المبدأ موجود ولكن العلم المنظم غير موجود .

سيرجي يوجورروف : بالمناسبة أصحاب النوايا السيئة لا يؤكدون من فراغ بأن الوثيقة الثانية لا تملك قوة قانونية لأن هذه الوثيقة " المبدأ " صدرت بمعزل عن قرار رئيس روسيا الذى تتوافق معه وثيقة أخرى تحت نفس الاسم .

إذن بماذا يمكن أن " يتعلق " الباحث العلمى فى الواقع يمكنه أن " يتعلق " بأولويات التوجهات العلمية والتكنولوجيا الحرجة التى أقرتها لجنة السياسة العلمية التقنية السابقة عام ١٩٩٦م ولكن هذه القائمة أيضا محل انتقاد على مستويين . الأول على مستوى الشخصيات التى اتخذت القرار فى الوسط العلمى حيث اتضح أن القائمة التى قدموها كانت مجرد مذكرة استشارية لا أكثر . إذ أنه تبعا للتشريعات الحكومية يكون اختيار أولويات السياسة العلمية التقنية من صلاحية أجهزة الدولة بينما اللجنة لم تكن جهازا حكوميا .

وعلى المستوى الثانى لم يكن هناك أى رضاء أو موافقة وخاصة فى دوائر العلماء . ففى تلك القائمة تمت صياغة العديد من المواقف الهامة بشكل غامض ومبهم . ومن الممكن تفسيرها بأكثر من طريقة . واتضح أن القائمة تتناسب أكثر مع وثيقة أخرى تماما . مع قائمة أولويات توجهات الأبحاث الأساسية لأكاديمية العلوم الروسية . وإذا نظرنا إلى كل تلك المواد بشكل جدى سنكتشف أن النتائج الأساسية لعلومنا ليست لازمة أو ضرورية لحل القضايا التكنولوجية التطبيقية . ومن أجل بناء تقنيات جديدة من الضرورى أن نبدأ من العمل على إقامة القواعد الأساسية أى نبدأ من " الصفر " بينما المدارس العلمية الروسية ليست على الدوام مشغولة بحل القضايا التى تهم الدولة .

إننى أرى أن وزارة العلوم والتكنولوجيا تحاول الآن تحديد القضية وصياغة ما يمكن تسميته بـ " الطلب الاجتماعى " الواقعى . ومن القائمة العامة التى تم طرحها وقع الاختيار على ١٥ نوعا من التكنولوجيا المتطورة التى على حد تقويمات الخبراء يوجد لروسيا فيها مستقبل . بعد ذلك تضيق الدائرة : حيث يظهر مفهوم جديد . " التكنولوجيا المفتوحة " . بعض من هذه التكنولوجيا ينتمى إلى البناء والتشييد واستخراج النفط والبعض الآخر ينتمى إلى الطب والبيولوجيا . وبلا شك فقد استطاعوا أن يطرحوا تكنولوجيا البناء بشكل صحيح . لأنه بعد أن

خرجت أمريكا من موجة القمع التى جرت فى الثلاثينات كانوا أول من قام بتنمية فروع البناء والتشييد وصنعوا رواجا واقعيا أى أسسوا طلبا قادرا على الدفع لهذا الاستحداث الجديد . وبالنسبة لنا يمكننا أن نتوقع قيام شركات البناء الخاصة بالاستيلاء على وصاية الدولة . أما الجزء الخاص بالطب فمن الممكن أن نختلف عليه نظرا لعدم وجود الرواج الواقعى . والأنسب أن نأخذ كمثال الصناعات الغذائية فهناك تكون الأمور أفضل مع التمويل الجيد .

من الممكن الاختلاف مع هذا الاختيار ومن الممكن الاتفاق معه . ولكن لابد وأن نجد شيئا نبدأ منه . بالنسبة لنا توجد حقيقة هامة : إننا نرى اليوم التقارب المتبدل بين القائمين على العلم وبين المجتمع العلمى بخصوص قضية . فى أى الاتجاهات يمكن توظيف قدراتنا بما يعود بالنفع على المجتمع .

فيتالى جينزبورج : إننا هنا نتحدث عن الطلب الاجتماعى . وأنا لا أنفى وجود قضايا ومشكلات فى الدولة وفى المجتمع ولدى البشرية كلها . تلك القضايا والمشكلات مرتبطة بالمناخ والتكنولوجيا وغيرها . ولكن هناك أيضا العلوم الأساسية التى لا يوجد فيها طلب اجتماعى بل وليس من الضرورى أن يوجد من أساسه !

لقد تحدثتم هنا عن الفيزياء النووية . ونحن نعرف من التاريخ أنهم فى حقبة الثلاثينات بالاتحاد السوفيتى سخروا من الذين كانوا يبحثون فى نواة الذرة . بل وحتى كانت هناك قرارات حكومية بهذا الخصوص ... ومع ذلك كان الإيقاع الداخلى للعلم موجودا ..

فى العدد الرابع من مجلة " منجزات العلوم الفيزيائية " لعام ١٩٩٩م قمت بنشر بحث تحت عنوان " مشكلات الفيزياء والفيزياء الفلكية التى تمثل أهمية كبرى على أعتاب القرن الحادى والعشرين " ولم أفكر أبدا فى أية " تطبيقات " . لقد قمت ببساطة شديدة بإحصاء ٣٠ مشكلة علمية ...

إننى لا أنفى ولو للحظة واحدة ضرورة وجود - فى بلادنا أو فى أى بلد آخر - قضايا هامة ومحددة يجب يبذل من أجلها الكثير وفى المقام الأول : الأموال والطاقات العلمية . ولكننى أود أن أقول فقط أنه إلى جوار ذلك يوجد العلم ذاته . ذلك العلم الذى ربما من غير المنطقى أن نقسمه إلى علم أساسى وعلم تطبيقى . ولن نمس هنا مسألة المعانى والدلالات الكلامية . ففى العلم وتحديدا الفيزياء توجد مجموعة معينة من القضايا والإشكاليات التى تتحدد بمنطق تطور الفيزياء نفسها بينما الفيزياء يمكنها أن تبصق على ما دون ذلك : هل هذا يعود بالمنفعة على أحد أم لا ! الأمر سيان وهو يحدث وسيظل يحدث ! ويحدث لدينا أيضا هنا ! وذا هو المنطق الداخلى لتطور العلم كعلم فى ذاته ومن غير الممكن نسيان ذلك أو تجاهله ! أما كيف يحدث ذلك عندنا - فهذه قضية أخرى .

سيرجى كابيتسا : يؤسفنى كثيرا أن أسمع منكم كلمة " تبصق " ! فالأمر كله يكمن فى العلة أو الحيثية . العلوم الأساسية تتأسس على التعطش للإدراك أما التطبيقية فتتأسس على المنفعة والجدوى حتى ولو كان ذلك هو القنبلة الذرية . ولعل أعمالكم العلمية تؤكد على فكرتى هذه حيث أن فكرة واحدة منكم قادت إلى تأسيس فرع كامل من الصناعات .

فيتالى جينزبورج : عندما قلت " تبصق " لم أكن أقصد إطلاقا عدم الانشغال بالتطبيقات العلمية لمنجزات العلم . ولكن العلم لديه منطقه الخاص . ولذا فهذا المنطق لا يهمه إطلاقا الجدوى أو المنفعة . وهذا ما أردت أن أقوله بالضبط .

أندريه فاجانوف : هذا الرأى من وجهة نظرى يعبر عن موقف محورى . وسوف أطرح عليكم رقما هاما : فى أحد استطلاعات الرأى العام صوت ٨٪ فقط من الروس على دعم العلوم الأساسية من ميزانية الدولة . فانظروا يا فيتالى لازاريوفيتش إلى أى مستوى وصلنا . هل حدث ذلك بسبب أننا توجهنا فقط إلى " الإيقاع الداخلى " للعلوم

الأساسية

فيتالى جينزبورج : لم نصل أو ننحدر إلى أى مستوى . الناس ببساطة لا يفهمون ما هى العلوم الأساسية ! ولعل الناس فى الدول الفقيرة يرون بالضبط ما ترونه أنتم الآن . ولكن ذلك يحدث هناك لأن الناس لا يفهمون ما هو العلم ولا يدركون مكانته ودوره .

لقد أردت أن أعبر عن فكرة وجود إيقاع داخلى وقوانين ومصالح داخلية فى العلم . ومع كامل احترامى للتطبيقات العملية لا يجب أن ننسى هذا الجانب فى العلم . وعندما ذكر الطلب الاجتماعى يمكن فقط أن نتحدث هنا عن التطبيقات فى الصناعة والطب ... إلخ

أندريه فونوتوف : هذه أمور مختلفة . وإليكم بمثال لنفترض أن هناك شخصا يلعب كرة القدم فى الساحة . إنه هنا يلعب الكرة ويمارس متعته . ولكن كرة القدم تصير بعد ذلك شكلا من أشكال الربح التجارة الصناعة الإنتاج ... وبالتالى يجب على هذا الشخص أن يذهب إلى مدرسة ما محددة لأنه يجب ألا يظل يلعب إلى الأبد فى الساحة أمام البيت أو يمارس متعته الخاصة . يجب أن يخرج إلى الملعب " الاستاد " . يجب أن يحرز هدفا لأنه سيحصل فى مقابل ذلك على أموال !

العلم بدأ بهذا الشكل تقريبا . فالسادة المحترمون وعلية القوم كانوا يمارسون الأبحاث العلمية كهواية . وطريقة دراسة بصمات الأصابع مثلا دخلت على هذا النحو إلى علم الإجرام وهناك أشياء أخرى كثيرة هامة مثل البوصلة وغيرها قام باكتشافها أو صنعها كما قال فرنادسكى أشخاص لا يستطيع التاريخ ولا الحضارة أن يقولا عنهم أى شئ . أولئك الأشخاص كانوا ببساطة غير ممنهجين !

ولكننا اليوم نعيش فى زمن مختلف تماما حيث أصبحت عملية الاستحداث أو الابتكار هى عملية صناعية إنتاجية . أى أن حضارتنا كلها تتأسس على البحث والإعداد والتجهيز والاكتشاف . وبدون ذلك لن يمكننا الاستمرار فى الحياة . وإذا لم نكتشف شيئا أو نفكر حتى فى شئ ما غدا فسوف نموت جميعا لأن العلم بالنسبة لنا قد أصبح الدرع الواق الذى نداقع به عن أنفسنا وذلك لأن حضارتنا هى حضارة فنية والثقافة . كما قال نيتشه . هى انتصار الفن على الحياة . إننا حضارة فنية وإذا لم نعمل بالعلم وننشغل به وخاصة بالمفهوم الذهنى مستخدمين اكتشافاته ونتائجه بشكل نفعى فسوف نفنى ... هل تدركون ذلك ! إن ما تتحدثون عنه يبدو جميلا ومنمقا . والشخص على المستوى الفردى يمكنه أن يشتغل بالعلم من أجل متعته الشخصية ولكنه إذا كان يفعل ذلك خارج إطار منظومة فسوف يكون بلا شك قصير النظر أو أعمى ..

فيتالى جينزبورج : ماذا تعنون بـ " خارج إطار منظومة "

أندريه فونوتوف : أعنى أنه يجب أن يكون موجودا داخل إطار منظومة إعداد وتحقيق وترويج عملية الابتكار والاكتشاف . فأنتم تقولون : " إنهم لا يمولوننا ! " إذن فكيف يمكنكم أن تعملوا إذا كانوا لا يمولونكم !

فيتالى جينزبورج : أنا لست فى حاجة إلى تمويل أنا فيزيائى نظرى ..

سيرجى كابيتسا : إن الأبحاث التجريبية الأساسية حتى ولو كانت فى المناخ أو فيزياء الطاقات العليا أو الجسيمات الدقيقة هى على حد سواء من حيث الأهمية والضرورة وبالتالى فهى تتكلف أموالا غير قليلة . بالإضافة إلى ذلك فمثل تلك المجموعة من الأبحاث تتطلب مشاركة النظريين ذوى المستوى الرفيع . وبالتالى فنحن هنا نقدر بشدة إسهاماتكم العلمية . وكما قال ليف تولستوى : " الكاتب . هو من لا يستطيع ألا يكتب " فالعالم . هو من لا يستطيع ألا يشتغل بالعلم !

سيرجي يوجوروف : إننا ى هذه الحالة نجد أنفسنا فى دائرة مغلقة : العلماء ومن ورائهم حكام البلاد لا يفسرون لدافعى الضرائب لماذا نحن فى حاجة إلى العلوم الأساسية بل ولماذا نحن فى حاجة إلى العلم عموما . أما المجتمع الذى لا يسمع أى شئ مهم لا يقوم بالطلب الاجتماعى على العلم وإنما يتوجه إلى المنجمين والسحرة . وكنتيجة لذلك تتشكل لجنة من أكاديمية العلوم لمكافحة العلوم الكاذبة ...

يفجينى سيميونوف : لقد ضمر طلب الناس على المعرفة الموضوعية .

فيتالى جينزبورج : إننا نتجادل ونختلف حول معنى الكلمات ومن الممكن بالفعل أن نتخبط كثيرا وطويلا فى تلك الكلمات . وما أود أن أقوله هو أن هناك علوم أساسية لا يجب أن تفكر فى التطبيقات العملية . والكلاسيكيون أنفسهم لم يفكروا أبدا فى تطبيقات ميكانيكا الكم والنظرية النسبية . هذا هو المنطق الداخلى للعلم ! ولكننا نعرف من خلال التجربة أن هذا المنطق الداخلى يذهب بعد ذلك فى أيدى أشخاص آخرين ويخضع هناك للعديد من التطبيقات . لا أحد ينفى ذلك .

أندريه فاجانوف : هل تعنى كلماتكم هذه أن مسؤولية الدولة هى تخصيص الأموال اللازمة فقط ثم ترفع يدها نهائيا عن العلم وسوف تقود عمليات " الإيقاع الداخلى " للعلم إلى نتائج عظيمة

فيتالى جينزبورج : نعم ـ وبشكل جزئى . فنحن نعرف جميعا كيف يفعلون ذلك على سبيل المثال فى أمريكا : يمنحون مساعدات ضخمة من أجل أمور كثيرا ما تبدو من وجهة نظرى مجردة وحمقاء . ولكن طالما هناك أموال ـ فهم يمنحون . وما يفعلونه صحيح تماما . لأن التنبؤ بأى نتائج مستقبلية فى مثل هذه الحالات أمر غير جائز . والمخاطرة ضرورية .

أندريه فونوتوف : أود أن أطرح مثالا آخر . لقد قام الأمريكيون بعد عملية " عاصفة الصحراء " العسكرية عام ١٩٩٠م بتحليل التكنولوجيا التى أدت إلى انتصار الجيش الأمريكى . واتضح أن الجيش استخدم فى الأساس تكنولوجيا مدنية فقد كان لديهم منظومات الاتصال التى اشتروها ببساطة من الشركات التى تنتج الأجهزة الكهربائية أما أجهزة الفيديو فقد كانت على مستوى عال جدا من التقدم لا تقارن فيه أبدا مع أية تكنولوجيا عسكرية .

من أين جاءت تلك التكنولوجيا ! ولماذا توغلوا بهذا العمق من وجهة نظر تحقيق الطلبات الاستهلاكية ـ لأنهم وضعوا فيها أموالا ! وبطبيعة الحال فعندما تقولون يا فيتالى لازاريوفيتش أنكم تعملون بالفيزياء من أجل متعتكم الشخصية يجب أن تأخذوا فى اعتباركم أنكم تعملون بالفيزياء بذلك القدر الذى يكون فيه المستهلك مستعد لدفع مقابله ! بهذا المفهوم سوف يأخذ العلم صورته الاجتماعية . بمعنى أنه من الضرورى أن يقوم العلم بتأسيس علاقات ما مع المجتمع بالمعنى الواسع للكلمة . يجب أن يكون هناك اتصال بين العلم والإنتاج وبين العلم والمجتمع . ذلك الاتصال مرتبط فى أمور كثيرة بالمصادر وبالدرجة الأولى بمصادر التمويل . ولذا فالسياسة العلمية لدينا ربما ستبدأ فى القرن القادم من نقطة تحليل الأسواق المحتملة .

أندريه فاجانوف : بذلك نكون قد اقتربنا من إحدى أهم القضايا . لقد ذكرت رقم الـ (٨٪) الخاص بالذين صوتوا لصالح أن تقوم الدولة بتمويل العلم من ميزانيتها . ومن هنا يبرز تساؤل : أ لا يكون من المجدى فى هذه الحالة أن توجه العلم نحو قضية ما قريبة من المستهلك أو الجمهور ـ إنها قضية اختيار الأولويات . وعموما فهناك إحساس غريب يلازمنى باستمرار : أنا أعرف أن الإنجازات العظيمة التى كانت فى مرحلة الاتحاد السوفيتى ما تزال موجودة حتى الآن فى العلوم الروسية ولكن لماذا لا يتم تطبيقها وإشاعتها فى المجتمع هل هناك عيب عضوى فى النظام ككل

سيرجي كابيتسا : أندريه عندما أعددت نفسي لهذا اللقاء قررت أن أذكر لكم أحد الأمور التي شاركت فيها شخصيا . ففي عام ١٩٤٢م دعا الأكاديمي فلاديمير فيكسلير إلى مبدأ " التوجيه عن طريق الأطوار الذاتية " وبالطبع فجميع معجلات الجسيمات الدقيقة في الوقت الحاضر تعمل على أساس هذا المبدأ . في تلك الفترة وبعد تلك الدعوة بسنوات عديدة بدأت أعمل في مجال المعجلات . واخترعنا الـ " ميكروترون " الذي كان عبارة عن معجل أكثر بساطة وفاعلية في تعجيل الإلكترونات في نطاق من الطاقة يبلغ ٤٠ مليون إلكترون فولت . وتم بناء مئات من هذه المعجلات في روسيا والدول الأخرى ووجدت تلك المعجلات التطبيقات والاستخدامات المناسبة .

آنذاك كان أصحاب النظرة البعيدة من العاملين في المنظومة الصناعية العسكرية وبناء السفن والغواصات يعملون في إنتاج المعدات الإشعاعية (مصادر الإشعاع التي تعمل بالنظائر بهدف تعريض الناس للإشعاع أثناء علاجهم من الأورام المزمنة) . وعلى الفور بدأوا في إنتاج المعجلات التي طرحناها . وبالفعل تم بناء ما يقرب من عشر معجلات من أجل مجموعة من مستشفيات الاتحاد السوفيتي .

بعد ذلك حلت جميع تلك الكوارث التي نعرفها مع مجيء البيريسترويكا . زد على ذلك أنه عندما كان الأكاديمي أندريه إيفانوفيتش فوربيوف (الأكاديمي بأكاديمية العلوم الطبية الروسية) وزيرا للصحة قام بدعم ومساندة ذلك البرنامج الذي كان مثالا رائعا لتحويل الصناعات العسكرية . ولكن الألمان قطعوا علينا الطريق حينما رصدوا معونة تبلغ مليار مارك ألماني من أجل تزويد الطب الروسي بالمعجلات الألمانية . في هذا الإطار حدثت كما اتضح فيما بعد عمليات رشوة من أجل التأثير على الحلقة الوسطى من الموظفين الذين كانوا يتخذون القرار في هذا المجال . أنا أعرف كل تلك التفاصيل من أحاديث الوزير الذي سرعان ما قدم استقالته أو بالأحرى استغنوا عنه .

وكانت نتيجة كل ذلك أنهم فتحوا خط معونات ومساعدات من أجل إمداد روسيا وتزويدها بما أطلقوا عليه " المعجلات الألمانية " . وكانت هذه العملية واحدة من أكبر عمليات زرع التقنيات الطبية في السوق الروسية وكان على رأسها هلموت كول وبوريس يلتسين شخصيا .

والآن اتضح أنه من أجل الحفاظ على المفاعل الواحد في وضع صالح للعمل (علما بأن قوة المفاعل ٥ ميجا إلكترون فولت فقط وبالتالي فهو لا يختلف كثيرا عن مصدر الطاقة الذي يعمل بالنظائر المشعة) يجب أن نصرف عليه ١٣٠ ألف مارك ألماني في السنة . ولنتصور الآن : أي مستشفى أو معهد روسي يمكنها أن تتحمل مثل تلك المبالغ ! وللمفاعل الواحد !! لقد كانت الهدية باهظة الثمن أما المليار مارك فقد استعادها الألمان بسهولة شديدة . والآن وصلنا إلى أنه لا يوجد حاليا لدينا لا مفاعلات ألمانية ولا حتى روسية .

أندريه فاجانوف : إن ذلك يعود بالضبط إلى عدم وجود سياسة علمية تقنية . وبالتالي يبرز سؤال آخر : ما هو إذن الشكل الذي يجب أن يكون عليه النظام

سيرجي كابيتسا : إنهم يسألون في دهشة : كيف حدث ذلك والأمر ببساطة أن هناك مجموعة الألمان عديمي الضمير بمعونتهم الإنسانية التي تخدم في الأساس مؤسساتهم وأسواقهم ومن ناحية أخرى كانت هناك منظومة الفساد والرشوة التي قامت بتنفيذ مثل هذه العملية .

إن ذلك مثالا نموذجيا لتوضيح الكيفية التي انهارت بها إنجازاتنا العلمية الضخمة وإنتاجنا الصناعي الهائل . وفي الوقت الحالي تقدم إلينا مدير معهد الأبحاث العلمية بأكاديمية العلوم الطبية الروسية باقتراح للعودة إلى هذه القضية . ولكن للأسف فقد فات الوقت وتقادمت مجموعات العمل وتشتت . ثم من أين لنا بمصادر التمويل والإرادة السياسية من أجل حل تلك المشكلة التي ستتكلف مليارات الروبلات

أندريه فونوتوف : سوف أعلق فقط على ما قاله سيرجى بتروفيتش : إن أى علم متطور وأية فكرة علمية طليعية هى أمور قابلة للتطوير بشكل طبيعى جدا ولكن ذلك لا يحدث إلا فى ظروف مؤسساتية راسخة ومنظمة وقائمة على القانون .

يفجينى سيميونوف : ليس طبعا في وسط عدواني وعدائي كما هي عليه الآن .

أندريه فونوتوف : لا توجد بالفعل أية رقابة ديمقراطية ! حتى من زاوية اتخاذ القرارات العلمية التقنية وعلى سبيل المثال بناء المحطات الكهروذرية .

إن وزير العلوم نفسه لم يكن ولو لمرة واحدة عضوا بمجلس الأمن القومى . ومن حيث المبدأ إذا كنا نعيش حقا فى ذلك العالم الذى يعتبر فيه العلم فعلا هو المؤشر لكل الاتجاهات فإن المسؤولين عن السياسة العلمية يجب أن يكون على علاقة بالقرارات المصيرية للدولة . كما يجب أيضا أن تكون هناك منظومة ما للقرارات الاستراتيجية . ففى القرن الحادى والعشرين كما يبدو لى يجب أن يتواجد العلماء فى جميع تلك المستويات والمسؤوليات وعلى أقل تقدير كخبراء وليس كمتخذى قرارات .

سيرجى يجوروف : إن القضية التى طرحها أندريه جيناديفيتش حول مزج العلم وربطه بالتكنولوجيا تعتبر قضية وملحة من أجل فهم عمق الأزمة فى المجال العلمى .فالمتخصصون فى حل الأزمات يرون أن نقطة الانطلاق فى إنقاذ الشركات والمؤسسات وفروع الإدارة الأخرى هى تحديد الرسالة المنوطة بها ـ أى الهدف الاستراتيجى الأعلى . وبعد استجلاء الرسالة يبدأون فى وضع مهام محددة وتشكيل هياكل تنفيذية ووضع خطط التطوير والتنمية .

من هذه الزاوية لو سألنا القائمين على العلوم الروسية : ما هى الرسالة التى تقع على عاتق مجالنا العلمى التقنى . فمن الممكن تماما أن نحصل على إجابة واضحة جدا . وهى مثلا : رسالة مجالنا العلمى " يافطة " محددة ألا وهى أن يعرفوا عندنا وفى الغرب أن روسيا دولة عظمى كما فى السابق . ومن الممكن على ضوء هذه الرسالة إقامة خط وظيفى محدد وذلك بالاستناد إلى " إعلان رعاية العلم من جانب الدولة " و " النشاطات الاحتفالية الشكلية " و " الجهود الدعائية المكثفة للإنجازات العلمية ضئيلة القيمة " .

من الممكن أيضا طرح أى رسالات أخرى . ولنقل مثلا : الأبحاث الأساسية الرائعة أو التجارب المتفردة التى تثير إعجاب المعاصرين والأحفاد . وأصحاب مثل هذه الرسالات لديهم خططهم الوظيفى أيضا : انتقاء عدد غير كبير من أفضل العلماء والمهندسين والتقنيين وتوفير ظروف استثنائية خاصة من أجل إبداعاتهم .

ولكن بطبيعة الحال سوف تكون هناك ضرورة شديدة للقرارات التنظيمية والهيكلية الجادة إذا عرفنا أن رسالة العلوم الروسية هى تزويد فروع الاقتصاد الوطنى بالتكنولوجيا الرفيعة وتأمين التطور الاقتصادى ـ الاجتماعى بشكل واقعى . فى هذه الحالة يتطلب الأمر فى المقام الأول توفير وتهيئة خطوط إمدادات التكنولوجيا من المختبرات إلى مواقع الإنتاج ودعوة المخترعين والمحامين وخبراء التسويق والمصممين والمخططين من أجل المساعدة والتعاون . فاليوم يندر وجود مثل أولئك المتخصصين فى المجالات العلمية . ولا أدرى لماذا يعتقدون أن العلماء يستطيعون بمفردهم إنجاز مثل هذه المهام !

وفى حالة اختيار أية رسالة للعلم يجب أن تأخذ هذه الأفكار أو غيرها شكل التوجه للسياسة العلمية التقنية . إلا أن تلك السياسة وأكرر مرتبطة بالتشريع ـ أى أنها من صلاحية رئيس الدولة . وعليه بالذات أن يعلن عنها بقرارات رسمية واضحة . وبالتالى تكون ـ هذه القرارات ـ هى الوثائق الرسمية التى تقوم بتوجيه المجتمع العلمى .

أندريه فاجانوف : فى العام الماضى أعدت وزارة العلوم ومعها بعض الإدارات الأخرى دراسة خاصة للرئيس

يلتسين بشأن السياسة التكنولوجية . ومع أن الدراسة كانت خاصة - أي سرية إلا أنها وقعت كالعادة في أيدي وسائل الإعلام . وعموما فقد أحاطوا فيها الرئيس بأنه رغم الصعوبات الكثيرة التي نتحدث نحن عنها اليوم هنا فقد تم الحفاظ على القدرة العلمية التقنية والتكنولوجية في روسيا . أنا لا أعرف الأرقام - فالدراسة كانت خاصة وسرية ! ولكن على أي أساس ارتكزت هذه الدراسة ! لو حكمنا من خلال وسائل الإعلام الحرة والمستقلة فسوف نعرف أن مستوى قابلية استفادة إنتاجنا من العلم - ٥٪ أما نصيب سعة الاستيعاب العلمي للمنتجات في صادرات الدولة - ٣ر٪ . وبالتالي يظهر ذلك "الورم " أو " الانتفاخ " - علم ضخم جدا و" فسيلة " تكنولوجية مصابة بـ« الأنيميا ».

فيتالي جينزبورج : هذا أمر مرتبط بالنظام الموجود . وهناك العديد من الأمثلة : شخص ما اخترع شيئا هاما أو قدم اقتراحا عظيما - ولكن ليس هناك أحد يريد تطبيق ذلك وإشاعته !!

يفجيني سيميونوف : يبدو لي أن الأمر على أية حال استراتيجي - أي لا يوجد أي خطأ غير مقصود . المسألة ببساطة أننا في دولة فقيرة وبلا ثقافة . وبالتالي ففي مثل هذه الدولة لا يستطيع العلم من حيث المبدأ أن يعيش إلا على حساب التعاون مع السلطة وليس مع المجتمع . فالمجتمع لا يفهم : لماذا في واقع الأمر تكون العلوم الأساسية ضرورية وهامة ولعل نسبة الـ (٨٪) - الذين صوتوا لصالح دعم العلوم من ميزانية الدولة - هي نسبة كبيرة ولكن المجتمع بالطبع لا يساند العلم وليس لدية أية حاجات أو متطلبات فيه .

كانت العلوم تتعاون مع السلطة . وكانت السلطة هي المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي جعلتنا نفهم بوضوح أنها في حاجة إلى العلم : من أجل الدفاع ومن أجل الأيديولوجية ومن أجل الوجاهة . ولكنها لحسن الحظ لم تكن تتدخل في الأمور الأخرى لأنها كانت عديمة الكفاءة وبقدر كاف جدا . وبفضل ذلك استطاع الفيزيائيون أن يعملوا واستطاع باحثوا الآداب واللغات أن يعملوا . أما المنطق الداخلي للعلم فلم تكن السلطة لا تحترمه فقط وإنما لم يكن يهمها في الأساس .

واليوم فقدت السلطة الحالية أي اهتمام بالعلم . إنها مفطورة على ذلك بطبيعتها (ويجب أن نفكر لماذا هي مفطورة على ذلك بطبيعتها) . ومع ذلك أعتقد أن هذه الأمر على المستوى الاستراتيجي يصبح فرصة للعلم الذي يجب عليه أن ينتهزها ويجرب " التعلق " بمؤسسات اجتماعية أخرى وعلى أقل تقدير بالنسبة للعلوم الاجتماعية - الإنسانية . ففي الوقت الحاضر توجد لدى المجتمع متطلبات واحتياجات للاختصاصيين في المجالات الإنسانية وإن كانت هذه المتطلبات غير واضحة بعد أو محددة ولكنها على أية حال أصبحت موجودة . وفي نهاية الأمر سيكون هناك طلبا رائجا على العلم . ليس فقط على العلوم الإنسانية ولكن على جميع العلوم الأخرى . وبالتالي فمن الأفضل التوجه ليس فقط نحو السلطة وإنما أيضا نحو المجتمع .

أندريه فاجانوف : يبدو أننا الآن نخلص مع الأسف إلى نتيجة خطيرة : فهل سيحكم بالفشل على العلوم الروسية في الألفية الثالثة !

فيتالي جينزبورج : سوف تنهض الدولة وسوف تنهض العلوم ! ولكن القضية ليست في ذلك وإنما في التوقيت والأولوية : متى سيحدث هذا النهوض ! وبالطبع إذا استمر الحال كما نحن عليه الآن ولفترة طويلة فسوف يموت الكثيرون ويرحل الباقون . وعندئذ سيكون النهوض في غاية الصعوبة . وعموما فنحن لم نصل بعد إلى هذه الدرجة.

أندريه فاجانوف : في عام ١٩٩٣م صرح الأكاديمي فلاديمير فورتوف وزير العلوم السابق والمدير السابق أيضا لصندوق الأبحاث العلمية الأساسية الروسي في مقابلة صحفية لـ " الجريدة المستقلة " بأن العلوم الروسية في حالة " غيبوبة " . وهو ما يزال منذ ذلك الحين يكرر هذا المفهوم حرفيا وبشكل منتظم . ست سنوات كاملة من " الغيبوبة " - أ

لم تحدث تغيرات لا عكوسية حتى الآن فى هيكل العلم نفسه

لقد ناقشنا الآن وبتفصيل كاف العوامل الخارجية المرتبطة على وجه الخصوص بالعلم والعلاقة الاقتصادية للسلطة والدولة بالعلم . ولكن أ لم تتحول تركيبة العلم فى حد ذاتها - كتركيبة - إلى شكل من أشكال المعلبات - معلبات إثنوجرافية وثقافية . وعلى سبيل المثال فإدارة أكاديمية العلوم تمارس حاليا تلك السياسة عن وعى كامل - تتمهل حتى تنتهى تلك الفترة الغامضة المضببة . والقضية تتلخص فى أنه يجب الانبطاح على القاع والاختباء إلى أن تهدأ تلك العاصفة الاجتماعية والاقتصادية . وعندئذ سوف نعود لننهض بكامل قوانا . ربما يكون ذلك تصرفا صحيحا ! ولكن لا أحد عندنا يناقش بدقة وبالأرقام هذه الأوضاع على أساس نماذج سوسيولوجية محددة .

إنهم يرتكزون على العادات والتقاليد الروسية ويتحججون بها . ولكن التقاليد سلاح ذو حدين : فهى من الممكن أيضا أن تصبح جهاز لشحن الطاقة الاجتماعية . وبالتالى فمن الضرورى تطويرها وليس الحفاظ عليها . وبالتالى فأنا ما زلت أطرح هذا السؤال : أ لم تتعرض العلوم كوسيلة لتحصيل المعرفة فى روسيا إلى تغيرات ما عضوية لا عكوسية

فيتالى جينزبورج : لقد تقدم بنا العمر البيولوجى ! لقد شخنا ! إننى أعقد "سيمنار " أسبوعيا طوال ٥٠ عاما . يحضر إليه ما يقرب من مائة شخص كل أسبوع . معنى ذلك أن الأمر مهم بالنسبة لهم إذا لا يوجد أحد يجبرهم على الحضور والمواظبة . وللعلم فأنا أعرف جيدا أن السيمنارات كثيرة فى العديد من المعاهد هذا بالطبع إضافة إلى العلاقات مع الخارج . الأمر الآخر هو أن نطاق الأبحاث قد أصبح ضيقا . وهذا ما أقصد به التقدم فى العمر البيولوجى - الشيخوخة . ولكن بالنسبة للمجال الذى أعرفه جيدا أرى أن العيب الرئيسى هو السن . الناس يشيخون ومن الصعب جذب اهتمام الشباب بسبب المشاكل التى يعانون منها مثل السكن والحالة المادية المتردية ... إلخ وبالتالى فهم يرحلون إلى الخارج . المشكلة تكمن هنا وليس فى أية تغيرات عضوية فى المادة البشرية .

سيرجى يجوروف : القضية تكمن فى أن قياس أو معيارية المواقف فى العلم أمر فى غاية الصعوبة . والأمثلة الخاصة بمصائر العلماء الروس عديدة ومتنوعة . فهناك مثال الباحث الذى حافظ على مستواه العلمى الرائع فهو فى الوقت الذى يعمل فيه حمالا أو عربجيا يظل مستمرا فى العمل بالعلم من أجل متعته . أما المثال الآخر فهو الشخص الذى حاول أن يمنح أبحاثه العلمية الأساسية طابع البناء الهندسى ومن ثم فقد مهاراته القديمة دون أن يمتلك مهارات جديدة . أى أن مستواه تدنى وهو ما يزال فى مكان عمله .

أندريه فونوتوف : من وجهة نظر إنتاج معارف علمية أساسية جديدة فهناك إحساس اليوم بأن هذا الإنتاج قد أصبح بطيئا . لم يتلاش أو يتقدم وإنما صار فى غاية البطء لأن العلوم الأساسية هى أحد فروع العلوم العامة والشاملة . وبالتالى فهى هنا فى حاجة إلى بناء جاد . وليس عبثا أن الاستراتيجية التى نسير عليها الآن تتوجه نحو المشروعات الضخمة .

أما ما يخص النشاط العلمى التقنى فى عمومه فمن الممكن القول أنه لا يزال موجودا . وهذا النشاط يتجلى على وجه الخصوص فى إعادة رفع كفاءة العاملين - الباحثين فى المؤسسات الأكاديمية والإدارات العلمنية التى تعمل على إقامة الشركات والمؤسسات الصغيرة فى محاولة لتحقيق ما لديها من خبرات ومعارف (Know - how) بشكل مجدى ونافع فى ظروف السوق الجديدة . ومن الممكن على أساس تلك الشركات والمؤسسات الصغيرة أن تنمو مؤسسات ما ضخمة . ولكن من أجل تحقيق ذلك يلزم أن تكون هناك حوافز وتشجيعات مناسبة وقبل كل شئ ظروف اقتصادية ملائمة .

في هذه القضية لا يوجد لدينا أي تنظيم أو خطط تضعها الدولة . لقد أكدوا جميعا وما زالوا يؤكدون - فكتور تشيرنوميردين وبوريس يلتسين وسيرجي ستيباشين والآخرون - بأن العلوم الروسية هي ثروتنا الرئيسية وفخرنا ! ولكن عندما تصل الأمور إلى نشاطات ومهام محددة بشأن ولو حتى توفير الظروف الطبيعية الملائمة التي وإن لم تستطع أن تكون حافزا فعلى الأقل يمكنها ألا تكون عائقا يتسبب في إبعاد الناس عن المجالات العلمية فهم لا يفعلون أي شئ على الإطلاق . والمثال على ذلك هو قانون الضرائب الذي اتخذوه منذ عامين أو ثلاثة .

لدينا صناديق وجمعيات وإن كانت غير متماشية مع العصر تعمل بميزانيات خاصة وليس من ميزانية الدولة . ولعل العلوم التطبيقية في الوقت الحاضر هي التي تعتمد بالذات على مثل تلك الجمعيات والصناديق . هذا النظام على وجه التحديد هو الذي يؤسس العلاقة بين العلم والإنتاج . ولكن نعود لنؤكد من جديد أن قانون الضرائب الحالي هو السبب الرئيسي الذي عمل على إغلاق مثل هذه المؤسسات .

لقد وافقوا على قانون الضرائب . ولكن هناك سؤال يدور حول هذا القانون : على أي أساس يعمل الآن الصندوق الروسي للأبحاث الأساسية هناك العديد من المخالفات المتعلقة بإلغاء الامتيازات . إذ أنه في واقع الأمر لن يمكننا العمل على النهوض بالصناعات العلمية الواسعة بدون جذب الاستثمارات الموجودة داخل البلاد . بل ويمكن القول أن ما يحدث الآن يشبه ما كان يحدث في السابق . فقد كانت المعركة في السابق تدور على ضمان مكان في الحياة وعلى مصادر ما طبيعية . أما اليوم فالمعركة الرئيسية هي معركة الاستثمارات . وإذا خسرنا هذه المعركة (وربما تكون هي الأمل الأخير بالنسبة لنا) فسوف تظل البلاد لسنوات طويلة متوقفة عند مستواها الحالي .

الاستثمارات - مفهوم أممي . وقد قام ستالين بحل هذه القضية بشكل بسيط جدا - كان يبيع مصادر الثروة الطبيعية للدول الخارجية (منتجات الاقتصاد الوطني) . كان السكان يعانون من الجوع ولكن عملية التصنيع وقفت على قدميها في الثلاثينات . ومع ذلك فمن الممكن حل هذه المشكلة بطريقة أخرى : العمل على توفير الجو المناسب للاستثمار مع نظام ضريبي ملائم لكي يصبح من المفيد لمستثمر الأجنبي أن يضع أمواله في روسيا بالذات . إنهم ينظرون عندنا دائما إلى رؤوس الأموال التي تخرج من روسيا إلى الدول الأخرى على أنها قضية إجرامية . فماذا فعلنا لكي نحافظ على هذه الأموال ! لا شئ !

أندريه فاجانوف : تقولون أنه قد تمت الموافقة على العديد من القرارات غير الصحيحة المرتبطة مباشرة بالمجال العلمي التقني . ولكن رئيس أكاديمية العلوم الروسية عضو بمجلس رئاسة روسيا ووزير العلوم - الأكاديمي ميخائيل كيربيتشينكوف عضو بمجلس الأمن الروسي والأكاديمي جوريس ألفيروف عضو بمجلس الدوما (البرلمان) . أي أن العلم يبدو محاطا من جميع الجهات بالرعاية والاهتمام .

أندريه فونوتوف : مع احترامي لجميع ممثلي أكاديمية العلوم يمكنني أن أوجه إليهم لوما حقيقيا لأن الأكاديمية لم تتقدم ولو لمرة واحدة ببيان يتضمن مبادئ تطوير البلاد أو حتى بعريضة تتضمن بصراحة رؤيتهم الواضحة الخاصة بالسعة العلمية وإنتاج التكنولوجيا الرفيعة .

أندريه فاجانوف : الأمر على العكس من ذلك فالأكاديميون غاضبون لأنهم يبعثون بأكوام من الرسائل إلى الحكومة ولكن ما من أحد هناك يجيب عليها .

أندريه فونوتوف : إنها أمور خاصة جدا . وعلى سبيل المثال رسائل من أجل إعفاء الخريجين المتفوقين من أداء الخدمة العسكرية . هذه أمور خاصة . ولكن المبادئ العامة التي تتناول بدقة مجمل تلك المشاكل والقضايا غير موجودة . إن الأمور الخاصة تتعلق بكل واحد على حدة ولكن أ ليس من مسؤولية أكاديمية العلوم أن تقوم بواجبها !

ومع ذلك فمثل هذه الوثائق غير موجودة .

لقد وضعوا في الفترة السوفيتية برنامجا كاملا للتقدم العلمي التقني (أنا لا أقول أن ما وضعوه كان وثيقة مثالية . فهذا البرنامج لم يلعب الدور الذى كان يجب أن يلعبه فى حينه . ومع ذلك فقد كان يرصد العديد من القضايا السلبية التى نتحدث عنها اليوم) . كان ذلك وثيقة كاملة تمت فيها محاولة لوصف وتحديد الطريق الذى يمكن أن تتحرك عليه البلاد نحو أهداف محددة . كان ذلك برنامجا علميا . أما الآن فلا يوجد أى عمل مثله .

أندريه فاجانوف : عندما كان فلاديمير بولجاك نائبا لرئيس وزراء روسيا الاتحادية ورئيس لجنة إعداد مبادئ إعادة إصلاح العلوم قال : دع العلماء الآن يجلسون لتحديد تلك المبادئ وسوف يظلون طوال عشر سنوات يفعلون ذلك !

سيرجى يوجوروف : لعله كان محقا . بيد أن الوثيقة الأساسية الخاصة بهذا الموضوع ليست المبادئ التى تتحدثون عنها وإنما كانت الوثيقة التى تتضمن قانون " العلوم والسياسة العلمية التقنية الحكومية " . فى هذا القانون يمكن أن نعثر على كل ما هو ضرورى للتقدم بصورته العامة . مثل هذا القانون لم يكن موجودا فى الفترة السوفيتية . ولكن نسبة تطبيقه فى الوقت الحاضر لا تتجاوز ٥٠٪ . وبالتالى إذا كان القانون موجود لكى لا ينفذ فمن الأفضل أن نطرح أفكارا أخرى ومبادئ جديدة .

يفجينى سيميونوف : يبدو لى أن الحالة التى يعيشها مجتمعنا فى عمومها أشبه بحالة ما خارج الوجود . كل شئ هنا كما يقولون ليس كما ينبغى . القانون ـ ليس قانونا الحدود ـ ليست حدودا حتى جواز السفر الموجود فى جيوبنا ـ هو فى واقع الأمر جواز سفر بلد ليس له وجود بينما جواز سفر البلد الموجود ليس موجودا لدينا . كل شئ على هذا الحال حتى العلم نفسه !

أعتقد أنه عندما ننوى توجيه أى إدانات للعلم يجب أن نأخذ فى الحسبان أنه انهار كمنظومة وبالتالى لا يوجد فصل بين العلم الذى يدرس والعلم الأكاديمى والعلم الفرعى المستقل . وفى الواقع فالعلوم كلها تعيش الآن بنظام ما آخر تشكل فى الظروف الجديدة . وحينما حدث ذات مرة وقمت بتحليل المسابقات بشكل تجريبى تماما التى تقام فى الصندوق الروسى للعلوم الإنسانية اكتشفت أن العلوم الروسية تعيش فى واقع الأمر بشكل " قبلى " ! ليس أبدا فى مدارس واتجاهات ونزعات وإنما بالضبط فى قبائل . ويبدو أن هذه هى الوسيلة الوحيدة أو الوسيلة الأكثر فاعلية التى عثر عليها العلماء من أجل البقاء . لقد زلزلتنى إحصائيات الصندوق الروسى للعلوم الإنسانية خلال السنوات الخمس الأخيرة . فهى تؤكد بشكل يقينى عدم وجود الترابط أو عمليات الضغط والتأثير التى كنا نتوقعها : فلو كان هناك شخص ما من أحد المعاهد الأكاديمية بعينها فلن يقوم بتقديم أية مساعدة إلا لمعهده فقط . لا يوجد ترابط ولا توجد جماعات ضغط أو تأثير ما قانونية منظمة . فالباحث الأكاديمى لا يقدم أية مساعدة إلى أكاديمية العلوم . والباحث الذى يعيش فى مدينة سانت بطرسبورج لا يساعد العلوم فى سانت بطرسبورج ولكنه يكون فى غاية النشاط ـ كقاعدة ـ فى تقديم المساعدة إلى " قبيلته " . وهذه ليست ظواهر فردية ولكن الأمور قد ذهبت إلى حد أبعد من ذلك .

فيتالى جينزبورج : ماذا تقصدون بكلمة " قبيلة "

يفجينى سيميونوف : القبيلة ـ هى تلك الجمعيات والرابطات الراسخة التى ظهرت ليس على أساس المصالح العلمية وإنما على أساس مصالح ما تملك طابعا ماديا .

ولنفترض مثلا أننى ـ خبير . معنى ذلك أننى سأظل نائما إلى أن تتم مناقشة المشروعات التى تخص المعهد أو المؤسسة التى أعمل بها . ولكن انظروا عندما يكون المشروع خاصا بالقسم الذى أعمل به وأتقاضى منه الحوافز

والإضافات . ومن وجهة نظر تناقض المصالح فهناك مواقف لا يمكن ضبطها أو إثباتها . وعلى سبيل المثال عندما يكون الشخص باحثا ولكن ليس فى نفس القسم . عندئذ يقول : " هل تعرفون ... إن هذا المشروع عظيم جدا ... " . وعلى الرغم من أن العديد من مديرى المعاهد يفكرون هكذا : " هناك فى المجلس عدة أشخاص من معهدنا . وسوف يتحدثون باسم المعهد " إلا أنه فى واقع الأمر يقوم هؤلاء " الذين من معهدنا " بتصرفات مغايرة تماما فى مثل تلك المجالس .

إن العلوم عندنا توجد أيضا خارج الوجود . فهناك معاهد وهناك خطط للأعمال العلمية البحثية . تلك الخطط ما تزال حتى الآن تكتب من أجل سنوات طويلة آتية - أى للمستقبل . وإذا نظرنا إليها فسوف نكتشف أن الموضوعات العلمية البحثية الواقعية جدا والتى يدرسها العلماء ويبحثونها لا تتناسب إطلاقا مع تلك الخطط . هناك أيضا عمليات معقدة جدا تجرى فى المجتمعات العلمية وفى الهياكل والبنيات الخاصة بالعلوم الطبيعية . وعلى الرغم من أن هذه الهياكل والبنيات تتغير تجد أن الأشكال المؤسساتية - القانونية - التنظيمية كما هى دون أى رد فعل أو فاعلية .

طوال الفترة الزمنية التى تواجدت فيها تلك الصناديق والجمعيات العلمية لم تهتم أبدا أية إدارة علمية بالمعلومات التى جمعتها هذه الصناديق والجمعيات . وعلى سبيل المثال توزيع النشاطات العلمية على الأقاليم . وهذه إحدى أهم القضايا وأخطرها ! وإليكم بعض المعطيات خلال خمس سنوات : ٩٠٪ فلسفة أكاديمية - موسكو ٩٥٪ علم نفس أكاديمى - موسكو ٩٨٪ علم سياسة أكاديمى - موسكو . إن كل المشروعات والمخططات والمناقشات حول عملية تكامل العلوم الأكاديمية والمدارس العليا هى مجرد أمور افتراضية تأملية . هنا لا توجد أية حلول أو قرارات سهلة وبسيطة . فإذا كانت كل علوم السياسة فى موسكو بينما المدارس والمؤسسات التعليمية فى أقاليم أخرى مثل كالوجا أو كالينينجراد فهذا يفصح عن عملية تكامل بسيطة وسطحية . ولكننى أعود وأكرر : لم يهتم أى أحد بأى معلومات ولم تحدث حالة واحدة اهتم فيها أحد بالمعلومات التى تم أو يتم جمعها فى تلك الصناديق والجمعيات والمدارس والمؤسسات العلمية بينما تمتلك هذه المعلومات أهمية عظيمة وقيمة فى غاية الخطورة نظرا لأنها تعرضت للبحث والتحليل وصارت فى شكل جيد ويمكن الحصول عليها بسهولة ومن ثم تشغيلها وتفعيلها .

أندريه فاجانوف : فى كثير من الأحيان نسمع مثل ذلك الرأى : روسيا هى دولة قبل كل شئ العلوم الطبيعية . وعلى ضوء ذلك يكون من المهم أن يتجه العالم كله - فى هذه الحالة - إلى علومنا ويشترى منا نتائج المعارف البحثية الأساسية (أى نتائج الأبحاث فى مجالات العلوم الطبيعية) . وبالتالى من الممكن أن نزدهر ونتطور . إننى أتوجه إلى سيرجى بتروفيتش خاصة وإلى المجتمعين عامة لمناقشة هذا الموضوع .

سيرجى كابيتسا : من الممكن التأكيد بصحة هذا الرأى بدرجة ما . فتقاليد البحث فى العلوم الطبيعية موجودة لدينا . وبالفعل فنحن نملك فى هذا الميدان تقاليد عريقة . وهى موجودة بالنسبة لعلوم الأراضى والبيولوجيا . وليس عبثا أنهم يقولون أن روسيا هى الدولة الثانية للدارونية . تلك التقاليد توغلت عميقا فى تاريخنا الثقافى . وبالتالى فهى فى غاية الأهمية .

أما الشئ غير الموجود لدينا فهو البراجماتية . هذا هو الفارق الضخم بين العلوم الروسية والأمريكية . وهذه الحقيقة يجب أخذها بعين الاعتبار فى السياسة العلمية وفى العلاقة المتبادلة مع العلوم الأخرى فى دول العالم .

ولكننى الآن أود القول بأن أزمة العلوم والبحث عن طرق ومعالجات من جانب الدولة والمجتمع - هى ظاهرة عالمية عامة . ولكن هذه القضية فى روسيا على وجه الخصوص تظهر بشكل حاد . وكما يقولون : عندهم رشح ولكن عندنا

تحن كوليرا .

فى نهاية يونيو ١٩٩٩م فى مدينة بودابست وتحت رعاية اليونسكو واتحاد الجمعيات العلمية العالمية أقيم مؤتمر عالمى بخصوص العلم . وضمن ٢٥٠٠ مشارك قام بتمثيل روسيا كل من أكاديمية العلوم ووزارة العلوم . فى هذا المؤتمر تمت مناقشة القضايا العامة للعلوم المعاصرة وجوانبها الثقافية والتصنيعية ـ الإنتاجية والإصلاحية والأيديولوجية . وتم أيضا استعراض النتائج الإجمالية لكل علوم القرن العشرين وتحديد الأولويات والمهام المستقبلية . إضافة إلى ذلك كان هناك بلا شك إحساس بتغير الحدود والمراحل ومن ضمنها حدود ومراحل أزمة العلم المرتبطة بعلاقة العلم والمجتمع .

لقد قاموا بتوجيه الدعوة إلى لإلقاء كلمة فى هذا المؤتمر حول موضوع مكانة العلم والوعى الاجتماعى العام . وهنا أيضا أود أن أقول بعض الكلمات بهذا الخصوص . عندنا هنا كارثة ضخمة بشأن تشكيل وصياغة نموذج للعلم فى الوعى الاجتماعى العام . وعلى الرغم من وجود الانترنت وكل تكنولوجيا المعلومات الأخرى فالعلم والمجتمع الآن يقعان فى حالة فراغ معلوماتى . ولننظر مثلا إلى التلفزيون ومعظم وسائل النشر المحلية . إن عدد النسخ الصادرة من مجلة مثل مجلة " العلم والحياة " قد هبط بمعدل ١٠٠ مرة !! كان ٣ ملايين نسخة وأصبح ٣٠ ألف نسخة . فى نفس الوقت قامت القنوات التلفزيونية الرئيسية باستبعاد العلوم وإهمالها تماما بينما وجدت الوقت الكافى والمسحة اللازمة لبث الهرطقات والخزعبلات وكل ما هو مضاد للعلم ـ الأمور التى تحدث عنها فيتالى جينزبورج فى البداية . لم تبق سوى القناة الثقافية التى أحاول من خلالها مع الأكاديمى يفجينى فيليخوف أن أتحدث عن العلم كأحد العوامل الهامة فى الثقافة المعاصرة .

سيرجى يوجوروف : إننا نتحدث عن العلوم الأساسية كأولوية استراتيجية . ومن البديهى أن ذلك هو التحدى الذى يعلنه الزمن . والقضية تتلخص فى الرد على هذا التحدى بشكل كريم ونبيل (مثل الرد على أى تحد آخر) . ومن أجل أن نحل قضية تنظيم البحث العلمى بأفضل الأشكال نجد أننا نصطدم بخمس نقاط مؤلمة يمكن ترتيبها كالتالى :

ـ النقطة الأولى : غياب الآفاق العلمية التقنية الواضحة وغياب الأولويات التى تحدثنا عنها اليوم .

ـ النقطة الثانية : عدم الإمكانية على تخطيط الأبحاث العلمية بشكل جدى بسبب عدم وضوح أو بالأحرى التمويل غير المسؤول .

ـ النقطة الثالثة : فقدان إمكانية الإدارة على المستوى العلمى التقنى فى الإدارة الواحدة بل وحتى على مستوى المختبر الواحد بسبب فقدان فاعلية الصفوتين ـ الصفوة الإدارية والصفوة الإبداعية وذلك على العكس مما كان الأمر عليه أثناء وجود الاتحاد السوفيتى .

ـ النقطة الرابعة : الانقطاعات والتوقفات فى مسيرة الاستراتيجية العلمية حيث تجرى عملية شيخوخة للمجموعات العلمية العاملة بينما لا يوجد تيار بديل من الشباب . وبالتالى يحدث تراجع وانهيار لمستوى المعرفة المتراكمة .

ـ النقطة الخامسة : الخواء المعلوماتى حيث يصعب على علمائنا لأسباب كثيرة متابعة إنجازات الزملاء فى روسيا وخارجها .

إننا فى حاجة ضرورية للعمل على تذليل هذه النقاط الخمس المؤلمة ولو حتى إلى مستوى استقرار الوضع كما هو عليه .

أندريه فونوتوف : رداً على دعوة أندريه جينادييفيتش لطرح أفكارنا حول موضوع إمكانية أن تصبح روسيا منتجاً للعلوم الطبيعية أود الإشارة هنا إلى أن المسألة تتلخص فى أن المؤسسة العلمية ذاتها تتأسس وتبنى على الانتشار والتوزيع الحرين للعلوم الطبيعية . وبدون ذلك ستموت المؤسسة العلمية . وبالتالى فتجارة لنقل مثلاً العلوم الطبيعية تفترض وجود عملية تسجيل براءات الاختراع ومنح تراخيص الامتياز ووجود تشريعات متطورة فى مجال تحقيق الإمكانيات الإبداعية - الذهنية الفردية ... فهل تعلمون أنه فى الصيف الماضى تم إلغاء مصلحة براءات الاختراع فى روسيا !!

سيرجى كابيتسا : على أية حال يمكننا القول أنه يوجد لدينا ما يسمى بثقافة العلوم الطبيعية . ولكن القضية ليست فى ذلك وإنما فى كيفية تحقيق هذه الثقافة . وبلا شك فتحقيقها لا يتأتى إلا عن طريق التعليم . ولعله الآن فى وقتنا الحاضر يوجد طلب هائل على العلوم الطبيعية فى اليابان وكوريا الجنوبية وبلدان جنوب شرق آسيا . فهم لديهم مجموعة هائلة من الأسباب التاريخية العميقة التى تحتم عدم وجود مثل هذه التقاليد . بل وحتى عندما يعلمونهم فى الغرب فى ألمانيا وإنجلترا يعودون إلى بلادهم ليقابلوا العديد من المصاعب والمعوقات فى ممارسة الأبحاث الأساسية . أما نحن فنستطيع أن نجد مخرجاً إلى هذا السوق حيث يتاجرون إذا جاز التعبير بثقافة الأبحاث الأساسية . لهذا السبب بالذات يوجد طلب عال جداً على العلماء الروس فى الغرب وفى المقام الأول فى أمريكا . وإذا كنا قد خسرنا فى معركة السباق الاقتصادى فقد ربحنا بلا شك على جبهة التعليم .

إننا بسبب تباطؤنا وتوانينا نفقد تأثيرنا العلمى فى الدول المجاورة ذات الثقافة المرتبطة بالثقافة الروسية . لقد سافرت إلى هذه البلدان وتحدثت مع العديد من العلماء فى هذه الدول . هناك تنمو الرغبة فى الحفاظ على المساحة الثقافية العلمية المشتركة نظراً لأن روسيا بالنسبة لهذه الدول تعتبر شريكاً طبيعياً متحضراً .

سيرجى بوجوروف : أندريه جينادييفيتش لقد حاولتم كما أرى طوال النقاش أن تعثروا بمساعدتنا جميعاً على إجابة لتلك الأسئلة التالية : ما هى المكانة التى ستحتلها العلوم الروسية فى العالم أو لنل فى تقسيم العمل العلمى الدولى بماذا يمكننا أن نفخر فى الألفية الثالثة أما الفكرة التى طرحتموها للتو فهى تمثل أهمية كبرى : من الممكن أن تمثل روسيا مركز جذب تعليمى . زد على ذلك أن هذا الجذب يمكن أن يحدث عن طريق النشاطات الإعلامية والمعلوماتية والنشر ووسائل التنوير الأخرى مضافاً إليها نتائج الأبحاث الأساسية " التى يجب أن تقدم بشكل جيد وحضارى " والتى يجب ألا تخضع بطبيعة الحال إلى عملية البيع والشراء . يجب أن تنشر وتوزع مجاناً من أجل أن تعكس الوجه الحضارى للدولة . من هنا أعتقد أنه لدينا الآن موضوع نفكر فيه ..

أندريه فاجانوف : السادة المشاركون فى هذه الندوة .. إننى أعرف بالطبع أننا لو ظللنا نتحدث طوال ساعات كاملة فلن نستطيع على أية حال تغطية جميع النقاط والأسئلة المطروحة . وعموماً فهناك بعض التعريفات خفيفة الظل مثل : من هو الخبير - والخبير هو الشخص الذى يعرف عن الموضوع أكثر مما يلزم . علاوة على ذلك ففى نهاية حديثنا هذا تيقنت من أمر هام : إن العلوم الروسية فى الوقت الحاضر هى عبارة عن وحش هائل يقع بين اليقظة والنوم ويتحرك بشكل ضعيف جداً . بداخل هذا الوحش الضخم تحدث عمليات ما تبدو للمتابع الخارجى مجرد حركات مشوشة ومضطربة : نعم فالوحش يتقلب فى النوم ولكنه نائم .

وإذا لم تتغير علاقة الدولة بالعلم خلال السنة أو السنتين القادمتين ومع احترامى للعلوم السوفيتية والروسية فسوف تضيع هذه العلوم وتتلاشى بدون رجعة . زد على ذلك أننى أتحدث أيضاً عن التغيرات الهيكلية المؤسساتية : أى التنظيم والتقنين والتشريع . هذا هو الإحساس الداخلى الذى يسيطر على علماً بأننى أتحدث كإنسان عادى

وكراصد على حد سواء . ولذا فعلى مستوى النتيجة الإجمالية لندوتنا هذه أقترح أن يقوم كل من المشاركين بطرح " خلاصة " الموضوع المطروح : " العلوم الروسية فى الألفية الثالثة " وعلى الأقل خلال الخمسين سنة القادمة .

سيرجى كابيتسا : أعتقد أن هذه " الخلاصة " قد تشكلت خلال عملية الحوار نفسه . وعموما فالحوار كان بالفعل جيدا على عكس ما يبدو للوهلة الأولى .

إن العلوم الأساسية بطبيعة الحال تنمو وتتطور فى الأوساط الجامعية والمؤسسات التعليمية العليا وتتحقق من خلال تعليم الأجيال التالية . وسوف يستمر جزء بسيط من الطلاب فى الحصول على العلوم الطبيعية وممارستها والعمل بها . أما الجزء الأكبر منهم فسوف يتجه نحو التصنيع وممارسة التعليم . وبشكل عام سوف يشتغل بالمؤسسات الثقافية فى البلاد . وهذه هى الوظيفة الطبيعية للعلوم الطبيعية وروسيا من هذه الزاوية غنية جدا وعليها أن تحافظ على هذه الثروة . وبالتالى يجب أيضا استخدامها فى الأهداف السياسية : من أجل الحفاظ على وحدة الدولة والدول المجاورة بل وأيضا من أجل التأثير على دول جنوب شرق آسيا . وعلى سبيل المثال فمن أجل تحقيق مثل هذا البرنامج بشكل جدى من الضرورى أن يكون لدينا ما يسمى بـ " فكر الدولة " .

هنا لا داعى للتخطيط من أجل إنجازات علمية ما . من الممكن فقط وفى أفضل الأحوال أن نخطط للوضع الذى يمكن أن يتطور فيه العلم . وهذه هى النقطة الأولى . والنقطة الثانية وهى ما جرى الحديث عنها هنا : يجب وبشكل جذرى تغيير النظرة إلى التغيرات السياسية الداخلية ونحو رؤوس الأموال الداخلية . فإذا لم نعمل على تشجيع صناعاتنا المحلية وإذا اكتفينا فقط بشراء كل شئ من الخارج فلن يكون هناك أبدا أى " طلب اجتماعى " على العلم.

أعتقد أن الدولة مطالبة بالاهتمام بتوفير الظروف الملائمة لتطور العلم . أما العلم فهو يعمل على تنظيم نفسه بنفسه وليست هناك ضرورة لأن نعلم العلم كيف ينظم نفسه لأنه عبارة عن منظومة ذاتية التنظيم .

فيتالى جينزبورج : على الرغم من أننى أكبر الحاضرين سنا وليس لدى أى أمل فى رؤية الزمن السعيد إلا أننى مع ذلك فى غاية التفاؤل . هذا طبعا إذا لم يربح الشيوعيون والمعادون للسامية واليمينيون المتطرفون فى الانتخابات . وأعتقد أن مجلس الدوما (البرلمان) سوف يكون أفضل بكثير من السابق . وبالتالى سوف يكون هناك أيضا رئيس أفضل . عندئذ ستكون هناك دولة وسيكون هناك علم . وإذا حدث وأصبحت هناك ديمقراطية وإصلاحات ديمقراطية فسوف تكون هناك علوم أفضل . وعموما فأنا لا أشارك المتشائمين وجهات نظرهم .

أندريه فونوتوف : أنا أيضا أنظر بتفاؤل إلى تطور العلم والتقنيات والتصنيع لأن شعبنا يحب المعرفة والعمل . وإذا كانت هناك صفات ما سلبية فهذه ليست نهاية العالم . إننا على أية حال سوف نعمل على تحقيق القدرة الإيجابية باستخدام كافة المنجزات التى حققناها خلال القرن العشرين . إضافة إلى ذلك يجب القول ومع الأسف بأن السياسة هى السياسة : تعمل على أساس ما هو موجود وليس على أساس ما سوف يكون موجودا . وما يظهر اليوم من ضيق مساحة المؤسسات المبنية على السعة العلمية والتى لم تفرز بعد نتائج ملموسة فى الإنتاج العام للبلاد سوف تقوم فى المستقبل بتحقيق المطلوب منها .

يفجينى سيميونوف : أعتقد أن هناك سيناريوهين أحدهما تفاؤلى والآخر تشاؤمى . المسألة لا يجب أن تتعلق هنا بالمشاعر والأحاسيس والتمنيات ومع ذلك فليست هناك نتائج حتمية لأن كل شئ قابل للتغيير .

السيناريو التفاؤلى . روسيا دولة لديها تكنولوجيا رفيعة وتعليم وعلم موجود فى إطار المنظومة التكاملية العلمية العالمية . وإذا تحدثنا بصراحة فهذا العلم موجود ضمن إطار المنظومة العلمية الغربية . والمنظومة الغربية .

بطبيعة الحال - تتضمن الاقتصاد والسوق والنظام السياسي الملائم .

السيناريو التشاؤمي - تقسيم الدولة مع تدهور مستوى المعيشة وظهور مصائر مختلفة لكل إقليم على حدة .

كل من هذين السيناريوهين قابل للتحقيق على أرض الواقع . ونحن الآن على مفترق الطرق - أو بالأحرى الطريقين . ولا أدرى كم من السنوات سنظل واقفين هكذا . إلا أنني أرى أننا قد توقفنا أطول من اللازم . والأمر ببساطة يتوقف على اختيار الناس للطريق اختيارهم للطريق الأفضل والعمل على تحقيقه .

سيرجى كابيتسا : أ تعرفون ... منذ أربع سنوات قام حفيدي الأصغر بصياغة علاقته بهذه القضية . فعندما سألته وقتها أي كتاب يقرأ قال : " أنا لا أقرأ كتبا - أنا أريد أن أصير مليونيرا "

علم الوراثة والمجتمع وعلم الأخلاق البيولوجى

تأليف البروفيسور: ليونيد كوروتشكين(مجلة "نوفى مير")

وصلتنى أخبار النعجة " دوللى " عبر البرامج التلفزيونية . وبالنسبة لمن اشتغل طوال حياته بعلم الأجنة وعلم الوراثة لم يكن الخبر يقينيا أو مقنعا . ولذا ففى اليوم التالى دخلت إلى شبكة الإنترنت وتأكدت بأن " دوللى " بالفعل موجودة - حيث قام عالم الأجنة الاسكتلندى يان فيلموت وهو مدير المعامل بجامعة روسلين بنشر المقال فى مجلة Nature ذات السمعة الجيدة . فى ذلك المقال أعلن بأنه اخترع طريقة لاستنساخ Cloning الحيوانات وهى التى كانت أساسا للحصول على النعجة التى تتكون من مادة وراثية لنعجة أكبر منها . بعد ذلك أعلن فيلموت أنه من الممكن على المستوى التقنى تحقيق عملية استنساخ حيوى للإنسان برغم ما سوف يكون فى ذلك من مشكلات أخلاقية وقيمية وقانونية متعلقة بالتحكم فى الأجنة البشرية . وبدا أنه قد انفتحت أمام علم الوراثة آفاق جديدة ومغرية وأخذ العلماء يفكرون فى مشروعات كونية عامة شاملة ويناقشون فى جدية الجانب الأخلاقى للقضية أما النشطاء وأصحاب الهمة (ممولو ومخططو العلوم) فقد اندفعوا فى منافسة حامية لتوفير الأموال من أجل هذه المهمة.

أما الموظفون الكبار من لجنة الجيوبولوتيكا بمجلس الدوما (البرلمان الروسى) والذين لا يفقهون أى شئ فقد أعلنوا رسميا أنهم على استعداد تام لتمويل الأبحاث والتجارب التى يمكن أن تكون من نتيجتها بعد عامين عملية الاستنساخ الحيوى للحيوانات والبشر . المدهش هو أنه كيف يمكن لمجلس الدوما أن يخطط لذلك الإهدار المتهور والصبيانى غير المسؤول لموارد الدولة والتى يمكن أن تستخدم بشكل أكثر جدوى ومنفعة لدعم المشروعات العلمية الهامة والواقعية . ولكن لسبب ما لم يهتم أى أحد بأنه حتى وإن كان كل شئ على ما يرام لدى فيلموت فإن نسبة الناتج من الحيوانات المولودة كانت قليلة جدا - نعجة واحدة فقط من ٣٦ محاولة . فماذا حدث للبقية ولدت البقية مشوهة ثم ماتت إذن فأين على وجه الخصوص العشيرة Clone أو السلالة التى تفترض وجود العديد من النسخ وهل فعلا كان كل شئ لدى فيلموت على ما يرام وأنه فعلا حصل على ما نفخت فى أبواقه التلفزيونات ووسائل الإعلام المتحمسة

فى أحد أعداد مجلة Science المعروفة ظهر مقال للدكتور فيتوريو سجاراميللا من جامعة كالابرى (إيطاليا) والدكتور نورثون زايندر من جامعة روكفلر الشهيرة (الولايات المتحدة الأمريكية) ورأى كل منهما أنه لم يتم تقديم البراهين المقنعة بأن دوللى هى ناتج لعملية الاستنساخ الحيوى . إضافة إلى ذلك اتضح أن ثلاثة من كبار الباحثين العاملين فى هذا المجال حاولوا إعادة إجراء تجارب فيلموت ولكنهم فشلوا ! ويشير مؤلفا هذا المقال إلى احتمال خطأ علماء الأجنة الاسكتلنديين المسألة فى أن النعجة التى أخذوا منها الخلية الجسدية من أجل إنتاج دوللى كانت حامل . والمعروف أن الخلايا الجنينية (خلايا الجنين) لدى بعض الحيوانات يمكنها أن تقع فى الجهاز الدورى (فى مجرى تيار الدم) . وقد اعترف فيلموت أنه أغفل تماما هذا الظرف ولم يستبعد إمكانية حدوث مثل هذا الخطأ التقديرى فى تجاربه . ومنذ فترة قريبة أثبتت الأبحاث الوراثية الجزيئية أن دوللى - هى نعجة مستنسخة وبالتالى يمكن رفع الاعتراضات المقدمة ضد هذا الأمر .

بيد أن الأخبار العديدة من نوع أنه فى اليابان تم الحصول على عشيرة من البشر أو أن هناك قطيع من الأبقار المستنسخة يرعى فى مكان ما إما أخبار مغلوطة أو عملية تضليل مقصودة . وعلى أية حال ففى الأدبيات العلمية الجادة لا توجد إثباتات وبراهين لمثل تلك الأخبار . ومع ذلك فلم يقف الأمر عائقا أمام عملية الاستنساخ بل وجعلها

موضوعا رائجا يجتذب اهتمام ليس فقط المتخصصين وإنما أيضا شرائح واسعة من الجماهير العادية .

إن التعريف السائد في العلم لعملية الاستنساخ الحيوى هو : إعادة الإنتاج الدقيقة لهذا الكائن الحى أو ذاك فى عدد معين من النسخ . ومن الطبيعى تماما أن جميع هذه النسخ يجب أن ترث صفات متشابهة أى تحمل مجموعة جينات مماثلة بالضبط لجينات " الكائن الذى ولدها " خلافا للحالات التى تحدث عن طريق التناسل الطبيعى الذى يتم فيه امتزاج المواد الجينية للوالدين فى كل فرد بالسلالة وبشكل مختلف . وفى مجموعة الحالات التى حدثت لم تستدع عملية الحصول على عشيرة من الحيوانات أية غرابة أو دهشة وتعتبر إجراء روتينى على الرغم من أنه ليس هكذا سهلا أو بسيطا . فعلماء الوراثة يتوصلون إلى ذلك باستخدام الكائنات القادرة على التناسل ليس فقط عن طريق الأجهزة التناسلية وإنما أيضا عن طريق التوالد العذرى أى بدون عملية إخصاب مسبقة . ونظرا لأنه يتم التحكم فى هذه العملية بشكل جنينى فمن الممكن إنشاء خطوط تجرى فيها عملية التكاثر عن طريق التناسل فقط . ومن الطبيعى أن أولئك الأفراد الذين سينمون من سلالة هذه الخلية الجنسية الأولية أو تلك سوف يصبحون من الناحية الوراثية متطابقين ويمكنهم أن يشكلوا عشيرة أو سلالة . وفى بلادنا على سبيل المثال توجد الأبحاث الرائعة فى مجال هذا النوع من الاستنساخ والتى يقوم بها الأكاديمى فلاديمير ألكسندروفيتش سترونيكوف على دودة الحرير بمساعدة الطريق الخاصة التى ابتكرها . وعشائر دودة الحرير التى سيقوم بإنتاجها تتمتع بشهرة واسعة فى العالم كله . بيد أنه يشير إلى أن الأفراد المستنسخين لا يتطابقون مع بعضهم البعض وإنما يكونوا متنوعين ومختلفين على مستوى مجموعة كاملة مما يسمى بالمميزات الكمية أو الأصلية - بالنسبة لحجم الإنتاج وكثرة النسل . وهذا التنوع والاختلاف فى سلسلة العشائر يكون كثيرا بل وأكبر مما فى مجموعة الخصائص العادية المتنوعة وراثيا والموجودة فى هذا النوع أو ذاك من الكائنات .

هناك أيضا طرق معينة فى علم الأجنة للحصول على العشائر والسلالات . فلو قمنا بتجزئ صناعى لجنين القنفذ البحرى وهو مازال فى مرحلة الانقسام المبكرة إلى الخلايا الأولية المكونة له - الخلايا الأرومية blastomerus فسوف ينمو من كل واحدة كائن كامل . ولكن أثناء النمو اللاحق تفقد الخلايا الجنينية تلك الإمكانية الرائعة وتصبح مخصصة أى غير بكرية (بمعنى أنها معدة للعمل) ومن الممكن أيضا استخدام نواة ما يسمى بالخلايا الجنينية الجذعية من أى جنين مبكر على ألا يكون قد تم إعداد هذه الخلايا إطلاقا أو تجهيزها للعمل أى تكون غير مخصصة (وسوف تكون سلالتها بهذا الشكل أيضا) . تلك النواة تزرع فى خلايا البويضات التى أزيلت منها نواتها الأصلية وبنمو تلك الخلايا البويضية فى الكيانات الجديدة يمكنها أيضا أن تكون مرة أخرى عشيرة حيوانات متطابقة من الناحية الوراثية . ولدى الإنسان أيضا حالة استنساخ " طبيعية " معروفة ولها خصوصيتها - وهى ما يسمى بالتوائم ذات البويضات الواحدة والتى تتكون بفضل الانقسام الطبيعى الذى يحدث بشكل نادر للخلية البويضية المخصبة إلى خليتين منفصلتين تماما عن بعضهما البعض ومن ثم إلى خليتين أروميتين تنمو كل منهما بشكل ذاتى . تلك الخلايا تكون متشابهة جدا مع بعضها البعض ولكنها على أية حال لا تكون أبدا متطابقة !

إلا أن الحديث فى الوقت الحاضر يدور حول نوع آخر من عمليات الاستنساخ وتحديدا حول الحصول على مجموعة من النسخ المتطابقة تماما من هذا الحيوان البالغ أو ذاك عن طريق زرع نواة خلية جسدية لكائن واحد بالغ فى خلية بويضية تم انتزاع نواتها الأصلية مسبقا . حيث يكون هذا الحيوان البالغ متمتعا بصفات ما نوعية هامة (على سبيل المثال رقم قياسى فى إدرار اللبن أو نوعية عالية من فروة الصوف ... إلخ) . ومن الممكن أن يكون عالما أو سياسيا أو فنانا يمثل قيمة كبيرة للإنسانية نتيجة ولنقل مثلا عبقريته . وهنا تحديدا تظهر العقبات الكثيرة والصعوبات

الهائلة جدا التى يجب أن نواجهها ونتعامل معها .

أول ندوة تم فيها تناول قضية الاستنساخ الحيوى للحيوانات بجدية كانت فى المؤتمر الدولى لعلم الوراثة فى بيركلى (الولايات المتحدة الأمريكية) فى أغسطس عام ١٩٧٣م وهو المؤتمر الذى قدر لى أن أشارك فيه ضمن وفد ضخم يمثل الاتحاد السوفيتى وكانت هذه هى المرة الأولى التى أصطدم فيها بالجوانب الاجتماعية لعملية الاستنساخ . وعندما خرجنا فى الصباح لافتتاح المؤتمر أصابنا الفزع والدهشة حيث قابلنا بدلا من منظمى المؤتمر مجموعات ضخمة من قوات الأمن التى يتميز أفرادها بضخامة الأجسام وقد شكلت سلاسل كثيفة تحمل مدافع رشاشة . فماذا حدث اتضح أن طلاب الجامعة سمعوا أنه سوف يتم مناقشة قضية الاستنساخ فى هذا المؤتمر فهددوا بتمزيق أولئك الباحثين الأشرار عديمى المسؤولية الذين - ولا أدرى لماذا اعتقدوا ذلك - يزمعون استنساخ لينين وهتلر وستالين وكل المجرمين الذين على شاكلتهم . وسارت فى المدينة الجامعية التجمعات والمظاهرات الرافضة ووجه الخطباء كلمات الخزى والعار ضد المشاركين فى الندوة العلمية وقاموا بتوزيع المنشورات وخيمت على المؤتمر سحابات الغضب الطلابى وظهرت تهديدات بإفشاله . إلا أن المنظمين لم يقابلوا ذلك باستهتار أو استخفاف وإنما بخوف وجدية فأسرعوا بالكتابة فى الصحف وتقديم البرامج التلفزيونية وحاولوا أن يوضحوا للشباب الثائر أن الحديث سوف يدور ليس حول استنساخ الناس وإنما فقط عن مجرد إمكانية عمل نسخ للحيوانات الأليفة النافعة - على سبيل المثال البقر . وانتهى كل شئ بسلام - واتضح أن الطلاب الأمريكيين على قدر عال من الفهم والتفهم فهدأوا وفى النهاية وجهوا الدعوة إلى جميع المشاركين فى المؤتمر إلى حفل جماعى حيث تناول الجميع المشروبات والمأكولات فى سلام وصافحوا بعضهم البعض . وفى غضون المؤتمر تمت الإشارة إلى أن قضية الاستنساخ ليست هكذا أبدا بسيطة وسهلة كما تصوروا فى البداية ولكن هناك العديد من العقبات والمصاعب الخفية والمجهولة ومن السابق لأوانه تقدير حسابات وأعداد العشائر التى سوف يستنسخونها من الأبقار ناهيك عن استنساخ الإنسان نفسه .

... لقد بدأت كل هذه القصة منذ أعوام الأربعينات البعيدة حينما ابتكر عالم الأجنة الروسى جريجورى فيكتوريفيتش لوباشوف طريقة لنقل أو ازدراع transplant النوايات فى بويضة ضفدعة . وفى يونيو عام ١٩٤٨م أرسل إلى مجلة " البيولوجيا العامة " مقالا يتضمن مواد تجاربه ونتائجها . إلا أنه ولسوء حظه فى أغسطس ١٩٤٨م عقدت الدورة الشهيرة المؤسفة لأكاديمية العلوم الزراعية لعموم الاتحاد السوفيتى التى أقرت بناء على رغبة الحزب السلطة غير المحدودة للباحث المعروف ترافيم ليسينكو فى مجال البيولوجيا . وبالتالى قضوا على مجموعة مقالات لوباشوف التى كانت قد أعدت للنشر لأنها كانت تثبت الدور الرائد للنواة والكروموسومات الموجودة فيها فى النمو الفردى - الذاتى للكائن . وتم نسيان أعمال لوباشوف . إلا أنه فى سنوات الخمسينات قام عالم الأجنة الأمريكى بريجس كينج بتجارب مماثلة وحصل هو على السبق كما حدث مرارا فى تاريخ العلوم الروسية .

وبعد ذلك قام البريطانى جون جيردون بإتمام هذه الطريقة بإزالة النواة الأصلية من الخلية البويضية للضفدعة وزرع فيها نوايات مختلفة تم فصلها من خلايا مخصصة . وفى النهاية توصل إلى عملية نقل transplant نواة من خلايا كائن بالغ وبالأخص من ظهارة (الخلايا اللحائية) الأمعاء . إضافة إلى أن جيردون نجح فى الوصول إلى أن الخلية البويضية قد نمت مع نواة غريبة المولد بنسبة محددة من الحالات إلى مراحل أعلى وبشكل كاف . وهكذا فنسبة ١٪ - ٢٪ منها تجاوزت المرحلة الأولية وتحولت إلى ضفادع بالغة . بيد أن هذه الضفادع لم تكن بدون عيوب وبدت أكثر سقما وضآلة ونقصا فى النمو بالمقارنة مع " من ولدها " (الذى أعطاها النواة) . وهكذا فحتى فى هذه الحالة من الصعب جدا أن نتحدث عن استنساخ دقيق بشكل مطلق . ومع ذلك فقد تصاعدت ضجة كبيرة حول إنجازات

العالم البريطانى وأخذوا يتحدثون عن استنساخ الحيوانات الثديية والإنسان : إذا كان من الممكن استنساخ الضفدعة فلماذا لا يمكن أن نجرب مع أهداف ـ كائنات ـ أخرى وظهرت قصص الخيال العلمى حول العشائر والسلالات البشرية الخيرة أو الشريرة التى يستخدمها المحاربون القساة الحمقى أو السياسيون قصار النظر وقاموا بتصوير الأفلام السينمائية حول هذا الموضوع . أما الأخلاقيين أصحاب القلوب الحنونة فقد أصابهم القلق على الطريقة الأكثر متعة وبساطة للتناسل والتى بدت وكأنها قد ولت مع الماضى ... وفى روسيا أيضا كان هناك اهتمام بهذه القضية : حيث كان برنامج " استنساخ الثدييات " ضمن خطة العمل المشترك لاثنين من المختبرات ـ المختبر التابع لى ومختبر الأكاديمى ديمترى كونستانتينوفيتش بيليايف . وحتى فى عام ١٩٧٤م تقدمت إلى أكاديمية العلوم الزراعية لعموم الاتحاد السوفيتى ببحث أثبت فيه على نحو سابق لزمنه أن مهمة الحصول على عشيرة من الثدييات أمر فى غاية الصعوبة ولكنه محلول من حيث المبدأ . وتم تمويل محاولاتنا الأولية بشكل جيد ولكن سرعان ما فقدت الدولة اهتمامها بتلك المحاولات . وكانت النتيجة الأساسية التى توصلنا إليها على ضوء ما حصلنا عليه من نتائج هى الاعتراف بعدم وجود آفاق مستقبلية لعمليات نقل النوايات أثناء محاولات الحصول على عشائر أو سلالات من الحيوانات الثديية . واتضح أن هذه العملية جارحة ومثيرة لصدمة قوية وكان من الأفضل استخدام طريقة التهجين الجسدى أى نقل نواة غريبة المولد عن طريق إدماج الخلية البويضية مع الخلية الجسدية للنواة التى نريد " إحلالها " فى الخلية البويضية . وهذه هى تحديدا الطريقة التى استخدمها يان فيلموت . وبالمناسبة فقد قام أحد موظفيه بزيارة لمعهد علم الخلايا والوراثة فى نوفوسيبيرسك وتبادل الآراء والأحاديث مع الذين كانوا يشتغلون آنذاك فى عمليات الاستنساخ (وهذا بالطبع لا يعنى أن هذا الموظف قد قام بشكل مباشر وعلى الفور باستخدام طرقهم) .

وفى سنوات السبعينات نشر الباحث الأمريكى السويسرى الأصل كارل إللمينزس مقالا اتضح فيه أنه نجح فى الحصول على عشيرة تتكون من ثلاثة فئران . ومن جديد علت " ضجة استنساخية " أزاحت بجميع الأخبار العلمية الأخرى ومن جديد نفخوا الأبواق وأعلنوا عن تحقيق الحلم الذى ظل لسنوات طويلة يراود البشرية بالخلود وأن هذا الحلم قد أصبح فى متناول اليد وبطريقة أصيلة ومتفردة ـ أى أنه من خلال الإنتاج الصناعى يمكنك أن تنتج نسخا مشابهة لك . ولكن سرعان ما أعلن الفشل عن نفسه : ظهرت فى الأوساط العلمية إشاعات عن أنه فى تجارب إللمينزس شئ ما غير نظيف فلا أحد (حتى أقدر الباحثين وأكثرهم خبرة) يستطيع إعادة التجارب والحصول على النتائج ... وفى النهاية شكلوا لجنة ذات مستوى عال وضعت على أبحاث إللمينزس علامة (إكس) : أقروا بعدم صحتها . وعلى هذا النحو تم توجيه ضربة موجعة جدا إلى القضية نفسها وصار حلها أمر فى دائرة الشك . وساد الهدوء لبعض الوقت ولكن فجأة ومثلما يحدث الرعد فى السماء الصافية ـ النعجة دوللى !

بالطبع فالحصول على هذه النعجة ـ إنجاز علمى ضخم يمكن أن نخرج منه بنتائج هامة حول عمق تغيرات النوايات الخلوية (نسبة إلى الخلية) فى عملية التمييز أو التفريق بين الخلايا . والمسألة أنه فى أثناء مسار عملية النمو الفردى لكائن فى نوايات الخلايا مختلفة الأنواع تحدث سلسلة من التغيرات : بعض الجينات تعمل بنشاط والبعض الآخر خامل لا يبدى أى رد فعل . وكلما كان الكائن أكثر تخصيصا (أى تم إعداده للعمل من قبل) وكلما كانت درجة سلم الارتقاء التى يقف عليها أعلى كانت هذه التغيرات أكثر عمقا وتجذرا وغير قابلة للإلغاء . ولدى بعض الكائنات ـ على سبيل المثال الطفيليات المعوية المعروفة بديدان الإسكارس ـ المادة الوراثية فى الخلايا الجنينية المستقبلية تبقى على حالها دون تغيير أثناء عملية النمو وفى البعض الآخر من الخلايا الجلدية تتدافع وتتساقط من الكروموسومات كميات كبيرة من D . N . A حامل الصفات الوراثية (فى هذه الحالات لا يمكن

بطبيعة الحال التحدث عن أى شئ يخص عملية الاستنساخ) . ففى كريات الدم الحمراء (خلايا الدم الحمراء) للطيور " تتجعد " النوايات وتتحول إلى حصوات صغيرة تكف عن " العمل " . وبالتالى فمن خلايا الدم الحمراء للحيوانات الثديية التى توجد فى درجة ارتقاء أعلى من الطيور تتساقط هذه النوايات من جراء عدم الحاجة إليها . ولدى ذبابة الفاكهة (حشرة الدروسوفيلا Drosophila تكون هذه العمليات - التكاثر الانتقائى أو العكس وعدم كفاية أجزاء ما من D . N . A تظهر بأشكال مختلفة فى أنسجة مختلفة - على وجه الخصوص أكثر وضوحا ودقة . ولقد قام كارل إللمينزس بعمل بحث رائع فى مجال عمليات نقل النوايات " البالغة " التى تم فصلها من خلايا الدروسوفيلا فى البويضة الناضجة لهذه الحشرة من أجل التعرف على إمكانياتها فى العمل على نمو الذباب . فى هذه الحالة اتضح أن الأجنة تنمو إلى مراحل محددة فقط وبانحرافات عن المعايير والمواصفات أى بظهور تشوهات . وبالتالى فأثناء عملية النمو فى النوايات " البالغة " للدروسوفيلا تحدث تغيرات لا عكوسية irreversible ومن ثم تفقد النوايات إمكانية إعطاء أساس لكائن عادى كامل .

إضافة لما سبق فكثيرا ما يجرى الحديث فى الوقت الحاضر عن أحد الأعمال التى أثبتت أنه فى الخلايا الجسدية أثناء مسار نموها تتقلص الكرومسومات تلقائيا إلى نهاياتها بينما تقوم المادة الزلالية الخاصة فى الخلايا الجنينية بإعادة بنائها وتشكيلها أى أن الحصول على تلك المعطيات يؤكد مرة أخرى على الاختلاف بين الخلايا الجسدية والجنينية .

ولكن إذا كان حتى لدى الضفدعة - الكائن الأقل نموا وبالتالى الأقل وضوحا ودقة من حيث التغيرات النووية - نسبة ضئيلة جدا من النجاح أثناء عملية الاستنساخ كما ذكرنا سابقا ففى حالة الحيوانات الثديية سوف تتضاعف هذه النسبة . وسوف يتوقف النجاح على " العثور " بين الخلايا الكثيرة على تلك الخلية التى تندر تماما مقابلتها وتكون محتوية على نواة لم تفقد بعد طاقتها أو قدرتها أو حل المشكلة بإعادة نواة الخلية الجسدية التى تغيرت إلى حالتها الأولية .

وليس مصادفة ما يثار اليوم من اهتمام خاص حول أبحاث مجموعة علماء جامعة هونولولو وعلى رأسهم ريوزيو ياناهيماتش . فقد استطاع الباحثون إتمام طريقة فيلموت : رفضوا التنشيط الكهربائى لإدماج الخلية الجسدية (المعطى) مع البويضة وابتكروا ذلك المص الصغير micropipet الذى استطاعوا عن طريقه نقل النواة " بدون صعوبات " . إضافة إلى أنهم استخدموا نوايات الخلايا المحيطة بالبويضة كـ " معطى " . وكانت نسبة " الخارج " من الفئران المولودة (حيث أخرجوها عن طريق إجراء جراحة قيصرية) فى المجموعات المختلفة من ٢٪ إلى ٢,٨٪ . وأكدت الأبحاث الجزيئية أن الفئران هى ناتج عملية الاستنساخ كما حدث أيضا فى حالة النعجة دوللى . على هذا النحو وفى أسوأ الأحوال قد تم إثبات إمكانية نوايات الخلايا الجسدية فى بعض الحالات على ضمان نمو طبيعى للحيوانات الثديية .

ومع ذلك فهذه النتائج لا تسمح لنا بشكل جدى أن نتحدث عن عملية الاستنساخ وأكثر من ذلك عن عملية " نسخ " الإنسان . وفى الحقيقة لو افترضنا أنه قد تم بالفعل نقل بويضات فى طور النمو مع نوايات غريبة المولد إلى عدة مئات (إذا لم يكن إلى عدة آلاف) من الأمهات الحوامل (نسبة الناتج أو الخارج ضئيلة جدا ! وفى أبعد الأحوال لن يتيسر لها أن تزيد أبدا) من أجل الحصول ولو حتى على نسخة واحدة حية (ليس حتى بشكل كامل !) لأحد السياسيين المرموقين كما وعد فى برنامج تلفزيونى السيد ميتروفانوف أحد قادة الحزب الديمقراطى الليبرالى الروسى . فهل يفكرون عما سيحدث مع بقية الأجنة إذ أن الجزء الأكبر منها سوف يموت فى أرحام الأمهات أو سينمو

الجزء الذى سيولد منها لا قدر الله مشوها . هل تتصوروا ـ مئات من البشر الممسوخين والمشوهين الذين تم الحصول عليهم صناعيا أعتقد أن ذلك ليس فقط فسادا وفجرا ولا أخلاقية وإنما أيضا جريمة . ولذا فمن الطبيعى أن نتوقع سن قانون يمنع مثل هذه التجارب . لقد اتخذ الاتحاد الأوروبى القرار الملائم والآن يأتى الدور على روسيا ! وبغض النظر عن كل ذلك ففى علم الوراثة يوجد ذلك المفهوم الذى يطلق عليه : معيار التفاعل . وهو درجة التقلب أو التذبذب فى إظهار الميزات أو السمات التى تتحكم فيها هذه الجينة أو تلك . وعلى سبيل المثال فهناك جينة البلق أو الترقيط التى يتوقف عليها اللون المبرقش للحيوان . وهى نفس الجينة (وليس أخرى غيرها) التى يمكنها أن تصنع لدى بعض الحيوانات على سبيل المثال بقعا قاتمة منفصلة ومتفرقة على أرضية ملونة أو فاتحة ولدى البعض الآخر جسدا " قاتما " تماما . ودرجة " القتامة " تتوقف على تأثير العديد من الجينات الأخرى (من تلك التى تمتلك كل واحدة منها معيار تفاعلها الخاص بها) وتأثير الوسط الخارجى (درجة الحرارة مستوى درجة الإشعاع.. وهلم جرا) . ويطرح السؤال نفسه : هل احتمالية إعادة إنتاج خصائص النموذج " المستنسخ " كبيرة

وبشكل عام إذا كان الحديث يدور حول الحيوانات الثديية فمن الملائم مواصلة مثل هذه التجارب ولكن على الفئران والعرس والأرانب فهى ستكون أقل تكلفة تماما من التجارب مثلا على الأبقار ولكن النتيجة ـ هى نفسها : نفس الإجابة على السؤال المبدئى المطروح حول طابع تغير النوايات أثناء النمو الفردى والذى يعتبر أمر هام للغاية بالنسبة لبناء علم الوراثة . أما الأموال الضخمة المطلوبة لأبحاث استنساخ الحيوانات الزراعية فمن الأفضل استخدامها من أجل دعم وتطوير الأبحاث الخاصة بالحصول على الحيوانات ما بعد الوراثية transgenetic التى تنطوى على صفات غريبة مفيدة (على سبيل المثال الأبقار أو النعاج القادرة على إنتاج مواد علاجية مفيدة مثل الأنسولين وذلك إلى جانب الألبان) أو العلاج بالجينات (العلاج عن طريق الإدخال الصناعى للجينات السوية التى تصحح عيوب الخلايا) أو الوراثة البشرية أو الهندسة الوراثية . أنا لست من المحافظين وإنما على العكس أكون سعيدا على الدوام من أجل الاكتشافات العلمية الثورية وأحاول قدر الإمكان الوقوف إلى جانبها والدعاية لها ولكننى توصلت عبر الاستنساخ إلى أمور واقعية وأصبحت الآن على قناعة بكل ما قيل أعلاه . وربما تغضب آرائى هذه القراء ولكن الحقيقة المرة أفضل من الكذب الحلو .

لقد تم التعارف على أن الراهب التشيكى جريجور ميندل هو " أبو " علم الوراثة نظرا لأنه فى هدوء حديقة بأحد الأديرة اكتشف القوانين الأساسية لهذا العلم منذ مائة وثلاثون عاما مضت . ولكن لدى علم الوراثة يوجد " جد " (ولعل الأصح أن نقول " أبو الجد ") الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى واسمه أبريل أغسطين الذى لم يكن مجرد أسقفا فقط وأحد أهم المعلمين الكبار والمبجلين للكنيسة وإنما كان أيضا أحد أكثر الناس دقيقى الملاحظة والمحبين للمعرفة . وكان يعمل فى تربية الأسماك وتدريبها على تناول الطعام فى أماكن محددة بالحوض الزجاجى . وقد لاحظ أن هناك أسماك " ذكية " تتعلم بُسرعة وأخرى " غبية " تفكر بشكل بطئ ومتخلف . ولكن أهم ملاحظات أغسطين كانت تتعلق بالضبط بالظاهرة التى نسميها الوراثة ـ حيث أن سلالات الأسماك كانت تشابه أبويها : من "الأذكياء " تم الحصول على " أذكياء " ومن " الأغبياء " ـ على " أغبياء " . وكان أبريل أغسطين يسبق عصره بكثير ـ حيث ظهر الاهتمام بالوراثة فى ميدان العلم فى حدود القرن الثامن عشر وولد مندل بعد أغسطين بحوالى أربعة عشر قرنا . بيد أنهم لم يلتفتوا إلى قوانينه فى البداية ـ لأنها كانت تهدم الكثير من التصورات التربوية الطبيعية المألوفة والسائدة الموجودة فى المفاهيم الأساسية . وفقط فى بداية قرننا هذا قام كل من هوجو دى فريز وتشيرماك وكورينس " بإعادة اكتشاف " ميندل وظهرت " المندلية " الحقيقية وبالتالى علم الوراثة . وسرعان ما أثبت عالم الحيوانات والأجنة

والأجنة الأمريكى توماس هينج مورجان أن حاملات الصفات الوراثية أى الجينات " مرتبطة " بتركيبات معينة من النوايات الخلوية (نسبة إلى الخلية) أى الكرومسومات . وبالتالى أسس نظرية الكرومسومات الوراثية . ومنذ ذلك الحين عرف علماء الوراثة الكثير والكثير وحققوا نجاحات خيالية فى النظرية والتطبيق على حد سواء وابتكروا العديد من فصائل الحيوانات وأنواع النباتات واكتشفوا الأمراض الوراثية لدى الإنسان ومن خلال فهم ميكانيزماتها تعلموا كيف يعالجونها وفى النهاية " ابتكروا " الهندسة الوراثية وصاروا ينتجون تلك الأعاجيب التى أخذت تثير قلق " الخضر " وبالتالى المطالبة بالمنع المطلق للعلماء من التلاعب بالجهاز الوراثى والتحكم فيه (توجد الآن عملية تنظيم قانونية لإجراء مثل تلك التجارب) .

والآن أصبح علم الوراثة محط اهتمام الجميع وصار يغرى العقول بالتسلل إلى جوهر الكائن الحى تلك العقول التى تنطوى على جرأة متهورة بل وحتى على شئ من الغرابة والشذوذ . وليس مصادفة أن تدور الأحاديث حول أنه فى القرن الحادى والعشرين سوف تجرى فى مجال العلوم الطبيعية عملية استبدال المواقع للعلوم الرائدة : سيحل علم الوراثة محل الفيزياء . لا أدرى سوف يحدث ذلك أم لا ولكننى على قناعة شديدة بشئ واحد ألا وهو أن علم الوراثة سوف يظل محافظا على مكانته الرائدة فى إطار العلوم البيولوجية فقط . الكثيرون يعتقدون أن " العمود الفقرى " للبيولوجيا الحديثة هو مبادئ التطور . بيد أنه لا يمكننى الاتفاق مع ذلك وأرى أن هذا " العمود الفقرى " يمكن أن يكون فقط علم الوراثة . وفى الواقع إذا انتزعنا فجأة مبادئ التطور من البيولوجيا فهل ستتغير صورة هذا العلم كثيرا لا كل ما فى الأمر أن مبادئ التطور سوف تكون غائبة . مجرد نقص ملحوظ ! ولكنه لا يمثل كارثة : وسوف تظل ببساطة جميع فروع علم البيولوجيا على مستوى علمى راق وحديث . ولكن ماذا لو حذفنا علم الوراثة من البيولوجيا إنها لن تتغير فقط ولكنها فى الحقيقة ستعود إلى المستوى التى كانت عليه فى القرن الماضى ! ومن ضمن ذلك مبادئ التطور ذاتها التى لم تقدم أى شئ إلى علم الوراثة فى ذاته خاصة وأنها هى نفسها تتأسس بدرجة ملحوظة على فرضيات علم الوراثة . وفى الوقت الحاضر يحتل كل من الفيزياء وعلم الوراثة نقطتى القمة فى اتجاهين أساسيين ولكن مختلفين فى المعرفة الإنسانية ويتمتع كل منهما باهتمام بالغ من قبل الفلاسفة وفى ظروف معينة من قبل بعض الدوائر الأيديولوجية أيضا .

لقد أصبح تدخل علم الوراثة فى حياة المجتمع أمرا ملموسا وله قيمة كبيرة حتى أنه منذ فترة غير بعيدة تم الإعلان فى ضجة كبيرة عن قصة رفات الأسرة القيصرية . وعندما كان يتم اكتشاف آثار أحد من أكثر البلاشفة وحشية ودموية ويظهر شك فى حقيقة رفاته كانوا يتوجهون تحديدا إلى علماء الوراثة . وفى نهاية الأمر تكون كلمتهم هى الأخيرة والفاصلة فى النقاشات التى كانت تحمل فى الأساس طابعا سياسيا مغلفا ببعض الأفكار المزعومة عن المثل العليا . وكان علماء الوراثة يجيبون على السؤال الموجه إليهم إجابة واحدة فقط وأكيدة - بالإيجاب . والتجارب والتحليلات التى أجراها عالم الوراثة الروسى بافل إيفانوف بالاشتراك مع زملائه الغربيين وبعد ذلك عالم الوراثة الروسى يفجينى روجايف تؤكد بأن ما عثروا عليه هو فعلا رفات الأسرة القيصرية . ولكن كل ذلك لم يعجب القائمين على السلطة وبدأت الصحف والمطبوعات نقاشات مخزية وتجديفية شارك فيها أولئك الذين نسوا فعليا العلم منذ زمن بعيد .

وهكذا فقد حدث " صدام " جديد بين علم الوراثة والسياسة ولهذا السبب تنظر السلطات الحاكمة إلى ذلك العلم باهتمام شديد جدا من أجل تقويمه وتقديره بشكل أو بآخر من حيث تدخله فى المنظومة الاجتماعية للحياة ومن أجل أن تقرر بأية درجة يمكن السماح لهذا التدخل أو منعه . ومن المعروف جيدا التمويل الضخم فى تلك الفروع من

علم الوراثة التى تعود بالفائدة على الزراعة أو الطب ومعروف أكثر التدابير المانعة المتخذة ليس فقط فى روسيا وإنما فى العالم كله . وفى زمن ما (كان مخزيا لبلادنا) منعوا علم الوراثة كليا نظرا لأنه وقف مثل الشوكة فى حلق الأيديولوجية السائدة . وفى أمريكا أرادوا منع الهندسة الوراثية التى صنعت الكثير من عوامل ومثيرات الأمراض المعدية البشعة الجديدة . وفى مجموعة من الدول يجرى إعداد مشروعات أو اتخاذ تدابير وإجراءات حول منع تجارب استنساخ البشر وهو الأمر الذى أرى أنه صحيح تماما. وفى هذا الاتجاه يسير على وجه الخصوص جماعات " الخضر " والجمعيات المختلفة التى تعمل فى مجال الحفاظ على حياة الحيوانات وهناك تلك الحادثة المعروفة التى جرت فى الولايات المتحدة الأمريكية عندما هجموا على أحد الأماكن vivarium التى توجد بها حيوانات التجارب وأطلقوا سراحها وهى التى لا تقدر بثمن وأفشلوا بذلك تجارب فى غاية الأهمية .

هناك بعض الممارسات مع الأسف تترتب عليها فى أحيان كثيرة العديد من المشاكل والقضايا الاعتراضية . تعامل العلماء القاسى مع حيوانات التجارب (وفى أحيان كثيرة مع الحيوانات المريضة) . وأنا أعرف أحد الأطباء الذى كان يعمل على إعداد رسالة الدكتوراه فكان يثير فى البداية كلبا جائعا بقطعة لحم ثم يقوم بضربه من أجل إثارة مرض ضغط الدم لديه . أما الآخر فكان يكسر بدون تخدير عظام الأرانب من أجل دراسة عملية إعادة التوليد أو التجديد لديها . ولذا فهناك حاجة ملحة لوضع مجموعة قوانين محددة لعلم الأخلاق البيولوجى والطبى والتى من شأنها أن تستبعد القسوة غير المبررة أثناء إجراء التجارب البيولوجية أو الطبية . ويجب أن يقوم بوضع مجموعة القوانين هذه اختصاصيون كبار فى هذا الميدان ويكونوا على دراية تامة بالمواد القانونية والتشريعية وبدون ذلك سوف يظهر مشروع قانون مماثل لمشروع قانون علم الأخلاق البيولوجى الذى تم تقديمه إلى مجلس الدوما . كان من بين الذين شاركوا فى وضعه طبيب ومحامى واثنان من القساوسة الأرثوذكس وكان من الواضح أنهم على غير دراية بعلم البيولوجى . ومع ذلك فهناك بين رجال الدين أشخاص مؤهلون تماما فى هذا الموضوع وأحدهم على سبيل المثال هو الأب ألكسندر بوريسوف أحد أمهر علماء الوراثة عندنا . وفى مشروع هذا القانون تتم الدعوة عمليا إلى المنع التام للأبحاث الخاصة بعمليات نقل الأنسجة وهو الأمر الذى يمكنه أن يمثل تهديدا بتدمير أو نسف أحد أهم فروع الأبحاث الطبية الفعالة - علم زراعة الأعضاء والأنسجة . أما الأجزاء التى وردت فى المشروع والخاصة بعملية التحديد والتقليص فى ميدان الهندسة الوراثية والطب الوراثى فلم يستشر فيها أحد من المتخصصين . وليس مصادفة أن المشروع الذى تم تقديمه إلى مجلس الدوما استقبله الرأى العام بانتقاد حاد وشاركه فى ذلك كبار المتخصصين فى مجال الطب الوراثى - الأكاديميون بالأكاديمية الروسية للعلوم الطبية مثل ف . إ . إيفانوف ن . ب . بوتشكوف . ولكن إذا كان من الممكن الموافقة على مثل هذا القانون فمن الضرورى أن يقوموا بمناقشته علنا فى الصحف والتلفزيون ولا يختبئوا فى حجرتهم بمجلس الدوما . ومن البديهى أن الذين أعدوا مشروع هذا القانون تقودهم النوايا الحسنة ولكن طريقهم كما هو معروف محفوف بالمخاطر .

لدى علم الوراثة العديد من الجوانب التى تمتلك مخرجا للدخول إلى المجال الأخلاقى والسياسى والاجتماعى . وعلى سبيل المثال قضية استخدام إنجازات هذا العلم فى أغراض تحسين " الفصيلة " البشرية . ولقد فكر القادة النازيون بجدية فى هذه القضية وشاركهم كذلك المخلصون لهم ولأفكارهم من علماء البيولوجيا الألمان فى سنوات الثلاثينات والذين قاموا بجهد بالغ لإعداد وصياغة النظرية العنصرية . بيد أن مثل هذه الأفكار التى أعطوها بدون وجه حق تسمية الـ " يوجينا " eugenics كانت غريبة عن ميدان علم الوراثة الذى نشأ فى جو ديمقراطى وإنسانى . وفى الواقع فالذى أسس علم الـ " يوجينا " هو فرنسيس جالتون بينما قام علماء الوراثة الكبار من أمثال ن . ك

كولتسوف ج . موللـر يو . أ . فيليبتشينكو بتخصيص مكان آخر ودور آخر مختلف لهذا الفرع من علم الوراثة - استخدام المعرفة في مجال علم الوراثة من أجل الحفاظ على صحة الإنسان . أما مواطننا فيودوسي دوبرجانسكي الذي اضطر إلى الفرار من وجه البلاشفة ورحل إلى أمريكا والذي يطلقون عليه داروين القرن العشرين فقد فهم اليوجينا على أنها استخدام المعرفة بمبادئ وأساسيات علم الوراثة وإجراء الاستشارات والفحوص والتجارب الطبية والوراثية . ورأى أنه من الضروري أهمية إقناع حاملي العيوب الوراثية بأنهم ليسوا مذنبين في حالاتهم هذه ولا يمكن أن يوحه إليهم أي اتهام أو وصم بالخزي والعار . ومن الضروري أيضا إخطارهم باحتمال وجود مخاطر في سلالاتهم في المستقبل . ولا يحق لأي أحد كان ماعدا حامل العيب الوراثي نفسه أن يقرر : هل يجب أن ينجب أولادا أم لا . وهذا هو المفهوم العلمي الصحيح لليوجينا .

وفي روسيا البلشفية أعلنت السلطة التي لم تكن تفهم جوهر الأمر أن اليوجينا علم برجوازي كاذب ورجعي واتخذت موقفا متطرفا - منعوا عمليا دراسة علم وراثة الإنسان وبالمرة الطب الوراثي على اعتبار أن كل ذلك عوامل لإنتاج العنصرية . بيد أن هذا الاتجاه في علم الوراثة والضروري جدا للحفاظ على صحة الإنسان ظهر في بلادنا بفضل جهود أولئك العلماء المرموقين من أمثـــال س . ن . دافيدينكو س . ج . ليفيت إ . إ . آجول وآخرين . ولكن تحقيق أفكارهم بشكل كامل في الواقع لم يكتب لها النجاح نظرا لأن " الحزب " كان مهتما للغاية بالعلم !

هذا " الاهتمـام " أعـاق بشكل ملحوظ تطور ذلك الفرع الهـام من علم الوراثة - علم وراثة السلوك . وكـانوا يؤكدون أن الإنسان ما هو إلا ثمرة التربية الصرفة والتي عن طريقها يمكن تشكيل أي " منتج " أو " بضاعة " من المنشأ ومن دون التمييز إطلاقا بين " المواد " البشرية المختلفة (بالضبط كما كانوا يفسرون مفهوم " المساواة ") . بينما أكد علم الوراثة أن الكثيرين ليس فقط عن طريق الصفات العضوية وإنما أيضا النفسية قد تم تحديدهم بشكل وراثي وبشكل جزئي فقط يخضعون لتأثير الوسط والمؤثرات الخارجية . ولذا فدراسة علم وراثة السلوك أمر ضروري للغاية لأنه يسمح بفهم ميكانيزمات الانحرافات المرضية (ومن ضمنها الجريمة) في سلوكيات الإنسان وتصرفاته ويظهر القدرة نحو هذا النوع أو ذاك من النشاطات الإبداعية . ولعل الكثيرين يتذكرون كيف كانوا يتعاملون في بلادنا بقسوة مع الشاذين جنسيا ويتهمونهم بأنهم أعداء الأخلاقيات الشيوعية وبأنهم مواد جاهزة لانحلال وتفسخ المجتمع الذي يقوم باستفزازه عملاء الإمبريالية العالمية . ولكن اتضح أن حالة الشذوذ الجنسي تم العثور عليها لدى العديد من الحيوانات المختلفة وحتى لدى الحشرات . زد على ذلك أن علماء الوراثة الأمريكيون أثبتوا أن هذه الصفة وراثية (لدى ذبابة الفاكهة " الدروسوفيلا " وحددوا بل ووجدوا موضع الجينة المسببة لذلك ثم قاموا بعزلها ودراسة تكوينها) . ومنذ فترة غير بعيدة في مختبر عالم الوراثة دان هامر من معهد الصحة الوطني بالولايات المتحدة الأمريكية عثروا على هذه الجينة لدى الإنسان أيضا وتم تحديد موضعها في الكرومسومة - . Xولا جدال في أن اكتشاف العلماء هذا يمتلك قيمة اجتماعية وقانونية في غاية الأهمية .

من الطبيعي تماما أن يظهر اهتمام الناس بموضوع إمكانية انتقال القدرة على التعلم من عدمه عن طريق الوراثة . وفي الظروف المختبرية عن طريق الوسائل الوراثية من الممكن عمل خط لإنتاج الفئران والعرس "الذكية" أو " الغبية " والتي " بسرعة " أو " ببطئ " وبشكل " جيد " أو سيئ " تستوعب أية خبرة . وقد تم البرهنة بشكل لا يقبل النقاش على الشرطية (الظرفية) الوراثية لهذه التمايزات والاختلافات وفي بعض الحالات تم العثور على أسبابها الجزيئية أو الموفولوجية (التشكلية) . غير أنه ليس من الضروري أبدا أن يكون الحيوان " الذكي " في استيعاب خبرة ما معينة ذكيا ولماحا جدا أثناء استخدام الاختبارات الأخرى للتعلم . وبكلمات أخرى فمن الممكن أن يكون هذا الحيوان

" أحمق " في ظروف ومواقف أخرى . وبالتالي فالحديث يدور حول الاستعداد الوراثي للنجاح في اكتساب خبرة أو معرفة ما محددة وليس حول تحتيم العبقرية أو الغباء بشكل عام على المستوى الوراثي .

ولكن كيف يكون الأمر مع الإنسان

بعض علماء الوراثة ومن ضمنهم عالمنا الكبير ن . دوبينين وكذلك علماء النفس (على سبيل المثال أ . ليونتيف) رأوا وكأن الإنسان مختلف إلى حد كبير عن الحيوانات حتى أن طرق التحكم الوراثية للنشاط العصبي لدى الحيوانات لا يمكن أن تطبق على الإنسان . وباختصار فهم وكأنهم يقسمون الإنسان بالمفهوم الوراثي إلى قسمين . الأول عام ومشترك مع الحيوانات ومرتبط بالخصائص الجسدية (القامة اللون العيون الشعر ... إلخ) . والثاني مختلف عن الحيوانات ولا يخضع لقوانين علم الوراثة ولكن يقع كليا وبشكل كامل تحت تأثير الوسط الاجتماعي . وأعتقد أنه لا يوجد أي أساس لهذا التقسيم وأن قوانين علم الوراثة صالحة لجميع أفراد عالم الكائنات الحية وتنسحب على مختلف جوانب حياة الإنسان بداية من اللحم والدم حتى النشاط العصبي . ومن المعروف أنه لدى المجرمين العريقين وخاصة القتلة توجد مجموعة من الانحرافات المميزة في مو الجهاز العصبي . وقبل كل شئ فالمخ لديهم غير كامل النمو وهو ما يجد له انعكاسا في جم الرأس الصغير والجبهة الضيقة والعينين الصغيرتين الباردتين . وفي إطار ذلك كقاعدة يبرز فكه السفلي الضخم بشكل ملحوظ . وهناك أيضا واحدة من الصفات النوعية : تركز الأطراف العصبية (المستقبلات receptors) على وحدة مساحة الجسم وبالتالي نجد أن الإحساس بالألم لديهم يتدنى بشكل حاد بالمقارنة مع الناس الطبيعيين . ولذا لا ينبغي أن نندهش من أنهم قادرون على ارتكاب بعض الأعمال بحق أنفسهم لا يمكن أبدا للإنسان العادي أن يقوم بارتكابها في حق نفسه ... على سبيل المثال خياطة الفم أو تسمير الجسد إلى المقعد بالمسامير كي لا يذهبوا إلى العمل أو بتر أيديهم لكي يختارونهم رؤساء للعصابات . الأمر بالنسبة لهم لا يمثل أي ألم ! أ ليس عن طريق ذلك يمكن تفسير القسوة الهائلة أثناء ارتكاب جرائم القتل حينما يقوم المجرم بطعن الضحية طعنات عديدة ومن الممكن أن نتصور أن صراخ الضحية وأنينها وعذابها تثير لدى القاتل اهتماما " استقصائيا " جنونيا : فالقاتل لا يفهم ماذا يشعر الإنسان الذي يمزقونه بالسكين . لأنهم حينما يمزقونه هو لا يشعر تقريبا بأي شئ ! فهل تعتبر هذه الصفات أمور حتمية من الناحية الوراثية وماذا غير ذلك أنا لا أتصور بأي شكل أو على أي نحو كيف يمكن للوسط الاجتماعي أن يؤثر على تطور أو نمو الأطراف العصبية . بالإضافة إلى ذلك توجد معطيات بأن الصفات المميزة التي يشار بها هنا للمجرمين يمكنها أن تكون متلازمة ومرتبطة بوجود كرومسومة زائدة بين الكرومسومات التي يسمونها - Y مما يجعل أفعال الشخص مصحوبة بشراسة وعدوانية زائدتين . وفي الوقت نفسه فالمجرم - إذا لم يكن يعاني من مرض نفسي (فصام أو صرع أو نقص في النمو النفسي) يدرك بوضوح ودقة أن عمله هذا يحمل طابعا مضادا للقانون . وهو بالطبع يجب أن يتحمل مسؤولية أفعاله ومن الأصلح أن يتم عزله عن المجتمع . أما الأحاديث التي تدور حول إعادة تنشئة المجرمين أو إعادة تربيتهم والتي كانت مجرد " موضة " في عهد نيكيتا خرتشوف والتي لم يكن لها أي أساس من الصحة فلم يمكنها إلا أن تعود على المجتمع بالضر الفادح . فالمعاملة الإنسانية للقتلة وإبداء الاهتمام بهم أمر يفصح عن الاستهانة بمصالح المجتمع والاستخفاف بها لأنه عندما يعفو أصحاب المشاعر " الإنسانية " لدينا عن هؤلاء " اللابشر " ومن ثم يتسببون في نهاية الأمر في إطلاق سراحهم بينما أولئك المجرمون كما أوضحت التجارب والخبرات لا يتغيرون إلى الأفضل تحت تأثير ما يبدونه تجاههم من عطف ورحمة ينتج عن ذلك أنهم أثناء حريتهم هذه يقومون بالقضاء على بعض الحيوات الأخرى لبعض

المواطنين الشرفاء والمخلصين .

هناك أيضا أمر آخر هام وملموس وواضح ألا وهو البروز المحسوس للنشاط النفسي للإنسان في الإطار الاجتماعي ـ العدائية التي يرتبط مستواها بمنظومة أقسام معينة من المخ والتي يتم التحكم فيها وراثيا أثناء مسار نمو الكائن وتطوره . وقد قام كونراد لورنتز الحائز على جائزة نوبل بتحليل هذه القضية في كتابه " العدوان " (موسكو " دار التقدم " ١٩٩٤م) أورد لورنتز نتائج في غاية الأهمية للأبحاث النفسية ـ الاجتماعية التي أجريت على الهنود الحمر من قبائل الـ " يوتا " التي تسكن مروج أمريكا الشمالية . واتضح أنهم يعانون بقسوة من تنامي الدوافع العدوانية التي حرموا من إمكانية تحقيقها في ظروف الحفاظ على حقوق الهنود الحمر في أمريكا الشمالية . المسألة تتلخص في أن هؤلاء الهنود عاشوا خلال عدة مئات من الأعوام حياة متوحشة تمثلت في الحروب والسلب والنهب . ومن البديهي أنه قد حدثت عملية انتقاء عملت على تعزيز عدائيتهم وتقويتها . وحدثت تغيرات كبيرة في " الرصيد " أو " الاحتياطي " الوراثي لديهم خلال فترة زمنية قصيرة نسبيا . ولا ينبغي أن نندهش من ذلك : فأثناء عملية الانتقاء القاسية تتغير فصائل الحيوانات المنزلية الأليفة بسرعة كبيرة . وبناء على تلك الفرضية تقول الحقيقة بأن الهنود الحمر الآخرين من قبائل اليوتا الذين نشأوا في ظروف أخرى يعانون من هذا الأمر أيضا بدرجة ليست أقل من أفراد قبيلتهم الأكبر سنا . بالإضافة إلى أن الظهور المرضي للعدوانية يميز فقط الهنود الحمر الذين يقطنون مناطق المروج إذ أن قبائلهم قد تعرضت بدرجة أكبر إلى مثل تلك العملية من الانتقاء .

إلا أن هنود اليوتا المضطرون دائما إلى كبح عدوانيتهم يعانون من نوبات عصبية دورية ومتكررة ويشعر الكثيرون منهم بأنهم مرضى . فكيف يمكن التخلص من كل ذلك يقول لورنتز بأن الطريقة الوحيدة " الناجعة " ـ هي تصعيد الانحراف العدواني وتوجيهه في صورة أخرى للنشاط من أجل إعطاء " مخرج " للطاقة الكامنة أي كما يقولون من أجل " تنفيس البخار " . وهذا قبل كل شئ رياضة ! فإعادة توجيه العدوانية ـ تعني جعلها غير مضرة أو مؤذية . والتنافس في الرياضة يعمل على فتح ذلك الصنبور من أجل تسريب تلك الطاقة المحبوسة ويتيح لها الظهور ليس في صور الأنانية الخشنة وإنما في أشكال عمل جماعي لها خصوصيتها بل وأكثر جدوى ومنفعة من الصور المؤذية للمجتمع . هناك أيضا شيئان عملا على توحيد الناس الذين كانوا في السابق متفرقين ومعزولين عن بعضهم البعض وكانوا يظهرون نوايا عدوانية تجاه بعضهم البعض ـ هذان الشيئان هما العلم والفن . ومن المهم على حد رأي لورنتز أن مثل هذه العملية من التصعيد تتحقق بنجاح عندما تتساوى فيها قوى الجذب بين الجوانب العقلانية والانفعالية والوجدانية للنفسية الإنسانية لكل واحدة على حدة وبينها جميعا .

لا شك أن المجتمع يؤثر على الشخصية الفردية . وبشكل قوي جدا . فهو إما أن يساعد على نموها وتطورها وإما يكبحها ويقمعها ويضغط عليها في اتجاه معين . بيد أن هذا الاتجاه ذاته وكذلك قدرة كل شخص منفرد على حل هذه المشكلة أو تلك أو النجاح في العلم أو الفن أو الرياضة أو السياسة أو تحقيق ذاته كشخصية فردية بهذه الدرجة أو تلك كل ذلك يتم التحكم فيه وراثيا بدرجة كبيرة للغاية . ولقد قام علماء الوراثة الأمريكيون بإجراء تجارب هامة على الفئران . حيث قسموا سلالات هذه الحيوانات التي ظهرت إلى النور لتوها على أساس أنماطها الوراثية (أو على أساس مجموعة الجينات) إلى مجموعتين . واحدة منهما " نشأت " في ظروف " وسط غني ومريح " (من حيث بناء القفص والعديد من عناصر " الألعاب " المختلفة ـ الدرج والمكعبات ... إلخ) . والمجموعة الثانية ـ في وسط فقير وغير مريح (قفص ضيق وعدم وجود أي مواد أو أشياء أخرى) . واتضح أن القدرة على التعلم لدى حيوانات المجموعة الأولى كانت أعلى بل وحتى كانت قشرة المخيخ أسمك بكثير من مثيلتها في

المجموعة الثانية . وبالطبع فهذه الاختلافات لم يتم انتقالها بالوراثة : تبعا للقوانين الوراثية حيث الصفات المكتسبة لا تورث .

على نحو مشابه أيضا يكون بناء المجتمع : الكيفية التى بنى بها وإمكانيته على كبح جماح الصفات الحتمية الوراثية للنشاطات العصبية أو تسببه فى تطورها وتزايدها أى . باختصار . زحزحة معيار التفاعل فى هذا الاتجاه أو ذاك . على ضوء ذلك يتوقف ازدهار المجتمع وتقدمه . وإذا ظلوا عندنا على سبيل المثال يحتقرون العلم ويستخفون به وإذا لم يسارعوا بدعمه ومساعدته فلن تبعث روسيا أبدا أو تنهض .

جزر الاستقرار في بحر المتغيرات

تركيب عناصر غير طبيعية ستغير تصوراتنا عن حدود الجدول الدوري لمندليف

بقلم الأكاديمي : ديمتري تريفونوف(الملحق العلمي لـ " نيزافيسيمايا جازيتا ")

فى نهاية يناير عام ١٩٩٩م تناقلت وكالات الأنباء العالمية خبرا يفيد بأن علماء الفيزياء الروس بمعهد الأبحاث النووية (معهد دوبنا) بضواحي موسكو قاموا بتركيب العنصر (١١٤) بجدول منديليف . حدث هذا الاكتشاف العالمي فى مختبرات التفاعلات النووية بمعهد الأبحاث النووية بالاشتراك مع العلماء الأمريكيين من مختبر " ليفرمور " الوطني بالولايات المتحدة الأمريكية . كتلة هذا العنصر الجديد تساوى (٢٨٩) وهو يعتبر الآن نهاية (حلقة إغلاق) جدول العناصر الكيميائية .

ومن المعروف أن العناصر التى تم تركيبها بعد العنصر (١٠٥) كانت أعمارها قصيرة جدا تصل إلى جزئ صغير من الثانية . ورأى مجموعة من العلماء أنه لا توجد إمكانية لاكتشاف عناصر جديدة بسبب قصر الفترة الزمنية لوجودها . إلا أن علماء الفيزياء فى معهد " دوبنا " تنبؤا ليس فقط بإمكانية التركيب وإنما أيضا بتزايد الفترة الزمنية لحياة العناصر الجديدة . وها هي الشواهد المختبرية للنظريات العلمية تؤكد على أن العنصر (١١٤) هو عنصر " طويل العمر " - ليس جزء من الميكرو ثانية وإنما حوالى ٣٠ ثانية ! إذن فما أهمية هذا الإنجاز

لقد بدأ الحديث عن عنصر شحنة نواة ذرته Zتساوى ١١٤ منذ ٣٠ عاما مضت . وعلى ضوء التنبؤ بـ " الجزر المستقرة نسبيا " فقد افترضوا وجود استقرارية عالية جدا بالنسبة للنوايات التى تحمل مثل هذا العدد من البروتونات. وذلك على حد سواء كما بالنسبة للنوايات التى تحمل عددا "سحريا" من النيوترونات Nتساوى ١٨٤ .
(يتم إطلاق كلمة " سحرى " على النواة التى تحمل عددا معينا من النيوترونات Nأو أن عدد النيوترونات = ٢ ٨ ٢٠ ٥٠ ٨٢ ١١٤ ١٢٦ ... ومع هذه القيم تكون السحابة البروتونية والنيوترونية للنواة ممتلئة بينما النواة بمثل هذه السحابات تكون أكثر استقرارا : إذا كانت كل من عدد البروتونات وعدد النيوترونات " سحريا " فهم يسمون هذه النوايات " متضاعفة السحرية " وهي أكثر تمايزا فى استقرارها بين العناصر القريبة إليها من حيث الكتلة)
.هنا استطاعت " جزر الاستقرار فى بحر المتغيرات أن تستقر على حد تعبير الفيزيائى الأمريكى هيلين سيبورج .
وتقدير فترات الانشطار النصفى عن طريق النفتت الذاتي أو التلقائى لمثل هذه النوايات التى نطلق عليها اسم "الجزر " أعطى قيما مثيرة للاهتمام - تصل إلى ١٠ عاما ! وعلى هذا الأساس فنواة العنصر المتضاعف السحرية (١١٤) على وجه الخصوص قد أثارت الكثير من الاهتمام .

تلك التنبؤات النظرية أعطت أسسا لمحاولات البحث فى طبيعة العناصر التى تنتمى إلى " جزر الاستقرار " وأعطت كذلك أسسا قوية للقيام بتركيبها صناعيا . ومن ثم قد تعرضت أكثر المواد الطبيعية تنوعا واختلافا إلى التجريب من حيث وجود " العناصر غير الطبيعية " فيها - بداية من الأشعة الكونية ومخلفات الانفجارات البركانية إلى مصادر المياه العميقة والتحجرات فى قاع المحيطات . بيد أن عمليات البحث طوال سنوات عديدة لم تؤد إلى أى نتائج محددة.

وبالنسبة لتركيب " العناصر غير الطبيعية " كانت هناك طريقة واحدة فقط فى حوزة العلماء - استخدام الأيونات المعجلة متعددة الشحنات بمثابة جسيمات مقذوفة مما يسمى بالأهداف . وفى حالة العنصر (١١٤) تطلب

الأمر التوصل إلى تركيبة الأيون - الهدف لكي يكون مجموع شحناتهما مساويـــا لـ (١١٤) . وتم تنفيذ الخطوة الأولى عام ١٩٦٧م حيث سمحت المعجلات التى كانت موجودة آنذاك بالحصول على حزمة من أيونات غاز الأرجون - ٤٠ (حيث شحنته تساوى ١٨) . وبالتالى تم اتخاذ نظير عنصر الكوريوم - ٢٤٨ (حيث شحنته تساوى ٩٦) بمثابة الهدف . وأعطى التفاعل النووى آمالا فى تكوين النواة المركبة (١١٤) . ومع ذلك لم تتحقق هذه الآمال .

وبمرور الزمن ظهرت إمكانية لتعجيل الأيونات التى تمتلك شحنات كبيرة وظهرت فكرة الاقتراب من العنصر ذى الشحنة التى تساوى (١١٤) باستخدام كما يقولون " طريقة الطلقة الطويلة " . وهذه الطريقة تتلخص فى محاولات تركيب النوايات ذات الشحنات الأكبر من (١١٤) والتى نتيجة للتفكك المتوالى لجسيمات ألفا يجب أن تتحول إلى النواة المطلوبة . بيد أن التجربة لم تحقق هذه الآمال . وفى النهاية جاءت النتائج غير المريحة : حيث استخدام أيونات غاز الأرجون الثقيل لا تستطيع من حيث المبدأ أن تقود إلى تكوين النواة المركبة .

عندئذ ظهر افتراض جرئ وتم تسمية الطريقة الجديدة على نحو ذكى : " البناء من خلال الهدم " . وجوهرها - تركيب تلك النواة المركبة وسط شظايا التفتت الذاتى أو التلقائى الذى من الممكن العثور فيه على مكان للنوايات ذات الشحنة (١١٤) . وعلى سبيل المثال فإدماج اثنين من نوايات اليورانيوم - ٢٣٨ كان بإمكانه أن يقود إلى النواة المشوهة - (١٨٤) وبإطلاق ١٢ نيوترون كان بإمكانها أن تتجزأ مولدة نواة العنصر الفلزى " يتربيوم " - ١٦٦ والنواة " المثالية - (١١٤) . ولكن تحقيق هذا التفاعل على أرض الواقع لم يتحقق أيضا .

فى غضون تلك الفترة الزمنية تم تركيب العناصر (١٠٦) (١٠٧) (١٠٨) (١٠٩) (١١٠) (١١١) (١١٢) . وتم تركيب نوايات - الفاتتوم التى كانت تولد كى تموت فى نفس اللحظة ... واتضح أن " الجزيرة المستقرة " المزعومة مجرد شئ شبيه بـ " أرض سانيكوف " . إلا أنه منذ خمس سنوات مضت ذكر مدير مختبر التفاعلات النووية بمعهد الأبحاث النووية الأكاديمى يورى أجانسيان فى حوار مع مراسل " نيزافيسيمايا جازيتا " (الجريدة المستقلة) بأنه : (إذا تصورنا كل مجموعة العناصر الكيميائية بمثابة شبه جزيرة فى بحر المتغيرات فليس هناك أى أساس من الصحة إذا قلنا بأن " الأرض " تتلاشى فى عباب البحر ولا يبقى لها أثر . إنها تذهب " تحت " الماء ولكنها تعود لتظهر ثانية على شكل " جزر شديدة الاستقرار ") . وهكذا ظهر شعاع الضوء فى نهاية النفق وجاء دور العنصر (١١٤) .

فى هذه الحالة تم اختيار نظير البلوتونيوم - ٢٤٤ بمثابة الهدف . وتعرض هذا النظير للإشعاع عن طريق نظير الكالسيوم - ٤٨ . ومن المعروف أن نظير البلوتونيوم - ٢٤٤ يعتبر طويل العمر بين جميع نظائر العناصر التى تتحول إلى اليورانيوم (فترة الانشطار النصفى بالتفتت الذاتى تصل إلى٥ر٢×١٠ عاما وتفكك جسيمات ألفا ٥ر٧×١٠ عاما بل وحتى ظهر خبر يفيد بوجود هذا البلوتونيوم " التقليدى " فى المواد الطبيعية) . ولكن تجميع البلوتونيوم - ٢٤٤ بكميات كبيرة يمثل مهمة صعبة للغاية ولا تقل عنها صعوبة عملية استخلاص الكالسيوم - ٤٨ من الخليط الطبيعى (الموجود فى الطبيعة) لنظائر العنصر المستقر (من كل ١٠ آلاف ذرة لجميع أنواع الكالسيوم المختلفة توجد فقط ذرتان من الكالسيوم - ٤٨) . وقد تم بالفعل تجميع عدة عشرات من الجرامات بالإضافة إلى أن التفاعل النووى اللازم قد تحقق . وبالطبع فهناك حاجة إلى تجارب تأكيدية ولن نستطيع إلغاء أو تفادى الجدال الحاد الذى سينشأ بخصوص تسمية العنصر الجديد .

أما الأمر الذى يمثل أهمية خاصة هو أن فترة الانشطار النصفى للعنصر (١١٤) هو ٣٠ ثانية . وبذلك فالتنبؤ بـ " الجزر المستقرة نسبيا " يحصل على أمل فى الحياة من جديد . زد على ذلك أن التجارب الخاصة بتقدير

الطبيعة الكيميائية للعنصر (١١٤) تصبح أمرا واقعيا تماما .

ولقد كان من الممكن تعيين خصائص العنصر الكيميائية بطريقة الاستكمال الخارجي - التعيين التقريبي - التي استخدمها ديمتري إيفانوفيتش مندليف منذ سنوات بعيدة من أجل التنبؤ بخصائص العناصر التي لم تكن قد اكتشفت بعد . إلا أنه في الذرات ذات الشحنات الكبيرة تبدأ هذه الخصائص بلعب دور ما يسمى بالظواهر النسبية . وهي بالذات - هذه الخصائص - التي يمكنها أن تؤثر على خصوصية الشكل الإلكتروني للذرة .

وفي الوقت المناسب كان قد تم وضع تنبؤات عن طريق الكمبيوتر لخصائص " العناصر غير الطبيعية " مع الأخذ في الاعتبار حساب تلك الظواهر النسبية . وبالتالي فبالنسبة للعنصر (١١٤) تم استخلاص بعض النتائج حول تناظره مع الرصاص والدرجة المثلى للتأكسد (+٢) وكذلك تم حساب بعض الصفات الكمية الأخرى : طاقة التأين (٥ر٨ ف) نصف قطر الأيون (- ٢ر١ أنجستروم) درجة حرارة الانصهار (٣٤٠ ك) درجة حرارة الغليان (٤٢٠ ك) . ومع ذلك فهذه القيم بكل أسف تمتلك دلالات مطلقة على نحو خاص تماما نظرا لأن العنصر (١١٤) لن يتم أبدا جمعه حتى بأقل الكميات التي يمكن وزنها .

خلال الفترة القصيرة الماضية تصور علماء الفيزياء النظرية أن العنصر ١١٤ هو آخر حدود جدول مندليف ولكنهم ما لبثوا أن نجحوا في إجراء تجاربهم المستمرة على انشطار نواة العنصر ١١٦ في أحدث معجل روسي بمعهد دوبنا (أو ٤٠٠) حيث تم قذف الهدف المصنوع من عنصر الكوري ٢٤٨ بأيونات الكالسيوم ٤٨ (ثمن الجرام الواحد منها ٢٥٠ ألف دولار) والتي وصلت سرعتها إلى جزء من العشرة من سرعة الضوء . وكان من المفترض أثناء عملية الاندماج أن يتكون عنصر مستقر بتفكك أشعة ألفا (حيث تفكك ألفا يؤدي إلى تحرر ٢ بروتون و٢ نيوترون - أي نواة ذرة الهيليوم) عندئذ يتحول إلى العنصر ١١٤ .. وهكذا .

ويعتبر تركيب العنصر ١١٦ نتيجة مذهلة بالنسبة لتطور النظرية النووية لأن ذلك هو إثبات مباشر وواضح لما يسمى بـ " جزر الاستقرار " للعناصر ما فوق الثقيلة .

عمر العنصر الجديد يصل إلى ٥٠ مللي ثانية . ولكن الأهم من ذلك هو أنه يمتلك نواة ثقيلة مما يثبت تماما تنبؤات علماء الفيزياء النظرية التي ظلت دون إثبات طوال أكثر من ثلاثين عاما بالنسبة لحدود جدول مندليف التي يجب ألا تنتهي بعناصر اليورانيوم المتحولة فقط . وتركيب عناصر جديدة يشير إلى أن تجارب الفيزياء النووية تسير في اتجاه اكتشاف عناصر كيميائية جديدة ذات نواة ثقيلة وفترات عمر تقل تدريجيا بازدياد الوزن الذري .

عندما أسس مندليف جدوله منذ قرن مضى كان يعرف ٦٣ عنصرا كيميائيا فقط . وبحلول عام ١٩٤٠ كانت جميع الفراغات في الجدول قد امتلأت حتى العنصر ٩٢ بما فيها اليورانيوم (ما عدا البروميثيوم ٦١ الذي اكتشف عام ١٩٤٥) . أما الـ ١٨ عنصرا الأخيرة التي يطلق عليها عناصر اليورانيوم المتحولة فهي من صنع الإنسان نفسه لأنها لا توجد في الطبيعة . وبالتالي إذا تصورنا أن جميع العناصر الكيميائية في مجموعها تشكل شبه جزيرة في بحر اللامستقرات فليس هناك أي أساس لمقولة أن الأرض سوف تتلاشى في بحر من الأشعة . والتنبؤ الصحيح إلى الآن هو أن الأرض سوف تغرق في الماء ثم تظهر بعد ذلك جزر الاستقرار - أي العناصر ما فوق الثقيلة . والعلماء يعكفون منذ زمن طويل على تحديد "محاور" مثل تلك الجزيرة المستقرة . ولعل نجاحهم في تركيب العنصرين ١١٤ و ١١٦ قد أعطى الأمل في توسيع مساحة جدول مندليف من ناحية وتوفير إمكانية للإنسان على استغلال الطبيعة بأقصى درجة ممكنة من ناحية أخرى .

لا يزال العلماء حائرين رغم تقدمهم . فالنظرية النووية تنبأت بأنه إذا تم التحرك إلى الأمام في اتجاه اكتشاف

العناصر ما فوق الثقيلة فمن الضرورى أن تزداد فترة عمرها . ورأى العلماء أن العنصر ١١٤ يجب أن يمتلك ما يسمى بجزر الاستقرار حيث عدد النيوترونات فى نواته يصل إلى ١٨٤ وتصل فترة عمره إلى ملايين السنين . ولكن مع الأسف فالحصول على العنصر ١١٤ الذى يحتوى على هذا العدد من النيوترونات أمر مستحيل إلى وقتنا هذا . ولكن الأمل لا يزال موجودا مع وجود العنصر ١١٤ رغم أنه لا يتوافق مع تنبؤات العلماء المسبقة .

المدهش أن العلماء يناقشون حاليا إمكانية التوصل إلى تركيب العنصر الذى يصل عدده الذرى إلى ٤٠٠ وتصل عدد نيوتروناته إلى ٩٠٠ . وآخر تنبؤاتهم أن نواة مثل هذا العنصر سوف تكون شبيهة بالفقاعة **Bubble-nuclear** وستكون نواته فارغة . وإذا تحقق مثل هذا التنبؤ ستكون البشرية قد دخلت مرحلة أخرى من طور وجودها لأن هذا يعنى أن مادة النواة (فى أية صورة من صورها) غير قابلة للفناء حتى وإن كانت فارغة .

القانون الدورى بعد مائة عام

احتمالية الاكتمال النهائى لجدول مندليف

بقلم الأكاديمى : ديمترى تريفونوف(الملحق العلمى لـ " نيزافيسيمايا جازيتا ")

فى المجلد الثالث والعشرين من القاموس الموسوعى " بروكجواز و يفرون " (١٨٩٨م) نشر مقال ضخم لديمترى إيفانوفيتش مندليف تحت عنوان " القانون الدورى للعناصر الكيميائية " . كان هذا المقال يتناول القانون الدورى والجدول الدورى الذى تأسس فيما بعد على الأول . وفى جوهر الأمر كان هذا العمل هو العمل الأساسى الأخير لديمترى إيفانوفيتش والذى عرضت فيه الحالة النظرية الدورية والقضايا التى كانت لا تزال تتطلب التفسير والحل .

لم تكن مثل تلك القضايا والإشكاليات قليلة . وقبل كل شئ كان القانون والجدول مجرد عموميات تجريبية ولم يكن قد تم بعد البحث عن طرق لإثباتهما الفيزيائى الحاسم : إذ أنه لم يكن يوجد آنذاك حتى تصور عن نموذج الذرة . فما هو العدد النهائى للعناصر التى يتضمنها الجدول هل يوجد عنصرى الهيدروجين الخفيف واليورانيوم الثقيل كيف يمكن بعد ذلك تفسير التشابه الكيميائى المدهش للعناصر الأرضية النادرة التى بقى عددها الكلى غير محدد وفى النهاية قامت ظاهرة الإشعاع التى تم اكتشافها عام ١٨٩٦م وبعد ذلك بعامين عنصرى البولونيوم والراديوم بإضافة خبرات وتجارب جديدة إلى الجدول الدورى : مع كل عام كانت تتنامى أعداد المواد المشعة التى يتم اكتشافها . وإذا اعتبرنا العناصر الأخيرة عناصر مستقلة فالفاصل الصغير نسبيا بين عنصرى البزموث واليورانيوم لم يكن يمكنه أبدا أن يتسع لعددها الكثير ...

كل هذا " الخلل " لم يكن يمكنه ألا يقلق مندليف على الرغم من ثقته بأنه إن عاجلا أو آجلا سوف يتم التغلب على هذا الخلل . ففى دفتر يومياته بتاريخ ١٠ يوليو ١٩٠٥م كتب : " من الواضح أن المستقبل لا يهدد بهدم القانون الدورى بل يعد بتطويره والإضافة إليه ... " . وعلى مدى القرن العشرين تأكدت نبوءة مندليف أكثر من مرة وبنجاح لأنه ـ وبدرجات كبيرة ـ تدخلت علوم الفيزياء بشكل حاسم فى " قضايا التسلسل الدورى " .

المؤشر المحدد

لم يكن نموذج ذرة أرنست راذرفورد ـ نيلز بوهر (حيث الإلكترونات تدور حول كتلة النواة ذات الشحنة الموجبة فى مدارات كمية محددة) فقط هو الحدث المركزى فى معرفة تركيب المادة وإنما قام بتأسيس جميع المقدمات الأولية لتفسير الجوهر الفيزيائى للترتيب الدورى . وكانت شحنة نواة الذرة مساوية للرقم التسلسلى المطابق للعنصر فى الجدول . وكانت شحنة النواة بالذات وليس وزن الذرة هى المؤشر الذى تتغير دوريا على أساسه من حيث الزيادة خواص العناصر الكيميائية . وأصبح نص قانون مندليف هو : " خواص العناصر وبالتالى صفات المركبات المكونة منها توجد فى علاقة دورية مع قيم شحنات نوايات ذراتها " . وكانت هذه هى الحالة الوحيدة على الأرجح فى تاريخ العلم التى يتعرض فيها أحد القوانين الأساسية للطبيعة إلى تغيرات جذرية من حيث صياغته . وبالتالى ظهرت أشياء كثيرة أخرى .

لقد كانت كل من ذرتى الهيدروجين (حيث الشحنة ١) واليورانيوم (حيث الشحنة ٩٢) تمثلان الحدين الأسفل والأعلى للمنظومة الدورية . وفى النهاية اتضح أن العناصر الأرضية النادرة عددها ١٥ عنصرا بداية من عنصر اللانتانيوم (الشحنة ٥٧) حتى عنصر اللوتسيوم (الشحنة ٧١) . وبعد ذلك تم إثبات أنه من أجل العناصر ذات

القيم المتعددة للشحنة توجد أشكال مختلفة للذرات . وحصلت تلك العناصر على تسمية " النظائر " . وتم تقسيم نظائر العناصر المشعة فى نهاية جدول مندليف إلى ثلاث عائلات مشعة وهى العناصر الأساسية طويلة العمر : الثوريوم (٢٣٢) اليورانيوم (٢٣٨) اليورانيوم (٢٣٥) . وبفضل انشطار (انبعاث) جسيمات " ألفا " و " بيتا " تتحول هذه العناصر فى النهاية إلى نظائر مستقرة للرصاص مكونة " بشكل عابر " أشكال قصيرة العمر مثل " البروتكتينيوم " و " الأكتينيوم " و " الرادون " و " البولونيوم " . ولذلك فتلك العناصر المشعة الأخيرة لا توجد فى الطبيعة . ولقد سمح اكتشاف ودراسة انتشار النظائر المستقرة بتفسير سبب عدم وجود الأعداد الصحيحة للأوزان الذرية . وهى المشكلة التى ظلت قيد المناقشة طوال عشرات السنين .

من الأغلفة إلى المدارات

إن تقديم تفسير للقانون الدورى لا يعنى أبدا تفسير جوهر العملية الدورية ذاته ولا يعنى أيضا تفسير تركيبة المنظومة الدورية وتقسيمها إلى دورات ومجموعات. ففى عام ١٩٢١م قام نيلز بوهر بصياغة نظرية للمنظومة الدورية. وانطلق من أنه بقدر قيمة الشحنة فى الذرات تجرى عملية بناء، حتمى تلقائى للأغلفة الإلكترونية وما تحتها تلك الأغلفة التى تتضمن عدد نهائى محدد من الإلكترونات وبذلك تتكرر بشكل دورى التراكيب المتشابهة للأغلفة الخارجية التى تتوقف عليها بشكل كبير الخواص الكيميائية للعناصر (على سبيل المثال حالة وجود غلافين خارجيين متطابقين فى ذرات العناصر الأرضية النادرة وهو ما يفسر التشابه المدهش). ومع ذلك كانت نظرية بوهر - بدرجة ما - تجريبية لأنها ارتكزت على المعطيات الخاصة بالصفات الكيميائية للعناصر وحتمية أطيافها السينية (الرونتيجينية) . ولكن هذه النظرية وجدت تفسيراتها فى إطار طرق ميكانيكا الكم . وأصبح مصطلح " المدار الذرى " هو الذى يفضل استخدامه فى تحديد خصائص وجود الإلكترون فى الذرة على الرغم من أن مفاهيم " الغلاف " و " ما تحت الغلاف " لم تفقد قيمتها حيث أن استخدامها يعد أمرا كافيا لتفسير الجوهر الفيزيائى للعملية الدورية وتركيبة نظام العناصر .

وفى نهاية الثلاثينات حصلت جميع المشكلات التى كانت تقلق مندليف فى زمنه بشكل أو بآخر على حلول مرضية . وتم اكتشاف جميع العناصر الموجودة فى الطبيعة . وكانت الأماكن الفارغة بالجدول تخص فقط العناصر ذات الشحنات ٤٣ ٦١ ٨٥ ٨٧ . وبقى هناك أمر غير واضح : هل تنقطع فعلا أو تتوقف المنظومة الدورية عند اليورانيوم أم أننا سنكون مضطرين إلى التعرف على العناصر اعلى من اليورانيوم

ملئ الأماكن الفارغة

على مدى هذا القرن اكتشف العلماء عناصر فى مختلف المواد الطبيعية . والآن حل زمن آخر على نحو أساسى - عصر التخليق الصناعى لذرات لجديدة وتركيبها عن طريق التفاعلات النووية . ولقد أصبح ذلك الأمر واقعيا بعد اكتشاف النيوترون عام ١٩٣٢م وتصميم معجلات الجسيمات المشحونة (البروتونات والديوترونات وجسيمات ألفا) . وضربوا " الأهداف " بتيارات من الجسيمات انطلقت من عناصر مناسبة وكانت النتيجة أن نوايات ذراتها غيرت شحناتها وبذلك تحولت إلى نوايات لذرات عناصر أخرى .

كان أول عنصر اصطناعى جديد هو التكنيتيوم (الشحنة ٤٣): حيث تم الحصول عليه بضرب الموليبديوم (الشحنة ٤٢) بنوايات الهيدروجين الثقيل - الديوتيريوم . وفى عام ١٩٤٠م ظهر إلى النور عنصر الأستاتين (الشحنة ٨٥) : من عملية إشعاع عنصر البزموث (الشحنة ٨٣) لجسيمات ألفا حيث تم ضربه " كهدف " بنوايات

الهليوم . وفى النهاية فصلوا عنصر البروميثيوم (الشحنة ٦١) عام ١٩٤٥م من شظايا انقسام اليورانيوم بالنيوترونات البطيئة . وكان قد تم العثور على عنصر الفرانسيوم عام ١٩٣٩م بكميات ضئيلة كنواتج لانطلاق جسيمات ألفا من عنصر الأكتينيوم الطبيعى (الشحنة ٨٩) . أما عدم وجود عنصرى التكتينيوم والبروميثيوم (وهما العنصران الموجودان فى وسط جدول منديليف) فيمكن تفسيره ببساطة فى إطار بعض قوانين وبديهيات الفيزياء النووية .

والآن لم يبق فى المنظومة الدورية أماكن فارغة بين الهيدروجين واليورانيوم . وأصبح الطريق مفتوحا لتركيب العناصر الأعلى من اليورانيوم . وكانت أول هذه العناصر هو عنصر النبتونيوم (الشحنة ٩٣) ثم البلوتونيوم (الشحنة ٩٤) اللذين حصل عليهما العلماء الأمريكيون عام ١٩٤٠م . وعلى مدى ٢٥ عاما نجح علماء الفيزياء والكيمياء الأمريكيون فى تحريك الحدود العليا للمنظومة الدورية إلى ٩ أرقام دورية : أطلقوا على العنصر الأخير ذى الشحنة (١٠١) اسم منديليفيوم عام ١٩٥٥م .

مطبخ التركيب الذرى

إن فترات الانشطار النصفى لغالبية النظائر تقل كثيرا عن عمر الأرض (٥١٠٩ عاما) ولذلك سقطت أهمية مشكلة إمكانية وجود العناصر الأعلى من اليورانيوم فى الطبيعة . بالإضافة إلى ذلك فعدم استقرارها يتزايد بوضوح فى حالة زيادة الشحنة . والطريقة السائدة للتركيب تتلخص فى ضرب العناصر بجسيمات ألفا تلك العناصر التى تمتلك أرقاما تسلسلية تقل باثنين عن تلك التى يجب الحصول عليها . وبالتدريج أصبح من الصعب تجميع كميات كافية على نحو أو آخر من ذرات العناصر التى يتم استخدامها كأهداف . وعلى سبيل المثال فمن أجل تركيب عنصر المندليفيوم استطاعوا " تركيز " ١٠٩ ذرات فقط من عنصر الأينيشتينيوم (الشحنة ٩٩) . وعند هذا الحد استنفذت طريقة ألفا للتركيب إمكانياتها نظرا لأن " الحصول " على العنصر رقم ١٠٠ (الفيرميوم) كان أمرا غير واقعى .

ولذلك فمن أجل تركيب العناصر ذات الشحنات الأكثر من ١٠١ تطلب الأمر إعداد طريقة أخرى تماما : استخدام أيونات معجلة متعددة الشحنة (بشحنة أكبر من ٢) كجسيمات مقذوفة . وتم إجراء أول محاولة عام ١٩٥٧م قمت بها مجموعة علماء معهد نوبل الأممية (فى ستوكهولم) . وتم ضرب الهدف المصنوع من عنصر الكوريوم (الشحنة ٩٦) بتيار من الأيونات المعجلة المشحونة . وكما تنبأ الباحثون ففى نهاية الأمر تم الحصول على نظير العنصر (١٠٢) وأعطوه تسمية " النوبليوم " . وبعد فترة زمنية قصيرة جدا اتضح أن هناك خطأ (على الرغم من أن الرمز والاسم بقيا حتى وقتنا هذا) . ومع ذلك فقد كان هذا الحدث (الخطأ) إشارة إلى بداية مرحلة جديدة فى تركيب العناصر الأعلى من اليورانيوم .

وخلال الأربعين سنة الماضية تحركت الحدود العليا للمنظومة الدورية إلى ١٠ أرقام دورية بالإضافة إلى ما سبق . بيد أن قصة تركيب عناصر (المائة الثانية) لم تمر هكذا بدون صعوبات .

كان من الممكن إجراء طريقتين لعملية التوليف أو التركيب بالنسبة لكل من " الجسيم المقذوف والهدف " . إما اليورانيوم أو بعض الأكتينات (عددها الذرى من ٨٣ إلى ١٠٣) الأخرى حيث تتعرض للإشعاع عن طريق ضربها بأيونات العناصر الخفيفة نسبيا - بداية من الأكسجين ونهاية بالكالسيوم . وإما العناصر الثقيلة المستقرة مثل الثاليوم أو الرصاص أو البزموث حيث تتعرض للإشعاع عن طريق ضربها بأيونات ذات شحنات كبيرة - بداية من الأرجون ونهاية بالزنك .

أما الهدف فهو عبارة عن " بقعة " بيضاوية الشكل من المعدن أو من أكسيد العنصر المضروب (يبلغ عرضه أجزاء من الميكرومتر) . ويجب أن تكون سرعة الأيونات الضاربة قريبة من واحد على عشرة من سرعة الضوء كي تستطيع اجتياز حاجز كولوم لنوايات الهدف . ويجرى تسريع الأيونات في معجلات خاصة .

وفي حالة التفاعلات النووية على الأيونات الثقيلة تتكون في البداية نوايات مركبة في حالة استثارة تامة . وفي لحظة واحدة تقريبا تنشطر كلها إلى نواتين أكثر خفة . بيد أنه في حالات نادرة جدا تتمكن هذه النوايات من إشعاع عدة نيوترونات وكما يقال " تبرد " . وفي النهاية تتكون نظائر العناصر ما فوق اليورانيوم الثقيلة وعلى سبيل المثال : مع وجود التقنيات الحديثة يتم الحصول على ١٠١٢ نواة مركبة في التجربة خلال يوم كامل يبقى منها " حيا " ١٠٠٠ نواة بالنسبة للعنصر (١٠٤) ويتغير هذا العدد من حيث الزيادة والنقصان بالنسبة للعناصر التي تتراوح شحنتها بين ١١٠ إلى ١١٢ . وبذلك في أغلب الأحيان نكون مضطرين إلى العمل مع ذرات قليلة جدا أو وحيدة وأيضا مع فترات انشطار نصفي ضئيلة للغاية . ولذا فتركيب وتعيين نوع نظائر العناصر ذات الأرقام الدورية الكبيرة جدا يصبح من أصعب المهمات العلمية التقنية . وعلى مدى سنوات طويلة تم حل هذه المعضلة في مراكز الأبحاث العلمية بالولايات المتحدة الأمريكية (بيركلي وليفرمور) وفي روسيا (مركز دوبنا) وفي نهاية السبعينات انضم إلى أمريكا والاتحاد السوفيتي المختبر الألماني في " دارمشتات " .

الخلافات حول الأسماء

في أحوال كثيرة لم تكن تتطابق النتائج التي حصل عليها العلماء في تلك المختبرات بل وكانت حتى تتناقض مع بعضها البعض الأمر الذي فجر العديد من النقاشات الحادة حول صحتها من ناحية وأسبقية الاكتشاف من ناحية أخرى . فالعنصر الذي كان يمتلك نفس الشحنة تم تسميته بأسماء مختلفة . وعلى سبيل المثال العنصران (١٠٤) و (١٠٥) تم تسميتهما في الاتحاد السوفيتي " كورتشاتوفيوم " (Ku (و " نيلزبوهريوم " (Ns (على الترتيب . بينما أطلق عليهما الأمريكيون " رازرفورديوم " (Rf) و" هاهنيوم " (Ha) . وكانت هناك أيضا تضاربات بالنسبة للعنصرين (١٠٢) و (١٠٣) . أما العناصر من (١٠٦) إلى (١٠٩) فقد تحفظوا عموما على تسمياتها .

ومن أجل حل ذلك الخلاف الحاد قاموا في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات بتشكيل مجموعة من الخبراء المستقلين . وبعد أن قاموا بالتحليلات التفصيلية لكميات هائلة من المعلومات بالنسبة للعناصر من (١٠٢) إلى (١٠٩) توصلوا إلى نتيجة مفادها : اكتشاف العناصر (١٠٢) و (١٠٤) و (١٠٥) تعتبر اكتشاف مستقل لعلماء مركز " دوبنا " إضافة إلى مساهماتهم في اكتشاف العنصرين (١٠٣) و (١٠٨) . وتم الاعتراف بفضل العلماء الأمريكيين في اكتشاف وتركيب أربعة عناصر هي (١٠٣) و (١٠٤) و (١٠٥) و (١٠٦) . وبفضل الألمان في اكتشاف العناصر (١٠٧) و (١٠٨) و (١٠٩) .

بعد ذلك تطلب الأمر حسم قضية التسميات فتكونت من اجل ذلك لجنة خاصة . وفقط في أغسطس عام ١٩٩٧م تم اتخاذ قرار حاسم بخصوص تسميات ورموز العناصر من (١٠٢) إلى (١٠٩) . بالإضافة إلى ذلك تم اعتبار العناصر من (١١٠) إلى (١١٢) صحيحة . ويبقى فقط تحديد الأسبقية في الاكتشاف أو " التركيب " والاتفاق على التسمية والرمز . والآن يوجد أكثر من ١٥٠ نظير تم تركيبها للعناصر ما فوق اليورانيوم والتي تختلف فترات انشطارها النصفي (لكل واحد على حدة) بفترات زمنية ضخمة .

أوهام وخيالات المنظومة الدورية

ولكن كيف أثرت كل تلك النجاحات على حد قول ديمتري إيفانوفيتش على " تثبيت القانون الدوري " لقد تشكلت في المنظومة " عائلة العناصر الأرضية النادرة " الثانية - الأكتينات (بداية من الأكتينيوم ذي الشحنة ٨٩ إلى العنصر ذي الشحنة ١٠٢) . والتشابة الكبير لدى اللانتانيدات (مجموعة العناصر النادرة) لا يمكن بداهة الحديث عنه بالنسبة للأكتينات . فإذا كانت اللانتانيدات كقاعدة ثلاثية التكافؤ فالأكتينات تظهر في التفاعلات درجة أكسدة من ١ إلى ٧ . ومجموع المدار الخامس للعناصر يختلف إلى حد كبير بصفات كيميائية متميزة ولذا فمقارنتها مع المدار الرابع للعناصر يبدو أمرا نسبيا . ويمكن تفسير ذلك بأنه في حالة الشحنات الكبيرة في التركيبة الإلكترونية للذرات تبدأ الظواهر الخاصة في لعب دورها الملحوظ الذي لم تظهره من قبل .

أما العناصر التي تبدأ شحنتها من (١٠١) - هل نعرف الكثير عن صفاتها الكيميائية لقد تم الحصول بدرجة أو بأخرى على بعض الشواهد بخصوص عنصري النوبليوم واللورانسيوم : اتضح أنه من الممكن دراستهما بالطرق العادية وكما يقال " في أنابيب الاختبار " . ولكن مع زيادة الشحنة تصبح نظائر العناصر ما فوق اليورانيوم أكثر تغيرا - أي تتناسب الشحنة مع عدم الاستقرار طرديا كما تبدأ فترة عمرها في التقلص لتبلغ أجزاء من المائة من الثانية ثم أجزاء من الألف ثم من المليون . ولكي نكون تصورا عن عنصري الراذرفورديوم والدوبنيوم تطلب الأمر إعداد طريقة خاصة حاذقة جدا تسمح بالحكم على " الانتماء " الكيميائي لذراتهما القليلة . أما بالنسبة للعناصر الأكثر ثقلا لم يعد ذلك كافيا .

وفي الواقع فمفهوم " العنصر الكيميائي " (مجموعة ذرات بشحنة محددة) يفقد هنا فعليا - في حالة التركيب - مضمونه . ومع ذلك فبالنسبة للأبحاث التالية سوف نكون مضطرين إلى إنتاج العناصر المركبة . وربما يبدو الرأي التالي قاطع أو متطرف ولكن معظم العناصر المركبة ذات الأرقام الثلاثية التسلسلية تبدو " أوهام " على نحو ما وإدراج رموزها في الجدول الدوري بشكل عام يبدو " خطوة " شكلية إلى حد كبير . بيد أنه طالما ظهرت تقاليد " تقويس " العناصر الجديدة المكتشفة المطابقة للرموز في المنظومة الدورية فمن الأفضل عدم الحياد عنها ! ...

وفي النهاية فإلى جانب الشكلين الأساسيين للتحولات الإشعاعية (انشطار جسيمات ألفا وبيتا) يوجد أيضا شكل ثالث : الانقسام التلقائي (الذاتي) للنواة والذي في نتيجته تنقسم النواة إلى نواتين بشحنتين أقل . في البداية يظهر ذلك لدى النظائر الطبيعية لليورانيوم حيث يتم قياس فترة الانشطار النصفي لها بقيم غاية في الضخامة تقترب من القيم الفلكية (بالنسبة لليورانيوم ٢٣٨ تكون فترة الانشطار النصفي ٨×١٠ سنة) . وبالنسبة للعناصر ما فوق اليورانيوم يصبح أسلوب الانشطار هذا أكثر احتمالا ومن ثم تقل فترات الانشطار النصفي بقدر تزايد الشحنة. وفي نهاية الأمر يصبح الانقسام التلقائي كما لو كان هو " القيد " الرئيسي على تركيب نظائر جديدة . بل ونكاد نرى في هذا الانقسام العلاقة الأساسية " للنهاية " القريبة للمنظومة الدورية .

مركزة العوالم الهندسية

العلوم والهندسة بحقيقة وجودهما ينفيان مقولة وحدة العالم

بقلم : جينادى كابيلوف(الملحق العلمى لـ "نيزافيسيمايا جازيتنا")

التأثير الأيديولوجى للعلوم الطبيعية

" اكتشفت العلوم وسائل بناء الموضوعات المثالية وتعلمت العمل معها . والآن كان من المفروض أن تتطابق التصميمات أو النماذج اللامدركة مع العالم فى الوقت الذى بنى فيه هذا العالم طبقا لها " !

يقف الآن الفلاسفة وعلماء مناهج البحث العلمى وباحثو العلوم الإنسانية التطبيقية أمام مشكلة جديدة تماما أملتها عليهم الحياة المعاصرة . فمن الضرورى بناء مخططات للتفكير والعمل تكون صالحة للتطبيق فى حالات التعددية التاريخية والثقافية المعاصرة أو ببساطة فى حالات الفوضى والعبث .

تلك المشكلة لن تظل غير محلولة ولكن ضرورة حلها لن تصبح مفهومة إذا لم نستطع تحييد التأثير الأيديولوجى للعلوم الطبيعية : لأنها هى بالذات التى تعتبر فى وقتنا الحاضر البرج الحصين (فى سور القلعة) ومحور الارتكاز الذى يحكم قياسات وحدة العالم وقانون إدراكه .

يتضح تدريجيا أن هذا القياس الذى يوجه أفعالنا بشكل غير ملحوظ يؤدى فى النهاية إلى أثار سلبية . والأثر الرئيسى هو أن هذا القياس يجعل أى تصور قائم على هذا المخطط الفكرى ضعيف أمام التصورات المنافسة .

فى الواقع إذا كنا مقتنعين بأن العالم واحد بينما تصوراتنا عنه مجرد تقريب (على نحو أو آخر) له من الحقيقة فعند اكتشاف تصور " أكثر حقيقية " نكون مضطرين إلى عمل شيئين : إما أن نغير لوحتنا العلميوجودية " ontological " الحقيقية كليا وإما أن نكون نظرية وجودية توليفية ذاتية . وأمثلة هذا وذاك لا تعد ولا تحصى : فهناك نظريو الاقتصاد الاشتراكى الذين تحولوا إلى أنصار ليد السوق الخفية وهناك أيضا الممرضة التى من أجل التئام أو اندمال " السرة " بشكل أفضل تنصح بتعميد الطفل وبعد ذلك الذهاب لرقى السرة عند العرافة . هناك أيضا الطابع العام ـ الجماهيرى ـ الذى يتناول الأحاديث حول " الطاقة المنبعثة من البشر " أو " الإلكترونات الإعلامية " .

ولكن هل من الممكن ومن المعقول إيجاد قياس آخر ـ تصور حول التعددية الواقعية للعوالم وهل يمكن لهذا التصور أن يساعد الفرد أو الجماعة أو الدولة كلها على حماية أنفسهم من نظريات " أكثر حقيقية " وما دخل العلم هنا

العلوم الطبيعية : الخلق الهندسى للعالم

إن العلوم التى ولدت فى القرن الثالث عشر من الألعاب الذهنية فى الفرضيات (التى تعاملت مع العوالم الأخرى الممكنة) اكتسبت منهجا بفضل أعمال جاليليو وديكارت ونيوتن : تلك العلوم اكتشفت طرقا وأساليب لبناء الموضوعات المثالية وتعلمت العمل معها . الأمر الهام هو أنها قلبت العلاقة بين العالم وبين التصميمات أو النماذج المدركة . وبفضل ابتكار الهندسة والتجريب (هيوجنز وجاليليو) بدأت العلوم فى تحقيق موضوعاتها المثالية فى النظم التجريبية (فى البداية) ثم فى النظم التكنولوجية ـ الصناعية (فى الوقت الحاضر) .

والآن كان من المفروض أن تتطابق التصميمات أو النماذج اللامدركة مع العالم فى الوقت الذى بنى فيه هذا

العالم طبقا لها وكانت القوانين التى صاغها العلم صحيحة فعليا داخل النظم الصناعية التجريبية (الأدوات والمواد) فقط . ونظرا لأن النظم الصناعية التجريبية كلها أخذت تندمج أكثر فأكثر فى منظومة واحدة فتأكيد صحة القوانين بدأت تتزايد بشكل نموذجي جارف - تلك الصحة تأتى وبشكل حرفى من جميع الجهات . وهكذا تمت صياغة العالم العلمى التكنولوجى الذى يقف على أربعة محاور :

أولا : هى ذلك المخطط العالمى الموجود فى النواة (والذى يؤكد وجود الطبيعة الخاضعة لقوانين ثابتة) . هذا المخطط " مزود " تزويدا كاملا بمجموعة كاملة من التصورات المادية (الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية ... إلخ) وبمنظومات متقدمة للتحقيق قادرة فعليا على التعبير المادى عن أية لوحة للعالم .

ثانيا : هى تلك الأدوات أو المواد التى أنتجتها التكنولوجيا المعاصرة (الصناعية والزراعية والبيولوجية والتحويلية) - حيث تم ترسيخ قوانين عالم العلوم الطبيعية فيها وجعلها مادية (فى هذا الإطار توجد بعض الطروحات الفوضوية التى لا تأخذ فى اعتبارها هذا الموقف تحديدا : وضع العلم فى المجتمع " المتطور " المعاصر الذى يسانده ليس فقط مجموعة الخبراء وإنما مجمل عالم المواد والأدوات الواقعية التى تتحقق فيها القوانين العلمية) .

ثالثا : هى الهياكل القانونية والتشريعية لدعم عالم العلم : المواد الدراسية فى المدارس الجامعات بما فيها من طلاب وبرامج دراسية ومختبرات وأقسام ودوريات علمية وعلمية جماهيرية المنظومة التمويلية الحكومية والادخارية المدارس العلمية الصناعية الأجيال التى تنشأ وتسير على خطى التقاليد العلمية وتعد من أجلها أماكن تستوعبها كعلماء وخبراء متخصصين والقرارات العلمية السليمة والمبنية على أسس فى هياكل السلطة ... إلخ

رابعا : هى هياكل رد الفعل العكسى المباشر والتلقائى للعلم - الهوية العلمية : أى اليقين بأن العلم بسعيه إلى الحقيقة يدرك قوانين الطبيعة الواقعية . إن تلك الصيغة للهوية تجعل عالم العلم مغلقا ومكتفيا بذاته وليس فى حاجة إلى جرس إنذار أو جرس لرد الفعل العكسى وإذا تفلسف فهو يتفلسف على حساب نفسه . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهذا العالم يتسع بشكل لا نهائى : فكل ما لم يدرك لم يدرك إلى الآن فقط .

وفى المحصلة فالعلاقات الفكرية التقليدية لعلوم العصور القديمة والقرون الوسطى فى علاقتها بالواقع قد تم استبدالها فى الوقت الحاضر بالعلاقات التصميمية - الهندسية : بدأت إثباتات " صحتها " - صحة تلك العلاقات - تنتظم وتأخذ مكانها حيث الواقع يجب أن يتطابق مع القوانين وليس العكس . بيد أن كل ذلك يتم فهمه من خلال المقولات حول إدراك الكون وحول قوانين الطبيعة العامة والموضوعية (التى كانوا يقولون عنها فى البداية - القوانين الإلهية) .

فى النهاية نجد أننا نملك هيكلا أو مجموعة من النشاطات الفعالة جدا والعدوانية والمدمرة لكل شئ فى واقع الأمر وخاصة للأفكار المتعلقة بالمجالات الفكرية الأخرى . وإذا كان من البديهى أن العالم المركزى من وجهة النظر المنهجية - الثقافية يدرك نفسه (ذاته) عن طريق العالم العام والكلى والكونى (على اعتبار أن قوانين الطبيعة عامة !) بل وإذا اتفقنا حتى على أن هذا العالم الكونى محتمل أو (ممكن وجوده) وليس موجود أو نشط فالمزج أو الاقتران المضاعف للقوة الواقعية (المشروطة بالقدرة على تحقيق العالم المثالى) والنزعة الموضوعية نحو توسيع نطاق التأثير وعدم الفهم الطفولى الغريب لحقيقة الأفعال الذاتية يمثل خليطا " كوكتيل " فى غاية الخطورة والانفجار .

واقعية العوالم المتعددة

وهكذا فالإجابة على سؤال : هل هناك إمكانية لوجود نظرة أخرى إلى العالم والإدراك من الضرورى أن تكون

بالإيجاب والتأكيد . فالعلم على حد سواء مع الهندسة يعتبر نموذج قوى وواضح وموجود وظاهر لدى الجميع من أجل التعامل الواقعى مع عالم خاص (الأمر الهام هنا هو ألا تتقيد أثناء معالجته والبحث فيه والنظر إليه بتلك الأشكال والصيغ الخاصة بـ " رد الفعل الانعكاسى الداخلى " التى صنعها - أي العلم - بنفسه عن نفسه وذلك مثلما لا نتقيد بتلك الأشكال والصيغ أثناء تعاملنا مع الدين) . إضافة إلى ذلك فكثيرا ما تم تناول التصور حول تعدد العوالم من قبل فلاسفة كثيرين مثل أفلاطون وبرونو وليبنز بل وحتى ديكارت ذاته نسب موضوعاته الطبيعية الفلسفية إلى " عالم جديد " .

ولكن هل العلوم الطبيعية فقط هى التى تملك على أعتاب القرن الحادى والعشرين تلك الإمكانية الهندسية القوية على تنظيم وترتيب كل شئ بهذا الشكل الهندسى بالطبع لا . ففى الواقع يحاول أى مذهب أو مبدأ أن ينغلق فى عالمه الخاص - أى إنه يتعلم تحقيق تصوراته بمساعدة هذه التقنيات أو تلك التى تم تحقيقها (أى الموجودة) فى أدوات عالمه . وبعد ذلك وبمساعدة هذه الأدوات تحصل اللوحات الخاصة للواقع على مرتبة الحقيقة كرد فعل انعكاسى .

وهكذا فالنظرية حول أن المجتمع ينطوى على تركيب طبقى تم تحقيقها أثناء تنظيم الثورة الروسية والإيمان بأن المجتمع لا يجب أن ينطوى على تركيب طبقى وإنما يجب أن يكون ضمن دورة تكنولوجية للإنتاج الصناعى تم تحقيقها أثناء إقامة المجتمع الاستهلاكى . ولكن على أساس مبادئ الأنثروبولوجيا الفلسفية والأيديولوجيات الحكومية يتم بناء النظم التربوية التى تشكل الناس طبقا للتصورات حول الإنسان .

التأمين الهندسى لعملية التناسخ reincarnation

إن جميع الأديان تمتلك خبرة ضخمة فى تحقيق تصوراتها حول العالم والإله والإنسان . ففى استراحة دالاى - لاما (بمملكة نيبال) ينمو الآن الصبى لينج رينبوشا (البالغ من العمر ١١ عاما) المرشد الذى سيصبح خليفة للمرشد الحالى دالاى - لاما (البالغ من العمر ٧٠ عاما) . وهو يعتبر التجسيد القادم للمرشد الذى توفى منذ ١١ عاما . وقد قام الخدم والمقربون من المرشد بالبحث عنه طوال عامين وسط أولئك الأطفال الذين ولدوا بعد ذلك الموت مباشرة . وتم اختياره من بين العديد من المرشحين . وأخذوا الصبى من ملجأ الدير إلى الاستراحة وله فقط عامان ثم وضع فى نفس الوضع الذى كان فيه المرشد السابق . ويحيط به الآن خدم المرشد السابق . ويقوم بتربية لينج رينبوشا وتعليمه مساعد المرشد وصديقه العجوز ونديمه وموضع سره وثقته كن - لى . وعندما يموت دالاى - لاما الحالى سوف يتكرر الأمر بالضبط حيث ينبغي العثور علي ذلك الطفل الذى يتم تجسيده فيه ومن ثم يستطيع المرشد الكبير تربية دالاى - لا ما " الجديد " ... وهكذا

فى أساس كل تلك الحالة توجد لوحة تناسخية للعالم : روح الإنسان بعد الموت تحل فى جسد جديد . ولكن هل لهذا أى معنى أو أهمية وهل هذا التصور حقيقى إذ أنه بفضل جميع ترتيب الأحداث التى تم اتخاذها ومازال ففى الواقع سوف ينجحون فى صناعة مرشد جديد قادم من هذا الصبى : حيث يستطيع المربون تشكيل وصياغة شخصيته بإنماء الملامح والصفات " المتشابهة " وإخماد - تدريجيا - غير الضرورى فيها وسوف يتشكل لدى الصبى منظومة التبجيل والمسوغات.ووجهات النظر تلك المنظومة التى سوف يرسخها كذكرى عن الحياة السابقة : سوف يعرف (يتذكر) كيف تصرف فى الحياة السابقة مع هذه المواقف أو تلك ... إلخ إن التناسخ هنا قد حدث وتحقق بشكل هندسى بغض النظر عما هو عليه بالفعل . واللوحة المطابقة للعالم لا تشكل سوى إدراك هذه الحالة وتعطى أساسا

عمليا وأخلاقيا من أجل الفعل الهندسى .

مثل هذا الوضع بالضبط موجود فى مشكلة علاقة العلوم الطبيعية بـ " الحقيقة " : حيث يتم صناعة الحقيقة بشكل اصطناعى . تقنى داخل العالم (العوالم) الهندسى . ومن البديهى أن المعرفة العلمية ستكون فى هذه العوالم الهندسية صحيحة ومتطابقة مع مثل هذا الوضع . فى هذا الإطار يصبح السؤال فى صورته التقليدية حول الحقيقة أمر بلا معنى : فأى معنى لمناقشة صحة قانون القصور الذاتى عند جاليليو إذا كنا نمارس كل الجهود من أجل تحقيقه هو بالذات فى كل التصميمات الهندسية المختلفة (وعلى سبيل المثال استبعاد أو تقليل قوى الاحتكاك)

المدخل الهندسى لكل شئ وفى كل مكان

وهكذا إذا كانت العلوم الطبيعية قد تعلمت باستخدام المواد والموضوعات الطبيعية الجامدة جدا " وصعبة المراس " تشكيل العوالم الهندسية التى تعلن عن تلك التصورات المتعلقة بالاجتماعى وبالتراكيب الجماعية والاجتماعية وبالإنسان وحياته وموته . تلك العوالم تتشكل بشكل أسهل وأبسط بسبب تغير وعدم رسوخ المجتمع " المعاصر " والإنسان عموما . ومن أجل نموذج ذلك التشكيل أو الخلق الاصطناعى . " تحقيق البرنامج فى عالم خاص " . تم استخدام العلوم الطبيعية لأول مرة من أجل تأسيس وتطوير الهياكل أو الأشكال الهندسية المحققة .

إذا كان الكلام أعلاه صحيحا فسنكتشف أنه لم يتبق أى شئ إطلاقا من اللوحة التقليدية للعالم الواحد . وبالتالى يجب أن تظهر الآن المساحة الآهلة بالسكان على الكرة الأرضية فى شكل عوالم محلية . مركزية . متعددة يتم الالتزام فى كل منها على حدة بـ " نظام عالمى " خاص (يتعلق بذلك المخطط الموجود فى النواة) . تلك العوالم فى الإطار الاجتماعى تعيش أحيانا على نفس الموضوع أو المادة (الاجتماعية والإنسانية والحقوقية) وأحيانا تكون محلية أو مركزية من حيث الفضاء أو المساحة فقط . ولكنها تتناول وتتبادل موضوعات وأدوات ذات طبيعة مختلفة مستخدمة إياها من أجل رسم واستكمال مفاهيمها الوجودية وتتقبل من بعضها البعض وسائل تحقيق.رد الفعل الانعكاسى وصورته وتظهر وتتلاشى .

إن مثل تلك اللوحات أو المخططات تنقش بشكل مكثف فى موضوعات الوقع (جمع واقع) الافتراضية . إلا أن هذا المصطلح الآن فى حاجة إلى تدقيق . فكل واقع حقيقى مثل عالمه ونحن لا نستطيع أن نقول أى منها (فى حالة وجود أكثر من واقع افتراضى) يأتى فى المرتبة الأولى أو الثانية أو العاشرة . إن جميع الوقع افتراضية . والسؤال : إلى أى مدى تتوافق من حيث الإيقاع والتلاحق طرق تشكيل عوالم جديدة سريعة التطور . على سبيل المثال عندما يتفوق التحقق المادى فى النظم والعادات على التحقق الثقافى . الاجتماعى . النفسى

لعله قد أصبح من الواضح الآن لماذا صار من الممكن أن ندافع عن تلك النظرة غير التقليدية إطلاقا إلى العلم : إن الطرق المحققة (الرائجة) والتى تكاثرت وتطورت فى جميع المجالات عملت على إبراز وتوسيع جانب العلم الهندسى الذى يشكل العالم وعلى دفعه إلى المقدمة . قبل ذلك كان هذا الجانب غير ملحوظ أو مخفى . حيث أن الأنطولوجيا العلمية الطبيعية كانت تفسر كواقع وحيد . ولكن منافسة اللوحات (المخططات) العلمية للعالم والتى ظهرت بعد الثورة فى علم الفيزياء ومنافسة اللوحات البديلة الأخرى سمحت بانعكاس ما يفعله العلم ومقارنة تأثيره مع التراكيب الفكرية الأخرى التى تشكل العالم . وعليه فالعلم نشاط فعال ومهم لتشكيل العالم ولكنه أحد النشاطات الكثيرة وليس الوحيد .

لنناقش فى البداية هذه القضية من دون الإشارة إلى العلوم الطبيعية بوجه خاص . ماذا تعطينا وجهة النظر التى تفترض وحدة العالم ووحدة الحقيقة نرى أنها تعطينا الحرية والحماية : درجة أكبر من الحرية وتعزيز للحماية .

قضية الحرية تنطوى على تناقض ظاهرى هام : إن هذا العالم (الغربى) العلمى - الهندسى الذى نعيش فيه قد تأسس كعالم محرر . وسعت العلوم الجديدة إلى وضع القوى الخفية للطبيعة فى خدمة الإنسان كى تعزز قوته وسعت النزعات السياسية الجديدة إلى تجريره من سلطة الكنيسة ودرجات الترقى والطائفية .

ولكن بعد مرور ٣٠٠ سنة حدث وأن أصبحت حياة الإنسان تسير داخل العالم الذى تكون نتيجة لضم ثلاثة عوالم : العلمى - الهندسى (التكنولوجى) والمالى - التجارى والأيديولوجى - النفسى (وهو المسؤول عن مسار أو خط سير المادة البشرية فى هذا العالم) . فى هذا العالم أصبح الإنسان مرة أخرى هدفا (مادة) للتاريخ وليس فاعلا (ذاتا) له . وبالتالى فمن الجائز تماما أن ينتهى التاريخ كما يخطط السيد فوكوياما !!

إن أهداف (مواد) التاريخ اليوم هى المنظومات المؤسساتية والقانونية والمنظومات التى تشكل العالم : العلوم الطبيعية والتكنولوجيا البنية المالية التحتية وسائل الإعلام مجموعة العلوم الإنسانية (الهندسة الاجتماعية والهندسة النفسية) بالإضافة إلى وربما هذا هو الأمر الرئيسى عمل البنى التى تضع الأفعال الانعكاسية والتفسيرات : كل ذلك التصميم الاصطناعى الذى يتم التعامل معه كواقع وحيد وأصيل .

ووجهة النظر البديلة والمعللة هنا - تلك التى تنظر إلى المعمورة كمجموعة من العوالم المحلية " المركزية " التى بنيت ولا تزال تبنى اصطناعيا - تعطى أسسا فكرية من أجل تحقيق الحرية وتسمح بفهم إمكانية الحرية (مؤكدة بعدم حتمية الواقع) وتلمح إلى طريقة تحقيقها (تشكيل عالم محلى "مركزى" بطرق هندسية - اجتماعية متنوعة) كما تسمح على نحو واع بتطوير هذه الطرق وإعادة تفسير نظم المعرفة الإنسانية حول ما هو موجود موضوعيا وتتعامل معها كمشروعات وحدود ومبادئ موجودة فى عملية تشكيل العوالم وتعطى إمكانية للعمل مع الوضع المعاصر (الآنى) إضافة إلى أنها تسمح بالخروج بنتائج متفائلة حول احتمال تشكيل إنسان بديل عن الإنسان الحالى (إنسان وسائل الإعلام الغربية) إنسان بديل فى حاجة إلى هذه الحرية بخلاف الإنسان الحالى .

تحت مفهوم تعزيز الحماية تندرج عملية حماية نظم التفكير التى تمارسها الشخصيات الفردية والمجموعات الاجتماعية والدوائر التخصصية ... إلخ وإذا اعتبرنا العالم واحد ويمتلك واقعا أصيلا محددا فلابد أن تواجهنا مشكلة التوفيق بين منظومات التفكير هذه . وسوف يكون ذلك فى شكل : إما ابتلاع منظومة لأخرى (كما حدث على سبيل المثال أثناء صراع النيوتونيين مع الكارتيزيين) أو بناء نظم جديدة كبيرة الحجم (وأفضل الأشكال التى يمكن تحقيقها لا تحدث إلا عندما نتمكن من تحديد وبشكل واضح الحدود المنهجية العلمية والمعرفية " ابستمولوجية " لكل من النظم الأولية) أو بناء " فلسفة عميقة " من نوع " وأنت أيضا يا أختى على حق ! " ومع ذلك ففى كل تلك الأشكال لا توجد ضمانة بالحفاظ (فى حالة صدام عالم " الثقافات والجماعات " الأولى المعذب مع عالم " الثقافات والجماعات " المحدد والمنشود) على منظومة المفاهيم - الأنطولوجيا .

إن وجهة نظر تعددية العالم تربط لوحة الواقع والتكوين " البناء " بالمنظومات القانونية والمؤسساتية والحقوقية لذلك العالم . فى هذه الحالة نجد أن مشكلة التوفيق هنا غير موجودة إطلاقا أو فى أسوأ الأحوال أصبحت ضعيفة جدا . وسوف يصبح لكل عالم نظامه العالمى . وليس من المجدى أن يملى عالم ما أفكاره ومفاهيمه على عالم آخر . وهذا يعنى تلك الحماية الضخمة للعالم والتى يشير إليها قبل كل شئ الهدوء الداخلى لهذا العالم أمام الضوابط

الأخرى للمعمورة كلها .

ضرورة الوقوف ضد المذهبية العلمية antiscientism

نعود مرة أخرى إلى العلوم الطبيعية . وأعتقد أن عقيدة تعدد العوالم لن تحصل على أى انتشار واسع أو اعتراف إذا لم يتيسر مبدئيا هز النظرة التقليدية إلى العلوم الطبيعية . ونحن نستطيع أن نناقش كما يحلو لنا من حيث الوقت والجهد عملية بناء الوقع الرمزية فى سياقات ثقافية مختلفة وعوالم الأسرار الخفية البديلة والطابع التكوينى على نحو هندسى للمعارف الإنسانية . ولكن إذا لم تجرد العلوم الطبيعية من سلطة القضاء الأعلى الذى يملك وحدة السيطرة الكاملة على الحقيقة فسوف تظل كل تلك الإشارات والمفاهيم الأحادية إلى تعدد الوقع مجرد تلاعبات واحتيالات تفسيرية لباحثى العلوم الإنسانية .

وبالتالى فمن الضرورى تنشيط عملية النقد الواسع والتفصيلى للعلم وعلى نحو مشابه للعملية النقدية التى جرت طوال القرنين الثامن والتاسع عشر مع الديانة المسيحية . وإلى جوار تطوير الإلحاد العلمى ينبغى تطوير اللامذهبية العلمية على نحو ثقافى منهجى بحثى . والمهمة الرئيسية لهذا العمل يجب أن تكون عدم أسطرة demy-thologize العلوم الطبيعية .

العلم - ظاهرة فريدة من حيث مستوى توافق أو تناسق تأثيراته وهويته (وعيه بذاته) . وهذا ما كانت عليه المسيحية قبل أن تتحقق عملية النقد التاريخية .

لقد تحدثنا أعلاه عن الـ " كوكتيل " أو الخليط الإدراكى المفاهيمى الخطير - وهكذا فعملية عدم الأسطرة يجب أن تتم بمطابقة تفسيرات العلم وواقعية تأثيراته . إن العالم الهندسى للعلوم الطبيعية يجب أن يدرك كعالم اصطناعى ومحلى " مركزى " وكعالم موجود على حد سواء مع عوالم أخرى . إننى هنا لا أقف ضد العلم ولا أسعى إلى صنع تقاطع للعلم مع " الطاوية Taoism فابتكارات العلوم الطبيعية وإنجازاتها - المكونة للنشاطات والأفكار والقادرة على خلق العوالم - هى ابتكارات وإنجازات عظيمة . ولكن " الكوكتيل الشيطانى " من وجهة نظرى ينشأ فقط فى ظروف الهوية (إدراك الذات) غير الملائمة لهذا العالم وفى ظروف عولمته وقبل كل شئ عولمته الفكرية - الإدراكية . ومن أجل تفادى الضرر من الضرورى وجود النقد الواسع والتفصيلى للعلم مع التقييد الذاتى . وأنا لا أقصد هنا عملية رقابة المجتمع على التجارب العلمية أو التقويمات القاسية لنتائجها ولا فرض القيود على موضوعات الأبحاث العلمية (على سبيل المثال فى ميدان الهندسة الوراثية) ولا المطالبة بمساواة جميع التقاليد فى جميع الهياكل التعلمية ومواقع اتخاذ القرارات . إن رقابة المجتمع والتقويمات القاسية وتقييد موضوعات الأبحاث لا تشكل قيودا على العلم وإنما تعرضه للهلاك التام والنهائى (نظرا لأن العلوم لا تنفصل عن منظومات تحقيقها) .

ولكن الأهم من وجهة نظرى هو الانعكاس الدقيق والأصيل تاريخيا ومنهجيا وثقافيا لطريقة بناء علاقة العلم والتقنيات بالواقع القاسى والمتوحش والفهم الملائم لمكانة العلم كنشاط تشكيلى للعالم فى إطار مجموعة التكوينات المؤسساتية والقانونية . من هنا تحديدا ينبغى تجريد العلم من كونه سلطة " بديهية طبيعية موضوعية " تاركين له وضع البديهية الموضوعية التاريخية المحلية .

حول مكانة العلم

إذا كانت العلوم الطبيعية تخبرنا عن حقيقة الطبيعة تلك الحقيقة الموجودة بذاتها وإذا كانت العلوم هى فقط

وسيلة لتفسير الطبيعة بدون تشويهها وتحريفاتها ففى الواقع لا يهم فعلا إذا كانت العلوم حية أم ميتة موجودة.أم غير موجودة أو حتى توجد هذه المدرسة العلمية بالذات أو غيرها . فمن وجهة نظر الحقيقة الأمر سيان . ولكنه سيختلف تماما إذا اعتبرنا العلم إبداعا بشريا أصيلا يعيد بناء العالم الذى نعيش فيه عن طريق أعمال ونشاطات وأفكار الناس . فى هذه الحالة يجب أن يتم النظر إلى هذا العالم وإلى ما هو موجود فى نواته (أى إلى العلم) كأشياء ضعيفة فى حاجة إلى العون والإصلاح والرعاية . العلم مثل الحب والثقافة والحق واللغة لا يمكنه أن يحيا بدون فرسانه الذين يعملون من أجله . وبكلمة أقل مجازية فالعالم لا يمكنه أن يعيش بدون تجديد وإنعاش - وفى كل مرة عن طريق النشاط البشرى الحى - معايير العمل والتفكير الموجودة فيه وفى طرق وأساليب " إدراك الحقيقة " . وفى حالة إذا لم يتم هذا التجديد والإنعاش فسوف ينهار العلم ومعه كل ما تم بناؤه خلال الثلاثمائة سنة الماضية . ولن توجد أية حقيقة خارج إطار البشر يمكنها أن تقف وراء العلم .

تلك النظرة تتطلب احتراما شديدا إلى إنجازات العلم وكيف قام بها وتتطلب قلقا شديدا على الشكل المحدد الذى وصل إليه العلم فى الوقت الحاضر إنها تتطلب كل ذلك أكثر مما تتطلب الأفكار المتهورة التى ليس لها أى أساس من الصحة عن العلم - العلم مرآة الطبيعة التى توجد مادام هناك وجود للطبيعة ذاتها .

حول استراتيجيات المركزة

من الصعب الحديث حول الأشكال التى يمكن أن تتم منها أو بها عملية عدم أسطرة العلوم الطبيعية وجعلها محلية . إضافة إلى أنه من غير المعروف كيف ستتغير أثناء ذلك المؤسسات الاجتماعية المرتبطة بالعلم - وهذا موضوع قائم بذاته .

مع الأسف الشديد فهذا السيناريو بالذات : سيناريو حركة الأفكار فى هذا الموضوع يتكرر من قرن إلى آخر وهو كالآتى : هناك دائما ذلك الميدان الخاص بالأفكار والخبرات والتجارب العملية المسؤول عن تشكيل العقيدة (المفاهيم) الأساسية (ميدان العلم فى الوقت الحاضر وفى السابق كان علم اللاهوت والفلسفة) . ومرة وراء أخرى كان هناك من يأخذ على عاتقه إنجاز الاكتشافات والابتكارات الجديدة والسعى إلى وضع تفسيرات ومفاهيم أكثر اتساعا ونشرها أو تطبيقها على جميع الخبرات الأخرى . ودائما كان هناك من يرفض ويقف ضد ذلك مدافعا عن استقلالية الميادين والمجالات المعرضة للاقتحام من قبل الأفكار والاكتشافات الجديدة .

لقد نادى جوردون برونو متفقا مع كوبرنيكس ومرتكزا إلى أفكاره الشخصية حول تعدد العوالم بأن تمتلك الخارطة السياسية الأوروبية عدة مراكز متساوية . ولكن هذه الفكرة كان بإمكانها أن تهدد التوازن السياسى - الدينى المؤقت والهش آنذاك والذى تم التوصل إليه عبر العديد من الكوارث . وبالتالى كان من الطبيعى أن يتم إعدام صاحب الفكرة .

قام بويل بتطوير برنامج إعادة بناء علم الكيمياء الذى تأسس على اكتشافات نيوتن فى مجال الميكانيكا الفلكية ولكنه صار مسخرة لزملائه من العلماء " الجادين ! "

والنظرية النسبية لأينشتاين التى تم استخدامها بشكل واسع من أجل مذهب نسبى أخلاقى ولكن ذلك فى وقتنا الحاضر يتم التعامل معه كنكتة .

تلك الحالات والمواقف تتكرر وستظل تتكرر على الدوام وفى أساسها توجد قناعة بأنه من الممكن تصديق أحد مجالات المعرفة عن طريق نتائج أو مداخل من المجالات الأخرى . ولا مفر من اتساع وإطلاق الأفكار ولا مفر من الاتهامات بإساءة الاستخدام أو الجهل طالما سنظل نرى أن أحد مجالات الخبرة الإنسانية يمكنه أن ينفى أو يؤكد أحد

المجالات الأخرى . ولكن هذه الفكرة تبرز مباشرة من التصور حول وحدة العالم وهو تصور فى غاية العدائية والضرر .

وإذا كنا سنتمسك بوجهة نظر العالم المتعدد أو بالأحرى " تعدد العوالم " فسوف يهدأ كل هذا الهراء الدائر حاليا من تلقاء نفسه . وإذا تم الاعتراف بفكرة التطبيق المحلى المقيد للمفاهيم فسوف تهدأ جميع المناقشات الخاصة بنقل وتطبيق الأفكار والطرق من مجال إلى مجال آخر . وبدلا من كل ذلك سوف نناقش الإشكاليات الحقيقية الخاصة بالتطبيقات المنطقية والمنهجية والبحثية للأفكار والوسائل وإشكاليات العلاقة بينها جميعا فى منظومة متعددة .

القضية ليست التقليل من شأن العلم بشكل عام والعلوم الطبيعية وإنجازاتها على وجه الخصوص . ولكنها فى كيفية التوصل إلى إدراك أن استخدام نوع محدد من العلم واستخدام مخطط أساسى محدد يجر وراءه بناء محددا ومحدودا للعالم - بما فى ذلك طبعا البناءات الأخرى اجتماعية كانت أو ثقافية ... إلخ

بدلا من الخاتمة

(١)وسائل الإعلام الحديثة : صناعة الأنماط والنماذج وتصديرها

لعل أخطر ما استفاد منه النظام الدولى الجديد هو عملية التدفق الإعلامى التى بدأت منذ الستينات وأخذت اتجاها كميا ونوعيا على نحو أقوى وأشد منذ منتصف الثمانينات الأمر الذى أدى فى السنوات الأخيرة إلى إنتاج شكل آخر من أشكال التدفق الإعلامى المبرمج الذى يعنى قبل كل شئ بتنميط الأفراد والمجتمعات . هذا التدفق يزداد حدة وخطورة يوما بعد يوم خاصة مع التطور التكنولوجى السريع فى مجالات الاتصالات الأمر الذى منح الدول الأقوى والأكثر تقدما مميزات عديدة أهمها وأخطرها القدرة على السيطرة وتوجيه وإدارة ذلك النظام الجديد لصالحها ومن أجل مصالحها وفى ذات الوقت عمل على عرقلة الكثير من الأطراف الأخرى فى سعيها نحو الاستقرار والتنمية الوطنية وبالتالى حرمها من إثبات وجودها ككيانات مستقلة . ومن الواضح أن هذا التدفق يتميز باختلال شديد على مستوى الكم والكيف فى حين أنه يتجه فى نفس الوقت بشكل رأسى من الشمال إلى الجنوب أى من الدول المتقدمة صناعيا إلى الدول النامية والمتخلفة . وإذا كان النظام الدولى الجديد قد أفصح عن منظومتين من الدول : مراكز وأطراف (الأولى دول متقدمة والثانية دول نامية و متخلفة) فقد برزت أيضا ضمن هاتين المنظومتين مراكز وأطراف . بمعنى أن الدولة المركز تتكون أيضا من مركز يمثل الصفوة الأكثر تعليما وثقافة وتأثيرا وسيطرة وأطراف تمثل القطاعات الأقل نموا وتطورا . وكذلك الحال بالنسبة للدول الأطراف حيث تتكون هى الأخرى من مراكز تمثل الصفوة الحاكمة أو المهيمنة وأطراف تمثل القطاعات الأقل نموا وتعليما وتأثيرا . وبالتالى نشأت بين تلك المراكز والأطراف مجموعة من العلاقات المعقدة رغم منطقيتها مثل تلاقى مصالح واهتمامات كل من مراكز الدول المركز والدول الأطراف وتنافر مصالح واهتمامات كل من مركز وأطراف الدول الطرف بشكل أكثر مما هو عليه فى الدول المركز وتنافر مصالح واهتمامات كل من أطراف الدول المركز وأطراف الدول الطرف .

النمط الوارد والعجز

ربما يكون تصدير النمط هو أحد أخطر النتائج التى أفرزها التدفق الإعلامى فى ظل المنظومة العالمية الجديدة . والنمط هنا يعنى مجمل إن لم يكن كل السلوكيات التى تندرج تحت طريقة تفكير محددة يمكن أن نطلق عليها هى الأخرى نمط يصنع بدوره طريقة تفكير مشابهة لدى المتلقى أو يقوم بنمذجته وتنميطه على نحو مشابه للنمط الوارد . وإذا كان الإعلام الحديث قد ارتبط بالدرجة الأولى بثورة تقنية علمية هائلة فى تصنيع الآلات والأدوات والوسائط التى اختزلت المسافة والزمن حتى على مستوى مفهومهما الفيزيائى فإننا نجد انفسنا أمام معضلة شديدة التعقيد لعدة أسباب أهمها : أن الغرب بشكل عام هو الذى لعب الدور الأكبر فى هذا المجال . وأن الدول الكبرى هى التى ساهمت بالنصيب الأوفر فى عملية التحديث ومن ثم فهى المستفيد الوحيد من عملية تصدير الأنماط (البشرية والسلعية والفكرية الخ) الأمر الذى يدفعها يوميا إلى اختراع عشرات المصطلحات والوسائل والأدوات الجديدة المرتبطة بنمط حياتها ومستوى معيشتها . ومما لا شك فيه أن معظم الأنماط التى تصدرها المجتمعات الغربية المتطورة مرتبطة بدرجة كبيرة بتراثها الذى تبلور خلال عشرات ومئات السنين إضافة لى أن المضامين التى تصدرها الدول الغربية (والتى تعمل بعد ذلك على صياغة الأنماط والنماذج فى الدول النامية والمتخلفة أو دول الجنوب) تنتج فى الأساس لأسواقها المحلية وتمثل التقاليد والأنماط والقيم الاجتماعية والروحية والثقافية والفكرية والأخلاقية لتلك المجتمعات وتعكسها أيضا الأمر الذى يجعل الطرف الآخر - المستورد - يقع فى ارتباك شديد : لأن الأنماط كلها ليست سيئة ولأن بعضها أو الكثير منها يمكن الاستفادة منه بشكل أو بآخر . بمعنى أنه صالح للتطبيق مع إجراء بعض الإزاحات النوعية فى

المجتمعات والدول المستوردة . هنا نجد أنفسنا فى حالة عجز أمام سيطرة النمط الآخر الذى لا يعطى أية مساحة ولو ضئيلة لوجود نمط خاص بنا إلى جواره . وفى نهاية الأمر ونتيجة لحالات الخلل المتعددة فى الدولة والمجتمع والأفراد على حد سواء يحدث ما نخشاه جميعا ألا وهو الانكفاء على الذات والهروب إلى الوراء واللجوء إلى كل الجيوب المظلمة فى التاريخ والتراث والإحساس بالدونية الذى يؤدى فى نهاية الأمر إلى نوع من أنواع المواجهة العدائية بيننا وبين الآخر .

وإذا كانت وسائل الإعلام الحديثة على مستوى الآلة قد جاءت إلينا حاملة لمنظومة قيمها الخاصة المرتبطة تماما بالمجتمعات التى صنعتها فإنها فى ذات الوقت تمكنت بأشكال متعددة من نقل منظومة كاملة من النماذج والأنماط التى تغلغلت فى مجتمعاتنا : نمط السلوك نمط طريقة المعيشة ونمط التفكير الذى يظل سباب عديدة متوقفا عند المفاهيم والأشكال النظرية التى لا يمكن الاستفادة منها . وربما يكون النمط الأخير هو أحد أهم " البضائع " التى يمكن التعامل معها والاستفادة منها ومع ذلك يظل هذا الحلم بعيد المنال لأسباب خاصة بنظام الدولة وتركيبة السلطة فى العالم الثالث إضافة إلى غياب العقل أو تغييبه ومحاكمته فى أحيان عديدة واعتماد الغيب مرجعية أساسية للحكم.

آلية تصدير الأنماط

الخطير فى الأمر أن الصفوة فى الدول الطرف تعمل بأشكال مختلفة ومتنوعة على إيجاد السبل التى تمكن الصفوة فى الدول المركز من إبقاء سيطرتها السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية على الدول الطرف . وبالتالى يحدث ذلك التشابه المرعب بين مراكز الدول الأطراف فى قيمها واتجاهاتها مع مراكز الدول المركز والذى يكون أشد وأقوى من تشابه قيمها واتجاهاتها مع الأطراف فى مجتمعها المحلى . فمراكز الدول الأطراف هى التى تقوم باستيراد المنظومة القيمية العامة من مراكز الدول المركز أو تعمل على إعادة إنتاجها محليا أو تقوم بتقليدها ومحاكاتها فى المضامين تحت دعاوى التمدين والتطور والحضارة ويكون كل ذلك مصحوبا بتبنى مراكز الدول الطرف للأدوار التى تلعبها مراكز الدول المركز فى مجتمعها المحلى عندئذ تنتج تلك الروابط التى توظف لخدمة مصالح واهتمامات جماعات محددة فى كل من الدول المركز والدول الأطراف ومن ثم تنمو وتتطور القيم المرتبطة والمتوافقة مع قيم الدول المركز . ولعل أخطر الروابط هنا هى تلك العلاقة بين عملية الهيمنة الاتصالية والهيمنة الثقافية . فلكى تحكم دول المركز سيطرتها على الأطراف فإنها تجعل من نفسها النافذة التى تطل منها الدول الأطراف على العالم حيث تقوم بصياغة ونقل صور العالم وأحداثه وتطوراته وتعمل على تفسيرها بما يتوافق مع تصوراتها ومصالحها من أجل بناء العالم الإدراكى للصفوة ومتخذى القرار فى الدول الطرف . ويتم ذلك بطرق عديدة ومختلفة منها تدريب الكوادر فى الدول الطرف على رؤية العالم من خلال عيون الصفوة فى الدول المركز ومن خلال بناء سلسلة عمليات معقدة تصور العالم على النحو الذى يتوافق مع النموذج العام الشائع فى الدول المركز . وهكذا تتشابه قيم وثقافات واهتمامات ورؤى العالم لدى كل من النخبتين فى الدول المركز والدول الطرف وهى نفسها العملية التى تقود إلى تعميم هذه الرؤى والتصورات كنماذج وأنماط متطورة وحضارية . من هنا تحديدا تنشأ عملية التمذجة والتنميط التى تبدأ فى المركز ثم يجرى تصديرها إلى مركز الطرف الذى يعمل بدوره على تسويقها محليا من أجل صناعة نماذج وأنماط بشرية تتوافق مع النموذج او النمط العام والشائع فى دول المركز .

تورط الصفوة الثقافية

على المستوى المحلي نجد أن هناك ملامح متشابهة لبعض الفئات المختلفة في المشارب والاتجاهات والمصالح . فعلى سبيل المثال نجد أن الصفوة المثقفة تلعب دورا معقدا في عملية التنميط : نتيجة لارتباط الصفوة المحلية المثقفة في دول الأطراف بمثيلتها في دول المركز أو بالأحرى بالأنماط التي تصنعها الأخيرة تقوم صفوة الأطراف بنقل هذه الأنماط أو إعادة إنتاجها كما ذكرنا سابقا في الوقت الذي ترفع فيه تلك الصفوة شعارات مثل الاستقلال والمحلية والشعبية والخصوصية . أي أن هناك تناقضا صارخا بين سلوكها والشعارات التي ترفعها . أما الصفوة الحاكمة التي تقوم على اتخاذ القرار في دول الأطراف فموقفها غاية في الحساسية والخطورة لأنها لا تستطيع إيقاف عجلة التطور أو إغلاق الأبواب ضد الوافد وفي نفس الوقت لا يمكنها فتح الأبواب على مصراعيها لكل ما ينتجه الغرب وخاصة الأفكار والأنماط المتعلقة بالحرية والديمقراطية وتبادل السلطة . وبالتالي فهي تعلن عن ترحيبها بالجديد من ناحية تماشيا مع شعارات التطور والتقدم والحضارة والظهور بمظهر السلطة الوطنية الديمقراطية وتضع القيود والعراقيل من ناحية أخرى أمامه لتحكم قبضتها على السلطة متعللة بالعادات والتقاليد ومتخذة أيضا مظهر السلطة الوطنية الديمقراطية . وهنا لا بد من التعرض لوضع المواطن العادي (العامة) الذي لا يجد أية غضاضة في التعامل والتفاعل مع النماذج والأنماط الواردة (وهو هنا لا يشبه الصفوة المثقفة في تناقضاتها حتى وإن حدث ورفض أو قبل بعض النماذج والأنماط الواردة) لأنها جيدة الصناعة ورخيصة الثمن من جهة ولغياب النموذج المحلي الملائم من جهة أخرى . إن المواطن العادي يتصرف باتساق شديد مع نفسه دون الالتفات إلى صراخ المثقفين أو النصائح العقيمة التي تقدمها له السلطة السياسية عبر وسائل إعلامها الرسمية التي تدفعه بشتى السبل والوسائل لتبني النمط الوارد بل وتعمل بتواصل ودأب على تنميطه هو نفسه . وحتى لا نخدع أنفسنا ونتوهم أن الغرب أو الشمال يصنع لنا أنماطا خاصة وبرامجا محددة وموجهة خصيصا إلينا من أجل ما يسمى بالغزو الثقافي أو الاستيلاء على ثرواتنا يجب أن ننظر إلى حقيقة هامة وهي أن الغرب ينتج مضامينه وأنماطه في الأساس من أجل أسواقه المحلية في الدول الغربية ومن ثم فهي تعود بتكاليف إنتاجها وأرباحها الأساسية من أسواقها وعلى أرباح إضافية من تصديرها إلى أسواق الدول الغربية الأخرى في الوقت الذي لا تجلب فيه الدول النامية والمتخلفة في مجموعها سوى أرباحا هامشية : وبالتالي فهي ليست مستهدفة أصلا بهذا الإنتاج ولا تؤخذ في الحسبان عند تخطيطه وإنتاجه وتسويقه . والواقع أن الدول النامية والمتخلفة هي التي تلهث وراء هذا الإنتاج لأسباب عديدة تلعب فيها الصفوتين : المثقفة والحاكمة دورا غاية في الأهمية والخطورة وإن اختلفت أسباب وشروط وتوجهات تلك الأدوار .

من تنميط الأفراد إلى تنميط المجتمعات

أما الأمر الأخطر فهو النتيجة النهائية أو المحصلة الإجمالية التي تتلخص في ما يسمى بـ " تنميط المجتمعات". فبعد تنميط الأفراد تكون الخطوة التالية هي تنميط المجتمع وهو أحد الأوجه الخطيرة في ما يسمى بالعولمة والتي يلعب فيها الإعلام الحديث الدور الأكبر والأضخم . ناهيك عن أن وسائل الإعلام الحديثة هي عبارة عن مؤسسات ضخمة تعادل في حجمها دول ضخمة إن لم تكن تفوقها من حيث الوسائل والإمكانيات المادية والتقنية . وهذا الأمر يجعلنا ننظر بعين الشك إلى بعض الاراء التي تؤكد على انتهاء دور الدولة وهيمنة رؤوس الأموال والمؤسسات والشركات العابرة للقارات وذلك ببساطة لأن هذه المؤسسات والشركات لا يمكنها أن تعمل بدون دولة بالمعنى الكلاسيكي ولكن يجب أن تكون هذه الدولة قوية وغنية والأمثلة متعددة : جورج سوروس وبيل جيتس والمحطات

الإعلامية الضخمة مثل CNN ولا يجب أن نخدع أنفسنا وندعى أن المحطات الإعلامية العربية موجودة ويمكنها أن تنافس . والسبب ببساطة هو أن ما يذاع فى محطاتنا الإعلامية مجرد قص ولصق مما يذاع فى الداخل . بل على الأرجح قد تم إنشاء مثل تلك المحطات كرد فعل فقط على الثورة الإعلامية الحديثة بصرف النظر عن امتلاك الأشخاص أو الدول للقنوات والمحطات الفضائية العربية . ونحن هنا لا نقف موقف المقارنة أو المفاضلة الناشئتين عن رد الفعل الذى يدفعنا إليه وضعنا الحالى ـ السئ جدا . ولكن القضية ببساطة هو أن وسائل الإعلام الحديثة وخاصة التى تعنى بتنميط المجتمعات لديها ما تقوله وما تفعله ولديها قبل كل شئ الأنماط والمنظومات القابلة للتصدير أى تلك التى تم تصنيعها واختبارها على مدى سنوات طويلة والمبنية أساسا على أرضية اجتماعية تراثية خاصة بها . فماذا لدينا نحن قوله أو فعله ! وما هى الأنماط التى تم تصنيعها واختبارها والقابلة للتصدير !

(٢) من نهاية التاريخ إلى هندسة العلوم الطبيعية !

يعود فرانسيس فوكوياما من جديد إلى طروحاته المثيرة للفضول أكثر منها إلى النقاش . ففى عام ١٩٨٩م نشر مقاله الشهير (" هل هى نهاية التاريخ " فى جريدة (The National Interest الذى أثار ضجة شديدة فى الكثير من الأوساط السياسية والفكرية . ولكنه عاد مؤخرا ليناقش بعض النقاط فى رأيه بهذا المقال . وبالطبع فالرجل باحث يهتم بالتقليب فى آرائه بين الحين والآخر بعكس العديد ممن يدعون فى الفترة الأخيرة بأنهم قد أصبحوا مفكرين لمجرد أنهم ناقشوا فكرة أو أصدروا كتابا أو حصلوا على درجة ما علمية . ومع اختلافنا " الجذرى " مع ما طرحه فوكوياما منذ عشر سنوات ومع ما يطرحه أيضا عام ١٩٩٩م فى مقاله بعنوان " عشر سنوات على نهاية التاريخ " نجد أن رأيه الأخير أكثر إثارة للفضول لأنه لجأ أخيرا إلى العلوم الطبيعية . ومن الطريف هنا أن نسوق بعض العبارات التى وردت فى مقاله حتى يمكننا أن نتوقف عندها بهدوء وروية .

يقول فوكوياما : " ... إن الحجة التى عمدت إليها لكى أبين أن التاريخ موجه ومتدرج ويجد منتهاه وتتويجه فى الدولة الليبرالية الحديثة هذه الحجة كانت مغلوطة وهناك ناقد واحد من بين مئات المفسرين المحللين " لنهاية التاريخ " قد تفطن إلى نقاط الضعف فى هذه الحجة : إن التاريخ لا يمكن أن ينتهى طالما لم تصل علوم الطبيعة المعاصرة إلى منتهاها ونحن على أبواب اكتشافات علمية جديدة من شأنها ـ بحكم ذاتها أصلا ـ أن تمحو البشرية باعتبارها بشرية " .

" ... جزء كبير من النقاش حول نهاية التاريخ كان مرده إلى قضية حمقاء متعلقة بسوء الفهم لم يفهم جانب كبير من القراء أنى أستعمل مفردة تاريخ فى دلالتها الهيجلية ـ الماركسية أى التطور التدريجى للمؤسسات البشرية والسياسية والاقتصادية . وحسب هذا المفهوم يكون التاريخ ـ حسب تحليلى ـ تقوده قوتان جوهريتان : انتشار علوم الطبيعة والتكنولوجيات المعاصرة ... " .

" ... إن الذين حاولوا أن يروا فى الأحداث السياسية والاقتصادية للتسعينات العيب الجوهرى لنهاية التاريخ قد ضلوا الطريق . إن العيب الأصلى لأطروحتى يكمن فى أنه لا يمكن بحال من الأحوال وضع حد للعلم ذلك أن العلم هو الذى يقود المسيرة التاريخية . ونحن لسنا إلا فى بداية الدرب لانفجار جديد للاكتشاف التكنولوجى فى مجال علوم الحياة والتكنولوجيا الحيوية " .

" إن الفترة التى فتحتها الثورة الفرنسية عاشت ازدهار مختلف النظريات التى كانت تطمح إلى الانتصار على حدود الطبيعة البشرية وذلك بخلق نموذج جديد للكائن (البشرى) غير خاضع للأفكار المسبقة وإلى حدود البنائية

الاجتماعية (أى الهندسة الاجتماعية - أ.ص.) مع التأكيد - على العكس - على نظام ليبرالى مرتكز على السوق وعلى حقائق لا غبار عليها تنتمى إلى الطبيعة وإله الطبيعة . ومن الممكن جدا أن أدوات " البنائين " الاجتماعيين فى هذا القرن المنتهى منذ انتشار الاشتراكية فى العمر المبكر إلى التشويش والدعاية وحقول العمل مرورا بالمعالجة الطبية بالتحليل النفسى كانت أدوات فظة لم تفلح فى تغيير عميق للجوهر الطبيعى للسلوك البشرى " .

ويختتم فوكوياما مقاله الصغير بـ : " إن الطابع المفتوح لعلوم الطبيعة المعاصرة يسمح لنا أن نتوقع من هنا فصاعدا وإلى جيلين مقبلين بأن تمنحنا التكنولوجيا الحيوية الأدوات التى ستنجز ما عجز عنه اختصاصيو الهندسة الاجتماعية . فى هذه المرحلة نكون قد قضينا على الكيانات البشرية ككيانات وعندئذ يبدأ تاريخ جديد ما بعد البشرى " .

أما بخصوص ما ذهب إليه فوكوياما (وهو على عكس ما ذهب إليه الماركسيون على حد قوله) من أن عملية التطور التاريخى تجد منتهاها فى الديمقراطية واقتصاد السوق وليس فى الاشتراكية فالأمر واضح تماما منذ نشر مقاله الأول لأن خطاب فوكوياما الأيديولوجى ينطلق من أرضية مغايرة تماما لخطاب الماركسيين بهذا الصدد . أما المغالطة الأخرى التى يقع فيها فوكوياما (ومع ذلك يصر - على حد قوله - على وجهة نظره بخصوصها) هو أنه ينسب مقولات كل الماركسيين إلى التجربة السوفيتية والعكس . وهو كباحث - ذكى طبعا - ينطلق أساسا من انهيار التجربة السوفيتية كمعيار لأية تجربة أخرى يمكن أن يطرحها البشر لتحسين ظروف حياتهم بخلاف ما يطرحه هو كمنظر لأيديولوجية مخالفة .

إذا كان مقال فوكوياما الأول قد انطوى على العديد من النقاط غير الواضحة والتى بدأ فوكوياما نفسه يفيق إليها بعد عشر سنوات آخذا فى اعتباره مجمل التطورات التى حدثت ومازالت تحدث فالمقال الثانى أكثر غموضا وتضمنا للعديد من النقاط التى تحتمل أكثر من تفسير وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية وجعلها الحكم الواحد والأوحد والفاصل فى مجمل السلوك والتصرفات البشرية . وعموما فلقد ظل نيتشه حتى آخر الفترات اليقظة فى حياته يتعذب من فكرة أنه مجرد كاتب بائس وكان قد أدرك آنذاك أنه لا بد أن يكون عالم أحياء ما بعد (أو ما فوق) داروينى من أجل صناعة قومية من " السادة " وصناعة كائن حى ما بعد (أو ما فوق) بشرى . ولكن فكرة ما بعد أو ما فوق علم الأحياء هذه ظلت مجرد حلم أدبى (على الأقل ولحسن الحظ طبعا فى فترة حياة نيتشه) . والآن يعود بنا فوكوياما إلى الوراء بما يزيد عن قرن كامل . ومن سوء الحظ أن هناك مؤشرات خطيرة يمكنها أن تجعل من تنظيرات فوكوياما قابلة للتحقق ولو حتى على المستوى النظرى لأن هناك يد واحدة فقط فى هذا العالم تحاول قدر الإمكان امتلاكه وعصره بحجة السلام والتقدم والعولمة والتطور .

إن الآلة العسكرية - الاقتصادية - الإعلامية التى تستند إليها طروحات فوكوياما تتوجه إلى العالم بأيديولوجية فى غاية الخطورة مع الادعاء فى ذات الوقت بأن عصر الأيديولوجيات قد انتهى . أى ببساطة ليس هناك سوى نموذج واحد يجب تطبيقه (سوف نتحدث لاحقا بلغة العلوم الطبيعية كما يحلو لفوكوياما أن يتحدث فى الفترة الأخيرة) على كافة الجزيئات الصغيرة ومن ثم بناء نموذج مشابه لنموذج الذرة . من هنا تحديدا انطلقت كافة المصطلحات المواكبة للعولمة : مركز وأطراف شمال وجنوب مراكز الأطراف أطراف المراكز لنكتشف فى النهاية أن نموذج الذرة قد تم تطبيقه بحذافيره على المجتمعات البشرية بينما يدعى فوكوياما أن المجتمع البشرى سوف يبنى على أساس إلغاء الأفكار المسبقة ولن يخضع لنشاطات الهندسة الاجتماعية !

العَولمة ... وحدة العالم ... ثورة المعلومات والاتصالات ... الطابع المفتوح للعلوم الطبيعية ... التاريخ ما بعد

البشري ... الديمقراطية واقتصاد السوق ... الدولة الليبرالية - منظومة هامة ومتشابكة من المصطلحات التى تخدم على فكرة تطبيق نموذج الذرة على المجتمعات البشرية . ولكن أية مجتمعات بشرية ! الولايات المتحدة الأمريكية دول غرب أوروبا شرق أوروبا اليابان روسيا الصين أفريقيا جنوب شرق آسيا آسيا الوسطى القوقاز أمريكا اللاتينية هل حان الوقت لتصميم العالم ورسمه بناء على الأفكار المسبقة ليس فقط الأفكار المسبقة وإنما طبقا للنماذج التى تطرحها العلوم الطبيعية وخاصة الفيزياء والهندسة الوراثية إن فوكوياما بمراجعته لنفسه يعلن بوضوح ودقة عن الوجه الحقيقي للعولمة من وجهة نظر " النواة " . لا يوجد أحد على وجه الأرض ضد التطور والسلام والعدل الاجتماعى والتعاون ولكن يبدو أن الطرق المؤدية إلى ذلك مختلفة ومتعددة بل ومتناقضة فى كثير من الأحيان . فهل ما يقصده منظور الولايات المتحدة الأمريكية بالعولمة هو ما يقصده منظور جزر القمر أو ما يفهمه منظور الصومال وتشاد والكونغو ومصر سنغافورة وسوريا وقيرجيزستان والسعودية وكولومبيا وأرجواى !

إن فوكوياما مواطن الولايات المتحدة الأمريكية يرتكز فى مقولته عن نهاية التاريخ إلى العلوم الطبيعية ويحتكم إليها بشكل فاصل ونهائى . وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى فى مأزق شديد " الانحدار " . وكما وقعنا فى مأزق العولمة وصدام الحضارات ونهاية التاريخ (المقال الأول) : من حيث الوقوف مع أو ضد ومن حيث الطرح المغاير ومن حيث القدرة على التعامل مع هذه الأفكار على أرض الواقع - نجد أنفسنا فى مأزق اتخاذ موقف ضد العلم بشكل عام وضد العلوم الطبيعية على وجه الخصوص بل وضد المقولات الفلسفية عن وحدة العالم خاصة وأن فوكوياما يرتكز هذه المرة على أرضية العلوم الطبيعية ويضعنا أمام اختيار واحد فقط : اختيار ما يسمى بـ " المذهبية العلمية " كقاعدة أيديولوجية أو ديانة جديدة يتم هندسة العالم الجديد على أساسها .

ولنترك فوكوياما الآن إلى أن يعود إلينا بطرح علمى جديد ! ونتأمل الوضع العلمى العام وهو لا ينفصل طبعا عما طرحناه سابقا .

(٣) اسم القرن

هل القرن العشرون - هو القرن " الذرى " " النووى " " الفضائى " " الكمبيوترى " " الثورى " هل هو" قرن الجماهير " " قرن الرياضة " " قرن الاسبرنطيقا " " قرن السرعة " " قرن التكنولوجيا " قرن الثورة العلمية - التقنية " " قرن الحروب العالمية "

طبعا لا لأن هذه المسميات تنطوى على الكثير من الشك ليس فقط لأنها أصبحت شعارات لوسائل الإعلام ولكن أيضا لأنها تصف فقط الإنجازات الكلية والانهيارات الجزئية للقرن العشرين . فهل هناك شئ ما مشترك يمكن أن نعثر عليه بين تحطيم الذرة وغزو الفضاء أو بين تراجيديا الصهيونية والنازية وبين حماس وزخم الثورة الاجتماعية

إذا كانت هناك تسمية من هذه التسميات غير موفقة قليلا فسوف نجد أن العديد من التسميات الأخرى غير موفق على الإطلاق من زاوية الجمع بين التناقضات وخاصة التناقضات من حيث جدوى وضرر ما تعود عليه التسمية الواحدة .

قرن " الثورة " مثلا ينطبق على قرون ومجالات أخرى قبل القرن العشرين . فالثورات الوطنية والاجتماعية فى أمريكا وفرنسا - مثلا - كانت فى القرن الثامن عشر . وقبل القرن العشرين بدأت الثورة الكانطية فى الفلسفة تلك الثورة التى تأسست على الثورة العلمية التى قام بها كوبرنيكس فى القرن السادس عشر . وبالتالى فتسمية " قرن الثورة " لا تنطبق فقط على القرن العشرين . وإذا أمعنا النظر بعمق سنكتشف أن النصف الأول فقط من القرن

العشرين هو الذى يمكن أن تنطبق عليه التسمية وبشكل جزئى . أما النصف الثانى فهو على النقيض حيث قامت الانقلابات والثورات المضادة وتأسست المصطلحات المضادة فى الفنون والآداب والعلوم والسياسة والاقتصاد والإعلام. وبالطبع ففى بداية النصف الثانى قامت ثورات (محل خلاف) فيما سمى بالعالم الثالث بعد ذلك وكانت كلها ثورات ضد الاستعمار والهيمنة الأجنبية العسكرية بالدرجة الأولى ناهيك طبعا عن الانقلابات !

هناك من يقول أنه قرن الـ Power حيث تجمع الكلمة بين معان عديدة ومتنوعة فهى تعنى القوة والإمكانية والسلطة والجبروت والنفوذ والقدرة والصلاحية والدولة والطاقة والكهرباء . وينطلق أصحاب هذا الرأى من كون هذه التسمية تجمع بين جوانب النفوذ السياسى والتقنى .

إن كلمتى الدولة العظمى Super Power والمحطة الكهربائية Power Plant تملكان فى اللغة الإنجليزية جذرا مشتركا . وبالتالى فالقرن العشرين هو قرن الدولة العظمى والمحطة الكهربائية : طاقة السلطة السياسية التى تحاول عصر العالم كله بيد واحدة وسلطة الطاقة التقنية التى تحطم نواة الذرة وتبعث بالصواريخ إلى أبعد نقاط المنظومة الشمسية . القرن العشرون هو عصر تكنولوجيا السلطة وسلطة التكنولوجيا . والصيغة التى طرحها لينين فى بداية القرن : (السلطة السوفيتية + كهربة البلاد كلها = الشيوعية) لم تكن شعار التجربة الاشتراكية السوفيتية فقط وإنما ـ كما اتضح فيما بعد ـ أصبحت صيغة للقرن العشرين كله . مع الأخذ فى الاعتبار طبعا توقيت طرح الصيغ وظروف الطرح وشروطه وتوجهاته .

وإذا كان القرن العشرون هو قرن " الطاقة " فمعنى ذلك أنه أيضا عصر " الكتل " ـ الجماهير الواقعة بين حجرى الرحى والتى أصبحت بشكل أو بآخر مثل اللحم المفروم والتى تمثل الوسيلة والأداة والتى تملأ مقاعد متفرجى كرة القدم وقاعات السينما والسجون والمعتقلات والتى حصدتها الحروب والمجاعات والأمراض والتى تم تهجيرها من بلادها : فأصبحت هناك دول بكتل وكتل بلا دول . وإذا استخدمنا هنا صيغة إينشتاين التى تربط بين الكتلة والطاقة من أجل تفسير عملية تحطيم الكتل الفيزيائية والاجتماعية سنجد أن ذلك هو مصدر الطاقة الفعال الذى يغذى الإرادة نحو السلطة .

القرن الثامن عشر ـ كان عصر " التنوير" وعصر التفكير مع أنه لم يخل من عبادة الفرد ومن السذاجة والمثالية . ولكن التنوير كان هو الغالب بالمقارنة مع القرون السابقة .

القرن التاسع عشر ـ كان عصر " الواقعية " حيث قام بإصلاح الخطأ الذى كان موجودا فى القرن الثامن عشر : خطأ تغليب التفكير الساذج والمثالى والإيمان المطلق بهذا التفكير . وبالتالى ربط القرن التاسع عشر بين التفكير والواقع وجعل الأول فى خدمة الثانى . وفى إحدى رسائل بلينسكى أقسم أنه من أجل الواقعية يمكنه أن يضحى بحياته ولتذهب المثالية إلى الشيطان . من هنا أصبحت الرواية وعلم الجمال والشعر أمورا واقعية فى القرن التاسع عشر . هذا بالطبع إلى جوار بدايات العلوم الحديثة .

من الصعب إدراك كيف أنه من هذا الاستسلام الإرادى لكلمة " أنا موجود " يمكن العمل على إنماء كلمة " أنا أستطيع " . ولكن " أنا أستطيع " قد نمت فعليا من " أنا موجود " . والدليل على ذلك هو أن أكثر الحسابات والتدقيقات علمية أدت إلى نتيجة فى غاية الأهمية : معرفة الجوهر تقود إلى إمكانية السيطرة عليه . وقد حدث ذلك بالفعل بداية من الداروينية إلى الداروينية الاجتماعية ومن نظرية الانتقاء الطبيعى إلى أبسط الأفكار حول أنه طالما يكون البقاء للأقوى فمن الضرورى أن يكون هذا الأقوى هو أنا .

ولكن كما انتصر الفكر التنويرى الذى تطور إلى الواقعية على نفسه وتخلى عن الذهنية والسذاجة والمثالية

تجاوزت الثقافة الواقعية نفسها بسرعة وتخلت عن حرفيتها لصالح بناء إرادى للواقعية بدلا من الخضوع العبودى لها. وكما أوردنا سابقا فقد ظل نيتشه حتى آخر الفترات اليقظة فى حياته يتعذب من فكرة أنه مجرد كاتب بائس . وكان قد أدرك آنذاك أنه كان لابد أن يكون عالم أحياء ما بعد (أو ما فوق) داروني من أجل صناعة قومية من السادة وصناعة كائن حى ما بعد (أو ما فوق) بشرى . ولكن فكرة ما بعد أو ما فوق علم الأحياء هذه ظلت مجرد حلم أدبى (على الأقل ولحسن الحظ طبعا فى فترة حياة نيتشه) .

لقد تجاوز القرن العشرون ذلك العالم الذى كان من الممكن ألا يكون بحاجة إلى كل تلك القوة والقدرة والسيادة ... إلخ تلك التى تحدثنا عنها منذ قليل . وأصبح امتلاك الكرة الأرضية بمصادرها الطبيعية والبشرية أمرا مفيدا ومجديا ورائعا ولكنه مع ذلك ليس كافيا لذلك الخيال الجامح ولا لشهية السلطة وشهوتها ولا للعولمة المطابقة لنموذج الذرة ولا لغزو عوالم جديدة . إن هذه الكرة الصغيرة . كرتنا الأرضية ـ ضائعة فى أطراف الفضاء الكونى تائهة فى زاوية ما من الفراغ اللامحدود واللانهائى ذلك فى وقت واحد مع وجود مجرات عديدة أخرى لم يتم اكتشافها بعد ولا ندرى كيف سنخرج إليها : عبر الثقوب السوداء أم عن طريق الإلكترونات أم من خلال أرواحنا !!.

على ضوء ذلك ليس هناك شك فى أن القرن الحادى والعشرين سيكون حاصل ضرب قدراته وإمكانياته الخاصة به فى كل ما أنتجه القرن العشرون من قوى وإمكانيات وإنجازات . وليس هناك شك فى أن القدرة العلمية ـ التقنية والقدرة الاجتماعية ـ السياسية فى القرن الحادى والعشرين ستنمو وتتطور ولكن ليس أبدا من أجل غزو " عوالم جديدة " وأبعاد جديدة والولوج إليها بقدر ما هو " فتح ثغرة " فى الواقع . وبالرغم من أن محاولات " فتح الثغرة " فى الواقع لم تتوقف أبدا طوال القرن العشرين وإنما على العكس اتسعت ساحة الإدراك العلمى للواقع بالمقارنة مع القرن التاسع عشر . إلا أنه لا يمكننا القول بأن الواقعية سادت وتسيدت خلال القرن العشرين ولا يمكننا أن نقول بوجود التبجيل المطلق للواقع فى حد ذاته . وبالتالى لاتزال عملية إدراك الواقع مستمرة ولكن من أجل خدمة هدف آخر : خدمة السلطة والسيطرة . وعلى هذا النحو سوف يستمر تزايد القوة والقدرة فى القرن الحادى والعشرين ولكنها ستكون فى خدمة أهداف أخرى . ليس طبعا السلطة والسيطرة وليس امتلاك العالم وإنما الخروج إلى عوالم بديلة أو موازية . ولكن من الذى سيخرج وبأى أدوات

إن السلطة بوصولها إلى نهاية العالم أصبحت فى حاجة إلى أمر آخر إلى مضاعفة العوالم نفسها . زد على ذلك أنهم فى ميكانيكا الكم وميكانيكا الكمبيوتر يتحدثون فعليا عن تعدد العوالم الموازية وعن العوالم المحتملة والعوالم الممكنة والعوالم الافتراضية .

من هنا تبدأ صيغة جديدة ستنطلق من رحم القوة والقدرة . تلك الصيغة ستبدأ من تأكيد القوة والقدرة وتجاوزهما معا وفى وقت واحد . وستكون فى شكل إمكانية الخروج من حدود الواقع الموجود فى أحاسيسنا والمتعارف عليه والمألوف لدينا . وسوف تتحول كلمة " أنا أستطيع " متجاوزة نفسها إلى كلمة أخرى ضعيفة ولكنها لا نهائية : إلى كلمة " من الممكن " أو " من المحتمل " . وبدلا من القوة والقدرة سوف تحل الاحتمالية .

من الممكن أن يكون القرن الحادى والعشرون هو قرن الافتراضية ليس فقط بخصوص التقنيات الإلكترونية ـ الكمبيوترية وإنما أيضا بشأن مضاعفة الوسائل البديلة للوجود والنظريات الافتراضية والتجارب والمجتمعات . إن القدرة أو القوة هى الصيغة القصوى لفعالية الوجود (وهذه أبرز علامات أو كرامات نهاية القرن العشرين) . ولكن خلف حدود الفعالية تظهر نوعية جديدة : الاحتمالية (التى ستكون أبرز كرامات مرحلة الانتقال إلى القرن الحادى

والعشرين). وبينما تكون الفعالية محدودة بـ " أستطيع أن أفعل " تكون الاحتمالية هى الدخول إلى بعد آخر جديد : " ماذا يمكن أن أكون " - ولكن السعى إلى القوة فى هذه الحالة أو فى هذا الطور من التطور ينتج من جرا ، ندرة الحياة أو شح الوجود ومن عدم كفاية الواقع : هنا فقط واقع واحد وفى هذا الواقع الواحد لا يوجد سوى واحد فقط يمكنه أن يكون قويا على حساب الآخرين .

وهنا نتوقف قليلا لنتأمل اللوحة أو ببساطة لنطلق العنان لخيالنا بالمعنى العلمى والإيجابى بعيدا عن الشطحات والهلوسات ... إذا كان القرن الحادى والعشرون سوف يصبح قرن تعدد الأبعاد والقياسات وتراجع الثقة بالواقع والتوالد السريع للمهرجين والأفاقين وتنامى التزييف والتصنع والنسخ الإعلامى والمسخ الإعلامى أيضا والأشباه الإلكترونية والعوالم المتعددة - إذن فماذا يمكن أن يكون عليه القرن الثانى والعشرون وماذا يمكن أن نطلق عليه من التسميات وبأى كرامات سيهل علينا ! هذا طبعا إذا كنا سنستمر فى الوجود بأحاسيسنا العادية والمألوفة بالواقع !

الجزء الثالث :

رقم الإيداع : ١٨٤٠٦/ ٢٠٠١

الترقيم الدولى : ٦ ـ ١٠ ـ ٥٨٦٨ ـ ٩٧٧

هذا الكتاب

رؤية من الداخل لما حدث ولا يزال يحدث فى روسيا ما بعد السوفيتية حيث يعتمد الكاتب طريقة بسيطة تتراوح ما بين لغة الصحافة أحيانا والرؤية التحليلية أحيانا والاستعانة بالترجمة فى أحيان أخرى لطرح ما جرى خلال السنوات العشر الماضية فى روسيا . وهو أيضا جولة عامة وشاملة بين السياسة والثقافة والعلوم فى روسيا الجديدة .

هذا الكتاب محاولة لا ندعى كمالها بقدر قيمتها كرؤية من الداخل وعلاقة كل ذلك بما حدث ولا يزال يحدث ليس فقط فى روسيا ما بعد السوفيتية وإنما فى العالم كله . فما حدث قبل ١٠ سنوات فى الاتحاد السوفيتى وللاتحاد السوفيتى لا يمكن أن ينفصل بأى حال من الأحوال عما يحدث الآن فى الشرق الأوسط عموما وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة على وجه الخصوص وفى العراق والبلقان وأفغانستان وما سيحدث لاحقا فى آسيا الوسطى وحوض بحر قزوين .

الكتاب يركز على الأحداث فى روسيا ولكننا سنكتشف أن هذه الأحداث تنعكس شئنا أم أبينا على أبعد بقعة على الكرة الأرضية . وبالتالى تبرز بعض التساؤلات الطبيعية : أين المنطقة العربية بدولها المختلفة من كل ما يحدث فى روسيا والولايات المتحدة ومنطقة أوروبا ماذا يحدث بالضبط فى ذلك المنعطف التاريخى الحاد على كل المستويات وفى جميع الميادين والمجالات وإلى أين يتجه العالم مع تلك القفزة العلمية - التقنية الهائلة والشر بمعناه الفلسفى والإرهاب بكل معانيه : إرهاب الفرد وإرهاب السلطة وإرهاب الدولة



الكاتب

أشرف الصباغ

كاتب ومترجم وقاص يقيم بموسكو منذ عام ١٩٨٧

الأعمال الصادرة

- "قصيدة سرمدية فى حانة يزيد بن معاوية" مجموعة قصصية القاهرة دار النهر ١٩٩٦م .
- "خرابيش" مجموعة قصصية القاهرة دار النهر ١٩٩٧م .
- "العطش" مجموعة قصصية القاهرة دار سما ١٩٩٧م .
- مجموعة قصصية للكاتب الروسى فالنتين راسبوتين (ترجمة وتقديم) - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م .
- "المسرح الروسى بعد الانهيار" (مقالات نقدية - تأليف) - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٩م .
- "الابتزاز الصهيونى والهم الإنسانى" (ترجمة وإعداد وتقديم) - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩م .
- "الفنون التشكيلية فى جمهورية مصر العربية" (ترجمة - تقديم : مصطفى الرزاز) - هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٠م .
- "السرد والمسرح" (ترجمة وتقديم) - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠م .
- "المهلة الأخيرة" - رواية فالنتين راسبوتين (ترجمة وتقديم) - المجلس الأعلى للثقافة ...
- "جوانب أخرى من حياتهم" (ترجمة ... المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠م .
- "غواية إسرائيل : الصهيونية ... السوفيتى" - دار "حور" - القاهرة ...

تحت الطبع

- "ميلان كونديرا" (ترجمة وإعداد ... أوندراش) . المجلس الأعلى للثقافة ...
- "الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخ... وإعداد) - المجلس الأعلى للثقافة ...
- "يناير" - رواية (تأليف) - الهيئة المصرية العامة للكتاب.